
الحلم
الشيوعي
ع تار الطويلة
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

سقوط الحلم الشيوعي

عبد الستار الطويلة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

الاخراج الفنى : أميمة على أحمد

كتاب .. للحالمين ..

أهدى هـذا الكتاب الى الذين حلموا ٠٠ أو استهواهم الحلم النبيل وعاشـوا أضغاثه عشرات السنين ٠٠

أفاقوا منه على الانهيار ٠٠ وسيادة الدولار ٠٠ والقطب الواحد ٠٠ واليخوت ٠٠ والطائرات المذهبة ٠٠ والسفن٠٠ ولاس فيجاس٠٠ وأتلانتك سيتى ٠٠ فى مواجهـة الانحـدار الى القـاع ٠٠ مجاعات ٠٠ وضحايا سيول ٠٠ ومخلوقات الأحياء العشوائية ٠٠ والبطالة ٠٠ وتصـاعد الضـلال والفاشية ٠٠

وكأن الانســانية تعـود الى الوراء ٠٠ حتى ليبدو أن هذا هو حكم الأبدية ٠٠ فهـل تلد الأيام لا حلما جديدا بل طريقا لتحقيق الحلم التاريخى للانسان ٠٠ وهو العدل ؟ ٠٠

حلم ٠٠ قديم ؟!

نعم ٠٠ هى حلم ٠٠ وهى حلم جميل ٠٠

ولا يستطيع أعدى أعداء الشيوعية الا أن يعترفوا بهذه الحقيقة ٠٠ ولكنهم يفسرون معارضتهم أو عداءهم لها بأنها ضد الطبيعة البشرية ٠٠ وأنه مستحيل تطبيقها لأنها ضد « غريزة » التملك والرغبة فى الابتكار عند الانسان ٠ وكلمة الشيوعية تعنى اما المساواة بين الناس ٠٠ أو الرخاء المشترك بينهم جميعا ٠٠ وعندما انتقل المجتمع الى مرحلة الرأسمالية أصبحت تعنى شيوعية الملكية لوسائل الانتاج ٠٠ أى النقيض للملكية الفردية لتلك الوسائل من أرض وآلات ومصانع ٠٠

ولما كان الرأسماليون فى العادة يعتبرون المرأة وسيلة من وسائل الانتاج فى المجتمع ٠٠ فقد أدخلوا تعبير شيوعية النساء فى الموضوع بمعنى أن الدعوة لشيوعية الملكية العامة لوسائل الانتاج تتضمن فيما تتضمن الدعوة لشيوعية النساء بين الناس جميعا ٠٠ أى رفض أحادية العلاقة العاطفية والزواج بين واحد وواحدة فقط ٠٠

والشيوعية ليست حلما استحدثه كارل ماركس وانجلز ٠٠ فهذا فى الحقيقة منح لشرف ذلك الحلم لفريق واحد من المنظرين والمفكرين ٠٠ الذين يسمون بالماركسيين ٠٠

فهى حلم من عهد أفلاطون فيما نعلم حتى الآن من تراث الانسانية الذى وصلنا ٠٠

ثم جاء من قبل ماركس بسنوات سان سيمون ٠٠ وفورييه ٠٠ وروبرت أوين وغيرهم قبلهم وبعدهم كتب الكثيرون عن يوطوبيا ٠٠ أى المجتمع المثالى كما تصوره معبرا عن نوع من أنواع الشيوعية ٠٠ ولو شيوعية السعادة بخلوه من التناقضات الاجتماعية الصارخة وان كان أغلبهم لم يربط بين « شيوعيته » ووسائل الانتاج فى المجتمع ـ اذ الوحيد

الذى فعل ذلك هو كارل ماركس ورفيقه فردريك انجلز ٠٠ ثم بعدهما لينين والمنظرين الماركسيين الكبار ٠٠ سواء السوفيت أو غير السوفيت ٠٠

وعندما نقول أن الشيوعية حلم جميل ٠٠ نقول ذلك لأنه ليس هناك انسان يستطيع أن يرفض جهارا أن يتساوى الناس ٠٠ ويتحررون جميعا من الفقر ٠٠ ويعيشون فى تآخ كأنهم أسرة كبيرة واحدة ٠٠ تلغى فيها الحواجز بين الأمم والشعوب وتنتهى فيما بينها الحروب بل تذوب كلها فيما بعد فى أمة واحدة تعيش فى بحبوحة من العيش على ظهر هذا الكوكب من كواكب المجموعة الشمسية كما نسميها فى الكون الذى نعرفه ٠٠ ولا تنتهى الحروب فى ذلك العالم فقط بل تختفى الجريمة والتناقضات الاجتماعية جميعا ما دام المجتمع قادرا على تلبية احتياجات أبنائه جميعا ٠٠ واذا ما انعدمت الحرب ٠٠ واختفت الجريمة لم تعد هناك ضرورة للابقاء على أداتى القهر فى الدولة وهما الجيش والشرطة ٠٠ وبالتالى تذبل الدولة بمعناها المعروف حاليا لتتحول الى أجهزة لتنظيم الانتاج وتوزيعه وترقية العلوم واسعاد الانسان ٠٠

وسيكون من بين سعادة هذا الانسان أنه وهو يعمل مجرد ساعات قليلة فى اليوم التفرغ لاشباع هواياته وعلى رأسها فى معظم الحالات تأمل الطبيعة من حوله والحلم بالسيطرة عليها ذات يوم ٠٠ أو على الأقل بعض ظواهرها ٠٠ بعد أن زالت من أمامه أية معوقات تقود حركته وانطلاق عقله الى أرحب الآفاق فى حرية كاملة !!

هكذا قدم الحالمون القدامى على اختلاف ميولهم وعقولهم الشيوعية للعالم ولخصوها فى شعار مكثف « من كل حسب قدرته ٠ ولكل حسب حاجته » ٠

وتخيلوا أنه سيأتى يوم يجىء فيه الانسان متطوعا « لجهاز تنظيم الانتاج » فى المجتمع ويقول : لقد أنتجت بما قيمته مائة دولار فى اليوم لكنى أحتاج فقط الى ستين ٠٠ فخذوا الأربعين لتعطوها لأخى الانسان الآخر الذى لم يستطيع انتاج ما قيمته أكثر من ثلاثين دولارا وهو فى حاجة الى سبعين ؟!

وأذكر أننا ونحن أطفال صغار ننتمى الى أصول اجتماعية مختلفة ونحن فى الشارع أو المدرسة ٠٠ كان بعضنا يطرح السؤال التالى : هوه ليه الناس مش زى بعض : لماذا لا يكون البشر متساويين ؟!

وأعتقد لو أنه كان هناك « ابن ملك » فيما بيننا ونحن أطفال لطرح نفس التساؤلات !

وفكرة المساواة بين الناس لا يوجد دين ظهر فى العالم ٠٠ الا وبشر

بها ‥ وان كان لم يبشر بالمساواة الاقتصادية أى فى ملكية وسـائل الانتاج ‥ لأن جميع الأديان ظهرت فى المجتمعات العبودية وهو وقت مبكر جدا لظهور مثل تلك الدعوة التى لم يكن يناسبها الا مرحلة التطور العبودى ثم الاقطاعى كما حدث بالفعل ‥

ويتميز كارل ماركس عن سـائر الحالمين بالشيوعية ‥ فى أنه استحدث نظرية سماها بالاشتراكية العلمية باعتبار أن ما سبقه الغير الى وضع نظريات اشـتراكية انما كانت نوعا من الاشـتراكية الخيالية أو الطوبائية ‥ وقال ماركس ان تطبيق تلك الاشتراكية العلمية شرط ضرورى لبلوغ الحلم الشيوعى المنشود ‥ ووضع للاشتراكية شعارا هو من « كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » ٠

وكان يهدف من تلك الاشتراكية الى الغـاء الاسـتغلال ‥ الذى يمارسه الرأسماليون على العمال وسـائر طبقات المجتمع ‥ وكان ذلك الالغاء يعنى الغاء الطبقات فى المجتمع ‥ وتحويله الى طبقة واحدة من العاملين ‥ يشتركون فى ملكية وسائل الانتاج فيه ‥ عن طريق دولة تمثل مصالحهم وخاصة الطبقة العاملة ‥

وتصور ماركس أن ذلك سيؤدى الى اطلاق قوى الانتاج فى المجتمع ‥ بحيث تحدث وفرة فيه ‥ اذ أن كل القادرين على العمل سيعملون ما داموا شركاء فى ملكية وسائل الانتاج ٠

كما تصور ماركس أن الناس سيعيشون فى مستوى مرتفع متحررين من الخوف من البطالة والفقر والقهر ‥ فيتغير تركيبهم النفسى وتكوينهم الأيدولوجى وتذبل الرغبات الأنانية من نفوسهم لتتحول الى مشاعر جماعية متعاطفة على طريقته ويؤثرون بهم أنفسهم ولو كان بهم خصاصا ‥ وهنا يصبح العمل شيئا لذيذا يقبل عليه الناس بفرح وابتهاج باعتباره واجبا اجتماعيا لصالح الكافة ‥ ومحاطا بضمانات تيسره ‥

واذا ما حدث هذا التغير الفوقى فى عقلية الانسان وأخلاقه وقيمه ‥ مع الوفرة فى الانتاج التى سيوفرهـا ازالة أى عائق أمام أى اختراع لزيادته يمكن تطبيق الشيوعية التى تعتمد على تنازل الأكثر انتاجا للأقل انتاجا بحكم ظروف متعددة !

هكذا باختصار شديد فكر منظرو الشيوعية ومنظرها الأكبر فى أمر دعوتهم وقد لخصنا اطارها وقواعدها الأساسية ‥

وأوضحنا أن الطريق اليها يمر بمرحلة أساسية وهى الاشتراكية ‥

وبالمناسبة أن ماركس عندما سئل : ماذا بعد الشيوعية أى ما هى المرحلة التاريخية من تطور الانسان التى ستلى المرحلة الشيوعية ٠

فقال لا أدرى ‥

وقد ظلت أفكار ماركس عن الاشتراكية فالشيوعية مجرد أدبيات مكتوبة فى كتب على رأسها البيان الشيوعى الذى لخص نظريته تلخيصا مكثفا ٠٠ ومؤلفاته الأخرى التى على رأسها كتاب رأس المال الذى اكتسب شهرة عالمية مدوية لعدة أسباب :

أنه كان أول تحليل علمى للنظام الرأسمالى الذى كانت الشكوى قد بدأت منه بعد انتصار الثورة الفرنسية ببضعة عقود ٠٠

ثانيا : أنه قد قدم للعالم لأول مرة نظرية فائض القيمة التى فسر بها عملية استغلال الرأسمالى للعامل ٠٠ مهما ارتفع أجره ٠

كما وضع مقياسا لقياس قيمة العمل الذى يقوم به أى عمل وان كان قد سبقه الى ذلك علماء رأسماليون أخرون ولكنهم لم يكونوا فى مثل دقته ٠

ثالثا : أنه قال بأن التاريخ يتطور باستمرار وأنه مجموعة من المراحل التاريخية المتتالية ٠٠ وأن العـامل الرئيسى فى التطور هو التغير فى وسائل وعلاقات الانتاج ٠ وبالتالى نفى أن الرأسمالية هى مرحلة أبدية ٠٠ بل نفى أن النظام الطبقى نظام أبدى بل سينزاح من الطريق الى نظام لا طبقى ٠

رابعا : أنه أكد أن المرحلة الاشتراكية التى يلغى فيها النظام الطبقى مرحلة حتمية ٠

خامسا : أنه أول من لفت نظر الطبقة العاملة التى وصفها بأنها هى الأساسية فى وقوع الاضطهاد والاستغلال عليهـا بأنه من الضرورى أن تنظم نفسها سياسيا فى حزب طليعى مهمته الأساسية الاستيلاء على الحكم ولو بالقوة التى ستكون رد فعل لمقاومة الدولة الرأسمالية له بحكم ما سماه بقوانين الصراع الطبقى ٠

سادسا : أنه قال بأن النظام الاشتراكى الذى ستحققه الطبقة العاملة سيحقق لها الديمقراطية السياسية الحقيقية التى طالما حرمت منها بفعل القهر الذى تمارسه الدولة الرأسمالية ٠

ويلاحظ هنا أن كارل ماركس عاش فى مرحلة من مراحل الرأسمالية فى القرن التاسع عشر كان الرأسماليون يجبرون العمال وخاصة النساء والأطفال على العمل ١٢ ساعة فى اليوم فى ظروف تخلو من ظروف الأمن الصناعى ٠٠ وبأجور قليلة ٠٠

ولم تكن هناك مكاتب عمل ولا ضمانات اجتماعية ولا تأمين للبطالة ولا علاج صحى ٠٠

وكانت الرأسمالية « متعودة » على كبت العمال وضربهم فى مقابل أى حركة مضادة ٠٠ ويذكر أنه لما حدثت « كوميونة باريس » أى عندما استولى العمال على السلطة فى باريس وداهمهم الجيش الألمانى والجيش الفرنسى معا وهزموهم ٠٠ أن سيدات البرجوازية الفرنسية كن يخرجن الى الشوارع بشمسياتهن المدببة ليتسلين بغرسها فى عيون آلاف العمال الذين كانوا جثثا وجرحى ضـــحايا لذلك الهجـوم ويعدن للتحدث فى صالوناتهن عن العدد الذى تمكن من فقأ أعينه اليوم ٠٠ وهكذا ٠٠٠

أى كانت الرأسمالية الغربية فى ذلك الحين غير الرأسمالية الغربية اليوم ٠٠ انها كانت شيئا قريبا من الطبقة الحاكمة فى بعض بلاد العالم الثالث المتخلفة مثل رواندا أو هابيتى ! ٠٠

وجاء لينين فى روسيا القيصرية ٠٠٠ وقد قرأ مثل غير من المثقفين الأوربيين ما جاء به كارل ماركس ٠٠ واقتنع به طريقـا للخلاص فى بلاده ٠٠ وأسس حزبا ٠٠ وخاض نضالا طويلا حتى استطاع أن يستولى على السلطة بواسطة حزبه هذا على رأس جماهير روسيا ٠٠ ويقيم أول دولة تحقق مرحلة التطور التاريخى المنشودة ٠٠ وهى الاشتراكية التى توصل الى المرحلة التالية : الشيوعية ٠٠

وتبع لينين زعمـاء آخرون ٠٠ وجاء وقت كان فيه أكثر من ثلث العالم يشكل منظومة الدول الاشتراكية أو المعسكر الاشتراكى ٠ ثم بعد سـبعين عاما من تأسيس أول دولة اشـتراكية فى التاريخ التى سميت باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (الاتحاد السوفيتى) ٠٠ بدأ ذلك المعسكر يتصدع ٠٠ لا بانفصال دوله عن بعضها البعض ٠٠ بل بتصدع نظامه السياسى والاقتصادى الاشتراكى واحدة وراء الأخرى ٠٠ حتى انهارت الاشتراكية تمـاما من العـالم وتكاد تختفى من البقع التى ما زالت فيها ٠٠

بل حتى فى هذه البقع هناك تسليم كامل أنها نظام لا يصلح قط لتطوير حال البشر ٠٠

وبانهيار الاشتراكية ٠٠ انهـــار الحلم الشـيوعى ٠٠ فلا مرحلة شيوعية دون المرور بالاشتراكية ٠٠

بل الذى حدث شىء غريب ٠٠ وغير متوقع ٠٠ لقد استدار النظام الاشتراكى المنهار ليتحول الى الرأسمالية محاولا العودة اليها من جديد ٠ وأصبح مبشرو الاشتراكية يبشرون بأن النظام الرأسمالى الذى يسمونه على استحياء أحيانا « اقتصاد السوق الحر » هو الأمل فى الانقاذ ٠٠

سقط الحلم الشيوعى اذن ·· بانهيار الاشتراكية ·· ولقد صدم جميع الاشتراكيين فى العالم ·· ولم يستطيعوا أن يفسروا ما حدث على الفور ·· فقد كانت عملية الانهيار تتم بسرعة وفى تتابع وتلاحق مذهلين ··

وفى البداية لم يتصور البعض أنه انهيار ·· فسموه الزلزال ·· ولكن الحقيقة أنه كان دمارا واندثارا ··

انهار كما انهارت الامبراطورية الرومانية ولكن الانهيار اليوم كان أسرع وأكثر حسما ، وفقا لنمو معدلات التطور والتغيير فى كل ظواهر النشاط الانسانى بكافة أنواعه فى الحقبة التاريخية المعاصرة ··

لقد انهار النظام الاشتراكى الذى بسط على أوربا الشرقية ما بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٨ ·

تلاشت الأنظمة تماما ·· واستبعد من الحكم حكام حكموا لأكثر من أربعين عاما · وهو استبعاد لم يتم بقوة السلاح أو الانقلاب ·

انما أصبح الناس فوجدوا أنفسهم بعد عام فى عالم آخر ·· ونظام آخر ·· وهم لم يجدوه فجأة بل هم بالتأكيد صانعوه ومحطموا النظام الذى سبقه ··

ولم يعودوا يرغبون فى نظام اسمه الاشتراكية ··

ويتسابقون فى همة ونشاط فى عملية تاريخية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ وهى الهدم الشامل لعالم بأسره كان يعتبر تقدميا ·· واقتلاع جذوره دون رحمة ··

ولم يعد يرفرف هناك علم يحمل المنجل والمطرقة أو حتى النجمة الحمراء ·· اذ تدوس الجماهير مثل تلك الأعلام فى غيظ وازدراء ··

وأسقطت تماثيل فلاديمير اليتش لينين من كل مكان ·· فلم يعد رمزا للتبشير بتحرير العمال والفلاحين وبناء مجتمع الرفاهية والسعادة والمساواة بل رمزا للعبودية والفقر والقهر معا ··

وليس ببعيد ذلك اليوم الذى سيخرج فيه لينين من قبره التاريخى ليحرق كما حدث لستالين ·· فى الوقت الذى تبقى فيه النظم الجديدة تماثيل للملوك وقياصرة ساموها خسف العذاب فى مراحل تاريخية سابقة !!

ولقد توارى أعضاء الأحزاب الشيوعية فى شوارع وحارات جانبية فى شقق صغيرة بعد المجمعات والمبانى الشاهقة الفاخرة فى أهم الشوارع

والميادين ٠٠ جنبا الى جنب تملك « الأبعديات والوسيات » التى تساوى بلايين الدولارات فى كل مكان ٠٠

كيف حدث هذا ؟ ولمــاذا ؟ ٠٠

السؤال مطروح ويلح على عقول الملايين فى كل مكان ٠٠

والناس فى العالم الثالث٠٠ يفيقون بعد هذا الانهيار والدمار ليجدوا أنفسهم فى وضــع لا يحسدون عليه ٠٠ حيث هم فريســة عالم القطب الواحد ٠٠ الولايات المتحدة ٠٠ وما أدراك ما الولايات المتحدة ذات الرصيد المروع لدى كل كل اشتراكى أو متعاطف مع الاشتراكية بل مع الوطنية ذاتهــا ؟!

والسؤال الذى تبادر الى الأذهان ٠٠ حتى من خصوم الاشتراكية ٠٠ كيف ٠٠ ؟ ولمــاذا ؟ ٠٠

كيف لفظت جماهير البلدان الاشتراكية ذلك النظام بل تبارت فى رجمه ووأده ؟

لماذا فشلت الاشتراكية ؟

والغريب أن كثيرين ممن كانوا أعداء للاشتراكية أصبحوا يترحمون على الاتحاد السوفيتى اليوم ويتمنون أن لو لم يسقط ٠٠ بعد اذ يرون الأسلوب « الحضارى الأخوى الانسانى » الذى يعامل به القطب الأعظــم (الولايات المتحدة) شعوب العالم بعد اختفاء الاتحاد السوفيتى ٠٠

ان خصوم الاشتراكية والاتحاد السوفيتى من الوطنيين فى العــالم الثالث وأنصــار تحرير الانسان وحريته ٠٠ يتحسرون على اختفاء الاتحاد السوفيتى من المسرح السياسى العالمى لأنهم يرون كيف حولت الولايات المتحدة العالم الى دغل كبير تقــوم فيه بدور الحيــوان المفترس الشرس الأول ٠٠ دون أى قيم أو معايير أو مقاييس وهو ما يعبر عنه الكثيرون بمصطلح « الكيل بمكيالين » ٠٠

هؤلاء أيضا رغم كراهيتهم للاشتراكيين التى تضار منها مصــالحهم يتساءلون لماذا السقوط والانهيار ؟

هل العيب فى النظرية الاشتراكية ذاتها ٠٠ أى فى مبادئها وأسسها النظرية أو بعض تلك المبادىء على الأقل ؟

أم العيب عيب فى التطبيق الاشتراكى ؟ ٠٠

ومنذ بدأ ذلك الخطأ ٠٠ وما مداه ٠٠

واذا كان العيب فى التطبيق فما هى احتمالات الاصلاح للوصول الى التطبيق السليم وأين يوجد فى العالم نموذج لذلك التطبيق السليم ؟

ولماذا كانت الرأسمالية هى البديل الوحيد لفشل الاشتراكية ؟ وما هى القوى السياسية والاقتصادية التى صنعت التحول ..

وأخيرا ما هو المستقبل .. هل الرأسمالية هى نهاية العالم ؟ ..

هل محكوم على البشرية الى الأبد أن يظل بعض الناس القلائل يركبون طائرات بمقابض ذهبية ودينارات ذهب ويخوت مرفهة تساوى عشرات الملايين .. ويلعبون القمار بعشرات الملايين .. وثرواتهم تكاد تفرش الطريق بين نيويورك والقاهرة بالدولارات فئة مائة دولار (٨ آلاف كيلو متر) ..

ويسيطر هؤلاء الناس حتى على عالم الجريمة فيغتالون من يريدون ويخفون آثار جريمة آخرين .. ويلعبون بالسلاح يشترونه .. ويثيرون الحروب ليموت فيها الآلاف ومئات الألوف ليكسبوا هم مئات الملايين .. هل كتب على كوكب الأرض أن تحكمه بضع عائلات قليلة لها جيوش من العملاء والمنتفعين ..

بينما على الوجه المقابل تموت الملايين من الحروب الأهلية والكوليرا والفقر .. والايدز .. والتيفود والبطالة والمجاعة ..

هل محكوم على البشر أن يظل كوكب الأرض جحيما للأغلبية الساحقة منهم بينما يمكن أن يكون هو الجنة التى وعد بها المتقون فى الأديان .. الى الأبد ؟ ..

هل لن يخلص البشرية من هذا العذاب الا أن يلفحها ذنب مذنب .. أو يصطدم بها نيزك جبار فيقضى عليها بأن يحطمها تحطيما وتصبح كأن لم تكن مجرد أجسام مثل الكويكبات هائمة فى الفضاء ولا من شاف ولا من درى فى هذا الكون اللانهائى ؟!

فى هذا الكتاب سنحاول الاجابة على هذه الأسئلة جميعا بأسلوب أبعد ما يمكن عن الأسلوب الأكاديمى المعقد .. فالقضية قضية شعوب .. حلمت طويلا بالمساواة .. والحياة فى رغد من العيش .. فلابد أن تعرف كل شىء بأبسط الأساليب ، وأكثرها اقترابا الى الفهم والوعى ..

وكما عودنا القارىء فى كل كتاباتنا عن كل القضايا الشائكة أننا سنلتزم بالموضوعية والصدق .. متجاوزين أى مشاعر شخصية وأحلام ذاتية ..

فمن بين ما خلف انهيار الاشتراكية وسقوط الحلم الشيوعى الجميل .. نمو النزعة الذاتية لدى الكثيرين من المفكرين والمناضلين الثوريين كرد فعل لما قدموه من تضحيات نبيلة .. ولما تأرقت بهم لياليهم

من أجل تحقيق حلم السعادة لشعوبهم ‥ فاختلط عليهم الواقع بالأماني الطيبة ‥ فرفضوا تصديق ما يجرى أمام عيونهم ‥ وتصوروا أن الاشتراكية كائن حي لا يموت ! ‥ ولجئوا الى التفسير البسيط أن النظرية صح ‥ لكن الخطأ في التطبيق ‥

وبهذا استراحوا ‥ وبرروا تضحياتهم ‥ وعاشوا على أمل في انتظار « جودو » الذي سيطبق جيدا ‥

ولكن الحقيقة غير هذا تماما ‥ فكما سيرى القارىء أن النظرية نفسها كان ثمة أخطاء في صلب قواعدها وأسسها ‥ وكان هذا هو العامل الحقيقي في الانهيار والسقوط ‥ اذ بناء على الأسس النظرية الخاطئة حدث التطبيق السيىء في معظم الأحوال ‥

وسنعرض في الفصل القادم لنبين كيف وضع لينين أفكار ماركس النظرية موضع التطبيق ‥ أي كيف قامت أول ثورة اشتراكية في العالم ‥ باختصار شديد حتى يستطيع القارىء متابعة ما سنقدمه من فصول بعد ذلك ‥

أول خطوة ٠٠ للحلم فى الواقع ؟!

فى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة صباح يوم ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٧ (٧ نوفمبر فى التوقيت الجديد) أطلقت المدمرة « أورورا » من أسطول بحر البلطيق بناء على اشارة من قلعة بيتروبول فى بتروجراد (لينينجراد بعد ذلك) طلقة فى اتجاه قصر الشتاء حيث كانت المدينة مقرا للحكومة المؤقتة بعد فبراير ١٩١٧ ٠

وكانت تلك الطلقة واحدا من عدة أعمال ثورية حصلت فى المدينة أدت الى اكتساح الجماهير الروسية قصر الشتاء هذا لتسقط قلاع النظام الرجعى العفن الذى كانت تمثله القيصرية ومن بعدها الحكومة المؤقتة التى جاءت نتيجة ثورة فبراير ١٩١٧ ٠

وفى السابع من نوفمبر حدث الزلزال ٠٠ الذى رج العالم كله حينذاك وجاء عنيفا بعد ذلك فى عدة عمليات ثورية فى بلاد أخرى أدت الى وجود ما يسمى بالعالم الاشتراكى فى أيامنا هذه ٠٠

لقد بدأ عصر جديد تماما على البشرية٠٠عصر على نقيض كل العصور التى سبقت أحداث ثورة أكتوبر فى روسيا ٠

فالنظام الاستغلالى الذى كان يبدو نظاما طبيعيا وأبديا انتهى ٠٠ وتأكد امكان ازالته وتحقيق مساواة اجتماعية فعلية بين الناس بعد الغاء الاستغلال ٠

وقيم النظام الطبقى ذاته انكشفت أكثر ٠٠ وبدأت تتداعى تحت ضربات القيم الجديدة التى حملها المجتمع الجديد ٠

هكذا قدم قادة الثورة الجديدة ثورتهم للعالم ٠٠ ويتحمس لهم ملايين العمال والشاكين من القهر وتصوروا أن نهاية لبؤسهم قد جاءت وأنهم سيحكمون العالم ! ٠٠

ولأول مرة يحدث في العلاقات الدولية تطور خطير ·· فبعد أن كان السمك الكبير يأكل السمك الصغير وتجسد ذلك في الاستعمار والقهر القومي من جانب الدول الكبيرة للشعوب في آسيا وافريقيا وأمريكا الجنوبية ·· بعد هذا وجدنا لأول مرة أسلوبا مختلفا تماما من جانب دولة كبرى بالنسبة للقوميات والشعوب الأخرى) ·

اذ تتصرف تلك الدولة الكبرى (الدولة السوفيتية الجديدة) لا بطريقة نبذ الاستعمار والقهر القومي فقط بل انها تقدم المساعدة لكل الشعوب التي تناضل ضد القهر القومي ·

ودقت الطبول في كل مكان تبشر بأنه كما قضت الثورة البلشفية على استغلال الانسان لأخيه الانسان داخل روسيا السوفيتية ·· فانها قضت على استغلال الشعوب والقوميات لغيرها من الشعوب والقوميات ·· وقد حدث ذلك فعلا بالنسبة للامبراطورية القيصرية الروسية··اذ أعطيت القوميات المقهورة فيها حق تقرير المصير··كما حدث بالنسبة لكل شعوب المستعمرات في أنحاء العالم اذ وجدت منذ يوم استولى البلاشفة على الحكم في النظام الجديد نصيرا ومؤيدا ومعينا ··

والثورة السوفيتية التي حدثت في السابع من نوفمبر (٢٥ أكتوبر ١٩١٧ بالتوقيت القديم) كانت نتاجا طبيعيا لثورات الشعب الروسي سابقا ·· ولأوضاع اجتماعية غاية في التدهور والسوء ··

وهي كانت ثورة شعبية مائة في المائة ·· وليست عملا انقلابيا على الاطلاق كما يحاول بعض أعداء الاشتراكية أن يوهموا الناس كذبا ·· اذ يصورون الأمر كما لو كانت مجموعات غاية في التنظيم من الحزب الشيوعي السري بقيادة زعيم بارع في التنظيم قد استطاعت أن تستولي على السلطة بأسلوب انقلابي بعيدا عن الشعب ودون مشاركة منه ؟ ··

ولو كان ذلك هو ما حدث لما نجحت الثورة على الاطلاق ·· ربما كان ممكنا أن يستولي « الانقلابيون » على السلطة في العاصمة بتروجراد ·· ولكن ما كان بوسعهم أن يستولوا عليها في كل روسيا الواسعة المترامية الأطراف (سدس مساحة العالم) · بل ما كان بوسعهم أن يقاوموا حربا على ثلاث جبهات ·· جبهة الحرب العالمية الأولى ·· حيث نجحوا في عقد صلح مع ألمانيا··بعد أن اطمأنت ألمانيا الى استيلائهم على السلطة وقدرتهم على تنفيذ الصلح ·

● جبهة الحرب الأهلية : وهي حرب ضروس ضد كل خصوم وأعداء الثورة من الداخل الذين كانوا مجهزين بجيوش وأسلحة وتأييد من الخارج مادي ومعنوي ·

● ثم جبهة حرب التدخل حيث وجهت ٢٢ دولة جيوشها وفرقا منها لمحاربة الثورة الجديدة فى محاولة يائسة من الرأسمالية العالمية للقضاء على أول ثورة ناجحة فى التاريخ هدمت قلاعها فى بقعة كبيرة من الكرة الأرضية بل امبراطورية شاسعة كانت من بين دول العالم الكبرى التى اقتسمته فى تلك الحقبة من الزمان .

لقد كانوا يأملون فى تدميرها وتحطيمها كما نجحوا فى تحطيم « كوميونة باريس » أول محاولة عمالية للاستيلاء على السلطة فى التاريخ . ولو لم تكن الثورة الاشتراكية ثورة شعبية مائة فى المائة لما أمكنها أن تواجه كل تلك التحديات بل وتخرج منها منتصرة ظافرة ..

والشعب الروسى عريق فى ثوريته .. وثوراته العديدة خلقت تقاليد وأعراف ثورية لهذا الشعب جعلت منه شعبا صامدا قويا فى مواجهة المكاره . واذا ما عدنا الى التاريخ الحديث فقط لوجدنا أنه حدثت فى روسيا القيصرية ثورتان قبل ثورة أكتوبر الاشتراكية .

الثورة الأولى عام ١٩٠٥ .. ففى ٩ يناير ١٩٠٥ تجمعت آلاف الجماهير وسارت فى شارع « نفسكى » فى بتروجراد متجهة الى قصر الشتاء يطالبون القيصر بتحسين حياتهم .. فأطلق الحرس القيصرى النار عليهم وهم يتحركون فوق جسر نهر مويكا .. ثم فى ميدان فرتسوفايا أمام قصر الشتاء ..

وسمى ذلك اليوم بويم الأحد الدامى ..

وفى فبراير ١٩١٧ سارت الجماهير مرة أخرى فى شارع « نفسكى » نفسه وقد أنهكتها الحرب الامبريالية (الحرب العالمية الأولى وسميت امبريالية لأنها كانت بين دول استعمارية تبغى اعادة تقسيم العالم ونهب شعوبه فيما بينها) .

كان النظام القيصرى وهو نظام « نصف اقطاعى .. نصف استعمارى » . قد تفسخ واختلت الحياة الاقتصادية الروسية اختلالا عظيما بسبب الحرب بالذات . وجاع الشعب وجاع الجيش معا .. وأصيب بهزائم متتالية كان أبرزها انسحاب هائل للجيش عام ١٩١٥ على طول جبهة القتال ... وكان انسحابا غير منظم .. ساهم فى دمار الجيش وتحطيم معنوياته ..

وبدا تفسخ النظام واضحا عندما رفض الجنود اطلاق النار على الجماهير التى زحفت فى شارع نفسكى فى فبراير ١٩١٧ .

ونجحت الثورة وسقطت القيصرية ·· وأعلنت جمهورية روسيا ·· وشكلت حكومة مؤقتة ··

وكان الحزب الشيوعى بقيادة لينين قد شارك فى تلك الثورة ·· ولكن الحزب كان منقسما بين فريقين ذوى اتجاهين سياسيين مختلفين تماما ·· المناشفة والبلاشفة وذلك منذ عام ١٩٠٣ حيث أصبح الحزب حزبين مختلفين تماما من الناحية العملية ·

وكانت هناك أحزابا سياسية أخرى منها حزب « الكاديت » ، حزب البرجوازية الروسية وحزب الاشتراكيين الثوريين الذى كان بدوره منقسما الى عدة تيارات متناقضة متصارعة ·

وفى الأشهر الأولى للثورة حصل تحسن فى الأوضاع الداخلية وأبرز تحسن حدث فى مجال الديمقراطية والحريات السياسية ·· حيث حدث تحرك جماهيرى لم يسبق له مثيل فى البلاد التى كبلتها قيود القيصرية وارهابها المستمر ··

على أن التناقض ظهر بعد فترة قصيرة بين قوى الثورة ·· اذ كانت الطبقات المالكة وبالذات البرجوازية الروسية تريدها ثورة على غرار الثورة الفرنسية · أى ثورة برجوازية محضة تنهى علاقات الاستغلال الاقطاعى وتستبدلها باستغلال رأسمالى ·

كان هدف تلك الطبقات انتزاع السلطة من القيصر كما انتزعت البرجوازية الفرنسية السلطة من لويس السادس عشر · وتقيم مجرد جمهورية دستورية فى روسيا على غرار ما هو موجود فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا ··

ولكن الجماهير الشعبية التى كان حزب لينين قد عبأ أقساما كبيرة منها كانت تريد شيئا آخر ··

كانت تريد من ثورة فبراير أن تكون ثورة سياسية واجتماعية معا ·· ثورة ديمقراطية فى المجالين السياسى والاقتصادى ··

ان عمال روسيا قد استشهد المئات منهم برصاص القيصرية · فى سجون أوديسا وبتروجراد وريجا وموسكو ·· ونفى الألوف منهم الى الصحراء الرملية والصحراء الجليدية فى سيبيريا ··

ان العامل الروسى اكتسب ثورية عميقة رغم أنه لا يميل بطبعه الى العنف ·· كما أنه ليس مصابا بالجمود العقائدى فقد كافح وسط تيارات عديدة كانت تعج بها الساحة السياسية فى روسيا القيصرية بمثل ما لم

يحدث فى أى دولة أوروبية غيرها ٠٠ والعمال الروس قد عرفوا حرب المتاريس واستخدموها قبل أى شعب من الشعوب بحكم الثورات والهبات التى قاموا بها ضد القهر والظلم ٠

ولم يكن العمال الروس جهلة بحال من الأحوال ٠٠ صحيح أنهم لم يمارسوا الديمقراطية التى مارسها زملاؤهم فى بلاد الغرب حينـذاك لكنهم مع ذلك تمرسوا كما قلنا فى النضال ٠٠ وكان سهلا أن ينتظموا فى منظمات جماهيرية ضخمة ٠٠ وليس أدل على ذلك من أنه أمكن تنظيم ٢١ مليون عضو فى جمعيات الاستهلاك التعاونية الروسية عام ١٩١٧ ٠

ومن هنـــا لم يكن صعبـا تنظيم الجماهـير الروسية الغفـيرة فى السوفيتيات التى كانت أداة الاستيلاء على السلطة فيما بعد ٠٠

وهى تنظيمات تكشف عن القدرة والعبقرية التنظيمية لدى الجماهير الروسية ٠ كما أن تلك السوفيتات كانت مدارس نظرية رائعة لتثقيف الشعب بالاشتراكية بمثل ما لم يحدث لشعب من الشعوب ٠٠

ففى داخـل تلك السوفيتيـات كانت تجـرى عمليـــات الصراع الأيديولوجى الحادة بين القوى المختلفـة المتناقضة المعـادية للاشتراكية والمؤيدة لها ٠٠ ويحكى التاريخ فصولا رائعة فى هذا المجال ٠٠ لا مثيل لها فى أى مجالس شعبية لا فى التاريخ القديم ولا فى التاريـخ الحديث كله ٠٠

وعندما يتحدث الماركسيون فى العالم عن الصراع الطبقى ٠٠ فان ما دار فى تلك الســوفيتيات من صراع فكرى كان تأكيدا لهذه النظرية وضمنها ٠٠ اذ تناقضت المصالح الطبقية وتلاطمت بل وتصادمت تحت سقف قاعات الاجتماعات بالحوار ٠٠ ثم باحتداد فيه ٠٠ ثم بالصراخ ٠٠ ثم انتقل ذلك الى الشارع لتغليب وجهات النظر (أى الدفاع عن المصالح الطبقية المتنافرة) بالسلاح واسالة الدماء ٠

وقد وصف عالم أمريكى معـروف تخصص فى الاقتصاد والحركة العمالية العالمية اسمه وليام انكليش فى كتابه « رسالة روسيا » الشعب الروسى فى وقت مبكر قبل الثورة عام ١٩٠٨ بقوله :

« ان العمال الروس بأكثريتهم يحسنون القراءة والكتابة ٠٠ ومنذ سنوات كثيرة والبلاد فى وضع بالغ من القلق جدا كانوا معه يتمتعون ليس فقط بقيادة عناصر ثورية عديدة من فئات المجتمع المثقفة التى توجهت الى الطبقة العاملة حاملة معها مثلها العليا لبعث روسيا سياسيا واجتماعيا٠٠

ولقد كان لينين يقول دائما انه اذا ارتبط العامل بالنظرية الثورية وفهمها جيدا تحول الى قوة هائلة لأنها النظـرية التى اكتشفت موقعـه الطليعى فى المجتمع وحملت طبقته مسئولية احـداث التغيير الجذرى فى المجتمع ٠٠ وخلال سنوات النضال قبل ثورة أكتوبر تربى مئات بل ألوف الكوادر العمالية على النضال وهم يتشربون النظرية الثورية فمثلوا قادة لدفع الحركة الاشتراكية فى البلاد بجانب المثقفين الثوريين اللذين جاءوا من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ٠

لهذا لم يكن صعبا على الطبقة العاملة الروسية والفلاحين الروس ادراك ان ثورة فبراير لم تحقق ما يطلبون ٠٠

فهى لم تحقق السلام المنشود ٠٠ بل استمرت الحكومة الجديدة فى الحرب ٠٠ ولم تقم بتوزيع الأرض على الفلاحين ٠٠ وهو الشـعار الذى اجتذبهم الى الثورة ٠٠ ورغم أن لينين قد اعتبر ثورة فبراير التى أزاحت النظام القيصرى خطوة الى الأمام الا أنه لم يتوقف عن النضال من أجل التوصل الى تحقيق التطور الاشتراكى فى البـلاد ٠٠ أى الى الغـاء حكم الطبقـات المالكة مهما كان اسمها الى الأبد ٠ وكانت وسيلتـه فى ذلك التوسع فى اقامة السوفيتيات ٠٠

وهؤلاء العمال والفـلاحين هم الذين كانوا وقـود ثورة فبراير ٠٠ واستشهدوا فى سبيلها ٠٠ ولذلك لم يقنعوا بالحدود التى أوقفت عندها الحكومة المؤقتة للثورة ٠

بل ان تلك الحكومة بدأت تتعـرض للجماهير وتضربها كما كانت تفعل القيصرية للحد من حريتها وحركتها السياسية ٠٠ فكانت اللجان الزراعية التى انتخبها الفلاحون مثلا يتعرض أعضاؤها للاعتقال بسبب محاولتها تنفيذ واحد من قرارات الحكومة بعد الثورة بشأن الأرض ٠

كما أن جهاز الأمن وادارات المصانع كانت نشطة فى تصنيف العمال المنـاضلين فى قوائم سوداء ٠٠ وفى الجيش كان الصدام مسـتمرا بين الضباط ولجان الجيش (السوفيتيـات فيـه) ذلك أن الضباط الذين انحدروا من أصلاب الطبقات المالكة ما كانوا ليقبلون قط اعتبار الجنود كائنات بشرية فما بالك بالقول بتوليهم ادارة شئونهم والدعوة الى تنفيذ شعارات ثورية ٠

وكان أن أعادت الحكومة المؤقتة عقوبة الاعدام فى الجيش بقصـد القضاء على تلك اللجان ٠٠ بل انها لوقف حركة العمال وتجمعاتهم أغلقت بعض المصانع والمؤسسات أو حجبت عنها المواد الخام ٠٠

وقد قبضت سوفيتيات العمال على مهندسين فى مصانع للنسيج بموسكو وهم يعطلون آلات المصانع كى لا تدور ، كما أحرق بعض أصحاب مناجم الفحم فى خاركوف مناجمهم أو أغرقوها بالماء ..

فى الوقت نفسه لم تكن أقسام هامة من الطبقة المالكة تخفى مشاعر عدائها ضد الثورة واحتمالات تطورها .. وقد نشر « روكفلر روسيا » حينذاك ستيفان ليانوزوف حديثا قال فيه بصراحة « ان الثورة مرض وسيكون على الدول الأجنبية التدخل فى شئوننا ان غدا أو بعد غد .. وذلك كما يتدخل الطبيب لمعالجة طفل مريض لينهض على قدميه .. وصحيح أن ذلك لا يبدو أمرا مرغوبا فيه بعض الشىء لكن الدول لابد أن تدرك جيدا خطر البلشفية وتهديدها لبلادها هى ، ذلك الخطر الذى يتمثل فى شعارات مثل ديكتاتورية البروليتاريا .. والثورة الاشتراكية العالمية .. ولنا أن نأمل على أى حال أنه بعد أن شلت المواصلات فى البلاد وبعد اغلاق المصانع ، وبعد استمرار الألمان فى المجاعة والانكسار سيجعلان الشعب الروسى يفيق ويسترد تفكيره السليم ؟؟!

لقد كان هناك تعاطف مع الغزو الألمانى من جانب كثير من المالكين .. وسنرى ذلك التعاطف يتحول الى تعاون وتحالف مع الغزاة بعد نجاح ثورة أكتوبر فيما سمى بحرب التدخل ..

وكعادة الرأسمالية كانت قصيرة النظر فى هذه الظروف الخطرة فلم يتورع المضاربون عن استغلال حالة الفوضى العامة فكدسوا الثروات الطائلة وأخفوا المواد الغذائية والوقود وصدروها سرا الى السويد ..

وعمت المجاعة ميدان القتال بالذات حيث لم يعد بوسع الجنود أن يستمروا فى الحرب بسبب الجوع والبرد ..

وازاء هذا التفسخ نشطت قوى النظام القيصرية ومع الحكومة المؤقتة برئاسة كيرنسكى فى نفس الوقت .. كما شكلت تلك القوى منظمات سرية ارهابية وكانت أبرزها منظمة « المئة السود » وهدفها اعادة النظام القيصرى .. وتكتيكيا وقف زحف قوى الثورة الحقيقية التى ما كانت ترضى بتخاذل قادة ثورة فبراير البرجوازية .

وازداد التفسخ وتضاعف يوما بعد يوم ..

فقد شكل زعماء التوازن جيشا مستقلا كبيرا اضطرت الحكومة المؤقتة الى اغماض عيونها عنه .. وتطور الأمر الى انشاء شبه جمهورية للقوزاق على نهر الدون .. وأعلنت منطقة « الكوبان » نفسها دولة قوقازية مستقلة .. وانطلق أولئك المسلحون ليحلوا السوفيتيات فى روستوف -

وفى خاركوف دمروا قصر نقابة عمال المناجم وكان القوزاق يفعلون ذلك تحت شعار مناهضة الاشتراكية ٠

وفى أوكرانيا وفنلندة وبولندة وبيلو روسيا كانت الحركة القومية تشتد ٠٠ وكانت الأجهزة المحلية تسعى الى تطبيق نوع من الحكم الذاتى وترفض تنفيذ تعليمات الحكومة المركزية فى بتروجراد ٠٠

وفى هلسنكى مثلا رفض البرلمان الفنلندى تسليم نصيب فنلندة من ميزانية الحكومة المؤقتة وأعلن البرلمان فنلنـدة ذات حـكم ذاتى وطالب بانسحاب القوات الروسية منها ٠٠ وفى كييف عاصمة أوكرانيا وسع المستشارون حدود أوكرانيا بعد أن ضموا اليها أخصب الأراضى الزراعية فى روسيا الجنوبية ٠٠ وشكلوا جيشا وطنيا مستقلا ودعوا الى عقد صلح منفرد مع ألمانيا ٠٠

وطالبت سيبريا بجمعية تأسيسية لها ٠٠

فى نفس الوقت كان الجنود يفرون من الجبهة ويتحركون فى البلاد فى موجات هائلة بغير هدف أو نظام ٠٠

وعندما كان الفلاحون ييأسون من الحكومة التى لم تسلمهم الأرض التى وعدتهم بها ٠٠ بل انها بدأت تضطهدهـم وتتعسف معهـم ٠٠ كان الكثيرون منهم فى بعض المقاطعات يقومون باحراق بيوت الأغنياء وقتلهم ٠

ولكن الحكومة لم تحاول قط أن تتجه الوجهة الصحيحة لمعالجـة الأمور ٠٠ بل وجهت سن حربة الهجوم لديها ضد السوفيتيات ٠٠ وحاولت فى يأس اعادة الانضباط فى الجيش لمواصلة الحرب ٠٠

ولم ينجح قط فى زيادة « الجراية » اليومية من الخبز التى كانت تصرف حتى نقصت الى مائة جرام فقط فى اليوم فى بلد تنخفض فيه درجة الحرارة الى ٤٠ تحت الصفر ٠٠

ولكن مقابل هذا حدث انفجار هائل فى حركة الجماهير التى كبلها النظام القيصرى طويلا ٠٠ وبدا واضحا أن روسيا تتمخض بعالم جديد ٠٠ شعر الناس بقيمتهم وتحرروا تماما من « روح القن » التى فرضها عليهم النظام القديم ٠٠ حتى الخادمة التى كانت تعامل معاملة أقل من السائمة أصبحت تحس بكرامتها ٠٠

وحصل كل رجل وامرأة فى روسيا على حق الاقتراع لأول مرة ٠٠ وظهرت جرائد عمالية تتحدث عن أشياء غريبة مثيرة لأول مرة ٠٠ وظهرت

عشرات التنظيمات ·· السوفيتيات واتحادات العمال حتى الحوذية أصبحت لهم نقابة وممثلين فى سوفييت بتروجراد ·· وغمرت موجة من الاحساس بالذات والكرامة جرسونات وعمال المقاهى والفنادق والمطاعم فأصبحوا يرفضون قبول البقشيش باعتبـاره تقليدا برجوازيا ·· وكان أن علقت لافتات على جدران جميع المطاعم مكتوب عليها : « هنا لا نقبل الاكراميات » و « اذا كان الانسان مضطرا لخدمة المائدة لكسب لقمة عيشه ·· فهذا ليس مبررا لاهانته بتقديم البقشيش له » ·

وكانت سوفيتيات المصانع والمؤسسات تكتسب خبرة وقوة وتدرك رسالتها التاريخية فى النضال ضد النظام القديم ··

كانت روسيا كلها تتعلم القراءة بل كانت تقرأ فعلا كتب السياسة والتاريخ والاقتصاد ·· ذلك لأن الناس جميعـا غمرتهم روح الرغبـة فى المعرفة ··

وفى كل مدينة ·· كان كل حزب سياسى يصدر جريدته وأحيـانا عدة جرائد وكان ثمة هناك ألوف من الجماعات والهيئات المختلفة تطبع وتوزع مئات الألوف من النشرات والنداءات والبرامج السياسية ·· تجد أفراد الناس يلتهمونها التهاما ·· وتدور المناقشات الحية والصاخبة حول ما جـاء فيهـا ··

وكان للأدب نصيب فى هـذا ·· فقد كان مطروحا على السـاحة مؤلفات جوجول وتولستوى وجوركى وكأنها منشورات سياسية ··

واختفت الى غير رجعة المؤلفات الرخيصة ·· والأدب التافه ·· ولغو الكلام مثل كتب الفلك والعرافة بالتنجيم ··

واذا كان أحد من جيل ثورة أكتوبر لم يعش أحداث وصخب الثورة الفرنسية فان « طوفان البلاغة الفرنسية » الذى تحدث عنه توماس كارليل الكاتب المشهور كان يبدو تافها أو زاوية لندوة حوار فى حارة بالنسبة لما كان يحدث فى روسيا فى ذلك الحين فى كل مكان ·· حتى فى المسارح وساحات السيرك ·

ولقد صـور الكاتب الأمريكى الأشهر الذى كتب أعظـم كتاب عن أحداث الثورة السوفيتية فى كتابه الخالد « عشرة أيام هزت العالم » ·· سلوك مصنع روسى فى تلك الفترة الغريبة ازاء تلاطم الأمواج فى ذلك المحيط السياسى الصاخب ··

« ·· ويا له من مشهد مدهش يقدمه مصنع بوتيلوف حين يخرج من وراء جدرانه سـيل عارم من أربعين ألف عامل ليستمعوا لمـا يقوله

الاشتراكيون الديمقراطيون ·· والاشتراكيون الثوريون ·· والفوضويون ·· والى أى كان يتحدث فى أى موضوع كان ·· ومهما أطالوا فى الكلام ومطوا فيه ·· وكانت محاولات الحد من وقت كلام الخطباء تفشل بصورة كاملة فى جميع الاجتماعات الحاشدة ·· اذ كان بوسع كل واحد أن يعبر عن جميع مشاعره وأفكاره أيا كانت » ··

وفى هذا الجو الثائر المختلط كان ثمة شعارات تردد بشكل ثابت وبدون أى تردد أو انحراف عنها قيد أنملة ··

كل السلطة للسوفيتيات ·· كل السلطة للممثلين الحقيقيين لملايين العمال والجنود والفلاحين ··

الخبز والأرض ونهاية الحرب الخرقاء ··

ونهاية الدبلوماسية السرية والمضاربة والخيانة ··

الثورة فى خطر ·· ومعها قضية الشعب المشتركة فى العالم بأسره ·

كان الذين يطلقون هذه الشعارات هم البلاشفة الذين كانوا قد أصبحوا يشكلون حزبا مستقلا من ١٩٠٣ كما بينا من قبل ذلك · وهم فى مجالس السوفيتيات كانوا أقلية بينما خصومهم المناشفة كانوا يشكلون الأغلبية ·

حول ماذا كان يدور الخلاف ··· الذى تحول الى صراع بعد ذلك ؟ ·

كان المناشفة يرون أن روسيا لم تكن ناضجة اقتصاديا للقيام بالثورة الاجتماعية (الاشتراكية) وان ما يمكن تحقيقه هو الثورة السياسية (يقصدون الثورة البرجوازية والتى قامت فعلا فى فبراير ١٩١٧ كما أسلفنا) ·

وكان المناشفة يرفضون فكرة تسلم الجماهير زمام السلطة باعتبار أنها كانت ناقصة ثقافة وتدريب على الحكم (القصة كما ترى مستمرة اذ يردد كل خصوم الديمقراطية مثل تلك الحجة) ·

وكانوا يحذرون من أن أى محاولة لجعل الجماهير تحكم ستتيح فرصة ذهبية لأى مغامر رجعى للانقلاب واعادة النظام القيصرى القديم ··

وباختصار ـ لقد كان المناشفة يرون انه على روسيا كى تصل الى مرحلة الاشتراكية ـ يجب أن تمر خلال تطورها السياسى والاقتصادى بنفس المراحل التى احتازتها أوروبا الغربية ·

ومثل هذه النظرية كانت تتفق مع مصـــالح الطبقات المالكة التى أصبحت تخشى التطور المجهول للثورة بعد ازدياد حركة الجماهير ٠ فما دام المناشفة يرون انه من الضرورى أولا أن تمر روسيا بالمراحل الاقتصادية التى مرت بها دول أوروبا اذن فذلك يعنى ببساطة اقامة نظام رأسمالى والقيام باصـــلاحات برلمانية ٠٠ وهـــذا هو ما هدفت اليه البرجوازية الروســـية من ثورتها فى فبراير ١٩١٧ وشكلت حكومة مؤقتة برئاســـة كيرنسكى بعد الاطاحة بالقيصرية من أجل ذلك ٠٠ والمناشفة فى الواقع منذ بدأ انقسامهم كانوا يرفضون نظرية لينين لانشـــاء حزب من نوع جديد يتزعم النضال الثورى للطبقة العاملة لاقامة ديكتاتوريتها وظلوا على موقفهم من الاصرار على ممارسة النشاط البرلمانى فقط ٠

وأيد الاشتراكيون الثوريون وكذلك الاشتراكيون المعتدلون وأحزاب أخرى اتجاه المناشفة هذا ٠٠

وكانت النتيجة أنه عندما نضجت الظروف الثورية وأصبحت روسيا حبلى بالثورة الاشتراكية نجد المناشفة وقد وقفوا الى جانب البرجوازية أى الملاك فى صراعهم الدامى ضد الشعب بقيادة البلاشفة ٠٠

ويحسن هنا أن نتوقف لحظـــات لنتـــولى تعريف القارىء بمن هم البلاشفة حتى يمكن متابعة ما جرى فى روسيا فى تلك الأيام من أحداث غيرت مجرى التطور فى العـــــالم كله ٠٠ على عكس المناشفة كان موقف البلاشفة ٠٠ فقد كانوا ينادون بالثورة البروليتارية على الفور وبالاستيلاء على السلطة لتحقيق الاشتراكية عن طريق انتزاع وسائل الانتاج من أرض وثروات طبيعية ومصانع وبنوك ومؤسسات تجارية ومالية من أصحابها وتحويلها الى ملكية جماعية للشعب كله الذى سيصبح كله فريقـــــا من العاملين لا مكان فيه لمستغل أو مصاص دماء ٠٠

وكان البلاشفة يقولون عن أنفسهم انهم الممثلون الحقيقيون لصالح الطبقة العاملة الصناعية بالذات وأغلبية فقراء الريف ٠٠

وقد دعى لينين بعد تحول الاشتراكيين الديمقراطيين لتأييد الحرب العـــالمية الأولى الى تمييز البلاشـــــفة الذين كان يتزعمهم فأطلق عليهم اسم « الحزب الشيوعى » لأول مرة منـــذ ظهرت النظرية الماركسية ٠٠ وحتى يتأكد انهم قد تخلوا تماما عن « التقاليد الاشتراكية المعتدلة » كما كانت تسمى حينذاك ٠٠ والأساليب البرلمانية التى كان يتبناها المناشفة وحلفاؤهم ٠٠

ولخص البلاشفة برنامجهم لجذب الجمـــاهير للالتفاف حـــولهم فى ثلاث كلمات : الخبز ٠٠ الأرض ٠٠ والسلام ٠٠

كيف نحقق هذا : الاجابة كانت كل السلطات للسوفيتات ٠٠ وهى اللجان التى كانت تشكل فى كل مصنع وقرية وكتيبة فى الجيش ٠٠

وكلمة سوفييت نفسها كلمة روسية معناها « المجلس » ٠٠

وتطورت الأحداث الى أن تحول البلاشفة الى أغلبية بعد أن استطاعوا كسب الشارع ٠٠ وكانت بتروجراد ٠٠ مدينة لا تنام حيث تموج بالثورة والحركة ويتجمع الناس حول « معهد سمولنى » وهو مبنى كبير اتخذه البلاشفة مقرا لقيادتهم السياسية وأحاطوه بعناصر مسلحة لحمايته ٠٠ ومنع الدخول اليه الا باذن ٠٠ وبعد قليل أصبح الحراس يرتدون ملابس عسكرية وسموا أنفسهم بالحرس الأحمر ٠٠

وفى اجتماع تاريخى للجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلاشفة) فى العاشر من أكتوبر ١٩١٧ اتخذ القرار بالقيام بالثورة وكانوا يسمونها بالعصيان المسلح ولم يصوت ضد اقتراح لينين سوى عضوين هما كامينيف وزينوفييف ٠ وكان ذلك بعد أن سيطر البلاشفة على سوفييت بتروجراد ٠٠ ثم على سوفيتات موسكو ٠٠ وكيف ٠٠ وأوديسا وغيرها من المدن الهـــامة ٠٠

ان الثورة قد اشتعلت من أسفل ٠٠ من القاعدة الجماهيرية العريضة ٠٠ ونتيجة نضال متواصـــل وصراع متشـــابك ومعقـــد مع قوى عديدة اختلطت فيها الشعارات والاتجاهات بطريقة تسهل ضلال الطريق !

وبعد اجتماع اللجنة المركزية التى اتخذت القرار بالثورة أى فى ١٦ أكتوبر ١٩١٧ عقد اجتماع موسع مع اللجنة المركزية للحزب حضره من غير أعضائها ممثلو اللجنة التنظيمية الفرعية فى بتروجراد ، والمنظمة العسكرية ، وسوفييت بتروجراد ، والنقابات ولجان المصانع والمؤسسات، وعمـــال السكة الحديد ، ولجنـــة الحزب فى منطقة بتروجراد وفى تلك الجلسة قرأ لينين القـــرار الذى اتخـــذته اللجنة المركزية من قبـــل فى ١٠ أكتوبر ٠٠ وأكد فى ذلك الاجتمـــاع أن الوضع السياسى الموضوعى سواء فى روسيا القيصرية أو فى أوروبا يحتم ضرورة القيام بالثورة الآن٠٠

واذا كان فلاديمير اليتش لينين قد دخل تاريخ الانسانية جمعاء منذ ظهورها من أوســـع أبوابه باعتباره القـــائد المظفر لأول ثورة اشتراكية مظفرة فى التاريخ أدت الى انقلاب جذرى فى الوضع العالمى وكل العقائد والمذاهب الاقتصادية والسياسية ٠ فانه يحسب أيضا للينين ولعبقريته قدرته الفائقة على تحديد توقيت تلك الثورة فى اللحظة التاريخية المناسبة بنفس القدر الذى يحسب عليه أن أفكاره وأحـــلامه عن النظام الجديد حققت شيئا مخالفا ومضادا لما كان يريد هو وماركس ٠

وانعكس هذا الوضـــع الثورى على الجيش طبعا فكما ذكرنا كان

الجنود جوعى في الجبهة ومنهزمون ·· ومشردون فى آفاق أرض روسيا الواسعة ولذلك وجد شعار السلام صدى هائلا فى نفوسهم ·· كما أنهم وهم ينتمون للشعب قد أحسوا بمشاكله وتأثروا بروحه الثورية ـ والتمردية ·· وبالحركة السياسية المائجة الهائجة فى البلاد ·

وكان أن تكونت لجنة عسكرية ثورية فى سوفييت بتروجراد ثم تبع ذلك فى ٣٠ أكتوبر أن اجتمع ممثلون عن جميع كتائب بتروجراد العسكرية لبحث الموقف الراهن وخرجوا على العالم ببيان أعلنوا فيه موقفهم الى جانب الجماهير بلا تردد ··

« ان حامية بتروجراد لم تعترف بالحكومة المؤقتة ·· ان حكومتنا هى سوفييت بتروجراد ، ولن نخضع الا لأوامر سوفييت بتروجراد الصادرة من لجنته العسكرية الثورية ··

وصدرت التعليمات الى كتائب حامية بتروجراد بأن قيادتها الوحيدة هى « فرع الجنود » فى سوفييت بتروجراد ··

ولذلك لم يأت اليوم الثالث من نوفمبر أى قبل الثورة بأربعة أيام الا ونصبت اللجنة العسكرية الثورية نفسها كسلطة فى بتروجراد بعد اعلانها انها تقف بكليتها مع البروليتاريا المنظمة لحراسة النظام الثورى فى بتروجراد وحذرت أى خصوم له من العسكريين أو غيرهم من أى تآمر أو مناهضة والا سيواجهون بلا رحمة ·

وأصدرت اللجنة العسكرية قرارا لجميع المطابع بعدم طبع أية نداءات أو بيانات بدون ترخيص منها ، واستولت على كل ترسانات الأسلحة وصادرت كميات أخرى كانت مصدرة الى أماكن أخرى فى روسيا ·

وقد حاولت الحكومة المركزية ـ حكومة كيرنسكى ـ مواجهة ذلك التطور الخطير الذى يعنى وجود دولة داخل الدولة ·· ولكنها فشلت تماما ··

وفى اليوم السادس من نوفمبر قبل الثورة بيوم واحد ·· وزع فى أرجاء بتروجراد نداء من اللجنة العسكرية الثورية لدى سوفييت المدينة للعمال والفلاحين جاء فيه :

أيها المواطنون ··

لقد رفعت قوى الثورة المضادة رأسها المجرم ، فهم يعبئون القوى من أجل سحق مؤتمر السوفيتيات لعامة روسيا واحباط الجمعية التأسيسية وفى الوقت نفسه قد يحاول الارهابيون اثارة الاضطراب والمذابح فى شوارع بتروجراد ··

ان حامية بتروجراد لن تسمح بأية أعمال عنف واخلال بالنظام ..
والأهلون مدعوون لوقف الأوباش والمحرضين من جماعة المئة الســـود
(جمعية ارهابية ضد الثورة) وتسليمهم لفوضى السوفييت فى أقرب
وحدة عسكرية . ان المجرمين سيبادون من على وجه الأرض لدى أول محاولة
تقوم بها قوى الظلام لاثارة الاضطراب أو النهب والشجار أو اطلاق النار
فى شوارع بتروجراد .. » .

العملية الثورية تسير كما ترى بخطى حثيثة متلاحقة .. وجماهيرية
من الدرجة الأولى .. والبلاشفة حققوا كسباً كل يوم لأنصار وحلفاء لهم
لانجاح الثورة حتى استطاعوا أن يفككوا الدولة فى أخطر أجهزتها وهو
الجيش .

ويبدو واضحا من التفاصيل التى نذكرها عامدين أن الثورة البلشفية
كانت أبعد ما يكون عن الشكل أو المضمون الانقلابى أو ثورة أقلية كما يزعم
أعداء الاشتراكية .. بل هى ثورة شعبية وبقيادة أكثر القوى الشعبية
تنظيما وهى الطبقة العاملة الروسية .

لكن لماذا الطبقة العاملة .. لماذا كما رأيت يتردد ذكر هذه الطبقة
بشكل رئيسى خلال ارهاصات الثورة .. ويتحدث لينين دائما عن قيادتها
للتحركات الثورية وأنه لا سبيل لاستقرار الثورة الاشتراكية الا باقامة
ديكتاتورية البروليتاريا (العمال) .

وربما دهش القارىء من أن قيادة ثورية تعلن على المكشوف أنهـا
تريد اقامة نظام من الحكم يقوم على أساس الديكتاتورية ؟!

والواقع أن الشيوعيين هم القوى السياسية الوحيدة فى العالم التى
أعلنت أنها تستهدف اقامة ديكتاتورية عندما تصل الى الحكم . ولكنها
ديكتاتورية العمال .. وبعض الشـــيوعيين أعلنوا أنهم يريدون اقامة
ديكتاتورية الشعب ..

كيف ذلك ولماذا ؟ .. وفقا للنظرية الماركسية فاننا لو تأملنا أى
نظام حكم فى العالم سنجده فى جوهره يمثل ديكتاتورية طبقة أو طبقات
ضد طبقات أخرى ..

ومعنى الديكتاتورية هو قهر تحركات تلك الطبقة أو الطبقات ومنعها
من تهديد النظام القائم الذى تنفرد به طبقة أو طبقات .. والحيلولة دون
قلب النظام واستيلائها على السلطة .

مثلا .. فى المانيا وايطاليا عندما أصبح النظام الرأسمالى مهدداً
فيها بسبب اشتداد قوة العمال والأحزاب الاشتراكية عمد ذلك النظام الى

قهر تلك الأحزاب والعمـال بالقـوة والارهاب المروع وأقام الفاشــية والنازية ..

وقس على ذلك الأمر حتى في الولايات المتحدة عندما يتصدى النظام هناك لأى طبقة أو حزب أو هيئة تهدد النظام . وهناك قوانين بذلك .

لكن لماذا الطبقة العاملة ؟ ..

انها الطبقة الأساسية التى لها مصلحة حقيقية فى تشريك وسائل الانتاج وتحويلها الى الملكية العامة ذلك لأن العمال هم الطبقة التى لا تملك شيئا سوى قوة عملها تؤجره يوميا لملاك وسائل الانتاج ..

من ناحية أخرى ان هذه الطبقة تعمل بالمئات والألوف وعشراتها فى كل مكان عمل واحد بحيث يمكنها أن تتخذ موقفا موحدا اذ يسهل وضعها نشر الأفكار والاقتراحات وتبينها الأفكار والروح الجماعية .

كما أن وضعها ذلك يجعل من السهل عليها أن تنتظم وتتجه الى التنظيم حيث أن طبيعة عملها على الآلات تســاعد على ذلك بجانب شحذ وعيها واحساسها بالاستغلال .

كما أن الاقتصاد الرأسمالى فى أى بلد متطور يمثل العمود الفقرى للاقتصاد العام فى البلد كله وبالتالى فان العمال يستطيعون التأثير مثلا فى المؤسسات الصناعية أو الاعتصام فيها اذ يمكن شل البلاد « ووقف الحال » فيها كما يقولون ..

ولقد كانت روسيا قبل الثورة تنتمى من حيث تطور الرأسمالية الى عداد « البلدان المتوسطة التطور » كما يقول المؤرخ السوفيتى الأكاديمى الشهير اسحق مينتسى .

ولقد كان تركيز جماهير كبيرة من العمال فى المصانع الكبرى هو أحدى خصائص النظام الرأسمالى فى روسيا فقد كان نصف عدد العاملين فى الصناعة يتركز فى خمسة فى المائة من المنشآت ، بينما كان ثلث عدد عمال الولايات المتحدة كان يعمل فى مثل تلك النسبة من المؤسسات .

وتفسير ذلك أن روسيا قد بدأت تطورها على طريق الرأسمالية فى فترة لاحقة لبلدان العالم الرأسمالى الأخرى ولم تكن بحاجة الى الانتظار حتى تنمو الصناعة البدائية وتتحول تدريجيا فى كل مكان الى منشآت صناعية . وبدأت طائفة من فروع الصناعة وفى مقدمتها التعدين بتشييد منشآت كبرى على الفور وهو الأمر الذى ســاعد الرأسماليون الأجانب الرأسمالية الروسية فيه .

وقد كان البلاشفة ينشرون الدعاية والاثارة لأفكارهم فى المصانع الكبرى وحققوا نجاحا كبيرا فى اكتساب أفضل العناصر فيها وتربيتها ككوادر ممتازة كانت تتوالى وتتكاثر كل يوم رغم تعرضها للاضـــطهاد والبوليس حيث كانت تنفى وتسجن وتعتقل بل وتصفى جسديا ٠٠

ولذلك لم يكن صـدفة أن أطلق المعلقون السياسيون حينذاك على المنشآت الكبيرة فى روسيا « مصانع البلاشفة » !

ولقد كان البلاشفة يجدون أذانا صاغية بين العمال لأن الرأسماليين كانوا يستغلونهم أبشع استغلال دون أى اكتراث اذ كان تحت تصرفهم دائما جيش احتياطى هائل من طالبى العمل ، فقد كانت تصطف خارج أبواب المؤسسات والمصانع صفوف لا نهاية لها من فقراء الريف الذين هاجروا من هناك بحثا عن أى أجر مهما كان زهيدا ٠

وقد بدأت الطبقة العاملة فى روسيا نضالها الثورى فى العقد السابع من القرن التاسع عشر من أجل حقوقها ٠٠ وانتزعت حقوقا نقابية من أصحاب العمل ٠٠ وظهر فيها أول حزب للعمال قبل أى طبقات أخرى فى المجتمع ٠

وكان لينين هو مؤسس أول منظمة ماركســية فى روســيا باسم « اتحاد النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة » ٠

ومن داخل الطبقة العاملة نشأت سوفيتيات العمال والتى وصفها لينين بأنها شكل من أشكال تنظيم الطبقة العاملة ، وبأنها فضلا عن ذلك شكل جديد للسلطة واعترف الشعب كله ، بالأجهزة الجديدة بسرعـة وأصبحت هى أيضا شكلا لتنظيم تحالف العمال مع الفلاحين ، وتسلحت الفئات الأخرى من السكان أيضــا بالأشكال البروليتارية للنضال وفى مقدمتها الأحزاب ٠

وقد تبدى بذلك بوضوح تأثير ودور العمال فى نضال الشعب عامة ٠

وكانت بروليتاريا روسيا أممية من حيث قوامها وروحها ٠٠ ولم تعرف « أرستقراطية الطبقة العـاملة » من ذوى الياقات البيضاء والتى كانت ثمرة رشوة البرجوازية فى الدول الرأسمالية المتطورة بفضل النهب والسلب الاستعماريين ٠

واستطاع الحزب البلشفى أن يحمى العمال من الانتهازية وصـان التقاليد الثورية للثورة الروسية الأولى ٠ وبعد ثلاث سنوات من هزيمتها عام ١٩١٠ تقدمت الطبقة العاملة الروسية بمطالبها من جديد ٠٠ واندفعت فى طريق النضال فأقامت المتاريس فى شوارع بتروجراد فى يوليو عام

١٩١٤ ، غير أن الحرب العالمية التى اندلعت فجأة قد أدت الى توقف الهجوم الثورى من جانبها ٠

وخلال تلك الحرب لم يتوقف مع ذلك نضال الطبقة العاملة بعد أن أدى الخراب والدمار الذى أحدثته الى الاستياء والسخط العميق ٠٠ فأضرب العمال وبلغ عدد المضربين مثلا فى عام ١٩١٦ مليون ونصف مليون عامل ٠٠ وكانت روسيا فى مقدمة البلاد المتحاربة التى نشط فيها اضراب العمال ٠

ووجه ذلك النضال حزب البلاشفة السرى الذى كان يتراوح عدده ما بين ٣٥ و ٤٠ ألف مناضل يقودون الطبقة العاملة فى ٢٠٠ مدينة ٠ وهذه الطبقة كانت صلتها بفقراء الريف قد توطدت بعد أن زاد التفاوت الطبقى فى القرية ٠

ولقد كان عند البلاشفة فى العاصمة بتروجراد مثلا ألفى عضو فى عام ١٩١٦ ولكن نضالهم زاد من عددهم زيادة كبيرة حتى استطاعوا تنظيم اضراب لكل العمال فيها أى ٤٠٠ ألف شخص فى يوم ٢٥ فبراير ١٩١٧ ثم تحول ذلك الاضراب العمالى الى اضراب عام خلال ثلاثة أيام فقط ٠

وبعد ذلك كان لينين يدعو الى استيلاء البروليتاريا على السلطة من الحكومة البرجوازية ويدعو الى تسليحها وانشاء فرق شرطة وحرس وطنى منها ٠٠ حتى أصبح فى بتروجراد وحدها ٢٠ ألف عامل مسلح من بين تلك الفرق ! فى وقت قفز فيه عدد أعضاء الحزب البلشفى من ٣٥ ألفا الى ٢٤٠ ألف عضو كان ستون فى المائة منهم من العمال !

لذلك لم يكن غريبا أن اضرابات العمال فى مراكز التعدين والنسيج والصناعات الكيمائيـة والغذائيـة حتى السفرجية فى المطاعم هى التى أفشلت محاولة الجنرال كورنيلوف الاستيلاء على السلطة واقامة ديكتاتورية لضرب الحركة الشعبية التى كانت تتقدم فى زحفها بسرعة شديدة !

ونجحت الثورة التى لعبت الطبقة العاملة دورا قياديا وطليعيا فيها ٠٠ واستقرت فى الحكم أول دولها فى التاريخ ٠٠

كما يبدو من تلك التفاصيل كان هناك مقابل هذا التقدم والبراعة السياسية والدور الصاعد للبروليتاريا الروسـية « الغبـاء » الشـديد للبرجوازية التى قامت بثورة فبراير ١٩١٧ وضيق أفقها حتى تستدير الى حلفائها من الشيوعيين الذين ساهموا فى تلك الثورة وضحوا فيها ٠٠ وترفض تقديم تنازلات للشعب ٠٠ وحتى عشية الثورة تواصل محاولاتها فى الوقوف ضد عجلة التاريخ ٠٠ وغباء البرجوازية الروسية يؤكد المقولة

العبقرية التى ذكرها كارل ماركس مؤسس المذهب الاشتراكى العلمى ٠٠ « ان البرجوازية تحفر قبرها بيديها » ٠٠

فى الخامس من نوفمبر أى قبل الثورة بثمان وأربعين ساعة كان تيرشنكو أحد أقطاب حزب الكاديت (حزب الرأسمالية) يقول فى اجتماع صاخب يجب اعادة الانضباط الى الجيش والاستمرار فى الحرب حتى النصر ٠٠

فالرأسماليون هكذا كانوا يفكرون ٠٠ ولا يرون ماذا يجرى من حولهم ٠٠ فالبلاشفة لم يكسبوا الرأى العام الا بطرحهم شعار انهاء الحرب ٠٠ والجيش قد تفسخ وانضمت حامية العاصمة بتروجراد لهم ٠٠ وتيرشنكو يصرخ حرب حتى النصر ٠٠ بل فى السادس من نوفمبر قبل قيام الثورة بأربع وعشرين ساعة مع ملاحظة أن عمليات ثورية قد تمت مثل انحياز حامية بتروجراد للثورة ٠٠ وقف كيرنسكى رئيس وزراء الحكومة المؤقتة يهاجم شعار السلام الذى رفعه الثوار ويصفه بأنه خيانة للدولة الروسية وان أصحابه انما يفتحون جبهة الدولة الروسية لقبضات غليوم (قيصر المانيا) وأصدقائه الحديدية ٠

كما أعلن كيرنسكى أنه أصدر أمرا بالاعتقالات اللازمة ٠٠ وصاح بصوت راعد « ان الحكومة المؤقتة وأنا فى عدادها نفضل فى وقتنا الراهن الذى تتعرض فيه الدولة الروسية للهلاك وتوشك عليه فعلا من جراء خيانة متعمدة أم غير متعمدة ٠٠ نفضل الموت والفناء على أن نخون حياة الدولة وشرفها واستقلالها » ٠

وفيما بعد أن نجحت الثورة نجد أن أعوان كيرنسكى هذا وطبقته قد فتحوا أبواب روسيا على مصراعيها ٠٠ لألمانيا وعشرين دولة أخرى لاجتياح البلاد من أجل ضرب الثوار والقضاء على النظام الاشتراكى الوليد ٠٠ فيما عرف بحرب التدخل ٠٠ ولكن الشعب بقيادة ثواره استطاع أن ينتصر فى حرب التدخل تلك ٠٠ ويقف الوطن « روسيا الجديدة » على قدميه شامخا بنظام جديد ٠٠ تنبعث منه اشعاعات ثورية على كل ركن من أركان الأرض ٠٠

ان البرجوازية لا تفهم عن الوطن أساسا سوى السوق واستغلال العمال والشعب ٠ وقد سبق ما حدث فى روسيا من حروب التدخل أن فتحت البرجوازية الفرنسية أبواب باريس للقوات الألمانية الغازية التى كانت تحاصر باريس عندما أقام الثوار فيها « كومونة باريس » أول هيئة اشتراكية فى التاريخ حتى تستطيع تلك القوات مساعدة جيش فرنسا على قمع تلك الثورة ودفنها ٠٠

وضعت الثورة برنامجها منذ البيان الأول :

« ان الحكومة الجديدة حكومة العمال والفلاحين ستقترح فى الحال صلحا عادلا ديمقراطيا على جميع الشعوب المتحاربة ·· وستلغى فى الحال الملكيــة الكبيرة للأرض وتوزع الأرض على الفلاحــين ·· وستقيم الرقابة العمالية على الانتاج وتوزيع المنتجات وستقيم رقابة شعبية عامة على البنوك مع تحويلها الى مؤسسة واحدة تابعة للدولة ·· ومصادرة كل الممتلكات فى المعامل والمصــانع ·· » وأعلن ســوفييت بتروجراد أنه مقتنع بأن بروليتاريا بلدان أوروبا الغربية « ستساعدنا على السير بقضية الاشتراكية الى الانتصار التام الوطيد ·· » ·

فى نفس الوقت أصدر أعداء الثورة بيانات عديدة جاء فيها عبارات كهذه : « ان لجنة عموم روسيا لانقاذ الوطن والثورة تدعوكم أيها المواطنين لا تعترفوا بسلطة أهل العنف ··

لا تنفذوا أوامرهم ··

هبوا للدفاع عن الوطن والثورة ··

ساندوا لجنة عموم روسيا لانقاذ الوطن ··

لا تصدقوا وعود البلاشفة ·· ان الوعد بالصلح الفورى كذب ·· والوعد بالخبز غش ·· والوعد بالأرض أسطورة ! ·

وعدوكم بالأرض والحرية ·· ولكن الثورة المضادة ستستغل الفوضى التى نشرها البلاشفة وتحرمكم الأرض والحرية » ··

تبقى ونحن نتحدث بالتفصيل عن تلك الأيام المثيرة لآمال المضطهدين فى الخــلاص ·· أن نعرف موقف الحزب الذى كان يمثل اليهــود فى روسيا القيصرية ·· واســـمه الحزب الاشتراكى الديمقراطى اليهودى المسمى « بالبوند » ··

كان ابراموفيتش زعيم ذلك الحزب يخطب فى مواجهة « الزحف الثورى للبلاشفة » · قائلا وهو يرتعد كما كانت تصف صحافة الغرب ·· بل ووصفته جريدة مرة بأن عيناه كانتا تقدحا شررا من تحت زجاج نظارته السميك :

« ان الأحداث الجارية فى بتروجراد لنكبة نكباء ــ يقصد الثورة ــ ان جماعة البوند تنضم الى بيان المناشفة والاشتراكيين الثوريين وتنسحب من المؤتمر ــ مؤتمر السوفييت لعموم روسيا ·

ان واجبنا حيال البروليتاريا الروسية لا يسمح لنا بالبقــاء هنا وتحمل مسئولية هذه الجريمة ·· فقصر الشتاء ما زال يواجه القصف

ولذلك فان الدوما البلدى ـ أى مجلس بلدية بتروجراد الخاضع للحكومة المؤقتة ـ قد قرر بالاشتراك مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين واللجنة التنفيذية لسوفيتيات الفلاحين ـ هيئة منشقة عن سوفيتيات الفلاحين فى القرى ـ أن يموت مع الحكومة المؤقتة » ٠

وأعلن زعيم البوند (حزب اليهود) أن حزبه ينضم اليها « ولسوف نفتح صدورنا ونحن عزل من السلاح لرصاص الارهابيين » ٠٠٠

ورد عليه تروتسكى يومهـا بقوله : أنتم وكل أمثالك من المناشفة والبونديين وغيرهم لستم جميعا سوى زبالة سيلقى بها فى صندق قمامة التاريخ ! ٠

وهذا ما حدث فعلا ٠٠ فقد كان ذلك مصير كل خصوم الثورة ٠٠ بينما انتصرت هى وثبتت أقدامها ٠٠ ومضت نموذجا يثير أمل التغيير الى حياة أفضل فى نفوس جميع الكادحين فى أنحاء العالم ٠٠ بل الثقة الكاملة وليس مجرد الأمل فى حدوث ذلك التغيير كما أثبتت التطورات خلال عشرات السنوات التى تلت الثورة منذ عام ١٩١٧ ٠

وقد ذكرنا موقف حزب اليهـود بالنسبة للثورة للرد على سخف قول بعض المضـللين من أعداء الاشـتراكية عن الربط بين الشـيوعيين واليهودية ٠

وهنـا لابد أن نتوقف قليلا لنشرح ما هى علاقة اليهود بالنظرية الماركسية ٠٠ معروف ان اليهود قد اضطهدوا تاريخيا لأسـباب لا مجال للحديث عنها هنا ٠٠ بحيث أصبحوا فريقا من الناس المضطهدين فى أنحاء العالم مثلهم مثل الزنوج والتاميل ٠ والمنبوذين ٠٠٠ الخ ٠٠

ولقد بشرت النظرية الماركسية بالمسـاواة بين الناس جميعا وعدم التفرقة بينهم على أسـاس من اللون أو الجنس أو اللغة أو الـدين أو القومية ٠٠ ولذلك فان جميع الأقليات فى العالم وجدت فى الماركسية خلاصا لها من الاضطهاد فى ذلك الوقت ٠

لذلك تحمس كثير من اليهود للنظرية الماركسية ـ اذا لم تتعارض مع مصالحهم الطبقية فالماركسية لم تبشر فقط بالمساواة بين البشر بل وأيضا بالغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ٠

واليهود الذين تحمسوا للماركسية واعتنقوها ٠٠ برز بعضهم على السطح فى مكان الزعامة والقيادة مثلما فعل ما برز قادة مسيحيون مسلمون وبوذيون وهنـدوس وتاميـل وكونفوشسيون ٠٠٠ الـخ فى الحركات

الشيوعية فى العالم كله . لكن أعداء الاشتراكية كانوا يستغلون هذه الأسماء اليهودية اللامعة فى سماء النضال الاجتماعى أو الوطنى لتشويه الاشتراكية .

نعود بعد ذلك الى مسار ثورة أكتوبر .. حيث واجهت الثورة أعداءها فى الداخل فاشتعلت الحرب الأهلية .. ثم وجه المتخاصمون فى الحرب العالمية الأولى أسلحتهم التى كانوا يصوبونها الى بعضهم البعض فى اتجاه الثورة الجديدة خوفا من انتشار العدوى فتهد قلاعهم الرأسمالية .. واستمرت حرب التدخل حتى عام ١٩٢٢ .

وهزمت جيوش عشرين دولة ... بفضل ثورية الجماهير والقيادة معا .. وأيضا بفضل تحركات العمال الجبارة فى أوروبا وأمريكا لمساندة الثورة واستنكار موقف حكوماتها الرأسمالية التى كانت تحارب الثورة .. بل ان قوات مسلحة تابعة لفرنسا مثلا بقيادة البطل « مارتى » انضمت الى أسطول ثورة أكتوبر لمحاربة أعدائها .. وكان حدثا تاريخيا وظل مارتى قائد الأسطول الفرنسى يعيش فى فرنسا حتى مات معززا مكرما كبطل عالمى ساند حركة التاريخ دون أن تجرؤ حكومة فرنسية على الاقتراب منه .

واسراع الدول الأجنبية الى مشاركة قوى الرجعية الروسية فى قمع الثورة يؤكد أن الرأسمالية والرجعية فى العالم هى الأسبق فى اقامة « أممية » لمساندة بعضها البعض .. ولقد قيل أن القيصر الروسى نيقولاى الأول عندما سمع بنبأ حدوث ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا اندفع الى البهو الذى أقيم فيه حفل راقص وأصدر أمره بصوت جهورى : « ركبوا السروج فى الخيول أيها السادة الضباط فقد اندلعت الثورة فى فرنسا ! » .

نجحت الثورة اذن .. ولعل القارىء لا يعرف أنه أجريت انتخابات فى بتروجراد لانشاء الجمعية التأسيسية وقد أعلنت النتائج فى ٣٠ نوفمبر ١٩١٧ أى بعد قيام الثورة بثلاثة وعشرين يوما ..

وحصل البلاشفة على ٤٢٤٫٠٢٧ صوتا .. والمناشفة على ١٧٫٤٢٧ صوتا .. وحزب الكاديت على ٢٤٥٫٠٠٦ صوتا والاشتراكيين الثوريون اليساريون على ١٥٢٫٢٣٠ صوتا .. والاشتراكيون الشعبيون على ١٩٫١٠٩ صوتا .. وحصلت أحزاب أخرى عديدة على أصوات تتراوح ما بين ١٥٨ صوتا وأربعة عشر ألف صوت ..

وشكلت أول حكومة للثورة من الحزب الشيوعى بقيادة لينين والحزب الوحيد الذى تحالف معه وهو حزب الاشتراكيين الثوريين

اليساريين . واستمر هذا التحالف حوالى ستة شهور عكف الاشتراكيون بعدها عن مواصلة الثورة الى نهايتها ..

فض بعدها لينين هذا التحالف وانفرد حزبه بالحكم تماما ودخلت البلاد فى عصر الحزب الواحد .. وكان ذلك فى رأينا بداية الطريق لانهيار تلك الثورة والاشتراكية كما سنبين فيما بعد ..

شعوب العالم ٠٠ والاشتراكية ؟!

لكن اذا كان كارل ماركس قد تنبأ بأن تطبيق الاشتراكية العلمية يشترط مرحلة من التطور الرأسمالى عالية ٠٠ ولذلك رشح المانيا لتكون أول دولة يمكن حدوث عملية التحول فيها حينذاك ٠

واذا كان لينين قد استطاع أن يدفع ببلده الى أن تكون أول دولة تقوم فيها ثورة اشتراكية رغم أنها كانت مجتمعا « نصف اقطاعى » لم يصل بعد الى مرحلة رأسمالية عالية لأسباب ليس هنا محل توضيحها ٠٠

فلماذا كان للاشتراكية العلمية والماركسية عموما بريق ورد فعل ايجابى الى حد كبير وان كان قد تفاوت من بلد لآخر ٠٠ فى المستعمرات والبلاد الأقل تطورا والتى سميت بالدول النامية بعد الحرب العالمية الثانية ؟ ٠٠

لماذا ترعرع الفكر الماركسى بين أوساط المثقفين المصريين ٠٠ ولماذا تكون حزب شيوعى ثم منظمات شيوعية متفرقة ٠٠ ثم حزب موحد ٠٠ وهكذا ؟ ٠

سنجيب على هذا السؤال ٠٠ بشقين ٠٠

شق موضوعى نقدم فيه الظروف الاقتصادية والسياسية التى كانت فى مصر وسمحت بنشوء هذا الفكر وازدهاره فى مراحل تاريخية بين المثقفين بالذات ٠٠

شق ذاتى ٠٠ أروى فيه باختصار كيف اعتنقت أنا شخصيا الماركسية ٠٠ وارتبطت بالحركة الشيوعية المصرية أعواما طويلة ٠٠

والهدف من الحديث عن الشقين ٠٠ هو ادراك رد الفعل الذى حدث فيما يسمى بالعالم الثالث اليوم ازاء انهيار الاشتراكية ٠٠ وفهم أبعاد الصدمة التى حدثت للمثقفين الماركسيين فى العالم الثالث كله ٠٠ والنتائج التى ترتبت على انهيار المعسكر الاشتراكى واختلال التوازن العالمى بحيث

أصبح هناك انفراد لقطب واحد بالعالم كله وبالذات العالم الثالث الذى بينه وبين احراز نقاط فى مجال التقدم والقوة وقت طويل يستطيع أن تكون له كلمة على المسرح العالمى ..

بعد نجاح التجربة البلشفية ورغم أن لينين زعيمها وجه خطابا الى شعوب الشرق يؤكد فيه النوايا الحسنة للنظام الجديد فى دولة كبرى كانت الى ذلك الوقت تعتبر احدى الدول الاستعمارية التى تتقاسم مع الدول الكبرى الأخرى العالم ..

نقول رغم هذا فانه لم يكن هناك أثر ضخم لنجاح تلك الثورة فى البلاد المستعمرة .. اذ كان انتصارها مشوبا بضباب وغموض عن فحوى ذلك النظام الشيوعى الجديد .. كما أنه لم يكن هناك قدرة لدى الدولة الجديدة لتقديم أى معونة لأى حركة من حركات التحرير الوطنية رغم أن لينين قد أضاف الى الماركسية فهما وتحديدا للاستعمار باعتباره المرحلة العليا من تطور الرأسمالية .

ولا يذكر التاريخ أن الاتحاد السوفيتي الدولة المثخنة بالجراح .. جراح الحرب الأهلية وجراح حرب التدخل .. قد استطاع أن يقدم مساعدة ما .. الا لبلد واحد هو تركيا التى كان كمـال أتاتورك قد انتصر فى ثورته على الخلافة وعلى الانجليز معا .. فقد يدهش القارىء أن الاتحاد السوفيتى قد ساهم فى انشاء عدة مصانع ومؤسسات اقتصادية فى تركيا المستقلة فى ذلك الوقت المبكر من نشأته .. وحتى الخطاب الذى تردد كثيرا أن لينين بعث به الى سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩ مشكوك فى أمره فليس له أثر فى سجلات تلك الثورة ..

على أن المثقفين الماركسيين السوفييت قد كتبوا كثيرا بعد انتصار ثورتهم عن الحركة الوطنية ومعاداتها للاستعمار ولستالين كتاب مشهور فى هذا الصدد « فى المسألة الوطنية » لأن المشكلة الوطنية كانت موجودة فى روسيا القيصرية ذاتها حيث كانت روسيا الدولة الكبرى تقهر بلادا كثيرة هى التى أصـبحت بعد ذلك جمهوريات مفروض أنهـا اتحدت اختياريا فيما سمى باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ..

علاوة على اشتداد نضال شعوب مستعمرات كالهند وغيرها .

وعلى أى حال ان القتال ضد الاستعمار وتصفيته يعتبر صلبا من أصلاب النظرية الماركسية . فاذا كان الهدف هو تصفية الرأسمالية من العالم .. فانه من الطبيعى أن يشجع الشيوعيون أى نضال ضد الرأسمالية فى أعلى مراحلها وهو الاستعمار وبالتالى فعليهم فى كل بلد أن يعملوا

على طرد قوات الاحتلال منه ·· حتى يستطيعوا التفرغ بعد ذلك للرأسمالية المحلية التى تستند قطاعات منها الى الرأسمالية الأجنبية المحتلة ·

وطرد الاستعمار من مستعمراته سيؤدى الى اضعافه طبعا اقتصادا ونفوذا ·· وبالتالى يسهل على النظام الاشتراكى القضاء عليه ·

وهذا هو السبب فى أن دور وواجب ومهمة الشيوعيين الأساسية والأولى فى أى بلد مستعمر ·· أو فيه نفوذ استعمارى أو امبريالى ·· أن يتخلصوا من ذلك الاستعمار والنفوذ لأنه نضال من أجل تحقيق الاشتراكية فى نفس الوقت ··

وتصبح القضية الأولى لديهم هى التخلص من الاستعمار ولو تحالفوا مع الرأسمالية المحلية الوطنية فى هذا السبيل ·· اذ لا صوت يعلو على صوت المعركة الوطنية ··

وقد التزم الشيوعيون فى العالم كله بهذه القاعدة ولذلك كانوا دائما الطلائع الأولى والأكثر استبسالا فى النضال ضد الاستعمار والامبريالية ·· وأساتذة فى فن الدعوة للجبهة الوطنية من كل القوى المعادية للاستعمار ·· ومن شاء أن يستزيد علما فى هذا الشأن فعليه قراءة نضال الشيوعيين الصينيين ·· ثم أيضا نضال الشيوعيين فى مصر ضد الاستعمار والتبعية ·

والحركات الوطنية للتحرير موجودة طبعا قبل ظهور الشيوعية والشيوعيين فى العالم ·· وهناك معارك باسلة خاضتها الشعوب وقادتها من غير الشيوعيين ضد الاحتلال الأجنبى منذ فجر التاريخ ·

ولقد ظلت هذه الحركات مستمرة فى نضالها دون دعم من الخارج ·· خاصة الدول الكبرى التى كانت على شاكلة واحدة من حيث استعمار الشعوب وتقسيم العالم فيما بينها · الى أن ظهر الاتحاد السوفيتى ··

ولفت الاتحاد السوفيتى الأنظار بين الشعوب المستعمرة خلال الحرب العالمية الثانية من حيث مقاومته الباسلة ضد النازية التى كانت الدعاية الغربية قد برعت فى تصوير بشاعة استعمارها وعنصريتها بالنسبة لشعوب العالم ··

ولا شك أن التحالف العالمى الذى حدث بين الاتحاد السوفيتى والمعسكر الرأسمالى العالمى قد أفاد الاتحاد السوفيتى كثيرا وساهم فى تقديمه بصورة أفضل من الصورة الأولى لشعوب العالم ··

بل أنتجت الولايات المتحدة أفلاما عن الاتحاد السوفيتى تقدمه فى أفضل صورة ٠٠

اذ أنه فى اطار ذلك التحالف خفت الدعاية ضد الشيوعية التى كانت تصوره بلدا متوحشا ديكتاتوريا معاديا للانسان وحقوقه ٠٠

وفى مصر ظهرت لأول مرة كتب عن الحياة فى الاتحاد السوفيتى ويعتبر عصام حفنى ناصف من طلائع الكتاب الذين قدموا مثل تلك الكتب٠

وتبادلت مصر والاتحاد السوفيتى العلاقات الدبلوماسية لأول مرة عام ١٩٤٣ فى عهد وزارة الوفد بعد أن كانت السفن السوفيتية القليلة التى كان يحدث أن تأتى الى مصر تنقل قطنا تضطر الى الوقوف خارج الميناء ٠٠

وبعد الحرب بدأ الحديث عن اتجاه فرغلى باشا أكبر تجار القطن لبيعه الى الاتحاد السوفيتى ٠٠ بينما كان كتاب مثل محمد التابعى يحذرون من العلاقات الجديدة مع هذا البلد الشيوعى الذى سيقضى على الرأسمالية والباشوات !

ولكن أخطر الآثار كانت عندما بدأت حركات التحرر الوطنى فى العالم تشهد أمرا غير مألوف وهو مساندة بلد كبير ٠٠ لمطالبها فى التحرر ٠٠

فقد أعلن السوفيت وقوفهم فى كل المحافل الدولية وخاصة هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن مع نضال تلك الشعوب وضرورة جلاء قوات الاحتلال ٠

وفى مصر تمتع المصريون بوقوف السوفييت بجانب مصر عندما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بواسطة النقراشى باشا الذى كان يرأس حكومة ائتلاف من السعديين والدستوريين أكبر أحزاب الأقلية فى مصر ٠٠

وقد أيد جروميكو ممثل الاتحاد السوفيتى فى المجلس طلب مصر جلاء القوات الانجليزية من على أرضها ٠٠ وسارت مظاهرات فى مصر تهتف بحياة الاتحاد السوفيتى ٠٠ وكان الذى نظمها منظمات شيوعية كانت قد بدأت تؤسس فى البلاد خلال السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية ٠٠ وكانت أهم تلك المنظمات هى الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان يتزعمها هنرى كورييل وهو ابن مليونير يهودى مصرى ٠٠ ومنظمة اسكرا (الشرارة) التى كان يتزعمها هلال شوارتز وهو مثقف يهودى مقيم فى مصر ٠٠ ومنظمة الفجر الجديد التى كان يقودها اثنان أحدهما جاك ده كومب وهو يهودى سويسرى مقيم فى مصر ٠٠ وأحمد

رشدى صالح مثقف مصرى ٠٠ وكان جاك ده كومب يرى أنه لا مكان للأجانب فى قيادة الحركة الشيوعية فى مصر ٠٠ بل عليهم أن يتركوها للمصريين ٠٠ وبالفعل هاجر الى سويسرا ٠

وهذه الحركات الشيوعية الجديدة لم تكن لها علاقة قط بالحزب الشيوعى المصرى الذى تأسس عام ١٩٢٢ وحلته الحكومة عام ١٩٢٤ وظلت تطارد أعضاءه حتى صفى تماما وقاطعته الحركة الشيوعية العالمية بعد أن دمغته بأنه أصبح تحت سيطرة العناصر البوليسية مائة فى المائة !

وقد ساعد على نشأة تلك الحركات النضال العالمى ضد الفاشية والنازية فى الثلاثينات ٠٠ وكانت هناك قلة من المثقفين المصريين تعى تماما معنى النازية بعكس السواد الأعظم الذى كان مخدوعا بها متصورا أنها معادية للبريطانيين وبالتالى فيمكن أن تساعد الشعب المصرى الى نضاله للتحرر من احتلالهم ! ٠

وبدأ النضال المصرى ضد الانجليز يلتفت الى نضالات الشعوب الأخرى بحكم أن تأييد الاتحاد السوفيتى كان دائما وواضحا لتلك النضالات وظهر تعبير سياسى قديم جديد على الساحة هو « الأممية » أى تضامن الشعوب والأحزاب ذات الهدف الواحد فى نضالها ٠٠

وأصبح مألوفا أن تجد مظاهرات فى جاكارتا تؤيد نضال الشعب الفيتنامى ضد الاحتلال الفرنسى ٠٠ وفتيات فرنسيات يرقدن على قضبان السكة الحديد لمنع القطار الذى يحمل جنودا وأسلحة موجهة الى فيتنام ٠٠ من المرور ٠٠ واشتد ساعد الحركة الوطنية فى كل أنحاء العالم ٠٠ وبدأت شعوب كثيرة تستقل ٠

وعندما كان الشعب يظفر باستقلاله ويتجه الى التنمية كان الغرب الرأسمالى يحجم عن مساعدته فى ذلك المجال أو يضع شروطا مجحفة ٠٠

ولكنه يجد فى المقابل الاتحاد السوفيتى وسائر البلاد الاشتراكية فى أوربا والصين وحتى كوريا الديمقراطية تتقدم له بالعون والسلاح والخبراء وبشروط سهلة أثرت فى سياسة الغرب فيما بعد فجعلته يخفف من شروطه ٠٠

ثم ان البلاد المستقلة وجدت أن الاتحاد السوفيتى يحول دون تدخل الدول الغربية التى كانت تستعمرها فى شئونها الداخلية أو اعادة احتلالها :

ومع ذلك حدثت أحداث تخالف ذلك الخط من جانب السوفيت فى

بعض البلاد لكنها كانت تعالج بسرعة ويتراجع السوفيت عن الخطأ ويعتذرون ..

وفي مصر شاهد المصريون كيف ساعدهم السوفيت وسائر الدول الاشتراكية فى بناء الركيزة الأساسية للصناعة حتى اليوم وبشروط سهلة . كما كان خبراؤهم يعملون بأجور أقل كثيرا من أجور خبراء الغرب .

ولعل السد العالى رمز لذلك النوع من المساعدة الاشتراكية فى اقامة البنية الأساسية للصناعة فى مصر .

وكذلك كان تسليح الجيش المصرى . وعندما انتصرنا فى حرب ١٩٧٣ قال السادات للسفير السوفييتى لقد انتصرنا بفضل الأسلحة السوفيتية ..

وفى خلال علاقة متشعبة كهذه بين الدول الاشتراكية والبلاد المستغلة كان ضروريا أن تقع مشاحنات نتيجة أخطاء متبادلة من الطرفين .. مثل ما حدث فى مصر عندما أصر السوفيت على منع دخول وزير الدفاع المصرى قاعدة للصواريخ بعد حادث استيلاء الاسرائيليين على الرادار فى البحر الأحمر !

وكذلك عندما كان بعض الخبراء السوفييت يشترون الذهب بأجورهم ويأخذونه معهم الى بلادهم . وهذا ممنوع .

أثر آخر لوجود النظام الاشتراكى العالمى على الدول المستقلة حديثا .. ان كثيرا من قادتها الوطنيين قد تأثروا بتقدم ذلك النظام .. فأخذوا بعضا من أفكاره وتطبيقاته وخاصة الجانب الشمولى فى الحكم والادارة .. فأقاموا أنظمة ديكتاتورية ذات اتجاهات تقدمية فى الاقتصاد والشئون الاجتماعية حتى أنه جاء وقت فكر فيه قادة سوفييت على رأسهم خروشوف أنه من الممكن تحول بعض هؤلاء القادة الوطنيين الثوريين الى الايمان بالاشتراكية (كان كاسترو قد تحول فعلا من زعيم وطنى الى زعيم اشتراكى) .. وبالتالى ظهرت نظريات تقول ان الحزب الشيوعى لم يعد يمثل ضرورة اجتماعية أو سياسية فى تلك البلاد وانه من الأفضل لأعضائه أن ينخرطوا فى التنظيم الواحد الذى أنشأه مثل هؤلاء القادة الثوريين من أبناء البرجوازية الصغيرة ..

وهذا هو ما حدث بالفعل فى مصر عندما قرر الحزب الشيوعى المصرى حل نفسه بناء على اتفاق مع جمال عبد الناصر لدمج نفسه فى الاتحاد الاشتراكى العربى . وتبين بعد ذلك أن عبد الناصر ضحك على

الشيوعيين ولم يدمج فى التنظيم الطليعى أكثر من ٢٥ عضوا من أعضاء الحزب وألحق عددا آخر بأجهزة الاعلام « للتبشير بالاشتراكية » على حد تعبيره لأسرة « الطليعة » فى جريدة الأهرام ••• وعين ثلاثة أو أربعة فى مراكز وظيفية متوسطة لكن عالية نسبيا •• واحد فقط منهم كان رئيسا لشركة مصر لتجارة السيارات هو المرحوم د• فؤاد مرسى •

ولكنه حرص تماما على عدم تعيين أى واحد غيره فى ادارة أى شركة•• رغم خبراتهم الكبيرة •• لقد كان حريصا على مصالح الطبقة الجديدة التى تولت ادارة القطاع العام كله ••

ومع ذلك كان أى شيوعى يخرج عن الخط الذى رسمه عبد الناصر لعلاقته بالشيوعية بعد أن أفرج عنهم عام ١٩٦٤ •• كان يقبض عليه ويودع المعتقل •• حتى أنه عندما مات جمال عبد الناصر كان هناك ١٢٠ معتقلا شيوعيا أفرج عنهم أنور السادات كما أفرج عن المعتقلين والمسجونين من الاخوان المسلمين •

وقد بدا التزام الشيوعية فى مصر بأولوية القضية الوطنية •• اذ أنهم رغم ما ألحقه بهم عبد الناصر من أذى واضطهاد •• الا أنهم ظلوا حلفاء له يدافعون عنه لأنهم رأوه دائما قائدا وطنيا •• وزعيما عربيا قوميا •• ومنحازا الى جانب الفقراء والكادحين ••

وكان ذلك وما زال يثير دهشة الكثيرين من المثقفين •• لأنهم تناسوا أن من القواعد الأساسية التى غرستها الماركسية فى أعماق الشيوعيين هى النظرة الموضوعية •• وان كان سيثبت بعد ذلك أن الكثيرين تخلوا عن تلك القاعدة •• وعندما حدث التخلى بدأ الانهيار ••

خلاصة القول أن شعوب المستعمرات وجدت فى الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى نصيرا لنضالها •• وقوة ضغط على أعدائها من الاستعماريين والأمبرياليين •• بحيث أن تصرفات هؤلاء الأعداء كانت محكومة بادراك المعسكر الاستعمارى أنه ليس وحده فى الساحة ••

كما أن هذه الشعوب بعد أن استقلت وجدت فى المعسكر الاشتراكى فى عملية التنمية لاقتصادها •• وتربية الخبراء لها •• ومدها بالتكنولوجيا •• وبالسلاح لمواجهة أى أخطار عدوانية •

ولذلك فعندما كان خبراء السياسة يقولون أن العالم بعد الحرب العالمية الثانية قد انقسم الى معسكرين : معسكر الاشتراكية •• ومعسكر الاستعمار لم يتعدوا الحقيقة ••

ومعسكر الاشتراكية هذا لأنه كان يناضل من أجل افشال أى محاولة من محاولات المعسكر الآخر لاشعال نيران حرب عالمية ثالثة بهدف القضاء

عليه كما دعى الى ذلك ونستون تشرشل لأول مرة في خطاب علنى فى الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعام واحد ..

نقول ان معسكر الاشتراكية هذا قد استطاع أن يكتسب الى جانبه كتلة الدول المحايدة أو غير المنحازة التى كانت تناضل من أجل السلام أيضا فأصبح هناك ما اصطلح على تسميته بالجبهة العالمية المعادية للاستعمار والحرب .

وسنجد فى عملية التصويت فى هيئة الأمم المتحدة توافقا فى التصويت على مشاريع القرارات بين كتلة عدم الانحياز والمعسكر الاشتراكى فى أكثر من ٩٠٪ من تلك القرارات .

من ناحية أخرى فى داخل البلاد غير المنحازة حدث فى كثير منها نوع من التحالف بين الأحزاب الشيوعية وسائر الأحزاب الوطنية للمضى بخطى التنمية الى الأمام .

لقد كان الشيوعيون جزءا من القوى الوطنية .. لكنهم يختلفون بأنهم كانوا يريدون ثورة اجتماعية من نوع خاص .. أى الثورة الاشتراكية ..

وكانت هناك قوى اجتماعية أخرى لا تقتصر على التحرر الوطنى فقط بل تريد احداث تغييرات اجتماعية هامة أيضا ولكن ليس على الطريقة الماركسية اللنينية ..

وأحيانا كانت تحدث صراعات بين تلك القوى .. وتتخذ أشكالا حادة وربما دموية ..

فالذى سيطر على الفكر الماركسى فى تلك المرحلة أنه لا توجد غير اشتراكية واحدة فى العالم هى الاشتراكية العلمية التى جاء بها ماركس وانجلز .. ومضى بها الى التطبيق فلاديمير اليتش لينين .. وأن ما عدا ذلك من اشتراكية يدعو اليها بعض الناس فانما هى من قبيل التزييف والكذب والتدليس البرجوازى ..

وكان أبغض أنواع تلك الاشتراكية « الاشتراكية الديمقراطية » التى كان الشيوعيون يصفون قادتها بالخيانة والعمالة للرأسمالية والامبريالية العالمية .

أما تلك القوى الوطنية التى كانت تستهدف احداث تغييرات اجتماعية تحت أى شعارات : اشتراكية ديمقراطية ـ اشتراكية تعاونية أو اسلامية ... الخ .. فكانت تعادى بدورها الماركسيين وترى فى اشتراكيتهم

خطرا ومنافسا كبيرا ·· وكانت تضـع يدها فى يد الرأسمالية أحيـانا للحرب ضدها ··

لكن الشيوعيين فى العالم الثالث لم يكن يفت فى عضدهم شىء من هذا فقد كانوا ممتلئين بالثقة المطلقة في أفكارهم والنظام الذى يريدونه بحكم أن زملاء لهم قد نجحوا فى تطبيقه من قبل وأصبح أكثر من ثلث العالم اشتراكيا ، بل يشكل معسكرا قويا يقف الى جانب الضعفاء ··

كان الوجود المادى للاشتراكية والنجاحات التى تحققها سواء فى معدلات الانتـاج أو مساعدة الشعوب أو الوقوف فى وجه المؤامرات العدوانية ·· أو غزو الفضاء فيما بعد قوة واعتزازا لكل شيوعى فى الأرض ··

وما كان يدور بخلد أحد منهم على الاطلاق أن هذا المعسكر كله سيكون مصيره الى زوال وانهيار وبعد عدة سنوات ؟!

وكان هذا يجعلهم على ثقة كاملة أن النظام الرأسمالى الى زوال وأن الاشتراكية حتمية ·· « وجايه جايه » كما كنا نقول على المقاهى فى ثقة واعتزاز وهذه الثقة هى التى جعلت الشيوعيين لا يبخلون بالتضحيات · اذ أن الدولة المصرية منذ ظهور الحركة الشيوعية قد سنت قوانين تعاقب الشيوعى بالسجن الى مدى عشر سنوات ·· كما كان الشيوعيون قوام أى معتقل بعد اعلان الأحكام العرفية ·· كما لم يكونوا يعبئون بالحملة الأيدولوجية من الافتراءات والشتائم والسباب ضدهم ·· ولا المطاردة فى الرزق والعمل ·· ومن بين الشتائم التى وجهت اليهم اتهامهم بالصهيونية·· لموقفهم التاريخى السليم من قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ الذى يلهث كل العرب الآن بعد حوالى من خمسين عاما لتحقيق بعضه ·· ولكن بعض اليهود قد شاركوا فى تأسيس بعض المنظمات الشيوعية ·· بينما وجدت منظمات لم يشترك فى تأسيسها أو حتى عضويتها يهودى واحد ·· ومع ذلك كان الاتهام يصيب الجميع ··

واتهموا بالعمالة للاتحاد السـوفيتى ·· وقبض الأموال « ثمنـا لكفاحهم » ! ·

وبالطبع لم تجرؤ جهة تحقيق واحدة أو محكمة فى مصر أن توجه اتهاما بالصهيونية أو العمالة لأى شيوعى متهم فى قضية ··

لقد كانت هذه مجرد شوشرة وغطاء دعائى للتغطية على محاكمتهم لأنهم كانوا يدافعون عن الديمقراطية منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ·· وقبل ذلك كانوا ضد الاستعمار والنظام الملكى والرجعية ··

واتهموا بالانحلال ٠٠ والكفر والالحاد ٠٠

لكنهم صمدوا لهذا كله ٠٠ وان كانوا طبعا مثل أى قوة سياسية قد ارتكبوا أخطاء سياسية لأنها قامت على تحاليل خاطئة مثل موقفهم من ثورة ٢٣ يوليو حيث وقف فريق منهم ضد تلك الثورة من أولها متهما اياها بالديكتاتورية والفاشية الحليفة للولايات المتحدة ٠٠

ولقد لاحظ النظام الحاكم فى مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو أنه رغم الحاقه الأذى واضطهاده للشيوعيين المصريين فان الاتحاد السوفيتى لم يكف عن تقديم العون السياسى والاقتصـــادى للثورة ٠٠ ولقد اضطهد الشيوعيون المصريون اضطهادا لا مثيل له فى عز ازدهار المعونات الاقتصادية السوفيتية لمصر ٠٠ بل فى عز بناء السد العالى ٠٠ الرمز الأكبر لتلك المعونة والصداقة بين البلدين ٠٠

ولهذا فان كثيرا من الوطنيين الذين يرفضون الشيوعية رحبوا دائما بالتعاون السوفيتى ببلادهم ٠٠ وحرصوا على وجود الصداقة بين السوفييت وبين بلادهم ٠٠ لأنهم وجدوا فيه سندا لنضالهم وبنائهم لمستقبلهم ٠٠ وبهذا نكون قد عرضنا بسرعة لأثر وجود المعسكر الاشتراكى فى حركة شعوب المستعمرات وتحررها من الاستعمار بل وقيامهـا ككتلة متميزة تحاول أن يكون لها دور على المسرح السياسى العالمى ٠٠

لماذا تجذب الشيوعية الشباب ؟

انتقل بك الى الشق الذاتى ٠٠ كيف تحولت أنا من شاب وطنى صرف ٠٠ أى من مجرد شاب كان يهتف فى الشارع بسقوط الاستعمار ويكره الاحتلال الانجليزى ٠٠ ولا تمتد آفاقه الى أبعد من ذلك فلا هو يعرف شيئا عن الثورة الاجتماعية ولا الاشتراكية ولا كارل ماركس أو أشباهه ٠٠

ولست هنا أسرد سيرة ذاتية وانما سألقى الضوء على بعض نواحى وتطور الحياة عندى حتى يمكن ادراك لماذا يجتذب شباب مخلص ٠٠ الى الماركسية فى البلاد المستعمرة أو المستقلة حديثا ٠٠

وحتى يمكن ادراك أن الأمر لا يعدو أن مثل هؤلاء الشباب يرون فيها ، أى فى الماركسية ، طريق الخلاص لبلادهم مما تعانيه من احتلال أجنبى واحتلال قهر اجتماعى محلى لو أجاز التعبير ٠٠

وأن الأمر لا علاقة له بالعقد النفسية كما كان المرحوم عباس العقاد يحاول أن يصور الأمر ٠٠ أو أن هناك تحريضا جنسيا من الجماعات الشيوعية ٠٠ أو اصطيادا بالمال ٠٠ الخ ٠٠

اننى دخلت فى اطار الحركة الوطنية فى سن مبكر بفضل أبى الذى كان ناظرا لمدرسة ابتدائية أى موظف بسيط فى احدى قرى مصر « المناشى أو منشاة القناطر » من أعمال مركز امبابة مديرية الجيزة أيامها ٠٠

وكان أبى وفديا صميما وان لم يكن له تأثير أو شهرة فى أى لجنة من لجان الوفد فى ذلك الوقت ٠٠ وانما كان نشاطه الوفدى يقتصر على الدفاع عن ذلك الحزب فى كل لقاءاته وجلساته مع عيون القرية : العمدة وضابط النقطة ووكيل مكتب البريد وبعض التجار والمدرسين

الذين تعودوا على اللقاء مساء كل يوم فى ساحة بيت واحد منهم — وان كان أكثر الأماكن تقبلا لديهم هو ساحة بيت تاجر أقمشة معروف كان اسمه الحاج عبد الفتاح رمضان ·· على شاطىء النيل مباشرة فى مواجهة استراحة السادات الآن ·· التى كانت استراحة فاروق من قبل فى حدائق القناطر الخيرية ··

ولقد تعلمت كثيرا من هذه اللقاءات فعندما كانت تعقد فى ساحة بيتنا كان على أن آتى لهم بالشاى وأجلس قريبا منهم أصبه أو أصنع غيره أو آتى لهم بقلل الماء والأكواب ··

وكنت أستمع الى ما يقولون ·· وما يتحاورون فيه وكانوا يتحاورون فى حماس شديد ·· ويغضبون من بعضهم البعض أحيانا حتى يخفف البعض نار الغضب باشعال سيجارة ·· أو طلب دور شاى آخر ·· أو نكتة ·· أو حكاية ريفية طريفة ! · وكان الجميع أتقياء ·· يترددون على المسجد المجاور للصلاة فى مواعيدها ·· ويرددون دائما فى أحاديثهم استشهادا بآيات الله وأحاديث الرسول ·· وكان أبى هو فارس ذلك الميدان لأنه كان قد تعلم فى الأزهر ·· وكان يتحدث دائما باللغة العربية الفصحى تقريبا فى حياته الخاصة ··

ولكن أبى كان فارسا فى مجال آخر ·· لقد كان من المصريين القلائل الذين كانوا يكرهون هتلر وموسولينى ويعتبرهما ديكتاتورين دجالين يضحكان على الشعوب العربية ·· ولذلك كان أبى يؤيد التحالف الغربى ضد هتلر فى الحرب ويؤكد انتصاره فى النهاية رغم الهزائم التى لحقت به فى السنوات الأولى للحرب ··

وكان أبى يردد كثيرا دفاعا عن الديمقراطية ·· التى يدافع عنها هذا التحالف ·· ويقول للحاضرين ان هتلر يعتبرنا العنصر قبل القردة مباشرة ··

وأعتقد أننى شربت من أبى وأنا طفل فى الثامنة من عمرى هذا الوعى وتلك الكراهية للنازية ·· حتى أننى وأنا فى الثانية عشرة من عمرى عام ١٩٤٠ بكيت عندما سمعت فى الراديو بسقوط فرنسا فى أيدى النازيين ! ·· وبث الوطنية فى من أبى وأخى الأكبر ·· يرحمه الله الذى كان وأنا فى المدرســـة الابتدائية فى القناطر الخيرية طالبا فى الابراهيمية الثانوية فى القاهرة وشارك فى مظاهرات أو هبة الطلبة عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ وكان يعود يوميا من القاهرة بالقطار ويحكى لأبى وأنا جالس استمع لأخبار وشعارات المظاهرة وضرب البوليس لهم وعندما نشرت

جريدة البلاغ صورة له وهو مضروب من البوليس مكتوب تحتها اسمه « دسوقى الطويلة » كنت مزهوا غاية الزهو ..

فى مثل هذه السن المبكرة بدأ اهتمامى بالسياسة وأذكر انى بدأت فى قراءة الصحف يوميا بانتظام منذ كان عمرى ثمانية أعوام .. أى عندما دخلت المدرسة الابتدائية التى كانت فى مستوى المدرسة الاعدادية اليوم ..

وكانت أسرتى أسرة فقيرة .. فأبى ينحدر من أسرة فلاحين كادحين فى قرية سنتريس منوفية .. وكان هو الوحيد الذى تعلم تعليما منتظما وحصل على شهادات .. وعين مدرسا ..

وخلال قيامه بالتدريس اصطدم بمفتش انجليزى وتطور الأمر الى أنه ضربه .. ففصل أبى من التعليم لمدة عشر سنوات حتى قررت وزارة الوفد اعادته مع كل الذين كانوا ضحايا للاحتلال عام ١٩٢٤ .

ولكن فقرنا كان فقرا معقولا نسبيا .. فقد كنا نستطيع أكل اللحم مرة كل أسبوع .. وباقى الأسبوع يقول .. وخضروات « قرديحى » ..

ولم يستطيع أبى أن يشترى لى قمصانا فى المدرسة الابتدائية .. بل كنت أرتدى بدلة جبردين رخيص ثمنها ٢٥ قرشا فقط ولها شبه منديل يغطى الصدر حيث كان تحته الفانلة ..

ولم نكن نستطيع الافطار بأكثر من العسل الأسود وما أدراك ما العسل الأسود على حد تعبير المرحوم عميد الأدب العربى طه حسين .. وأحيانا الجبن القريش .. ونكون غاية فى السعادة لو أكلناه بالزيت !

ولم يكن بوسعنا أكل الخبز من القمح .. بل من الذرة « الرغيف المرحرح » .. وأحيانا كل شهر أو شهرين يمكن أن نسعد بارغفة من خبز القمح فى قريتنا أو فى « زيارة » يأتى لنا بها أحد أقاربنا منها !

ولم أعرف السرير فى طفولتى .. حتى دخلت المدرسة الثانوية .. بل كنت أنام على حصير مفروش عليه بطانية أو لحاف .. وهذا ساعدنى ولا شك على استقبال « البرش » فى السجن استقبالا حسنا أو غير متأفف على الأقل !

كما ظللت أمشى حافيا حتى ظفرت بميزة لبس القبقاب بعد حصولى على شهادة الابتدائية (كان ثمن القبقاب أيامها قرشان فقط) .

ولم أكن أستطيع أن آكل البيض الا مرة كل شهر وبدون استخدام السمن لقلية دائما الزيت .. رغم أن أسعار البيض كانت ثمانية بقرش صاغ واحد ..

أما مصروفي اليومي فقد كان قرش صاغ واحد في الشهر كله ٠٠ أقبضه يوم يقبض أبي مرتبه ولذلك عشقت حتى الآن الجاتوه والطوفي ٠٠ لأني كنت أهرع في اليوم التالي الى كانتين المدرسة لأشتري قطعة جاتوه أو « بسطة » بنصف قرش ٠٠ وطوفي « ماكنتوش » عشرين قطعة بالنصف قرش الباقي ٠٠

وألتهم هذا في سعادة شديدة رغم أني أعرف أني سأقابل باللوم والتقريع عندما أعود الى البيت وتسـألني أمي عن مصـير مصروفي ٠٠ فأحكي ما حدث وستتهمني هي واخوتي الكبار بالتبذير ٠٠

وأحيانا كنت أشتري بيضا بنصف القرش (أربع بيضات) وأتوسل الى أمي أن تعطيني ملعقة سمن بدلا من الزيت اللعين لأقليها فيها ٠٠ وكثيرا ما كانت تضعف أمام توسلاتي ٠ وتحقق رغبتي ٠٠

ولم تكن الفاكهة تعرف طريقها الى بيتنا الا نادرا ٠٠ ولذلك كنا نتحايل على الحصول على حلوى ٠٠ عن طريقة رش رغيف ساخن من الفرن ببعض السكر مع ملعقة من السمن ثم آكلها ٠٠ أو تذويب بعض السكر في الماء ثم تقطيع الخبز فيه وغليه ٠٠ ثم آكله ٠٠ فقد كان اللبن سلعة نادرة عندنا ٠٠

كما لم نكن نشرب شايا الا بقايا ما في ابريق الشاي بعد انصراف الضـــيوف ! ٠

هذا المستوى من العيشة ٠٠ كان أفضل بكثير من مستوى الذين كنا نعيش وسطهم ٠٠ فقد كانوا في محطة المناشي مجموعة من عمال الدريسة الذي كان مرتب الواحد منهم ثلاثة جنيهات ووراءه أسرة كبيرة ويسكنون مساكن أعدتها لهم الحكومة كأنها عشش الترجمان ٠٠ ولا ماء ولا صرف صحي ولا كهرباء طبعا ٠٠ والماء من طلمبات خاصة مدقوقة هنا وهناك ٠٠ أو من صهريج مياه القطار حيث « الغراب » الذي ترتوي منه اذ كانت تسير بالبخار بعد حرق الفحم ٠٠

كانوا لا يرون اللحم الا كل شهرين أو ثلاثة ٠٠ ويأكلون المش ٠٠ ويتجول أبناؤهم في حقول الفلاحين يجمعون السريس والجعضيض ٠٠ ولا يستطيعون ادخال أبنائهم المدارس الابتدائية لأن مصروفاتها السنوية كانت ستة جنيهات ونصف في العام ٠

وكان مرتب أبي في ذلك الوقت تسعة جنيهات فقط في الشهر لأنه كان من المنسيين ٠٠ ويقيم في مسكن نظيف أقامته له الحكومة ٠٠

وبالتالى كان هو ومعاون محطة السكة الحديد وناظر المحطة ووكيل مكتب البريد وأسطى عمال الدريسة يمثلون الأرستقراطية فى تلك القرية الصغيرة من محطة المناشى ..

وكان مستوى ناظر ومعاون المحطة المعيشى أفضل من مستوانا لأن مرتب كل منهما كان اثنى عشر جنيها للمعاون وخمسة عشر جنيها للناظر كما أن بيت كل منهما كانت تحيط به حديقة فيها خضروات وفواكة ومكان فسيح لتربية الطيور ..

وشممت رائحة الارستقراطية فى بيت كل من المعاون والناظر فقد كانا مسيحيين .. كل منهما متزوج بسيدة من القاهرة جميلة تقرأ وتكتب وكانتا ترتديان ملابس نظيفة وأنيقة لم أكن أرى مثلها فى بيتى .. كل يوم أحد وتتجهان مع عاملين من عمال المحطة فى سيارة الى الكنيسة بالقناطر .. وكثيرا ما كانت كل زوجة وكنت صديقا لأبنائها تعطينى كلما ذهبت اليهم قطعة من الحلوى أو حبة فاكهة .. وفى طبق نظيف .. وكان يثير اهتمامى جدا أن تقدم لى الشاى فى فنجان من الصينى .. ومعه سكرية ولبانة .. وقد رأيت هذه الأشياء لأول مرة فى حياتى .. وأعتقد أن « عشرة » هؤلاء الناس قد غرست فى نفسى عدم التفرقة بين الناس على أساس دينى على الاطلاق .

لكنى لاحظت الارستقراطية الحقيقية (نسبيا) فى المدرسة .. حيث كان معنا عدد من أولاد العمد والتجار فى القرى المجاورة لكن أخطر من هذا أولاد المهندسين الذين كانوا يشيدون القناطر الخيرية الجديدة .. (من عام ١٩٣٦) ..

وهم مهندسون مصريون ولكن لأن الانجليز كانوا يشرفون على البناء فقد شيدوا لهم قبل أى طوبة فى القناطر ذاتها مستعمرة سكانية جميلة مازالت باقية حتى اليوم بحيث يعيش كل مهندس

(مرتب المهندس أيامها من ١٢ الى ٢٥ جنيه) ..

فى فيلا أو شقة واسعة حولها حديقة واسعة ..

وكان أولاد هؤلاء المهندسين .. يتلقون وقت الفسحة (كان نظام اليوم الكامل متبعا) وجبات طعامهم ..

فرأيت لأول مرة فى حياتى الأطعمة على اختلاف أنواعها فى الأعمدة « ناطحة السحاب » التى كانت تصلهم ، المحمر والمشمر كما يقولون .. والفواكة وأنواع السلطات ..

ومن حسن حظى أنى كنت جارا فى الفصل لابن أحد هؤلاء المهندسين وكان اسمه أسعد محمد شاهين وهو مهندس أيضا اليوم ..

وكنا أصدقاء اذ كان معظم التلاميذ يسعون الى مصادقتى لأنى رغم كل ظروف الفقر هذه كنت الأول فى الفصل دائما فى امتحانات الفترة .. وكنت « الألفة » .. كما أنى كنت مؤدبا غير مشاكس أو مشاغب .. كما كنت متفوقا فى جمعية الخطابة والتمثيل وموضوعات الانشاء .

أصر أسعد محمد شاهين على أن أشاركه الغداء كل يوم فى تلك الوجبة الشهية التى كانت تصله بينما كنت أحمل معى الجبن القريش أو القديمة وأرغفة خبز الذرة ..

تذوقت اللحم الذى يأكله الأغنياء وأذكر أن ما أثار دهشتى واعجابى هو « البطاطس بيورية » التى أعشقها حتى اليوم ..

وزرت بيوت أبناء العمد .. وشاهدت ما هناك .. وعرفت أن هناك « فرق » ..

كل ذلك كان بلا شك يختمر فى رأسى .. وأنا أزداد وعيا من الناحية السياسية .. سواء فى جلسات الاستماع لشلة أبى .. أو ما يقوله أخى الأكبر .. أو ما أقرأه فى الصحف ..

الى أن حدثت حادثة فى المدرسة اعتقد أنه كان لها تأثير عميق جدا فى تنمية وعيى وتوجيهه الى الناحية الاجتماعية .. وأنا أرجو أن يدرس كل مسئول عن التعليم هذه الواقعة .. وكذلك تفاصيل الحياة فى المدرسة .. التى تعمدت الاطالة فيها لزيادة الفائدة ..

كانت لدينا فى المدرسة الابتدائية بالقناطر (أعوام ٣٦ ــ ١٩٤٠) .. فسحة فى الظهر ساعة ونصف .. اليوم الدراسى يبدأ فى الثامنة صباحا حتى الرابعة الا ربع مساء ..

خلال تلك الفسحة كنا نتناول الغداء .. ونمارس النشاط المدرسى .. والغداء كان فى قاعة الطعام الكبيرة بالمدرسة حيث كانت توجد الموائد .. وكانت المدرسة تقدم غداء مقابل ٢٥ قرشا فى الشهر خمسة أيام فى الأسبوع . وهو غداء جيد جيدا : خضار ولحم وأرز وسلطة وفاكهة .. ولكن أبى كان عاجزا عن دفع هذا المبلغ .. لذلك كنت أخرج كل يوم ومعى « منديل محلاوى » أو « ورقة جرنال » تحوى بعض الأرغفة وقطعة جبن قريش أو قديم .. وفى أيام نادرة بيضة أيضا ..

عندما كنا ندخل قاعة الطعام .. كان التلاميذ الذين يأكلون طعام المدرسة يجلسون فى الصف على الشمال على موائدهم التى رصت عليها

الأطباق ٠٠ أما الذين معهم غذاءهم من الخارج فيجلسون على موائد على اليمين ٠٠ وكما قلت كان البعض يأتيهم طعامهم من الخارج وقت الظهر فى سيارات لضمان سخونته ومن بين هؤلاء أولاد المهندسين ٠٠ ومنهم صديقى وجارى فى الفصل أسعد محمد شاهين ٠٠

فكنا نجلس الى جوار بعضنا البعض وأفتح لفافتى الفقيرة جدا ٠٠ ثم هو يفتح عمود الطعام ويرصه ٠٠ ونبدأ فى تناول الطعام ٠٠ طعامه هو طبعا ٠٠

وظل الحال السعيد هكذا زمنا طويلا الى أن حدث أن دخل الناظر وكان رجلا فارع الطول مهيبا اسمه عبد القادر بك على ما أذكر ٠٠ ويرتدى نظارة وهز دخوله المكان طبعا وصمت كل شىء ٠٠ فقد كان للمدرسين والنظار آنذاك احترام بل قل قداسة ٠٠

مر الناظر على موائد الشمال ٠٠ ثم جاءنا فى موائد اليمين ٠٠ وبمجرد أن رأى طعام الفقراء منشورا على الموائد ونحن جلوس بجانب طعام الأغنياء من أمثال أسعد شاهين ٠٠ الا ووقف وصاح ثائرا موجها الحديث الى ضباط المدرسة وفراشيها وسكرتيرها الذين كانوا فى معيته ٠٠ قائلا :

ــ كيف تسمحون بالأكل الوسخ ده مع أولاد الناس ! ٠

وشعرت أنى أختنق ولست خائفا ٠٠ « أكلنا الوسخ ؟! » ٠٠ نعمة ربنا كما يقولون لنا فى المدرسة ٠٠

وما معنى أولاد الناس ٠٠

ولكنى لذت بالصمت وأطرقت برأسى فى الأرض كما أطرق أصحاب الأكل الوسخ جميعا ٠٠ وظللنا صامتين كمن ينتظرون حكما قاضيا ٠٠ ووجدت الفراشين يندفعون الى « الطعام الوسخ » ٠٠ يجمعونه ٠٠ قبل أن ينطق الناظر بالحكم فى صوت عال أيضا ٠٠

ــ بره ٠٠ بره ٠٠ ماحدش يجيب « أكل وسخ » تانى هنا ولا يدخل هنا مع أولاد الناس ٠٠ « مرة ثانية يكرر أولاد الناس » ٠٠

ويبدو أنه سأل نفسه وأين سنأكل اذن ؟ ٠٠

اذ قال أيضا فى صراخ ٠٠

ــ تأكلوا هناك جنب المراحيض ٠٠ فى الجنينة ٠٠ لكن لا ٠٠ الجنينة حتوسخوها ٠ عند المراحيض علشان فيه برميل زبالة كبير ٠٠ وجمعنا أطرافنا أو بالأحرى جررناها ٠٠ ونحن كاسفو البال ٠٠ وذهبنا

الى بوابة المطعم حيث كان الفراشون قد ألقوا بلفافات الطعام حتى يأخذها أصحابها وهم خارجون مطرودون ..

ولكن لم أنحنى لأخذ لفتى .. وسرت كالمهزوم .. متفكرا فى معنى أولاد الناس ..

وجلست فى فناء المدرسة على الدكة .. وبجانبى بعض الطلبة المطرودين الذين لم يحصلوا على لفافاتهم أيضا ..

وبعد نصف ساعة وجدت أسعد شاهين قادما .. وجاء الى جانبى .. وأخرج من خلف جاكتته .. لفة قائلا : كل .. أكمل غذاءك ولا شأن لك بهذا الحمار يقصد الناظر ! ..

ورغم أنى أخذت اللفة .. وجلست آكل بعد أن اقتسمتها مع تلميذ مطرود مثلى الى جوارى .. وكانت رغيفا محشوا بالأرز واللحم والسلاطة .. ثم تفاحة .. الا أنى لم أشعر بهدوء نفسى من جراء هذه اللفتة .. بل ظللت أفكر .. وأغلى .. وأحاول فهم معنى ما جرى ..

وأعتقد أن هذا الحادث الذى جرى لى وأنا فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى قد استقر فى قاع عقلى الباطن ولعب دورا مهما فى توجيهى الى الوعى بالفوارق الطبقية فيما بعد .. وكيف أنها مهينة جدا وتدمر تماما حقوق أى انسان !

وعدت الى البيت ورويت القصة لأبى .. الذى استشاط غضبا وهو يستعيذ بالله .. ثم جلس وكتب خطابا الى ناظر المدرسة يعاتبه أو يلومه على ما فعل ..

وسلمت فى الصباح الخطاب الى السكرتير ..

وفى الحصة الثانية فى الفصل فوجئت بضجة كبيرة فى صالة المدرسة .. وجاء الناظر ومعه حاشيته .. وفى يده ورقة تبينت بعد ذلك أنها خطاب أبى .. وقال لى والشر يندفع من عينيه : فين الواد اللى اسمه عبد الستار محمد ابن ناظر المدرسة الأولية .. قال الأولية باحتقار شديد ..

(التعليم أيام زمان كان يبدأ بالمدرسة الأولية أو الالزامية من ست سنوات حتى عشرة ثم تتوقف مسئولية الحكومة بعد ذلك عن التعليم ومن شاء مواصلته يتقدم للتعليم الابتدائى بمصروفات الذى يعادل الاعدادى اليوم معنى هذا أن درجة ناظر المدرسة الابتدائية كانت أعلى من درجة أبى ناظر المدرسة الأولية) .

وقفت ·· وأنا أرتعش من الخوف ·· فقد بدا أنى مقبل على شر أو عذاب أليم ·· وأمرنى بالخروج من التختة والحضور أمامه ·· فوقفت ·· فاذا به يحرك يده فى حركة سريعة فيصفعنى على وجهى ·· مرتين ·· ثم يضربنى بالشلوت ضربة قذفت بى الى الباب ·· وأنا أتراجع واضعا كفى على خدى لحمايتها من الضرب من جديد بعد أن « سور » أحد الكفين عينى !

وقال لى الناظر عبد القادر بك ·· قل لأبوك ألا يتدخل فى شئون مدرسة ابتدائية ·· كفاية عليه المدرسة الأولية اللى فيها ·· هو عامل راسه برأسى والا ايه ؟ · يشوف له فقى فى كتاب يكتب له جوابات !

كل هذا والفصل ساكت تماما وقد حبس الجميع أنفاسهم بينما نيكولا أفندى مدرس اللغة الانجليزية واقف وعلى وجهه علامات التعاطف والمواساة لى ·· وحاول أن يقول كلمة للناظر فى ذلك الموقف ولكن الناظر أشار اليه بعجرفة أن يسكت ··

ثم قال لى الناظر : انت تفضل تاكل عند المراحيض ·· انت مالك ومال أولاد الناس ·· مش شايف جزمتك وسخة ازاى ·· وبدلتك رخيصة ومانتش لابس قميص ··

ثم التفت الناظر لأول مرة الى مدرس الفصل نيكولا افندى وقال ازاى الولد ده يدخل الفصل ·· وهو متبهدل كده ·· فين الألفة بتاع الفصـــل ··

صاح نيكولا ·· وكل التلاميذ فى صوت عال واحد أدهشنى وأدهش الناظر ـ ما هو الألفه يا بيه ··

صدم الناظر فيما بدا لى ·· وقال وقد اختفت علامات الاشمئزاز من على وجهه لتحل محلها علامات الدهشة ··

الواد ده الألفه بتاعكم ·· ترتيبه ايه ده ·· والا بلطجى ؟!
قال نيكولا أفندى ··

ـ لا ترتيبه الأول دائما كل فترة ·· وهو أحسن تلميذ عندى فى الانجليزى ··

وأمرنى المدرس بفتح درجى واستخراج كراسة الانجليزى ·· ليريها للناظر الذى اطلع عليها بسرعة ··

ولانت أساريره ·· ولكنه قال لى وهو يخرج من الفصل ··

ـ برضة تفضل مطرحك تاكل هناك ·· على الأقل عندك دورة المياه

تغسل ايدك فيها وأنا سأقول للفراشين يضعوا لكم صابون هناك وقت الغداء ! ٠

وسأرد على أبيك ٠٠

على أن حادثة أخرى أعتقد أنها أثرت فى تكوين الوعى فى سن مبكرة على نفس وتيرة حكايتى فى المدرسة الابتدائية مع ناظرها ٠

كنت قد حصلت على مجموع عال فى الشهادة الابتدائية ٠٠ وكان أخى طالبا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) ٠٠ وكان يقيم فى غرفة بخمسين قرشا فى الجيزة فرأى أبى أن ألتحق بمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة لأسكن معه ٠٠ « ويوفر فى المصاريف » ٠٠

وكان أبى مازال من الموظفين المنسيين أى راتبه ١٠ أو ١١ جنيها والعلاوة السنوية خمسين قرشا !!

وفى المدرسة الثانوية رفعوا مصروفى الى خمسة قروش فى الشهر مع وعد بزيادتها اذا أنا ادخرت منها !

ولما كان أخى طالبا قديما عند ناظر السعدية الحالى فى مدرسة الابراهمية وكان زعيما طلابيا وفديا ٠٠ فقد وسطناه عند الناظر ليقبلنى ٠

والسبب أن المدرسة السعيدية كنت مدرسة لأولاد الذوات أساسا ٠٠ وناظرها كان جعفر بك النفراوى أشهر ناظر مدرسة ثانوية أيامها ٠٠ فكان رائدا تنجل على باشا رئيس الديوان الملكى ٠٠

ذهبنا الى مكتب النفراوى بك ٠٠ وجلس أخى يرجـــوه قبولى فى المدرسة ٠٠ نظر الى النفراوى وقال ٠٠

ــ احنا بناخد هنــا ولاد النــاس الكويسين ٠٠ لكن أخذناك انت علشان مجموعك عالى فى الابتدائية ٠٠

كنت قد جاوزت الثانية عشرة فى ذلك اليـــوم من شهر أكتوبر عام ١٩٤٠ ٠٠ وقرأت عن هزيمة الحلفاء فى فرنسا وأوربا على يد النازى ٠٠ ومعركة بريطانيا ٠٠ وكذلك قرأت عن أحزاب الأقلية ٠٠ والكثير عن الوفد ٠٠ أى تفتح ذهنى قليلا أو كثيرا ٠٠

فأوجعتنى هذه العبارة وآلمتنى ايلاما شـــديدا وقلت فى نفسى : ثانى وسكت طبعا ٠٠ ودخلت المدرسة ٠٠

وأقول كانت مدرسة السعيدية هى المدرسة التى تعلمت بل شربت فيها مبادىء ومظاهر ودلائل وعلامات الصراع الطبقى ٠٠

ما رأيت فى حياتى مجموعة من الناس المرفهين كما رأيت فى تلك المدرسة ‥ تلاميذ يأتون فى سيارات فارهة ٠ ويرتدون ملابس أنيقة وكارفتات ‥ وأحذية لامعة جدا ‥ ويتكلمون بذوق وأدب ‥ وأحيانا يستخدمون كلمات انجليزية وفرنسية ‥

ورأيت نوعية من النساء لم أرهـا من قبل فى بعض الأمهات أو الشقيقات اللاتى كن يوصلن بعض التلاميذ الى المدرسة ‥

وكان المظهر الذى يفجعنى ويشعرنى بغصة شديدة هو توجه هؤلاء التلاميذ الأغنياء الى كانتين المدرسـة حيث يشترون البوريك والجاتوه والحلوى ‥ وأنا واقف أنظر اليهم ‥ أو أتشاغل بأى شىء ‥

وعندما كنا ندخل قاعة الطعام حيث كانت وجبة الغذاء فاخرة جدا بمقاييسى وكان أبى يعايزنى بها ويقول أنت تأكل آكلة ماكانتش جدودك يتحصلوا عليها أبدا » ! ‥

خضروات ولحم أو دجاج ‥ وأرز بالسمن ‥ وسلطة وحلوى ‥

كان المثير والمريح جدا أن كل سفره يشترك فيها ست تلاميذ ولأن الكثيرين كانوا يتناولون الطعام فى بيوتهم بعد أن تأتى السيارات لأخذهم فان كل سفره تقريبا كان يتغيب عنها اثنان أو ثلاثة ‥ فكان الطعام وفيرا جدا ‥ وبالتالى لم نكن نتسابق عليه ‥ وانما نأكل فى هدوء وتلذذ ‥

وفى آخر الوجبة كنت أملأ رغيفا باللحم والأرز والخضروات وألفه فى ورقة جرنال وأخذه معى لأخى الأكبـر ‥ مع برتقـاله أو موزه أو تفاحة !

وكان أخى لايستطيع أن يأكل فى مطعم الجامعـة حيث كان ثمن الوجبة خمسة عشر مليما بانتظام ‥ اذ كان المبلغ الذى يعطيه لنا أبى هو ١٣٠ قرشا كل شهر منها خمسون قرشـا ايجار الغرفة والبـاقى للطعام ‥ حيث كنا نحمل على ظهورنا كل أسبوع « قفة » من الخبز وعنبة عسل وزيت وجبن قريش لنفطر بها ‥

ومنذ الأسابيع الأولى تصادقت مع طالب فى المدرسـة اسـمه أحمد شوقى الخطيب ‥ ولفت نظرى اليه أنى لمست تفوقه فى الدراسة ومتابعة الدرس وكانت أول مرة أكتشف أن هنـاك من هو أحسن منى فى ذلك المجال ‥ فقد تعودت أن أكون الأول فى المدرسة الابتدائية ‥

كذلك لاحظت أنه يبدى اهتماما بالشئون العـامة فى البلاد ‥ لم يكن مثل أى طالب ‥ فكنا نتكلم فى السياسة كثيرا خصوصا الحرب

.. وكان هو أيضا معاديا للنلزيه .. ولكن ليس بنفس الدرجة التى كنت أنا عليها ..

واكتشفت أنه من عائلة ثرية .. تملك مئات الأفدنة ..

ومن خلاله تعرفت بكثير من الطلاب من عائلات غنية جدا أيضا مثل البدراوى والمرجوشى ومرعى والأتربى ..

وكان طبيعيا أن نزور بيوت هؤلاء الناس .. بصحبة أحمد شوقى صديقى هذا .. فاذ بى أرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت .. بيوت فاخرة .. وأثاث فاخر لم أكن أصدق نفسى عندما أراه .. وأطعمه وشراب من نوع مختلف مما رأيته من قبل ..

كل مظاهر النعيم موجودة .. سيارات وخدم وحشم ..

وشعرت بالضآلة بين هؤلاء الناس جميعا .. فأنا فقير غاية الفقر .. ورث الثياب .. وحذائى أنظفه بالماء أو البصاق فى أغلب الأحيان .. وأظل أتطلع فى جوع وحسرة الى كانتين المدرسة وأنا أحلم بقطعة بوريك .. فخلعت على نفسى لقب أو صفة المتقشف .. ونشرت بين زملائى وخلانى أنى رجل زاهد فى الدنيا .. وأدير ظهرى لعرضها .. وأرتدى رقيق الثياب لأن التقشف أفضل صفة فى هذا الزمان ..

ولم ينطل هذا الكلام على صديقى أحمد شوقى .. لأنه كثيرا ما استضافنى فى بيته على الموائد الفاخرة فكنت أقبل على الطعام بشهية بل بنهم .. لا علاقة له الزهد ..

بل ان أحمد شوقى مضى فى تطبيقه « للاشتراكية » بيننا الى حد أنه كان يصحبنى معه الى الكانتين ويشترى البوريك أو الجاتوه ويقاسمنى اياه .. لقد بدأ واضحا لى أنه يقاسمنى مصروفه تقريبا ..

أما مصروفى أنا (الخمسة قروش) فانه كان فى المدرسة جمعية اسمها الجمعية الانجليزية .. تصدر مجلة اسمها « الكنز » وتنظم ندوة كل أسبوع وتعرض فيلما سينمائيا .. واشتراكها الشهرى خمسة قروش كنت أدفعها طبعا ..

الغريب أن مساهمة أحمد شوقى فى حل مشاكلى المادية كانت تفتح عينى أكثر على التفاوت الطبقى فى المجتمع .. ان هناك ناس يساعدون ناسا آخرين . لماذا ؟ .. لأن هناك ناس شباعى وناس محتاجون للمساعدة .. لماذا ؟ ..

رغم أنى كنت أشعر بالجميل والعرفان والوفاء وحتى يومنا هذا لكل من أحسن معاملتى أو وهبنى شيئا .. الا أنه لم يحدث قط أننى تشبعت

بأى ميول اصلاحية ٠٠ أى أن يهب الأغنيـــاء بعض ما عنـدهم للفقراء !
بل كان السؤال الذى يلح على دائمـــا ٠٠ لماذا هذا التفاوت والفوارق
بين الناس ٠٠ بحيث يحتاج البعض الى احسان البعض الآخر ؟!

لم أشعر قط بأنى أو أى محتاج عبيد لاحسانات الغير ٠٠ ولم يتميع
عندى ادراك وجود الفوارق الطبقية ٠٠ ولم أتصـــور قط وأنا حتى طفل
أو غلام أن الحل لمشـــاكل مجتمعنا يأتى عن طريق الخير والصـــدقة
والاحسان ٠٠ الخ ٠

لقد عشت فى المدرسة السعيدية العالمين ٠٠ أو الأمتين فى مجتمع
واحد ٠٠ كما قرأت بعد ذلك بسنوات قليلة فى البيان الشيوعى !

ورغم أننى كونت مع صديقى أحمد شوقى جمعية اسمها الاصلاح
الاجتماعى ونحن فى السنة الأولى فى المدرســـة السعيدية وعمر كل منا
١٢ ـ ١٣ سنة ٠٠ وأصدرنا جريدة بالآلة الكاتبة اسمها الاصـلاح ٠٠
الا أنها لم تبشر قط بالاحسان ٠٠ وانما دعت الى اصلاح ما فسد من أمر
البلاد حسب تصورنا فى ذلك الوقت ٠٠

وكانت هذه أول محاولة من جانبى لتنظيم الوعى عندى ٠٠

وعشت فى السعيدية مظاهرات الحركة الوطنية ونشاطها فى البلاد
٠٠ واتجهت اتجاها كبيرا ومحددا ناحية السياسة ٠٠ وكان فى المقدمة
٠٠ الاحتلال البريطانى ٠٠ وشـــاهدت المظاهرات التى كانت تهتف الى
الأمام يا روميل عام ١٩٤٢ ومشيت فيها وأنا أتخانق مع بعض التلاميذ
حولى كيف يريدون أن يدخل هتلر مصر ٠٠ والغريب أن أحدا لم يضربنى
أو يطردنى ٠٠

وجاءت حـكومة الوفد عام ١٩٤٢ وقرأت عن حـادث ٤ فبراير ولم
أهتم به كثيرا ولم أعرف تفاصيله ٠٠ ولكن انبسطت جدا عندما رأيت
الحكومة تنظم الشعب كله فى المجهود الحربى ضد النازيين ٠٠

سمعت لأول مرة طبعا عن الاتحاد السوفيتى ودوره فى الحرب ٠٠
وشيئا باهتا عن الشيوعية لم يثر اهتمامى ٠٠

ولكنى كنت أتابع أخبار الاتحاد السوفيتى فى معارك الحرب ٠٠
فى العام الدراسى ١٩٤٣/١٩٤٤ نقلت من مدرسة السعيدية الى مدرسة
الأمير فاروق الثانوية بروض الفرج ٠٠ وكأنى نزلت من الجنة الى الأرض
٠٠ فتلك المدرسة كانت مدرسة قديمة متهالكة كل شىء فيهـــا غير منظم
وقذر ٠٠ ثم ان تلاميذها كانوا من أبناء الكادحين ٠٠ الكمسارية والعمال

الفنيون .. والموظفون .. ولم أر سيارة واحدة جاءت بتلميذ واحد .. اذ كان الجميع يأتون اما مترجلين أو فى ترام ٣٠ و ١٣ ..

ووصل الأمر مرة بأننا ونحن فى قاعة الطعام التى كانت السفرة تزدحم فيها بالعدد القانونى .. أن بصق تلميذ فى آنية الأرز باللبن ليأكلها وحده !..

كانت عالما مختلفا تماما عن عالم السعيدية .. ويبدو أن توازنى قد اختل .. فاصطدمت بمدرس الرياضة من أول يوم فضربنى علقة ساخنة .. وكان اسمه توفيق السيد أصبح صديقى بعد ذلك عندما تحول الى محافظ للسويس فى عهد عبد الناصر .. فى مدرسة الأمير فاروق أصبح لى أصدقاء أولاد عمال وموظفين .. ودخلت بيوتهم .. لقد كانوا أحسن فى مستوى المعيشة منى .. لكنهم لم يكونوا قط كعائلات المدرسة السعيدية ..

وسكنت فى حى « الهيشة » قريبا من المدرسة فى غرفة فوق السطوح بسبعة وعشرين قرشا .. وكنا نستخدم لمبة الجاز « نمرة خمسة » واذا تيسر الحال « نمرة عشرة » وكان معى أخى ياسين ..

وكانت وجبتنا الأساسية هى وجبة الظهر فى المدرسة .. وكان أبى يعطينا سبعين قرشا للطعام معتمدا على قفة الخبز كل أسبوع والعسل الأسود والجبن القريش والزيت - ويقول ان وجبة الظهر فى المدرسة لم يكن يأكلها أجدادنا !

ولكنا كنا ننفق معظم هذا المبلغ فى مشاهدة السينما حيث كان سعر التذكرة قرش أو قرش ونصف فى السينما الشعبية وأربعة قروش فى أرقى سينما .

والسينما فتحت عينى لأشياء كثيرة عن العالم ..

ورأيت لأول مرة أفلاما عن الاتحاد السوفيتى .. كلها تظهر بصورة جيده ..

ولكنى كنت مازلت بعيدا عن معرفة أى شىء يذكر عن الشيوعية .

وكان اتجاهى وطنيا بحتا .. وأسست مع زملاء لى جمعية سميناها اتحاد الطلبة .. وكنا نقصد أن تكون جمعية على المستوى القومى ..

والغريب أننا أسسنا ذلك الاتحاد على أساس أننا نشاهد أن القوة الأساسية التى تتحرك ضد الاحتلال الانجليزى هى الطلبة .. فسألنا أنفسنا لو استطعنا نزع سيطرة الأحزاب على القطاعات الكبيرة من الطلاب

التى تسيطر عليها ·· وكتلنا الطلبة فى جمعية واحدة مستقلة ·· ألا يستطيع هؤلاء الطلاب دون تلاعب من الأحزاب أن يحققوا تحرير البلاد من الاحتلال البريطانى ·

وأسسنا فرعين آخرين لذلك الاتحاد علاوة على الأمير فاروق واحد فى شبرا الثانوية والثانى فى التوفيقية الثانوية ··

وأصدرنا مجلة سميناها ب « رابطة الطلبة » أذكر أن أول مقال فيها كان عن الثورة الفرنسية · ورفضت الرقابة السماح بطبعها فى مطبعة الرغائب بشارع محمد على ··

ولأول مرة نصطدم بشىء اسمه الدولة ··

ورغم أننى كنت المؤسس والمحرك الأول لاتحاد الطلبة هذا فانى اقترحت صديقا آخر لى لرئاسة الاتحاد ··

وأعتقد أننى منذ نعومة أظفارى كنت أبتعد عن أى منصب رئاسى وأقدم غيرى دائما ·· وهذا أغنانى فى حياتى كلها عن الدخول فى أى صراعات حول شىء كهذا فى مهنتى ·· كما أثر فى ابتعادى عن الشلل وأى جماعات تحيط بأى مسئول يمكن عن طريقها الوصول الى منصب ما ··

كانت حكومة الوفد قد أنصفت الموظفين المنسيين ·· فارتفع مرتب أبى من أحد عشر جنيها الى ستين ·· ودفعت له الفرق على سنوات ماضية ·· فقرر الحج الى بيت الله فى مكة وبناء بيت بالأسمنت المسلح لنا فى سنتريس · وارتفع مصروفى الى أربعة قروش فى اليوم الواحد ·· وكان هذا مبلغا جيدا ·· مكننى من دخول السينما بكثرة ·· أفلام جا يدة ·· أجنبية فى معظمها ·· فتعلمت الكثير مما كنت أراه فى أفلام الحرب ضد النازية ··

وأصبح بامكانى شراء بعض الكتب أحيانا بعد ان اعتمدت ثقافتى على روايات الجيب التى أثرت فى كيان كل كاتب مصرى من جيل الحرب العالمية الثانية !

واشتريت مجموعة كتب أحمد الصاوى محمد ففهمت الكثير عن الحرب والديمقراطية والنازية ··

وأصبحت كلما سافرت الى القناطر (كل أسبوع) أتحدث مع أبى عن الحرب وسيرها وكذلك أخى وعن الوفد والسياسة ··

فى صيف عام ١٩٤٤ ·· التقيت بصديقى أحمد شوقى بعد انقطاع

عام كامل ·· وحدثنى عن أنه أسس جمعية وطنيـــة أسـمها نهضـة وادى النيل فحدثته عن جمعيتنا ·· رابطة الطلبة ··

واتفقنا على اللقاء بعد يومين لنتحدث عن توحيد الجمعيتين ··

وذهبت اليه فى الفيلا التى يقيم فيها ·· ورأيت الثروة والعز والجاه من جديد ·· وتناولنا الطعام الجيد ·· ثم جلسنا تتناقش ·· ولم نجد صعوبة فى الاتفاق ·· بل اتفقنا على تســمية الجمعية الموحدة بالبعث الوطنى ··

واتفقنا على عمل برنامج ولائحة ·· فأعد هو مشروع البرنامج وأنا مشروع اللائحة ··

وجلسنا يوما كاملا نناقشهما ·· واتفقنا على كل شىء ··

ولأول مرة أشعر أن أحمد شوقى يتفوق على وعيا وسياسة ولديه مقومات الزعامة ·· فقلت له ببساطة آخر المطاف ··

واضح أن مستواك الزعامى أفضل منى ·· لذلك لابد أن تكون رئيسا للجمعية ·· ووافق ولسان حـــاله يكاد يقول : لا أســتطيع أن أنكر ذلك !

وقلت له ان صديقى محسن عبد اللطيف رئيس اتحاد الطلبة يجب أن يكون سكرتيرا للجمعية الجديدة ··

قال وماذا تكون أنت اذن ؟ قلت عضوا فى مجلس الادارة ·· ورئيسا لتحرير جريدة الجمعية كما حدث فى كل جمعية قبل ذلك ·

وبالفعل ·· اتحدنا ·· وبدأنا فى نشر دعوتنا الوطنية ·· وكانت البلاد تغص فى ذلك الحين بجمعيات وهيئات وطنية عربية بعد الحرب العالمية الثانية بالذات ··

وأصبح مركز الجمعية فى الدقى فى بيت أحمد شوقى حيث خصص لنا والده الذى كان يشجعنا لأنه كان وطنيا عريقـــا من قبل حتى أوقفه اضطهاد صدقى باشا له ببدروم الفيلا ·

وأصبح لنا فروع فى روض الفــرج ومصر الجديدة والمركز العــام الدقى ·· وبنى ســـويف والتعلية فى الدقهليـــة وميت عقبة ·· وعدد أعضائنا يزيد على الثمانمائة ·· ونصدر مجلة اسمها « الضمير » كان يرأس تحريرها صاحبها الدكتور عبد الكريم السكرى يرحمه الله ·

كلنا وطنيون متحمسون ·· غايتنا شىء واحدا خـــروج الانجليز من البلاد ·· وكان برنامجنا يحتوى على أمـــور اصلاحيـــة بالنسبة لكل مناحى الحياة ··

وقد التحق بهذه الجمعية عدد من الشيوعيين لم نكن نعرفهم فى ذلك الوقت وكانت فى مصر جماعات شيوعية علنية مثل « دار الأبحاث العلمية » ودار « الغد للنشر » ودار « الفجر الجديد » ومجلة « أم درمان » ·· وهكذا ··

ولأول مرة سمعنا من هؤلاء الأعضاء شيئا عن الماركسية ··

ووجدت نفسى أقف ضدها تماما ·· وأعتقد أن السبب كان يرجع الى مقال قرأته للأستاذ محمد التابعى فى آخر ساعة يقول فيه ان الشيوعية عبارة عن دكتاتورية تخنق حرية الرأى والتعبير ولا تسمح بالأحزاب ·· ويبدو أنى كنت قد قرأت شذرات أخرى مشابهة لا أذكرها الآن ·· وارتبط ذلك بعدائى الشديد اذا دخلت فى مناقشة حول الشيوعية أقول لخصمى : هل تريد أن تسجنني فى قفص من ذهب ؟! ·

وكان طريفا حقا أن بعض الشـــباب الذى كان ينتمى الى عائلات أرستقراطية بل اقطاعية مثل عائلة ســيف النصر وكان من تلك العائلة عدد لا بأس به من المتأثرين بالماركسية مثل المرحوم الهام سيف النصر والأستاذ عادل سيف النصر ·· نقول ان هؤلاء الشـــبان الأغنياء كانوا يجادلوننى : هم يدافعون عن الشيوعية ويحبذونها بينما أنا أعارضها ·· وأنا الفقير المعدم مما كان مجالا للفكاهة ·

واستطاع أحد أعضاء الحركة المصرية للتحـرر الوطنى وكان عامل تليفون بأخبار اليــوم أن يجند بعضا من مجلس ادارة جمعية البعث الوطنى التى كان قد انضم اليها ·· وكنت واحدا منهم · وأذكر أن الذى أقنعنى تماما ·· هو نظرية فائض القيمة اذ أدركت عندما شرحت لى أنه مهما زادت أجور العمال فان الاستغلال باق ·· وكان من حظى أن الذى علمنى لمدة عام فى الكتب الماركسية المرحـوم شهدى عطية الشافعى ··

وقبل أن نغلق أبواب جمعية البعث الوطنى جندنا بدورنا أفضل العناصر فيها ·· وانخرطنا فى العمـــل السرى ·· واحتككنا بأعضـــاء التنظيمات السرية الأخرى حركة اسكرا (الشرارة) ·· والفجر الجديد ·· والعصبة الماركسية ·

التحرير الوطنى ·· العدل الاجتماعى ·· المساواة بعد الحضيض ·· الديمقراطية ·· هكذا جذبتنا الاشتراكية !

وقبل أن نختتم ذلك الفصل لابد من الاجابة على ثلاثة أسئلة أثيرت دائما حول الحركة الشيوعية المصرية ··

السؤال الأول : ما دور الأجانب فى تلك الحركة ..

منذ اليوم الأول كان واضحا أنهم أى الأجانب وأغلبهم يهود وبعض هؤلاء اليهود كان مصريا لكن يعيش معظمهم مع الجاليات الأجنبية .. كانوا هم الذين أسسوا تلك الحركة ويسيطرون عليها ..

وكنا نقبل هذا بدون أى غضاضـــة باعتبار أن الشيوعية لاتفرق بين الأجناس .. بسبب الدين أو اللغة أو الشكل ..

وبالعكس كنا نحس بامتنان لهم أنهم انفصلوا عن طبقتهم أو واقعهم ليدافعوا عنهم ويعلمونا كيف نحارب الاستعمار والرجعية ..

وكنا نلاحظ أنهم يعملون جاهدين فى تعليم وتدريب المصريين .. حتى أصبحوا أغلبية فى كل المراكز القيادية فى التنظيمات ..

ولكنا لاحظنا جميعا أنه عنـــدما بدأت الحكومة فى ضرب الحركة الشيوعية وعرضت على اليهـود الخروج من مصر مقابل اخراجهـــم من المعتقلات خرج معظمهم .

وأذكر فتاة يهودية ايطالية الأصل قالت فى أحد الاجتماعات أنه من العبث أن يستمروا فى مصر فى المعتقل .. فالشيوعى يستطيع أن يناضل فى أى بلد فى العالم ..

وعلق أحد أعضاء الجلسة من اليهود الأجانب على هذا الكلام بقوله :

هذه كوزموبوليتانية يارفيقه .. وسألناه عن معنى ذلك فشرح لنا أن هذا يعنى أن معنى كلامها أن الشيوعى لا وطن ولا انتماء له يحارب فى أى مكان ولحساب أى شعب . والأصل هو أن الشيوعى قمة فى الانتماء والولاء لوطنه والنضال من أجله وحتى اذا ما اضطر للخروج من البلد هربا من حكم أو اعتقال فانه فى المكان الذى يلجأ اليه يستمر فى نضاله من أجل شـعبه أولا . والكوزموبوليتانية من أصـل كلمة كوزوس أنى كونيه ، عالميـة !

وانتقد هذا العضو كلام الرفيقة نقدا شديدا .. وتعلمت أنا شخصيا درسا مهما عن الانتماء الكوزموبوليتانى أى الكونية ، أى التفكير من منطلق كونى وليس وطنى قومى .

واذا كان الأجانب قد تصارعوا مع بعضهم البعض للسيطرة على قيادة الحركة الشيوعية فان المصريين فعلوا نفس الشىء عندما دانت لهم تلك القيـادة .

ولم ألحظ قط أى تعاطف مع الصهيونية من الأجانب فى تلك الحركة بل كانوا حتى قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين يرفضون التقسيم ويعتبرون فلسطين دولة عربية يعيش فيها اليهود والمسيحيون على قدم المساواة وكان تركيزهم على جلاء القوات البريطانية .

بعد صدور قرار التقسيم ·· تغير موقف الشيوعيين فى العـــالم العربى كله وأذكر أن الكتاب الوحيد الذى صدر تأييدا للتقسيم وشرحا لأسبابه كتبه مصرى فلاح ابن فلاح اسمه الأستاذ عبد المنعم الغزالى وكان كتابه هذا أشبه بالانجيـل فى أيدى الشيوعيين وهم يؤيدون التقسيم ويتحدون كل القوى السياسية به ·· وهو الكتاب الذى أقنعنى حتى اليوم بالتقســـيم ·

ولا يستطيع أحـــد أن يتهم قرار التقسيم بأنه قرار صهيونى ·· أو أن من وافق عليه فى حينه كان صهيونيا ·· بل أثبتت الأيام أنه كان أفضل الحلول حسب واقع الحركة الفلسطينية ·· كمـــا أنه ثبت أن الصهيونية لم تحـــاول تطبيقه ·· بل تعاونت مع الرجعية العربيـــة (أمير شرق الأردن بالذات) لتمزيقه والقضاء عليه ·· وحاليا تود حركة التحرر الوطنية الفلسطينية والعربية أن تحققه ولو جزئيا ··

السؤال الثانى : هل كان الشيوعيون يتقاضون أمـــوالا كعملاء مقابل نضالهم ؟ ـ هذا سؤال ساذج لكن لابد من الرد عليه فى كتاب كهذا ··

وواقع الأمر أنه لم يكن يوجد شىء من هذا على الاطلاق بل كان كل عضو فى الحركة السرية يدفع اشتراكا وتبرعات ·· ويجمع تبرعات من المتعاطفين معها ··

وبعض الأعضاء باعوا ثرواتهم لتمويل النشاط الشيوعى ··

ولقد وصلت فى السلم التنظيمى الى مركز المسئول التنظيمى العام لحدتو « العمالية الثورية » ·· وهذا المركز هو الذى يجمع أموال التنظيم كله ·· ولم أر قط أى شخص يجىء الى ويقول خذ هذه الآلاف من مصادر مجهولة ·· أو رأيت شخصا مأجورا أو ما أشبه ··

لقد كانت هناك روح حماسية فدائية فيها تضحية مثل أى حزب شيوعى فى أى بلد مستعمر أو مضطهد شعبه ·

لقد كان فى التنظيم ما يسمى بالثوريين المحترفين مثل نظام التفرغ السياسى فى الأحزاب العلنية بما فيها الحزب الوطنى فى مصر ·

وهذا الثورى المحترف لابد أن يكون على مستوى عال من النضالية والتربية السياسية مهمته التفرغ للعمل السرى ·· وتنقطع صلته بالعالم ويترك وظيفته أو كليته مضحيا بكل ذلك فى سبيل نشر الدعوة ·

هذا الثورى المحترف قال عنه لينين أن الحزب يجب أن يوفر له مرتبا يماثل أجر عامل متوسط المهارة ·

وكان فى الحـــركة الشيوعية المصرية عدد من هؤلاء الثـــوريين المحترفين ٠٠ وكان الواحد منهم يتقاضى ســـتة جنيهات فى الشهر فى أعوام ٤٤ ـ ١٩٤٨ ٠٠ وأذكر أن هنرى كورييل اقترح رفع هذا المرتب الى ثمانية جنيهات عندما ظهـــر وباء الكوليرا حتى يستطيع الثوريون المحترفون الابتعاد عن الأكل الملوث !

وأذكر أن سكرتير عام الحزب الشيوعى المصرى كان يتقاضى مرتبا ثلاثين جنيها عام ١٩٦٠ حتى قبض عليه ٠ وكان قد ترك وظيفته ومركزه الاجتماعى طبعا ٠٠

وبعض هؤلاء الثوريين المحترفين كانـــوا فى الأصل أغنياء فدفعوا للحزب كل ما يملكون عشرات الأفدنة وآلاف الجنيهات واســتمروا فى النضال ويحصلون على مرتب العامل متوسط المهارة !

هل كانت هناك ميزات عينية مثلا من الاتحاد السوفيتى ؟ ٠٠

أنا شخصيا لم أر شيئا ٠٠ بل الذى أذكره جيدا أن سفارة الاتحاد السوفيتى كانت ترسل فى المناسبات (رأس السنة مثلا) طرودا لكبار الكتاب البرجوازيين المصريين فيها فودكا وسيجار ٠٠ وترسل لنا نحن المناضلين الشيوعيين نتائج الحائط ؟! ٠

والمرحـوم الأســـتاذ فتحى خليل الـكاتب الماركسى المعروف فى روز اليوسف طلب عدة مرات من السوفيت منذ عام ١٩٥٧ أن يدعـــوه لزيارة الاتحاد السوفيتى ٠٠ ولم يفعلوا سوى عام ١٩٧٤ ٠٠

وأنا شخصيا توســـط لى الأستاذ محمد الحيوان الكاتب الليبرالى المعروف لدى وكالة نوفستى السوفيتية لتدعونى لزيارة الاتحاد السوفيتى٠

وأنا أعلم مع ذلك أن هناك بعض المزايا كان يحصـــل عليها بعض الشيوعيين المصريين من الاتحاد السوفيتى كتعليم أولادهم فى الجامعات هنـــاك ! ٠

لقد تساءل خروشوف مرة وهو يناقش جمال عبد الناصر : اذا كان الشيوعيون عملاء ٠٠ فلمن كان الشيوعيون الروس عملاء ؟ ولم يكن هناك اتحاد سوفيتى ! والآن الأحزاب الشيوعية تملأ العالم ٠٠ بما فيه مصر ٠٠ ولا يوجد سوفيت ولا شىء ٠٠ فلأى جهة هم عملاء ؟ ٠٠

الإتهام بالعمالة يبسط الأمور ٠٠ ويجعلها سطحية ٠٠ ويعطل لغة الكلام ٠٠

السؤال الثالث : هل كانت النساء تستخدم لاغراء الانسان المصرى لدخول الحركة الشيوعية ؟٠٠

هذه أكذوبة أخرى .. ان الذى كان يحدث أن هناك منظمة اسمها اسكرا .. كانت تقوم بنشاط علنى أكبر من الحركة المصرية .. وسط البرجوازية الصغيرة والكبيرة .. ومعروف أنه من التعاليم أو المبادىء الماركسية مساواة المرأة بالرجل .. وبالتالى فانه فى النشاط العلنى كان الرجال يختلطون بالنساء .. وكان ذلك شيئا جديدا على الطرفين طبعا .. خصوصا أن النساء كن يجدن فى ذلك فرصة للتحرر بعد كبت طويل .. وبعضهن كن يتصورن أن التحرر هو فى تدخين السجاير ..

بالتالى فنشأت علاقات بين بعض الأولاد والبنات بعضها كان عاطفى انتهى بالزواج والبعض علاقات صداقة عادية .. وهذا شىء طبيعى وسائد فى كل المجتمعات سواء ماركسية أو معادية للماركسية !

ولم يكن هناك اغراء بالجنس أو النساء .. فالنضال الوطنى كان يستغرق كل جهد .. كما أنه كانت له تضحياته فالسجن فى الانتظار ..

السؤال الرابع : هل كان هناك عداء من جانب الشيوعيين للدين ؟ .

أولا لابد من تسجيل أن الفلسفة المادية الجدلية تنكر وجود الله والأديان .. وكل الشيوعيين يدرسونها .. لكن ليس شرطا للعضوية فى الحزب الشيوعى أن تؤمن بها ..

لذلك كان هناك شيوعيون مؤمنون ..

لكن فى جميع الأحوال لم يحاول الشيوعيون المصريون مهاجمة الدين على الاطلاق .. بل التعليمات حتى من هنرى كورييل كانت باحترام الدين حتى لو صمت مع الناس فى رمضان ..

وكان الشيوعيون يركزون فقط فى الدين على ابراز الأهداف والمعانى الاجتماعية والمساواة التى وردت فى تعاليمه .. وفى رأيى أن هذا كان خدمة عظيمة للدين الاسلامى .

خلاصة القول ان الشيوعيين فى مصر واجهوا حملات دعائية منظمة ضدهم كلها قائمة على أكاذيب .. ولم يكن أحد يهاجمهم على أى أساس حقيقى مما ظهر بعد ذلك .. مثل الديكتاتورية للنظام .. الا كاتب أو كاتبين ..

أما الباقون فكانوا يعمدون الى الأسلوب الغوغائى .. القائم على الافتراء والجهل .. ولم تكن هناك أى دراســـــة جــدية عن انحراف الشيوعية .. أو أخطائها الحقيقية .. وأكثر الناس غوغائية كان أيضا

التيار السياسى الاسلامى الذين لم يكن لديهم شيء سوى اتهام الشيوعيين بالكفر والالحاد ٠٠ بل انهم حتى لم يفطنوا الى الانتقادات الموضوعية الخطيرة التى كان يوجهها أول منشقين على الشيوعية وهم التروتسكيون ٠٠ أو أى من كتاب اليمين الأوربى الذين كانت لديهم حجج موضوعية قوية ضد النظرية الماركسية ٠٠ ذلك لأن اليمين المصرى نشأ جاهلا ٠٠ واستمرأ الجهل وعمد الى السطحية دائما وتضليل الجماهير بشعارات وحجج ديماجوجية ! ٠

على آن ذلك لا ينفى أن الشيوعيين المصريين قد ارتكبوا أخطاء سياسية استحقت انتقاد خصوصهم ٠٠ ولكن ذلك ليس موضوعنا هنا الآن ٠٠ وقد تعرض لتلك الأخطاء كتاب شيوعيون مصريون وعرب ٠٠ وكاتب هذه السطور سجل بعضا من تلك الأخطاء فى عدة كتب مثل : أزمة اليسار المصرى ٠ والسادات الذى عرفته ٠ والسادات فى اسرائيل ٠

وسيرى القارىء خلال عرضنا فى الفصول القادمة اشارات الى بعض تلك الأخطاء التى يستوجب سياق العرض ايرادها دون أى مواربة أو تزويق ٠

الاشتراكية فى التطبيق ؟ ٠٠

ماذا حققت الاشتراكية للاتحاد السوفيتى ؟

عدد سكان الاتحاد السوفيتى كان ٢٨٠ مليون نسمة (١٣٢ ذكورا و ١٤٩ اناثا) يقيمون على سدس مساحة العالم ٠٠ تمتلىء أرضه بالخيرات من أرض زراعية ٠٠ ومصادر للمياه والطاقة وسهول ووديان ٠٠ وجبال وتلال ، وأنواع مختلفة من المناخ ٠٠ وثروات معدنية كالبترول والمعادن من جميع الأنواع والأشكال ٠٠ وطرق داخلية طبيعية من أنهار وبحيرات وموانى ٠٠٠ الخ ٠

وعندما نتحدث عن التطور الاقتصادى أو الاتحاد السوفيتى فى ظل الاشتراكية يجب أن نضع فى الاعتبار بعض الأمور ٠٠

ان الامبراطورية الروسية التى شكلت ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى فيما بعد تعرضت للخراب بسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٧) بحيث هبط الانتاج فيها الى ١٣٪ عن مستواه عام ١٩١٣ بعد انتهاء الحرب ٠

ثم تعرض النظام الجديد للحرب الأهلية ثم لحروب التدخل التى ساهمت فى مضاعفة التخريب بحيث كان الناس يموتون من الجوع فى بعض أنحاء الدولة الجديدة ٠

وما كاد الاقتصاد السوفيتى يبنى من جديد بواسطة خطط التنمية الخمسية التى بدأت عام ١٩٢٨ حتى داهمته الغزوات النازية فى يونيو ١٩٤١ ، وهو غزو دمر ثلث الطاقة الانتاجية السوفيتية عندما حرقت مئات الألوف من الهكتارات المزروعة ودمرت آلاف المصانع وقتل أكثر من عشرين مليون سوفيتى وسوفيتية ٠٠ وهبط الانتاج السوفيتى بهذه الطريقة الى أقل ما كان عليه قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ٠

ونحن نعلم طبعا أن الولايات المتحدة لم تحدث بها حروب خربت اقتصادها بل بالعكس ان الحرب ساهمت فى تنشيط ذلك الاقتصـــاد وتطويره وحل مشاكله وأزماته ٠

ولنلاحظ أيضـــا أنه منذ قيـــام الثورة البلشفية فرضت الدول الرأسمالية جميعا حصارا اقتصاديا على الاتحاد السوفيتى الى حد منع الخبراء الذين أرادوا السفر الى ذلك البلد الثائر للمساهمة فى تعميره الى حد أن أولئك الذين كانوا يصرون على السفر كانوا يدخلون متسللين هاربين مهربين ٠ وكانت الدولة الجديدة تدفع أجور الكثيرين منهم بالذهب بينما الناس السوفييت يموتون من الجوع بسبب الخراب الذى أعقب الحربين الأولى والأهلية ٠

وأيامها دار حوار طريف بين لينين وبعض القادة فى الحزب الشيوعى حول تلك القضية التى بدت مفارقة صارخة أيامها ٠٠ فأقنعهم لينين أن الطريق لاطعام الجوعى بشكل دائم يأتى عن طريق الاستعانة بهؤلاء الخبراء واغرائهم بالبقاء للعمل مقابل أجر من ذهب ! ٠

أمر آخر ونحن نناقش التطور الاقتصادى فى الاتحاد السوفيتى فى سنوات الفورة الحماسية الأولى ٠٠ وهو أننا يجب أن نعرف أن الثورة الجديدة قد واجهت مشكلة ضخمة وهى مشكلة تعدد القوميات والأقليات فى روسيا القيصرية مما فرض عليها بذل جهد هائل لتوحيد ذلك البلد عن طريق حل مشاكله القومية أولا ٠ ثم أيضا مواجهة هذا التفاوت فى تطور القوميات المختلفة ، فالقوميات فى روسيا الأوربية بعضها كان أكثر تطورا بينما فى آسيا الوسطى كانت القوميات فى الحضيض ٠

وضعت الدولة الثورية واحدا من أهدافها ٠٠ رفع مستوى المناطق المتخلفة حتى تصل الى مستوى المناطق المتقدمة ٠٠

وهذا استنفد جهدا وأموالا لا حدود لها ٠٠ فقد كانت هناك مناطق تعيش فى أعماق سحيقة من تخلف القرون الوسطى ٠٠ بل وبعضها كان مجرد مجتمعات قبلية بدائية ٠٠ وهذا قد وضـــع حدودا لتطور المناطق المتطورة نسبيا من الأصل ٠٠ وهى ما كان يسمى بروسيا « الأوربية » ٠

وسنرى بعد ذلك أن النظام الاشتراكى خلال سبعين عاما فشل تماما فى ازالة الهوة بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة ، أى لم يحقق ما كان يهدف اليه منذ بداية الثورة ٠

ولقد حققت الاشتراكية تقدما كبيرا فى الانتاج ٠٠ فاذا جعلنا عام ١٩١٣ هو سنة القياس أيام الحكم القيصرى وهو العام الذى سبق قيام الحرب العالمية الأولى ٠٠

فائنا نستطيع القول أن الانتاج الصناعى فى عام ١٩٣٠ قد زاد بمقدار سبع مرات وسبعة من عشرة ٠

بينما زاد الانتاج الزراعى مرة وأربعة من عشرة فقط ٠

وزاد الانتاج الاجمالى خمس مرات وواحد من عشرة ٠٠

وارتفع الدخل القومى خمس مرات وثلاثة من عشرة ٠٠

واذا ما انتقلنا الى مقارنة الأوضاع ما بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٧٥ مثلا ٠٠ لوجدنا أن الانتاج الصناعى قد زاد فى عام ١٩٧٥ سبعة عشرة مرة بالمقارنة الى عام ١٩٤٠ ، بينما زاد الانتاج الزراعى مرتين وثلث مرة فقط ٠٠ وزاد الانتاج الاجمالى أحد عشر مرة ٠٠ كما أن الدخل القومى زاد أحد عشر مرة وأربع من عشرة ٠

وزادت الاستثمارات للتنمية ٥ر٢٣ مرة خلال ٤٠ عاما ٠٠ ما بين ١٩٤٠ ــ ١٩٨٠ ٠

واذا ما قارنا بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٨٢ لوجدنا أن الدخل القومى المنتج فى الاقتصاد الوطنى يساوى ٤ر٥٢٣ مليار روبل أيام كان الروبل يساوى دولارا وثلث دولار ٠٠ أى خمسة عشر واثنين من عشرة زيادة بالأسعار المقارنة لما أنتج عام ١٩٤٠ ٠

وسيطرح هنا سؤال : ما هو الانتاج السوفيتى بالمقارنة بالانتاج الأمريكى ٠

حسب الاحصائيات السوفيتية ، كان الانتاج السوفيتى عام ١٩٨٢ كان يساوى خمس الانتاج العالمى ٠٠

وبالنسبة لأمريكا كان الانتاج الصناعى فى روسيا العنصرية عام ١٩١٣ أقل من مثيله الأمريكى ثمانى مرات ٠٠

أما فى عام ١٩٨٠ فقد بلغ الانتاج السوفيتى الصناعى ٨٠٪ من الانتاج الصناعى الأمريكى ٠

وواضح أنها أرقام مبالغ فيها ٠٠ ذلك لأن التدهور فى معدل تقدم الانتاج السوفيتى بدأ فى السبعينات ٠٠ بينما كان الانتــاج الأمريكى يتقدم ويتفوق وكذلك الانتاج اليابانى ٠٠ والرقم الأقرب الى الصحة أن الانتاج الصناعى السوفيتى قد بلغ حوالى ٤٠٪ من الانتاج الأمريكى مع رداءة فى النوع والكيف ! وقد بدأت الاشتراكية تخسر فى مجال المباراة السلمية بين النظامين كما سماها خروشوف وعلى عكس ما توقع ٠٠ ومع

ذلك فان حياة المواطن السوفيتى قد تحسنت كثيرا فى ظل النظام الاشتراكى من الناحية الاقتصادية وبالمقارنة الى ما كان عليه الوضع قبل الثورة ٠٠ وليس بالمقارنة بالدول الرأسمالية المتقدمة ٠٠ فى عام ١٩١٣ كان العمال والفلاحون والموظفون يحصلون على ٥٣٪ من الدخل القومى فى الامبراطورية الروسية بينما كان الرأسماليون وكبار الملاك وأشباههم يحصلون على ٤٧٪ من الدخل ٠٠ وهؤلاء كانوا يمثلون ١٦٪ من السكان ٠٠ الذين يحصلون على حوالى نصف الدخل القومى بينما يحصل ٨٤٪ منهم على النصف الآخر ! ٠

انتهى هذا الوضع المخل ٠٠ والمفروض نظريا أن الثروة والدخل القومى أصبحا ملكا للشعب كله يوزع عليه حسب عمل كل واحد ٠٠ من الناحية النظرية على الأقل ٠٠ بينما يخصص الباقى للاستثمارات الجديدة ٠٠ وتقوية الجيش وتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لبلاد أخرى خارج الاتحاد السوفيتى ٠٠ وادخار جزء للاحتياطى العام ٠

وكان المواطن السوفيتى يحصل على خدمات مجانية مثل التعليم والصحة ومكافأة انجاب أطفال والرعاية خلال الشيخوخة ٠٠ والاقامة المجانية أو المخفضة فى دور الاستجمام والمصحات والمكتبات العامة كما كانت تقدم خدمات مخفضة جدا لا مثيل لها أبدا فى أى مكان من العالم مثل الاسكان الذى استحدثت له السلطة الجديدة نظاما جديدا هو أن يدفع العاملون المستأجرون لمساكنهم مجرد نسبة من مرتباتهم وهى لا تزيد عن ١٠٪ تشمل الكهرباء والتدفئة والغاز ٠٠

وكذلك كانت أرخص الأشياء هى وسائل الترفيه من سينما ومسرح وموسيقى وباليه ٠

وبهذا تجمدت الأسعار عند حدود عام ١٩٢٨ فى معظم الأشياء ٠٠ بحيث أصبحت أى زيادة فى مرتبات العاملين كانت تنعكس فعلا فى تحسن مضطرد فى الحياة ٠

وتجميد الأسعار يعنى أن الدولة تقدم دعما حتى تثبت الأسعار لعشرات السنين كما رأينا ، أى أن الأجر الذى يحصل عليه أى من العاملين هناك لا يمثل فى الحقيقة أجره الحقيقى بل أقل من الواقع ٠

وقد بلغ متوسط أجر العامل السوفيتى حوالى ١٩٠ روبلا فى عام ١٩٨٦ أى حوالى ٢٤٠ دولارا ٠

ولاحظ أن هذا أقل من متوسط أجر العامل اليونانى (٦٠٠ دولار) ومتوسط أجر العامل الفرنسى (١١٠٠ دولار) وأقل بكثير من متوسط أجر العامل الأمريكى (١٦٠٠ دولار) ..

ورغم كل التسهيلات فى الحياة .. الا أن مستوى العامل السوفيتى ظل أقل بكثير من العامل فى أى بلد رأسمالى متقدم ..

والدعم الحكومى للمواطن السوفيتى كان فادحا .. اذ يبلغ ما يدفعه المواطن كايجار لمسكنه مجرد ثلث ما تنفقه الدولة على صيانة تلك المساكن وتزويدها بالكهرباء والغاز والماء الساخن ! ونفقات اعالة الطفل الواحد فى دور الحضانة تكلف الدولة حوالى ٦٠٠ روبل سنويا يدفع منها الوالدان ١٢٠ روبلا فقط ..

وفى الأصل كانت النظرية الاشتراكية تقضى بأنه بعد تحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج فانه لكى ينشط العاملون ويتحمسون من أجل الانتاج يجب تنمية الحافز والدافع الشخصى لديهم .. ومن هنا يحدد الأجر على أساس الأنتاج كما ونوعا ..

وكان من المتوقع أيضا أنه بعد زوال عامل الاستغلال من جانب الرأسمالى للعامل أن يزداد حماسة فى الانتاج بعد شعوره بأنه يتملك أو يشارك فى ملكية وسائل الانتاج ..

ولكن الذى حدث بعد ذلك عكس هذا تماما .. لماذا انخفض معدل الانتاج وفتر الحماس للانتاج .. بحيث أصبح حتى من ناحية الشكل صورة سيئة جدا ..

وبدأ ذلك الانخفاض فى الانتاج ينعكس فى السلع الاستهلاكية التى تطرح فى الأسواق .. اذ قل عرضها بينما يملك المواطن السوفيتى القدرة الشرائية وزاد من حدة عدم العرض هذه أن حاجات ذلك المواطن كانت تتزايد وتتنوع كل يوم .. أى أن نمط الاستهلاك قد تغير بعد انفتاح الاتحاد السوفيتى على العالم .. وما أحدثته ثورة الاتصال من نقل صور أنماط الحياة المختلفة فى العالم وخصوصا فى العالم الرأسمالى الذى كانت آلة الدعاية السوفيتية تصوره دائما عالما شريرا يعانى من الكساد والفقر والبطالة والاضطهاد والعنصرى وحرمان الانسان من حاجياته الأساسية !

لقد بدت الصورة مختلفة .. الى حد أن صحفا سوفيتية فى تلك الفترة فى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات بدأت تعرب عن مخاوفها من الآثار التى سيتركها عرض السوبرماركت الأمريكى فى الاتحاد السوفيتى عن طريق الأقمار الصناعية التى كانت قد بدأت تحطم بما تنقله من رؤى

تليفزيونية الأسوار بين الشعوب وازدادت كثافة طوابير انتظار السلع فى الثمانينات ازديادا ملحوظا ٠٠ خصوصا عند ورود سلع مستوردة ، ولقد كانت المانيا الديمقراطية بالنسبة لهم أشبه باليابان والولايات المتحدة من ناحية جودة السلعة وشكلها ٠٠ فقد كانت المانيا الديمقراطية أكثر دول المجموعة الاشتراكية تطورا من ناحية التكنولوجيا علاوة على الذوق فقد كانت من صميم دول أوربا الغربية ٠

على أن هناك سلعا أخرى كانت تستورد من انجلترا وفرنسا وهذه كان الزحام حولها شديدا خصوصا أن عرض مثل تلك السلع كان موسميا وليس بشكل دائم ٠٠

ان المواطن السوفيتى كان يأكل لحوما فى مستوى ما يأكله المواطن النرويجى والايطالى واليابانى والاسرائيلى والاسبانى ٠٠ الا أن استهلاكه كان أقل من استهلاك المواطن الألمانى والبريطانى والفرنسى والسويدى والأمريكى ٠٠

لقد تفتحت شهية الناس الى الاستهلاك ٠٠ ولكن النقود عاجزة عن اشباع هذه الرغبة فلا توجد دولارات ٠٠ والأهم أن السلع غير متوفرة ٠٠ والمواطنون يرون ويسمعون عن الخير المتدفق والمتنوع فى بلاد العالم الرأسمالى بعد أن زاد عدد السياح السوفيت ٤٥٠٪ فى الثمانينات والسبعينات ٠٠ وازداد من ناحية أخرى تدفق السياح الأجانب الى هناك ٠٠

وقلة السلع ٠٠ فتح الباب لظهور السوق السوداء ٠٠ ونمو تجارة النساء أيضا ٠٠ ولقد بدأت أول زيارة لى للاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٢ وتكررت زياراتى حتى عام ١٩٨٦ ٠٠ وفى كل مرة كنت ألحظ ازدياد نمو عدد العاهرات وانتشار تلك الظاهرة ٠٠ كما أن السوق السوداء كانت تزداد « ازدهارا » ٠٠ وقفزت على السطح آفات اجتماعية جديدة أبرزها الرشوة !

حقوق الانسان :

كان لقادة النظام الاشتراكى مفهوم مختلف عن المفهوم الغربى بالنسبة لحقوق الانسان ٠٠ لقد كانوا يركزون على الحقوق الاجتماعية له ٠٠ وينظرون الى تلك الحقوق كما يراها دعاة الديمقراطية الغربية (البرجوازية كما كانوا يسمونها) نظرة لا شك أو استرابة بل نظرة استنكار وتأفف واستخفاف ٠٠ فعندما يتحدثون عن التعددية الحزبية

كانوا يروها مجرد تعبير عن الانقسام فى صفوف الرأسمالية التى تستغل الشعب كله مهما تعددت أقسامها ..

واذا ما تحدثوا عن حرية الصحافة والتعبير .. حقروا من شأن ذلك باعتبار أن من يملكون حرية اصدار الصحف ونشر الكتب واقامة لأجهزة الاعلام الأخرى هم الأثرياء .. الذين يحرصون على عمل غسيل مخ للجماهير وتربيتها بطريقة تلائم المصالح العليا للرأسمالية وأهمها طبعا أفضلية الملكية الفردية لوسائل الانتاج وخطأ الملكية الاشتراكية لها ..

ولقد تحدث الدستور السوفيتى عن حرية الاجتماع والتعبير والتظاهر وتنظيم المؤتمرات والمسيرات لكنه وضع عبارة تنسف هذا كله وهى عبارة فى اطار النظام الاشتراكى ..

أى غير مسموح باقامة حزب أو جمعية أو هيئة تدعو الى تغيير النظام واستبداله بنظام رأسمالى مثلا ..

وبالتالى فانه حتى لو حدثت تعددية حزبية فى بلد اشتراكى كما كان الأمر فى ألمانيا الديمقراطية وبولندة والمجر والصين الى فترة من الزمن فان هذه الأحزاب جميعا كانت ملتزمة بالدفاع عن النظام الاشتراكى ومحرم عليها أن تهاجمه أو تحاول اضعافه ..

وواضح أن ذلك كان أمرا قسريا مفروضا على تلك الأحزاب بدليل أننى خلال زيارة لى لألمانيا الديمقراطية عام ١٩٨٩ التقيت بثلاثة من رؤساء الأحزاب المشاركة فيما سمى بالجبهة الوطنية الديمقراطية التى تحكم البلاد .. وكلهم الثلاثة أجابوا على سؤال محدد مباشر لى هل أنتم تؤيدون النظام الاشتراكى فعلا مع أنكم أحزاب تمثل القطاع الخاص فى الزراعة والصناعة والتجارة ..

أقول أجابوا جميعا بأنهم يوافقون عليه فعلا .. ودار حوار مثير بيننا زميلى الأستاذ عبد العزيز خميس الذى كان رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة روز اليوسف حينذاك وأنا .. وهؤلاء الزعماء .. وأصروا على موقفهم هذا ..

لكن عندما بدأ النظام الاشتراكى يتصدع ويفشل الشيوعيون فى السيطرة على الأمور كانت هذه الأحزاب من معاول الهدم الأساسية فيه .. وارتبط الحزب الديمقراطى المسيحى فى شرق ألمانيا بالحزب الديمقراطى المسيحى فى غربها على الفور ..

لقد كانت مثل هذه الجبهات جبهة صورية وقسرية حقا وللأسف لم أكتشف ذلك الا عام ١٩٨٩ .

اذ خرجت باحساس أن الاشتراكية ستنهار هناك .. وكتبت عن ذلك في مجلتي روز اليوسف وصباح الخير أيامها !

على أن النظام الاشتراكي قد اهتم بحقوق الانسان الاجتماعية الى حد كبير .. فالدستور السوفيتي هو الدستور الوحيد في العالم الذي نص على حق المواطن في العمل وتكفل الدولة تحقيق ذلك وتلتزم به .. وحقه في اختيار المهنة ونوع الأشغال والعمل وفق ميوله وقدراته واعداده المنهي ومستوى تعليمه وكفالة حقه في الترقي عن طريق زيادة دراساته . ولذلك كنت تجد نسبة كبيرة من المهندسين والمحاسبين وغيرهم من المهنيين في الاتحاد السوفيتي أصلهم من العمال والفلاحين وصغار الموظفين الذين واصلوا دراساتهم العليا مجانا .. وغيروا مسار حياتهم ..

وكان حق العمل هذا في الاتحاد السوفيتي يضمنه النظام المبرمج للاقتصاد الاشتراكي بما في ذلك تخطيط الحاجة الى اليد العاملة للنظام الدائم للاقتصاد والتعليم المهني المجاني ورفع التوجيه المهني وتأمين العمل ..

وأقر النظام السوفيتي مبدأ الأجر المتكافىء لقاء العمل المتكافىء ويحظر أي تخفيض أو زيادة للأجر انطلاقا من الجنس والسن والانتماء العرقي أو القومي والموقف من الدين .. الخ ..

وكفل الدستور حق التعليم المجاني في جميع مراحل التعليم وكان التلاميذ ملزمون بالتعليم حتى انتهاء المرحلة الثانوية .

وعلى سبيل المثال ان ٩٤٪ من الأطفال الذين انتسبوا الى المدرسة في عام ١٩٦٧ قد أنهوا دراستهم لعشر سنوات في عام ١٩٧٧ بينما بلغت النسبة في الولايات المتحدة ٧٥٪ فقط .

كما نص الدستور على العلاج المجاني وحق الاستجمام والتأمين الاجتماعي الذي لم يكن المواطن السوفيتي ملزما بأن تخصم نسبة من مرتبه لهذا التأمين بل كانت المؤسسات هي التي تدفع .. ومتوسط حجم معاشات التقاعد هو ٦٠٪ من الأجر .. و١٠٠٪ لذوي الأجور المنخفضة .
وتدفع الدولة اعانة قدرها ١٠٠٪ من الأجر زيادة عن ١١٢ يوما في حالة الحمل والولادة .

كما كان الدستور يضمن للمواطن حق السكن .

ورغم أن الدستور قرر حق مشاركة المواطنين في ادارة شئون الدولة والمجتمع عن طريق حق الترشيح والانتخاب سواء في مجلس البرلمان .. أو المجالس (السوفيتات) والنقابات والجمعيات المختلفة مثل منظمة

الشباب ٠٠ بحيث كان فى النقابات ١٢٥ مليون عضـو فى الكومسمول (منظمة الشباب) ٢٨ مليون عضو ٠٠ تملك جميعا الحق فى المبـادرة التشريعية وتشترك بنشاط فى تشكيل هيئات السلطة بتعيين ممثليها فى اللجان الانتخابية وتقديم مرشحيها للنيابة ٠٠ وتقوم بحملة دعائية واسعة ٠٠ وتسـند الى المنظمات الاجتمـاعية بعض صـلاحيات أجهزة الدولة ٠٠

وعلى سبيل المثال كانت النقابات السوفيتية لها الحق فى رقابة تنفيذ قانون العمل وتشرف على التأمين الاجتماعى ٠

وتملك جماعات العاملين عن طريق اجتماعات العمال والعاملين فى المزارع الجماعية والحكومية والمستخدمين الحق فى تقديم أسماء المرشحين الى السـوفيتات والمحـاكم الشعبية ، وتنتخب المحلفين الشعبيين الذين يحضرون المحاكم ٠ وتشترك جماعات العـاملين فى بحث شئون الدولة والمجتمع والبث فيهـا والى تخطيط الانتـاج والتطور الاجتمـاعى وادارة المؤسسـات ٠

وكان يصـدر فى الاتحاد السوفيتى ١٥ ألف صحيفة من جميع الأنواع ٠٠

وتضمن الدستور فوق هـذا نصـوص جميلة فعـلا عن ضمانات شخصية للفرد مثل سرية المراسـلات والمكالمات الهاتفية والمراسـلات البرقية ٠٠ وضمن حق المواطن فى طلب الحماية القضائية من التعديات على شرفه وكرامته وحياته وصحته وحريته الشخصية وأمواله ٠

ونص الدستور على حق المواطن فى التعويض عن الضرر الناجم من التصرفات المخالفة للقـانون اذا اقترفتها بحقه هيئـات الدولة وأجهزتها وكذلك المنظمات الاجتماعية ٠

كما نص على عدم اعتقال أحد الا بقرار من المحكمة أو بموافقة من المـدعى العـام ٠

والمفروض أنه لا يحاكم شخص فى ذلك النظام على آرائه وقناعاته الخاصة حتى لو تناقضت مع النظام ٠

ورغم هذه النصوص الوردية ٠٠ فانه يجب أن نضع فى الاعتبار كما ذكرنا من قبل أن الحقوق السياسية كلها كانت فى اطار عدم الخروج عن النظام الاشتراكى ٠

ثانيا أنه ظهر أن كل هذا الهيكل الضخم من المؤسسات والمنظمات بما فيها الحزب الشيوعي نفسه انما هو بنـاء وهي نخره السوس من

الداخل اذ سقط كل ذلك فى شهور وأيام قليلة ! ٠٠ وسنعود لذلك فيما بعد ٠٠ ونحن نتحدث عن كيف حدث السقوط وأسبابه ٠٠

هذا بعض ما حققه النظام الاشتراكى لشعوبه ٠٠ بدرجات متفاوتة فى كل بلد حسب ظروف تطوره ٠

أيضا ان النظام الاشتراكى قد حقق لشعوب العالم كثيرا جدا من الفائدة ٠٠ سواء شعوب العالم المتقدم ٠٠ أو العالم النامى ٠٠ بالنسبة للعالم المتقدم فان أغلب عمال ذلك العالم استقبلوا فى ترحاب شديد استيلاء زملائهم العمال فى روسيا القيصرية على السلطة ٠٠ وتفاءلوا بامكانية التحرر من استغلال الرأسمالية لهم ٠٠ وقامت مظاهرات عديدة فى كل بلاد أوربا والولايات المتحدة ترحب بالنظام الجديد ٠٠

بل ضغطت الطبقات العاملة بالذات فى تلك البلاد على حكوماتها بوقف حرب التدخل التى اشتركت فيها ٢٢ دولة ضد ذلك النظام ٠٠ بل ان الأمر امتد الى بعض فرق تلك الجيوش التى جاءت لمحاربته ٠٠ كما حدث مع بعض قطع الأسطول الفرنسى بقيادة رجل اشتهر فى تاريخ فرنسا بعد ذلك اسمه مارتى الذى قرر الانضمام بتلك القطع الى الثورة الجديدة ! ٠٠

وظل معززا مكرما فى فرنسا ولم تجرؤ حكومة فرنسية على الاقتراب منه ٠ كما حدثت محاولة لاقامة نظام اشتراكى فى المجر استمرت ستين يوما حتى تحطمت بقسوة ٠٠

لكن وجود الاتحاد السوفيتى والشعارات التى بدأ ينشرها فى العالم وتقوم الأحزاب الشيوعية فى كل مكان بترديدها ٠٠ وتشديد النضال من أجل تحقيقها بعد أن ازداد ايمانها بصحة أفكار النظرية الاشتراكية العلمية ٠٠ بدليل أنها أصبحت فى التطبيق فعلا باستيلاء البروليتاريا على السلطة ٠٠

اضطرت الرأسمالية فى البلاد المتقدمة الى أن تقدم تنازلات عديدة للطبقات العاملة وشعوبها عامة ٠٠ ولوحظ ذلك بشكل واضح جدا بعد الحرب العالمية الثانية بالذات نتيجة للمد الاشتراكى العالمى الذى أحدثه انتصار النظام الاشتراكى على النازية الهتلرية ٠٠

فى نفس الوقت الذى عمدت فيه بعض الرأسماليات الى قمع حركة الطبقة العاملة وتشريدها باللجوء الى نظم فاشية ونازية كما حدث فى ايطاليا عام ١٩٢٢ عندما ركب موسولينى زعيم الفاشية السلطة ٠٠ ثم هتلر عام ١٩٣٣ عندما أسلمته بشكل مكشوف الرأسمالية ودولتها السلطة على طبق من ذهب !

وفى الولايات المتحدة اتخذت الحكومة الأمريكية اجراءات مشددة ضد نشاط الطبقة العاملة الأمريكية وأعدمت بعد الثورة البلشفية عمالا بتهم مزيفة عن القتل مثل قضية « ساكو وفنزيتى » الشهيرة لأن لديهم ميولا يسارية ..

وحرمت السلطة الأمريكية النشاط الشيوعى تحريما كاملا مع حملة هيستيرية عليه وعلى الاتحاد السوفيتى ..

وقد يندهش القارىء اذ يعرف أن أمريكا فى أعوام ١٩٢٢ و١٩٢٦ سبقت المرحوم أنور السادات الى سن قانون مثل قانون العيب نصت فيه على استبعاد من سمتهم بالملحدين عن العمل والجماعات السياسية والاجتماعية .. وكان الشيوعيون هم القصد من ذلك القانون .

وشنت حملات فى تلك الفترة ضد ما سمى بالتيار الالحادى المعادى للدين .. وهكذا ترى أن القصة مستمرة .. ولم يكن للاخوان المسلمين أو تيار الاسلام السياسى معتدلا كان أو متطرفا فى مصر شرف اختراع مثل تلك الاتهامات بل سبقته الى ذلك الولايات المتحدة .. وعلى فكرة ان هذا التيار بدأ يظهر من جديد وسط الحزب الجمهورى فى انتخابات الكونجرس الأخيرة حيث تحدث بعض زعمائه عن العلمانيين الملحدين ودعى الى مكافحتهم باعتبارنا « مع الله » على حد تعبيرهم ! ..

هكذا كان رد الفعل بالنسبة للبلاد المتقدمة :

- زيادة فى امتيازات وحقوق العمال ..

- وتشجيع أكثر للأحزاب الاصلاحية .. وتنمية لتيار الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وتشجيعها على محاربة الأحزاب الشيوعية والهجوم على النظام الاشتراكى والاتحاد السوفيتى .

- والاستعانة بالدين أحيانا لمحاربتهما .. كما شرحنا ما كان يحدث فى أمريكا .. ثم دور الفاتيكان فى ايطاليا .. فى مناهضة الحزب الشيوعى فى أى انتخابات باعتبار أعضائه غير مؤمنين .

ثم ان بعض الزعماء الغربيين المعادين للاشتراكية بدءوا يخلعون ثوب الاشتراكية على بعض النظم الرأسمالية فى أوربا مثل السويد وبريطانيا فى عهد حكومات حزب العمال ..

هذا بالنسبة للعالم المتقدم .. ماذا عن شعوب العالم النامى ..

تحدثنا من قبل عن دور الاتحادا السوفيتى فى المساعدة على تحرير تلك الشعوب من الاستعمار ..

ثم دوره فى مساعدتها على بناء استقلالها الاقتصادى .

أذكر أننى خلال زيارة لموسكو عام ١٩٨٤ أو ١٩٨٥ قال لى مسئول سوفيتى كبير : ان الشعب السوفيتى يدفع مع شروق كل شمس عشرين مليون دولار لبلاد مختلفة : كمبوديا .. اليمن الجنوبية فيتنام .. أثيوبيا .. كوريا .. أنجولا .

أما كوبا فندفع لها مليون ونصف مليون دولار يوميا فى شكل بترول مجانى لتدور عجلة الحياة فيها .. هذا غير النفقات العسكرية التى نتحملها لبلاد كثيرة وغيرها سواء فى شكل هبات أو بيع بالتقسيط .

ولما قلت له : ان الولايات المتحدة تدفع مثل هذا بل أكثر .. قال .. رغم أننا ندفع حوالى ثمانية مليار دولار فى السنة مساعدات .. الا أن الفرق بيننا وبين أمريكا أن كل دولار تدفعه لبلد ما تحصل على دولارين أو أكثر .. انها استثمارات . بل حتى النقود التى تدفعها أمريكا كهبات ومساعدات لبعض البلاد تعود عليها فى النهاية لأنها تشترى بها سلعا فتروج مراكز رجال الأعمال فيها ..

ان البلاد النامية التى تقدم لها الولايات المتحدة مئات الملايين من الدولارات كمعونة تقدم للاحتكارات عشرات المليارات من الدولارات كل عام ..

وسألنى : كم تستنزف أمريكا من بترول العالم العربى مثلا ؟ .. انها تدفع لكم مليارين ونصف .. ولاسرائيل ثلاثة .. ومائة أو مائتين هنا وهناك ..

ماذا يحدث : البترول من الخليج يجرى فى هدوء فى أنابيب أمريكية .. ويتحول الى عشرات المليارات .. وأيضا يعطى أمريكا مركز اليد العليا على اليابان وأوربا باعتبارها تسيطر على أهم منابع البترول فى العالم ..

انتهى شعار بترول الغرب للعرب .. مقابل مليارات قليلة كما أن اسرائيل أصابعها على الزناد اذا ما احتاج الأمر لتدخلها لقمع أى تمرد .

وكانت الصورة أيامها أن اسرائيل هى كلب الحراسة للمصالح الأمريكية فى المنطقة وبالذات البترول أما الآن فان الأمريكيين يحمون هذا البترول بأنفسهم .. ويتقاضون تكاليف هذه الحماية من دول الخليج نفسها !) ..

ومضى المسئول السوفيتي يقول لي : ما ندفعه نحن لايأتي بعائد قط ٠٠ انه يضيع فعلا ٠٠ اننا نكسب تأييدا وصداقة حقا للثورة العالمية ٠٠ لكن ليس نقودا على الاطلاق ٠٠ والصداقة والتحالف لايمكن ترجمتها الى خبز وزبد ٠٠

وعندما نقول نكسب تأييدا للثورة العالمية لانقصد أن الدول التى نقدم لها المساعدات والقروض تريد الثورة الشيوعية ٠٠ انما هى تؤيدنا فى مواقف هى من مصلحتها هى نفسها ٠٠ مثل تأييد استقلال بلد ما ٠٠ ومنع تدخل أى دولة استعمارية فى شئون دولة أخرى ٠٠ ومشاريع الدفاع عن السلام العالمى ٠٠ وضرورة تقديم المعونة من الدول المتقدمة للدول الفقيرة ٠٠ الخ ٠٠

وكل هذا يفيدنا نحن اذ يساعد على تأمين شعبنا ضد الحرب الشاملة فمثل هذه المعونات والمساعدات تقوى المعسكر الاشتراكى بجانب الدول المستقلة حديثا ٠

لكننا لا نكسب مالا ٠٠ بل أحيانا نكسب تشويها لموقفنا بدعايات كاذبة ٠٠

والحقيقة ان شعوب العالم بعد ظهور الاتحاد السوفيتى رأت نموذجا جديدا للدولة الكبرى ٠٠ دولة تقدم مساعدات ٠٠ ولا تنهب ولا تستغل بل تساعد على بناء وتقوية الاقتصاد القومى بعكس ما تعودت الدول الكبرى الأخرى من منع تطوير الاقتصاد فى الدول النامية خاصة فى مجال الصناعة ٠ اذ حرصت على ابقائها سوقا لتصريف سلعها الاستهلاكية ٠

والذى طور الاتحاد السوفيتى الى دولة كبرى ٠٠ تقف فى مواجهة أكبر دولة فى العالم وأقواها اقتصاديا وعسكريا هو النظام الاشتراكى ٠٠ الذى تمكن من خلق أداة عسكرية هائلة هى الجيش السوفيتى ٠

كما استطاع ذلك النظام غزو الفضاء ومنافسة الولايات المتحدة فى ذلك المجال ٠٠ وقد أضاف النجاح السوفيتى فى غزو الفضاء قوة جديدة الى قوة الاتحاد السوفيتى العسكرية مما أدى الى ردع تلك الدوائر المغامرة داخل المعسكر الغربى عن محاولاتها لاشعال نيران حرب عالمية ثالثة ٠٠ أو التوسع فى الحروب الصغيرة وتمويلها الى حرب شاملة ٠٠

وعموما لقد ساعدت تلك القوة العسكرية للسوفيت على احداث توازن فى الوضع العالمى بحيث استطاعت الدول الصغيرة أن تستفيد من التناقضات بين المعسكرين ٠٠ بل أصبح لها هى كتلة معينة تحاول أن

تؤثر فى مجريات الأحداث العالمية هى كتلة عدم الانحياز التى ذبلت الآن فى عصر القطب الواحد ..

الأن بعد أن استعرضنا ماذا حققته الاشتراكية للبلاد التى طبقتها .. مركزين على الاتحاد السوفيتى .. وكذلك للعالم النامى والعالم كله عموما .. لنرى كيف بدأ حدث السقوط ..

ولنتحدث فى الفصل القادم عن ارهاصات ذلك السقوط !

ارهاصات السقوط ؟!

يخطىء الباحث عن أسباب انهيار الاشتراكية فى العالم ·· اذا ما تجاهل دور التروتسكيين فى ذلك الانهيار ··

لقد كان التروتسكيون يمثلون الجناح المتطرف فى الحزب الشيوعى السوفيتى القائد للنظام ·· كانوا يمثلون الانحراف نحو اليسار والتشدد ·· وقد ظهر ذلك جليا فى موقفهم من الفلاحين الروس الذين رفضوا أو تلكئوا فى الانضمام الى المزارع الجماعية ·· لقد حصدوهم بالرصاص ·· وصفوا الملايين جسديا ·· باعتبارهم أعداء للاشتراكية وأعداء للشعب ··

وهم الذين كانوا يصيحون فى صوت عال اذا ما دعى أحد قادة الحزب الى الاعتدال وممارسة اقناع الناس بالتحولات الجديدة عن طريق الحوار والنشاط السياسى قائلين خونة ·· عملاء للرأسمالية والامبريالية ·· ويتسببون فى تقديمه للمحاكم واعدامه ··

لقد كانوا أشبه بالجماعات الاسلامية المتطرفة التى تمارس الارهاب حاليا فى الجزائر ومصر ·· من ناحية الهوس والتعصب للأفكار التى يؤمنون بها ويرون من يخالفونهم فيها كفرا وارتدادا عنها ·· وبالمناسبة ان كلمة المرتد كلمة مهمة ووردت دائما فى الآداب الشيوعية ·· بل ان لينين له كتاب يحمل عنوان « المرتد كاوتسكى » ··

لقد ساهمت الأعمال الوحشية الجامحة التى قام بها تيار التروتسكيين اليسارى فى انفضاض جماهير عديدة عن النظام الجديد وان كان الخوف قد تملكها من المجاهرة بعدائها له فلم يكن هناك سوى فرق الاعدام رميا بالرصاص مع فضيحة و « تجريسة » مروعة عن الخيانة والعمالة لأعداء الشعب فى جميع أركان الأرض !

ولم يتح لهذه الجماهير المعادية للنظـــام الاشتراكى أن تعبر عن رأيها ·· الا عندما غزا الألمان الاتحاد السوفيتى ·· حيث انضـــم مئات الألوف بل الملايين من السكان اليه ·· وســاعدوا قوات الغزو النازى وتعاونوا معها ··

وطبعا هذه الحقائق حجبت عن الشيوعيين فى كل أنحــاء العــالم ولم نعرف عن أمرها فى مصر الا بعد أكثر من ربع قرن من انتهاء الحرب العالمية الثانية ··

لقد كنا نعرف عن وجود خيــانات وعملاء ·· من بين المواطنين السوفيت لحساب النازية ·· لكن كان التصور دائما عندنا أنهم يمثلون أعدادا قليلة ··

لكن كون الأمر تعدى الملايين لم نكن نعرفه ··

ولقد قابلت شيوعيين من أحزاب كثيرة فى أنحاء العالم ·· وتحدثنا عن البطولة السوفيتية فى دحر النازية ووجدتهم مثلى لايعرفون شيئا عن مساندة ملايين المواطنين السوفيت للغزو النـــازى تعبيرا عن كراهيتهم للاشتراكية وظنا منهم أن هذا الغزو سيساعدهم وينقذهم مما يعانونه على يد الستالينية ·· فقد كان نظام ستالين بعد أن تخلص من تروتسكى وأعوانه يتبع نفس الأساليب الارهابيـــة الوحشــية فى قمع الشعب وحريته فى التعبير والحركة ··

ثم ان هذه الأساليب الوحشية المتروتسكيين ·· قد أمدت خصـوم النظام الإشتراكى فى ســـنواته الأولى بمادة هائلة للدعاية ضــده ·· لكن من الغريب أن معظم أعضاء الأحزاب الشيوعية فى العالم لم يكترثوا بما كان ينشر عن تلك الوحشية لأنهم ما كانوا يصدقونهــا ·· والاجابة جاهزة دائما : دعاية استعمارية رأسمالية ضد الاشتراكيـــة طبعا بحكم تناقض المصالح ! ·

على أن التروتسكيين لهم فيما بعد فضل كبير فى كشف عيوب النظام الاشتراكى ·· ذلك لأنه بعد طرد زعيمهم من الاتحـــاد السوفيتى بدأ يتجمع حوله أنصار منهم منظرون وعلمـــاء ·· وكانت لهم اتصـــالات بما يجرى داخله ··

فبدءوا يكشفون للعالم كثيرا من عيوب النظام ولعل أبرز عيب هو تحول الحزب الشيوعى الثورى الى حزب بيروقراطى يحكم الشعب بيد من حديد ويستغل جماهير العمال ·· بحيث تحول المديرون فى المصانع الى أدوات نهب واستغلال لها بدلا من الرأسمالية وتحولت ثورة البروليتاريا الى ثورة مديرين ! أى أن الذى ينعم بخيرات الثورة هم البيروقراطيون ·

وهكذا كانت المقدمة للتنبيه لعيوب الاشتراكية .. ولكن الأحزاب الشيوعية جميعها أصمت آذانها .. عن الاستماع الى ذلك .. واكتفت بسب واتهام كل الفرق التروتسكين بالخيانة والعمالة .. والحق يقال أنه من الطبيعي أن تستثمر المخابرات المركزية الأمريكيـــة وغيرها هذا الانشقاق فى صفوف الاشتراكيين من صناع أول ثورة اشـــتراكية فى التاريخ وتشجع فرق التروتسكيين بأى شكل من أشكال التشجيع .

وذوى التيار التروتسكى .. خصوصـــا بعد أن أطاحت « بلطة » شيوعى متعصب برأس زعيم تروتسكى ذات مساء فى المكسيك .. وغطت أمجاد الانتصار السوفيتى على النازية فى الحرب الثانية على « مزاعم » التيـــار التروتسكى .. حتى انتهى من العـــالم خصوصـــا بعد تحالف الرأسمالية العالمية مع الاتحاد السوفيتى خلال تلك الحرب .. ولكن لم تنته محاولات التأمل .. والكشف عن أخطاء وعيوب النظام ..

الطليان أم تيتو ؟!

عندما فاجأ خروشوف العالم كله والشيوعيين بالذات فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى بالحديث عن عبادة الفرد عند الرفيق ستالين ٠٠ الذى كان انسانا شبه مقدس لدى شيوعيى العالم ٠٠ ومحل احترام أغلب الشعوب اذ فى « قبضتيه طوى الفاجرين ٠٠ نازيهم أو فاشيهم » على حد تعبير المناضل الشاعر المصرى المرحوم المهندس محمود المستكاوى ٠

فقد تحمل عبء هزيمة النازية ٠٠ كمـــا أنه حفظ وحدة الاتحاد السوفيتى ٠٠ كما أنه جعله يخرج من الحرب العــالمية الثانية دولة عظمى منافسة للولايات المتحدة ٠٠ بل خرج بمعسكر اشتراكى كامل يقف على رأسه الاتحاد السوفيتى بحيث أصبحت هناك حقيقة مخالفة للوضع السابق فى العالم وهى انقسام العالم الى معسكرين بعد أن كان معسكرا واحدا ٠٠

لذلك صدم الناس عندما قدم سكرتير الحزب الشيوعى الذى كان يقوده ستالين هذا القائد على أنه ديكتاتور فظيع ٠٠ بل وازداد الأمر سوءا عندما اطلع الشيوعيون فى العالم أيضا على تقرير خروشوف الذى ألقاه فى الجلسة السرية لمؤتمر الحزب وتضمن أعمالا مروعة فى مجال انتهاك حقوق الانسان فى فترة حكم ستالين ٠٠ مما خلع على تلك الفترة اصطلاح المرحلة الستالينية ٠

لقد اهتزت الأحزاب الشيوعية كثيرا ٠٠ فان واحدا من أهم المسلمات التى آمنوا بها قد انهار وتحطم ٠

وخرج عدد من المثقفين البارزين فى الأحزاب الشيوعية بسبب تلك الصدمة ٠٠ ولكن استطاعت مواقف الاتحاد السوفيتى البارزة فى مجال مقاومة خطر الحرب ومساندة حركات الاستقلال أن تحتوى تلك الأزمة

.. ولم يفقد الكثيرون ثقتهم فى النظام الاشتراكى أو فائدته لهم على الأقـــل ..

فى هذا الوقت خرج الحزب الشيوعى الايطالى على العالم بتفسير جديد بدأ غريبا وشاذا لما أعلن خروشوف عن عبادة الفرد عند ستالين وديكتاتوريته التى شملت الحزب والدولة بحيث لم يجد أية قوة تواجهه وتوقفه عند حده .. حتى مات .

قال الشيوعيون الايطاليون « ان الأمر لا يمكن تفسيره بخطأ فرد واحد سيطر على الحزب وفرض تلك الديكتاتورية .. ولكن لابد أن هناك عيبا أو عيوب فى جوهر النظام الاشتراكى .. » .

ولم يتوقف أغلب شيوعين العالم عند تلك الفكرة الخطيرة ذات المعنى العميق والتى توحى بأشياء كثيرة .. اللهم الا من بعض الشيوعيين فى أوربا الغربية .. حيث تأسست نواة ما سمى ذلك بالشيوعية الأوربية (اليوروكوميونزم) ..

وتمتاز هذه « الشيوعية الأوربية » التى صيغت أهم أفكارها فى منتصف السبعينات .

ويذكر الدكتور غالى شكرى فى أحد مقالاته فى جريدة الأهرام أن ذلك المصطلح نفسه هو عنوان الكتاب الذى أصدره كاريو زعيم الحزب الشيوعى الأسبانى الذى عاد الى أسبانيا من المنفى بعد رحيل فرانكو وعودة الديمقراطية الى أسبانيا ونجاح اليسار عموما هناك فى أول انتخابات اذ تفوق الحزب الاشتراكى الديمقراطى على أصوات اليمين .. كما حصل الحزب الشيوعى على ١٣٪ من أصوات الناخبين .

وهذه الشـــيوعية الأوربية ترفض نظرية ديكتاتورية البروليتاريا وتدعو الى التعددية الحزبية .. بل وتمضى الى أبعد من ذلك وهو أنه

اذا ما جاءت نتيجة الانتخابات بحزب يرفض النظام الاشتراكى ويريد اعادة الرأسمالية فان الحزب الشيوعى الحـــاكم يجب أن يحترم ارادة الناخبين ويترك السلطة للحزب الفائز ..

كما أن من مبادىء الشيوعية الأوربية احترام الخصوصية القومية لكل بلد وعدم اعتبار أى حزب شيوعى فى أى مكان فى العالم ذا وضع خاص ومنزلة خاصة تجعل كلمته هى العليا بالنسبة لوجهة نظر الأحزاب الشيوعية الأخرى .

والمقصود بهذا المبدأ الانفلات من تحت وصاية أو تأثير الحزب القائد .. كما كان يسمى الحزب الشيوعى السوفيتى الذى جعله الكومنترن أول

مؤسسة لتجميع الأحزاب الشيوعية فى العالم بهذا الوضع باعتباره أول حزب قام بثورة ضد الرأسالية ونجح فيها وحقق الاشتراكية وأصبح يحكم دولة عظمى يعتبر وجودها بمثابة حماية للدول الاشتراكية الأخرى ٠٠ بل أيضا دفاع عن سائر الأحزاب الشيوعية فى مواجهة هجمات الرأسمالية الشرسة ضدها ٠٠

ولم تعجب أفكار « اليوو شيوعية » هذه الحزب الشيوعى السوفيتى طبعا وثار جدل عنيف أحيانا بين المنظرين السوفيت والمنظرين الأوربيين ٠٠ حتى لأن قواعد أحزاب أوربا الشيوعية انشقت على القيادة ٠٠ وفى أسبانيا مثلا أصبح هناك ثلاثة أحزاب شيوعية ٠

على أنه يجب أن نتوقف قليلا عند عملية كشف خروشوف لديكتاتورية النظام الاشتراكى فى عهد ستالين ٠٠ هل كان خروشوف قد بدأ يكتشف عيوب النظام الاشتراكى نفسه ٠٠ وأنه ما عاد يفيد الشعب السوفيتى بوضعه وأفكـــاره الحالية ٠٠ وقد بدأ بعملية كشف عبادة الفرد لدى ستالين ؟ ٠

اننا نلاحظ أنه بعد زيارة خروشوف للولايات المتحدة وقد بهرته تلك الزيارة تماما ٠٠ ولابد أنها كانت ستبهره اذ رأى الفارق الشاسع بين ما أنجزته تلك الدولة الرأسمالية التى طالما قرأ عنها أن سوس عيوب الرأسمالية من عنصرية وبطالة وسيطرة احتكارات ينخر فيها ٠٠ لقد بهرته ناطحات السحاب والسوبر ماركت وتوفر سلع الاستهلاك بطريقة لم يحلم بها كارل ماركس نفسه ٠٠ والأهم لم يستطع النظام الاشتراكى بعد أربعين أو خمسين عاما تقريبا أن يحقق شيئا يقترب من واحد على عشرة مما تحقق هناك من وفرة خيالية ٠٠

ولقد حاول خروشوف أن يستر انبهـاره هذا خـلال زيارته فى الولايات المتحدة باطلاق شعارات حماسية عن الاشتراكية وضد الرأسمالية كقوله : سندفنكم هنا ٠٠ يقصد دفن الرأسمالية ٠٠ وطبعا الذى حدث أن الذى دفن هو الاشتراكية ٠٠ وشاركت الرأسمالية فى عملية الدفن واقامة سرادق العزاء ٠٠ بل وتقديم التعازى أيضا رغم المقال المشهور للكاتبة المعروفة السيدة أمينة النقاش : لاعزاء للشيوعيين ردا على الكاتب الساخر المشهور الأستاذ محمود السعدنى ٠٠

وبعد عودته من أمريكا حاول خروشوف أن يجرى بعض الاصلاحات لانقاذ النظام ولكنه فشل اذ تجمع ضده كل أعضـــاء المكتب السياسى وأسقطوه كما هو معروف وانزوى فى ركن حديقة من حدائق موسكو ملوما محسورا ٠٠ وللأسف أنه لم يكتب مذكراته ولذلك لا نعرف ماذا كان يدور

فى رأسه وماذا كان ينتوى عمله وعلى أى أساس بنى رأيه فى التطبيق الاشتراكى فى بلاده ٠

لكن اذا كنا نقول ان الشيوعيين الايطاليين هم أول من أشار وان كان فى غموض الى عيوب فى جوهر الاشتراكى نفسه ٠٠ أى فى أفكاره بدليل أنهم استحدثوا أفكارا جديدة أو تعديلات جديدة فى صلب النظرية الماركسية ذاتها مثل ديكتاتورية البروليتاريا كما رأينا ٠٠ الا أننا فى الواقع لا نكون قد حققنا الدقة العلمية ونحن نتحدث عن ارهاصات السقوط ٠٠

ذلك لأن هناك زعيما شيوعيا يعتبر أول رئيس دولة شيوعية شق عصا الطاعة على الاتحاد السوفيتى وعلى الحزب الشيوعى السوفيتى وعلى زعيمه ستالين قبل أن يهتك خروشوف أستار المرحلة الستالينية ٠٠ وهو جوزيف بروز تيتو زعيم ورئيس جمهورية يوغوسلافيا ٠

وعلى حد تعبير الدكتور غالى شكرى فى مقاله بالأهرام « لقد كان المراجع للعقيدة والنموذج الاشتراكيين فى الاتحاد السوفيتى يعتبر زنديقا وكلامه « هرطقة » وكانت التيتوية أولى الهرطقات التى يهتم بها الشيوعيون المعارضون للستالينية ٠٠ » ٠

استقل تيتو بيوغوسلافيا عن سائر بلاد الكتلة الاشتراكية ورفض من بعد ذلك الالتحاق بحلف وارسو ٠٠ ورفض الارتباط بخط القيادة السوفيتية ٠٠ واستقل اقتصاديا عن المنظومة الاشتراكية ومشاريعها الاقتصادى ٠٠

وقيلت تفسيرات وذلك أن تيتو كان لا يشعر بأى فضل أو جميل قبل الجيش السوفيتى لأنه لم يحرر يوغوسلافيا بل ان الذى حررها هو جيش التحرير اليوغوسلافى الذى تزعمه تيتو ٠٠

واعتبر اتباع نظام تيتو الاشتراكى لما سمى بنظام التيسير الذاتى أى استقلال المؤسسات الانتاجية فى تخطيط انتاجها ٠٠ وتسويقه خروجا على النظرية الماركسية ٠٠ التى تعنى فى نظر السوفيت مركزية التخطيط وتوزيع الانتاج ٠٠

واعتبر ذلك رجسا من عمل الشيطان ٠٠ جنبا الى جنب الخروج على قيادة السوفيت ٠٠ وعدم الاعتراف بزعامة ستالين ٠٠ وظهر فى الآداب الاشتراكية مصطلح التيتوية تعبيرا عن المراجعة والارتداد ٠٠ بل صدرت كتب كثيرة وصفت تيتو بالخيانة والعمالة للمخابرات البريطانية منذ نعومة أظافره ٠٠ وكان هناك كتاب مشهور بعنوان : « تيتو الخيانة » ٠٠ يدرس

فى كل خلايا الأحزاب الشيوعية ٠٠ وكنا نتداوله فيما بيننا ونقرأه فى تلذذ وايمان بكل ما جاء فيه !

كانت التيتوية تمردا على الهيكل التقليدى للماركسية ٠٠ وتمردا على قدس الأقداس وهو الأممية الشيوعية التى جعلت للحزب الشيوعى مكانا ممتازا فوق كل الأحزاب الشيوعية فى العالم ٠٠ وكانت فرصة لكشف ديكتاتورية الستالينية ومحاولتها الهيمنة على المنظومة الاشتراكية وفرض نموذجها على البلاد الاشتراكية الأخرى ٠٠

ولا شك أن تمرد التيتوية قد أثر على كل البلاد الاشتراكية الأخرى مما دفع الى ثورة المجر فى نوفمبر ١٩٥٦ على النطام الاشتراكى واستخدام الدبابات السوفيتية فى قمع تلك الثورة ٠٠

ولولا أن تيتو نفسه كان ديكتاتورا مثل ستالين ٠٠ علاوة على امتنانه بنفسه ٠٠ واعجابه بلذات الرأسمالية حتى أنه أغرق نفسه فى بحرها فاصلا تماما بين رغد الحياة التى عاشها وبين انخفاض مستوى الحياة لشعبه ٠٠ نقول لولا هذا لكانت التيتوية محاولة لاصلاح وتطوير النظرية الاشتراكية العلمية علاوة على تحسين التطبيق لها وتلافى الخطايا التى ارتكبها الستالينيون فى الاتحاد السوفيتى ٠٠ هذه الستالينية التى كشف الخلاف الصينى السوفيتى منذ بدء فضح خروشوف لها عن تبنى الصين الشعبية بقيادة ماوتسى تونج لنفس أيدولوجيتها وأساليبها فى التطبيق الاشتراكى ٠

ونصبت الصين من نفسها مدافعا عن ستالين فى استماتة غريبة وكانت بداية نقاط الخلاف العميقة بين الدولتين الاشـــتراكيتين ومهدت لانقسامهما ٠٠ وبالتالى انقسام المعسكر الاشتراكى كله ٠٠ سواء بأحزابه الحاكمة أو الأحزاب التى لم تحكم حتى جاء وقت كرست الصين معظم وقتها للكفاح ضـد الاتحاد الســـوفيتى وخلعت عليه لقب الاشتراكية الامبريالية أو الامبريالية الاشتراكية ٠٠

وتجول زعماء الصين فى العـــالم الثالث بالذات يحذرون دوله من التعامل مع الســـوفيت باعتبارها عدوا خبيثا أخطر من الاســـتعمار والامبريالية ٠٠

ولعبت الاتهامات التى وجهها الحزب الشيوعى الصينى ضد الاتحاد السوفيتى والحزب الحاكم دورا هاما فى كشف ثغرات النظرية الاشتراكية والتطبيق لها فى بلاد مختلفة من العالم ٠٠

فقد كانت الاشتراكية العلمية تقول أن تطبيق الاشتراكية فى بلدين متجاورين مثلا يمسح أى اهتمام قومى بأى مساحة من الأرض متنازع عليها

على الحدود ٠٠ بل بالعكس ان تبنى البلدين لنظام الاشتراكى يساعد على التقريب بينهما بل توحيدهما معا ٠٠ اذ تذيب الاشـــتراكية التعصب القـــومى ٠٠

لكن الذى رآه العالم أن السوفيت والصين تصارعا صراعا دمويا على مناطق على الحدود وجزر صغيرة فى نهر من الأنهار ٠٠ وكادت تنشب بينهما حرب شعواء ٠٠

ثم ان الاتحاد السوفيتى رفض تزويد الصين الاشتراكية بأسرار صناعة القنبلة الذرية وبرر ذلك بأن الاتحاد السوفيتى كفيل بالدفاع عن كل المنظومة الاشتراكية بما لديه من ترسانة ذرية ثم ان الاتحاد السوفيتى سخر من الاقتراح الصينى بضرورة تقسيم الوارد والانتاج الاشتراكى على دول المنظومة الاشتراكية باعتبارها جميعا تلتف على حول مبدأ واحد ٠٠ بصرف النظر عن مستوى التطور فيها ٠

وقال الصينيون أيامها ٠٠ كيف يمكن أن تقدم أيها الاتحاد السوفيتى مساعدات سخية للبرجوازيات فى البلاد المســتقلة حديثا بحيث تنمو الرأسمالية فيها وترفض تقديم المساعدة لدول اشتراكية تحكم البروليتاريا فيها البلاد ؟! ٠٠

ورأينا بعض الدول الاشتراكية التى انتظمت فى مجموعة الكوميكون الاقتصادية تختلف فيما بينها حول محاولة تقسيم النشاط الاقتصادى بينها ٠٠ لاعتبارات قومية ٠٠ فاتهم البولنديون الاتحاد السوفيتى بأنه يحصل على الفحم من بلادهم بأسعار أرخص من أسعار السوق العالمى ٠٠ بينما عايرهم الاتحاد السوفيتى بأنه يمدهم ويمد كل الدول الاشتراكية بالبترول بأسعار أقل بكثير من السعر العالمى ٠

ورفض البلغار أن يكونوا مزرعة الدول الاشتراكية كما كان يريد مخططو الكوميكون وأصروا على اقامة مصانع للحديد والصلب وهم لايملكون خام الحديد ٠٠ وهكذا ٠٠

وبدأ فى منتصف الستينات أن هناك عملية مراجعة داخل البلاد الاشتراكية والأحزاب الشيوعية للفكر الاشتراكى والتطبيق الاشتراكى فى نفس الوقت ٠٠

وكان قد حدث حادث عام ١٩٥٣ فى برلين الشرقية لم يحظ باهتمام كبير من الحركة الشيوعية العالية ٠٠ وهو اضراب عمال البناء من أبناء ألمانيا الشرقية ٠ الذى اشترك فيه عشرات الألوف وقمعته الســـلطات الالمانية هنـــاك بعنف ٠٠ وســـقط عدد من القتلى ٠٠ وعشرات من الجرحى ٠٠

وكان العمال يشكون من سوء الحال الاقتصادية من ناحية الأجور وساعات العمل ·· وقلة المساكن لهم رغم أنهم يشيدونها ·

وكان مثيرا للدهشة أن العمال يثورون ضد الحكم الذى يمثلهم حسب طبيعة الدولة الاشتراكية ·· كما أنه كان غريبا أن تقمع الحكومة اضرابهم بالحديد والنار كأغنى الدول الرأسمالية وأكثرها تخلفا ··

وبعدها بسنوات قليلة حدث اضراب كبير من عمال بولندا فى ميناء جدانسك وقمع البوليس الحركة أيضا ·· وثار نفس الجدال أيامها ·· ومن الطريف أن جومولكا زعيم بولنده أيامها كان قد استخدم نفس العمال قبل ذلك بعام واحد ·· ضد اضراب لطلبة الجامعة ·· حيث دخل العمال الحرم الجامعى مزودين بهراوات ضربوا بها الطلاب وفضوا اعتصامهم !

ومع ذلك لم يعط الشيوعيون فى العالم لهذه الحركات اهتماما كبيرا ولم يتأملوا مغزاها ·· لأن الاجابة والتفسير كانا حاضرين دائما : تحريض من القوى الاستعمارية ·· ومؤامرة رجعية !

ولم يكن أحد يطرح على نفسه السؤال البسيط الآتى : ولماذا يتجاوب العمال والطلاب لهذا التحريض ·· والتآمر ·· ولا يستجيبون لدعاية الحكومة ونظامها المفروض أن يكون فردوسيا بالنسبة للعمال والشعب كله !

ثم كانت حركة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ·· التى سميت بربيع براغ ·

لقد كان دوبتشيك سكرتير الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى قد برم من ديكتاتورية النظام ·· وأدرك أن الطبقة العاملة والشعب قد أوشكا على الانفجار ضد النظام ·· وأن روح المبادرة وتطوير الانتاج قد خمدت ·· ففكر فى تحقيق المعادلة الصعبة التالية :

اشتراكية مع ديمقراطية ليبرالية · وسماها الاشتراكية الانسانية ··

وبدأ فى تطبيق ذلك فترك الحرية للصحافة ·· وحرية الاجتماع والتظاهر والتنظيم ·· لغير أعضاء الحزب الشيوعى وحلفائه ·· فاذا بالبلد تموج فيها الحركة الشعبية الواسعة ··

وظهرت تيارات طبعا تدعو الى عودة الرأسمالية ·· كما ظهرت منظمات تدعو لاسرائيل والصهيونية علانية وتطالب بقطع المساعدات عن الدول العربية وخاصة مصر ·· بل وشبهت تلك المنظمات اسرائيل بدولة

الجزائر الثورية ٠٠ كما ظهرت تيارات تدعو للاســـتقلال عن الاتحاد السوفيتى ٠

ولكن لم يظهر قط أن العمال يريدون التخلى عن الملكية العامة لوسائل الانتاج ٠٠ ولم يظهر قط أن الفلاحين يريدون اعادة الأرض لمالكيها ٠٠

انما أراد الناس أن يعبروا ويستنشقوا نسائم الحرية ٠٠ أثار ذلك ثائرة الدول الاشتراكية الأخرى ٠٠ خاصة ألمانيا الديمقراطية التى شعر النظام فيها بالخطر عليه اذ أن مثل تلك الأفكار عن الاشتراكية الانسانية ستجد هوى لدى الشعب الألمانى الذى يرى ويسمع عن أشقائه فى ألمانيا الاتحادية وكيف أنهم يستمتعون بالحرية والديمقراطية ٠٠

فى نفس الوقت تخوف الاتحاد السوفيتى من نجاح حركة ربيع براغ اذ ستنفلت تشيكوسلوفاكيا من المنظومة الاشتراكية كما أن نظامها الداخلى الجديد سيؤثر ولا شك فى النظام داخل كل بلد اشتراكى بل داخل الاتحاد السوفيتى نفسه ٠٠

فارتفع الشعار : ان الاشتراكية فى خطر فى تشيكوسلوفاكيا لابد من انقاذ الطبقة العـــاملة فيها من المرتدين وعملاء الاستعمار ٠٠ وأنذر الاتحاد السوفيتى قادة تشيكوسلوفاكيا ٠٠ ولكن دوبتشيك أصر على المضى فى طريقه ٠٠ بل واتخذ خطوات عدائية ضد السوفيت وجيرانه ٠٠ وبدأ ذلك واضحا فى مؤتمر الشباب الذى عقد فى صوفيا عام ١٩٦٨ حيث كانت وفود الشباب التى تمر باتشيكوسلوفاكيا بالقطار تعامل معاملة سيئة من جانب حرس الحدود هناك ٠٠ وقد شاهدت ذلك بنفسى اذ كنت ضمن الوفد المصرى فى ذلك المؤتمر وركبت القطار من برلين الى صوفيا مارا بتشيكوسلوفاكيا ٠٠

وبدا لى الأمر مدهشا وغريبا كيف تتعامل الدول الاشتراكية بهذه الغلظة مع بعضها البعض ٠٠ وكأنهم « عيـــال » يتعاركون فى الشـــارع وينتقمون من بعضهم البعض !

وهنا خطا الاتحاد السوفيتى بسائر الدول الاشتراكية خطوة خطيرة ٠٠ اذ رتب الجميع غزوا بحجة أن على حلف وارسو أن يحمى أعضاءه من ضياع الاشتراكية بسبب المؤامرات الداخلية وهو نص ورد فى مواد الحلف وهى مادة لها شبهة فى مواد حلف الأطنطى ٠٠ وكانت الولايات المتحدة تعتزم تطبيقها لو أن الشيوعيين الايطاليين فازوا فى انتخابات عام ١٩٤٨ وأعلن ذلك فى الصحف أيامها ٠٠

وقضت جيوش حلف وارسو على « ربيع براغ » حيث كان دوبتشيك يحاول تطبيق ما سماه بالاشتراكية الانســـانية وهى شيء مختلف عن الاشتراكية العلمية أو الماركسية المعروفة ٠٠

ولم يتصد لجيوش حلف وارسو سوى الطلاب فى حركة محدودة مع عدد من المثقفين ٠٠ ونفى دوبتشيك فى الأرض ٠٠ فقد كانت الظروف قد تغيرت عن عام ١٩٥٦ عندما حدثت هبة المجر فأعدم امرى ناجى وعدد رفاقه ممن قادوا حركة التحرر على الاشتراكية وعلى الاتحاد السوفيتى معا٠٠

وخسر المعسكر الاشتراكى كثيرا ٠٠ بل خسرت النظرية الاشتراكية خســـارة شـــديدة من جراء هـذا القمع المســـلح لحركة التغيير فى تشيكوســـلوفاكيا على الأقل من زاوية التدخل فى الشـــئون الداخلية لبلد ما ٠٠

وبدا واضحا أكثر من ذى قبل أن الاشتراكية تفرض بالقوة وأن الديكتاتورية جاهزة للتصرف فى أى وقت ٠٠ وهى ديكتاتورية على النطاق العالمى هذه المرة ٠٠ ديكتاتورية معسكر كامل ضد أفراده ٠٠

وفى داخل العـــالم العربى وحب الشيوعيون العرب بتدخل حلف وارسو هذا ــ وكان الكاتب واحدا منهم ــ بل كانوا متحمسين جدا وفقا للقالب النظرى الذى استقر فى أذهانهم وهو الأممية التى من حقها بل من واجبها أن تحمى الاشتراكية والاشتراكيين ضد مؤامرات البرجوازية والاستعمار ٠٠

من ناحية أخرى ان ظهور بعض التيارات الموالية للصهيونية والمعارضة لتأييد تشيكوسلوفاكيا للعرب أثار خوف هؤلاء الشيوعيين بل وبعض القطاعات البرجوازية الوطنية فى البلاد العربية ٠٠ فقد كان المعســكر الاشتراكى هو الكتلة الدولية الوحيدة التى تؤيد الجانب العربى فى الصراع العربى الاسرائيلى ٠

على أن النظرية الاشتراكية التقليدية قد ظفرت بدفعة من القوة عندما انقلب نظام الحكم فى شيلى عندما تصـــور سلفادور الليندى الاشتراكى الماركسى وان كان لم يكن عضوا فى الحزب الشيوعى أنه بامكانه أن يطبق الاشتراكية باعتباره منتخبا من أغلبية الشعب مباشرة ٠٠ بطريقة جديدة على غير ما درجت عليه الأحزاب الشيوعية التى سبقته الى الحكم ٠٠ وهى ممارسة الديمقراطية فى نفس الوقت الذى يبنى فيه الاشتراكية ٠ فماذا حدث ؟

لقد ذبحه العسكريون بقيادة بيونشيه فى انقلاب عسكرى دموى ٠٠ وتبخرت أحلام الاشتراكية الانسانية ٠٠

وكان ذلك يعنى أنه لا مفر لتطبيق الاشتراكية من النموذج السوفيتى أو السائد حتى ذاك الوقت هو اشتراكية بدون ديمقراطية ٠ وأنه لا سبيل للفكاك من الأممية الممثلة فى حلف وارسو اذا أريد حماية أى نظام اشتراكى ٠٠ والا أكلته الرأسمالية !

وربما كان ذلك أحد الأسباب الهامة التى جعلت الشيوعيين فى العالم يتقبلون فى ابتهاج بعد ذلك اعلان الاتحاد السوفيتى عما سمى « بمبدأ بريجنيف » ٠٠ وهو مبدأ يجعل الاتحاد السوفيتى فى حل من أن يتدخل ولو بالقوة المسلحة لحماية أى نظام حكم يقوده الشيوعيون ٠ أى أننا أصبحنا فى وضع على النطاق العالمى هكذا ٠ الولايات المتحدة مسئولة عن حماية النظم الرأسمالية فى أى بلد ٠٠ أى أن من لها الحق فى التدخل لقمع أى تحول فى بلد رأسمالى نحو الاشتراكية ٠

والاتحاد السوفيتى بدوره مسئول عن حماية النظم الاشتراكية أى له حق التدخل لقمع أى ارتداد نحو الرأسمالية ٠

أى أن دور المعامل الخارجى فى التأثير فى الظاهرة الداخلية لأى بلد يمثل عاملا حاسما لترجيح قطب على قطب فى أى تناقض اجتماعى جذرى ٠٠ وأصبح ذلك شرعيا ٠٠

ومعنى ذلك أن الدول الاشتراكية قد استباحت لنفسها حق التدخل فى الشئون الداخلية لأى بلد مثلها مثل أى دولة رأسمالية فى العالم ٠٠ وبالتالى لم تعد لمواثيق الأمم المتحدة القاضية بتحريم ذلك التدخل أى قدسية أو احترام لدى قطبى العالم ومن استطاع أن يتبعهما من دول المعسكرين اللذين يتزعمانهما !

ومن المؤكد أن مبدأ بريجنيف هذا قد تسبب فى خسارة فادحة لسمعة الشيوعية فى العالم ٠٠ وحطم بعض الهالات التى كانت تحيط بها ٠٠ كنظام أو نظرية تحترم حق الشعوب فى تقرير المصير واستقلال الدول وأهم من ذلك ترك العوامل الداخلية تتفاعل مع بعضها لتقرر الى أين تسير عجلة التطور دون تدخلات أجنبية ٠٠

وقد جزعت شعوب كثيرة ولا شك عندما طبق الاتحاد السوفيتى مبدأ بريجنيف هذا ٠٠ فى تدخله فى أفغانستان ٠٠

ولا شك أن كثيرين من الماركسيين فى العالم سواء كانوا منتظمين فى أحزاب سياسية أو مستقلين قد تشككوا كثيرا فى مصداقية الاشتراكية أو اشتراكية الاتحاد السوفيتى ٠٠

وازدادت نغمة اتهام الاتحاد السوفيتي بأنه يتحول من دولة الثورة الى دولة المصلحة والمصالح ·· بغض النظر عن مصالح الثورة العالمية ·· وكانت هذه النغمة قد بدأت في الستينات خصوصا عندما كان الاتحاد السوفيتي يمارس علاقات صداقة حميمة مع دول مستقلة تصلى الشيوعيين فيها عذابا مقيما ··

والطريف أن الصين الشعبية قد استثمرت هذا فى حملتها على الاتحاد السوفيتى عندما نشب الصراع بينهما ·· وكانت تتهمه بخذلان الشيوعيين فى أى مكان والتخلى عنه من أجل مساوماته ومصالحه مع الامبريالية والاستعمار ··

ثم عادت الصين نفسها الى ممارسة نفس السياسة ·· أولا فى شكل التخلى عن الأحزاب الشيوعية الموالية لموسكو ·· أى التى كانت تقف الى جانب الخط السياسى السوفيتى ضد الخط السياسى للصين ·· ويذكر الشيوعيون فى العالم العربى شماتة وتحريض الصين الشعبية لحكومة حزب البعث الارهابية التى جاءت فى أعقاب الانقلاب على نظام عبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣ ·· لتصفية أعضاء الحزب الشيوعى العراقى تصفية جسدية دموية ··

ثم طورت حكومة الصين الشيوعية سياستها فأصبحت تحذو حذو الاتحاد السوفيتى أى تصادق وتساعد الدول المستقلة التى تضطهد الشيوعيين وتقضى عليهم ··

لا شك أن هذا قد ساهم فى تحطيم المثال الاشتراكى أو الشيوعى

ليس لدين شعوب كثيرة ·· أو المثقفين بالذات فى العالم ·· بل لدى شيوعيين كثيرين ··

وأصبح مألوفا أن نسمع من بعضهم وصفا لسياسة الاتحاد السوفيتى بأنها سياسة انتهازية ·· أو نفعية ·· أو دولة وليس ثورة ·· والبعض يتطرف فيصفها بأنها سياسة خائنة !

ويمضى الحديث بنا طويلا متشعبا عن ارهاصات السقوط للشيوعية ودمار الحلم الجميل الذى بدا أن تحقيقه سيخلص شعوب العالم التعسة من ذل الفقر والجهل والمرض ويحررها من الاستغلال وكبت الامكانيات والقدرات ··

والغريب أن تلك الارهاصات رغم وضوح بعضها لم تفلح فى ايقاظ الشيوعيين فى العالم وجعلهم يتأملون ما يحدث ويتصور والى أين المسار والمآل ما دامت الأمور تمشى على هذا المنوال ··

أذكر أنه في يونية ١٩٧٩ زار البابا (بابا الفاتيكان) بولندة ٠٠ واذا بمليون مواطن بولندى على الأقل يستقبلونه فى مطار وارسو ٠٠ ويركعون له بل يسجدون على أرض المطار كأنهم رأوا المسيح عليه السلام ينزل من السماء ٠٠

وفى كل مكان ذهب اليه البابا كان مئات الألوف بل الملايين يهرعون اليه ويركعون ويسجدون ويهتفون ويبتهلون اليه كأنما يدعونه الى تخليصهم مما هم فيه ٠٠

صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية فى بولندة كانت دائما ذات نفوذ كبير ٠٠ وتلعب دورا مناوئا للدولة فى حدود ٠٠ ولم تستطع الدولة الاشتراكية أن توجه لها أى ضربة ٠٠

ولكن كيف يمكن أن تستقبل الجماهير الفقيرة هذا « البابا » الذى يعادى الشيوعية معاداة كاملة ويحارب الحزب الشيوعى الايطالى دائما ويتخذ مواقف رجعية فى معظم الأحوال ٠٠ وهو فوق هذا ضد الملكية العامة لوسائل الانتاج بل ضد النظام المطبق فى البلد الذى يزوره ؟ ٠

لم يفهم أحد جيدا مغزى هذه الحفاوة الجماهيرية ٠٠ وانها مظاهرة للتعبير عن رفض تلك الجماهير للنظام القائم فى بلادهم ٠

لقد فشلت الاشتراكية أن تكسب جماهير شعبها فى بولنده بل كسبت عداءها ٠٠ ولذلك لم يكن غريبا أن تؤسس منظمة تضامن بعد زيارة البابا بعام واحد ٠٠

ومنظمة تضامن هذه نشأت فى وسط عمال الميناء فى مدينة جدانسك ٠٠

وكانت قد قامت فيها قبل ذلك بسنوات حركة مناوئة للنظام ٠٠ وحدث نفس الشىء فى مدينة بوزنان أيضا ٠٠

ولكنها اعتبرت جميعا حركات لا خوف منها ٠٠ واستخدم البوليس أساليب مهدرة لحقوق الانسان لقمعها ٠٠

وكانت الشعوب فى العالم تعرف شيئا عن سوء الأوضاع فى بولندة عن طريق بعض الأقلام البولندية التى كانت تشير الى ذلك بشكل صريح نسبيا ٠٠

وتفاقم الوضع بين منظمة تضامن ٠٠ والدولة الاشتراكية ٠٠ حتى اضطر ممثلو النظام الى الجلوس على مائدة مستديرة مع منظمة التضامن ٠٠

وكان تفوق منظمة تضامن نذيرا بانهيار الاشتراكية فعلا ·· اذ استطاع عامل مسيحى ديمقراطى أمى سياسيا أن يقود الطبقة العاملة البولندية ضد الحزب المفروض أنه يمثلها ويدافع عن مصالحها بل أداتها فى الحكم ! ·· وجمعت كل هذه الطبقة العاملة كل القوى المعادية للاشتراكية حولها ؟ !! ··

لقد كان وضعا يدعو الى الرثاء : الطبقة العاملة ثائرة على حزبها وعلى نظامها ·· وتجنح الى السير خلف قيادة أعداء الاشتراكية أى الرأسمالية ··

من ناحية أخرى ·· لقد سببت الأزمة البولندية أيامها مشكلة للاتحاد السوفيتى ·· اذ بدا واضحا أن الاشتراكية تتداعى فى بولندة وخصومها ينتصرون رويدا رويدا ·· فما الذى سيحدث ؟ هل سيتدخل الاتحاد السوفيتى عملا بمبدأ بريجنيف ·· خصوصا أن الأزمة استمرت من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩ ·· عام الانهيار الكامل لسلطة الحزب الشيوعى وخروجه من الحكم ··

ولكن الاتحاد السوفيتى لم يتدخل ·· وبدا أنه دفن مبدأ بريجنيف ليحل محله مبدأ جديد أعلن عنه جينادى جراسيموف المتحدث الرسمى باسم جورباتشوف فى ٢٥ أكتوبر ١٩٨٩ وسماه « مبدأ سيناترا » كما سمته وسائل الاعلام الغربية أى « فليعمل كل بطريقته » ·

واتبع جورباتشوف المبدأ الجديد مع كل الدول الاشتراكية التى تحركت تجاه الاطاحة بنظمها الاشتراكية وكان ذلك واضحا جدا فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ··

على أن الارهاص الأكبر ·· بل قل بداية الاندثار للنظام الاشتراكى وسقوط الحلم الشيوعى ·· لينفتح المجال لعودة الرأسمالية للسيطرة على العالم كله كنظام اقتصادى وسياسى ·· تمثل فى البيروسترويكا ·· وقصة البيروسترويكا ·· هى قصة خديعة ·· ومناورة سياسية كبرى ·· أعتقد أنها أضخم وأخطر خدعة ومناورة فى التاريخ لأنها كانت وسيلة القضاء على عالم بأسره ·· كان اسمه العالم الاشتراكى ·· فالى البيروسترويكا لنرى ماذا حدث ·· قبل أن نفسر ماذا حدث ؟!

البيروسترويكا ‥ الخديعة والمناورة ؟!

خرج بعض الصبية الى الشوارع يصيحون ببعض الهتافات ضـــد الحكومة الديكتاتورية فضربهم البوليس كالمعتاد ‥ فصاح الصبية قائلين لكبير الشرطة : ليس لكم الحق فى أن تضربونا ‥

فرد زبانية الحكام الديكتاتوريين فى بساطة : حقا ‥ ليس لدينا الحق فى أن نضربكم ، بل ليس لدينا الحق فى الاحتفاظ بالحـكم ‥ بالقوة ‥ ولم تعد الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة ‥

هذه الصورة الكاريكاتيرية هى أقرب تصوير لما حـدث فى الاتحاد السوفيتى وفى كل البلاد الاشتراكية فى أوربا الشرقية قبله ‥

ان الحكام جميعا ‥ قد طأطئوا رءوسهم خضوعا لارادة شـعوبهم عندما قررت أن تنبذهم ‥ وتتخلص منهم ‥ وقالوا ليس لدينا الحق فى الاحتفاظ بالحكم ‥ بل هم الذين كشـــفوا أكثر من غيرهم عيوب نظامهم ‥ بل وتنصلوا من شيوعيتهم لحد تغيير ليس برامج أحزابهم فحسب بل أسماءها أيضا ‥

ولم يكن أحد يتصور أن جورباتشوف الذى تولى السلطة فى مارس ١٩٨٥ سيكون زعيما لهؤلاء الحكام الذين استسلموا لارادة الشعب ‥ بعد أن تكشـــفت العيـــوب والأخطاء بل والآثام التى ارتكبت باســـم الاشتراكية ‥

ولنحاول استعراض بعض المعلومات عن جورباتشـــوف فى اطـار الظروف الموضـــوعية التى جعلته يقوم بأهم دور تاريخى وهو تصفية الاشتراكية ليس فى بلده ‥ بل فى بلاد حلفائه أيضا ‥

ينتمى جورباتشوف ‥ ميخائيل جورباتشوف الى الجيل الثانى فى الاتحاد السوفيتى فقد ولد بعد الثورة السوفيتية بحوالى خمسة عشر عاما

أى فى عام ١٩٣٢ ·· وهى فترة ازدهار الستالينية ·· التى لا شك أنه لم يعان منها شيئا اذ دهمته الحرب العالمية الثانية وهو فى التاسعة من عمره وشهد أهوالها كما شهدها كل أطفال ونساء ورجال الاتحاد السوفيتى وحفرت فى ذهنه ذكريات رهيبة خصوصا ما حدث من حرب للشوارع ودمار واستسلام لمئات الألوف من الجنود فى معركة ستالنجراد التاريخية التى انحدر من احدى القرى المجاورة لها ··

وتعلم جورباتشوف والتحق بالحزب الشيوعى السوفيتى وعاش مرحلة من الستالينية ·· اذ أنه عندما مات ستالين كان عمره واحد وعشرون عاما (توفى ستالين عام ١٩٥٣) ·· وظل جورباتشوف يتدرج فى مستويات الحزب فى المنطقة التى كان يعيش فيها الا أن القيادة المركزية فى موسكو سمعت عنه وعن نشاطه الكثير خصوصا فى عهد بريجنيف ·

وكان أندروبوف قد رأس جهاز المخابرات السوفيتية ·· مما أتاح له أن يعرف الكثير جدا عن حقيقة الأوضاع فى الاتحاد السوفيتى وأهمها الفساد الموجود فى القيادات الحزبية العليا ·· والتخلف فى الانتاج ·· والتفوق الأمريكى والرأسمالى فى البلاد المتقدمة عموما على الاتحاد السوفيتى ·· لا فى مجال الانتاج فقط بل فى مجال التكنولوجيا والادارة ·

كما أنه استطاع أن يعرف كيف أن الولايات المتحدة بسبب تفوقها فى التكنولوجيا قد أصبحت متفوقة فى مجال القوة العسكرية على الاتحاد السوفيتى رغم أنه الى ما قبل ذلك بعدة سنوات كانت القوتان متوازنتين ··

وعمد أندروبوف الى أن يجمع حوله فى مناصب ممتازة عددا من القيادات المحلية الشابة الثائرة على تلك الأوضاع والتى لم يصبها العفن على حد تعبيره فى احدى خطبه فى فترة قيادته القصيرة للاتحاد السوفيتى ·

وكان يجتمع بهذه العناصر التى تم رفع مستواها ويتحدث معها كثيرا عن الأوضاع مشيرا الى أنه ولو أن الاتحاد السوفيتى يملك قوة ردع عسكرية تمنع الولايات المتحدة والغرب عموما من المغامرة بالهجوم عليه ·· الا أن تفوقها الاقتصادى عليه ينذر بأخطر العواقب ·

وكان قد شاع فى ذلك الوقت تعبير أطلق على الاتحاد السوفيتى وهو أنه دولة كبرى فى العالم الثالث !

وفى حوارات متصلة بين اندروبوف وهذه المجموعة التى كان منها ميخائيل جورباتشوف · تحدث معه هؤلاء الحواريون عن ترهل الحزب الشيوعى وغرقه فى البيروقراطية بحيث أصبح الحزب فى حالة عجز كامل عن تطوير البلاد ·· مما يهدد مكانته كدولة عظمى بل ربما حدث انهيار فى السنوات العشر القادمة ·

واقترح هؤلاء أيضا أن يكف الاتحاد السوفيتى عن الدخول فى ذلك السباق المجنون من أجل التسلح مع الولايات المتحدة لأن ذلك السباق يتم على حســاب تنمية وتطوير الاقتصـــاد السوفيتى ورفع مستوى معيشة الشعب ٠

وبدأ أندروبوف فى تنفيذ خطة لاصلاح ما يمكن اصلاحه ٠٠ عن طريق دفع هؤلاء الشبان الى مواقع قيادية بحيث نستطيع أن تضع أفكارها الاصلاحية موضع التطبيق ٠٠

وبرز جورباتشوف وسط تلك المجموعة بروزا كبيرا ٠٠ وأصــبح أقربهم الى أندروبوف الذى دفع به الى عضوية اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى ، ثم منها صعده فجأة الى المكتب السياسى للحزب ٠٠ وكان ذلك مكانا رفيعا اذ أصبح من العشرة أو الاثنى عشر رجلا الذين يحكمون الاتحاد السوفيتى ٠٠ تلك « الامبراطورية » المترامية الأطراف ٠٠

ولكن أندروبوف توفى فجأة عام ١٩٨٤ قبل أن يســتطيع تطبيق سياسته الاصلاحية التى كان يريد الاعتماد فى تطبيقها على هؤلاء الشبان المتمردين على الأوضاع الجامدة التى خلفها عصر بريجنيف الذى قيل أنه وضع الاتحاد السوفيتى فى ثلاجة بسبب جمود سياسته وتصلبه واهتمامه « بعرض الدنيا الزائل » كما يقال ٠٠

وتولى تشرنينكو زعامة الاتحاد السوفيتى بعد وفاة أندروبوف ٠٠ ولم يكن للقائد الجديد أى طعم مواقف معروفة ٠٠ وكان مجهولا لأغلب الناس فى الاتحاد السوفيتى وبالنسبة للعالم كله ٠٠ ولكنه على أى حال توفى بعد عام واحد من توليه منصبه ٠٠ وذلك فى عام ١٩٨٥ ٠٠

وهنا أصبح جورباتشــوف فى الصدارة فاختير أمينا عاما للحزب الشيوعى ٠٠ ثم رئيسا للاتحاد السوفيتى ٠٠

كل ذلك تم بسرعة شديدة والطريف أن الحرس القديم من أعضاء الحزب وعلى رأسهم جروميكو ٠٠ قد زكوا ترشيحه لهذا المنصب وأوصوا بأن يتولاها ٠٠ فهل كانوا هم أيضا يدركون ما أدرك جورباتشوف ومن قبله أندروبوف من عيوب وآفات فى النظام الاشتراكى ؟ ٠٠٠ أم أنهم كانوا لا يدركون ؟ ٠٠

صعب القول أنهم كانوا لا يدركون لأنهم عايشوا جورباتشـــوف وأفكاره وآرائه فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى ٠٠

لكن بالقطع أنهم لم يدر بخلدهم قط أن هذه الأفكار والآراء يمكن أن تصفى الاتحاد السوفيتى كدولة بعد هدم النظام الاشتراكى فيه !٠٠

ولم تمض شهور قليلة على وصوله الى السلطة حتى طرح على العالم شعار المصارحة والمكاشفة (الجلاسونست) وكان ذلك يعنى اطلاق حرية التعبير ·· أى الأخذ بقاعدة هامة من قواعد الديمقراطية ··

ثم طرح أفكاره فيما سمى بالبيروسترويكا التى ترجمها الكثيرون الى المصطلح السياسى اعادة البناء ··

وقد اشتهرت البيروسترويكا فى العالم حتى كان الملايين يرددونها كالببغاء ·· دون أن يعرفوا لها معنى محددا ··

لكن الجميع كان يبدو سعيدا بها ·· باعتبارها تمثل تغييرا وتحولا فى الاتحاد السوفيتى يجعل صورته أفضل بالاتجاه نحو الديمقراطية وزيادة الانتاج ورفع مستوى حياة سكانه ··

لقد كان هناك احساس لدى حتى المتعاطفين مع الاشتراكية أن ذلك النظام قد تجمد ·· خصوصا بعد أن أعلن رونالد ريجان بعد وصوله الى الحكم أنه لن يسمح بتحول دولة جديدة فى العالم الى الاشتراكية وأنه لابد من القضاء على هذه الامبراطورية الشريرة ! ·

لذلك غمرت شعوب العالم حالة حماس أنه سيحدث تطور وتقدم ··

ولم يلتفت أحد الى الطنطنة الهائلة التى استقبلت بها وسائل الاعلام الغربية هذه البيروسترويكا ··

كما يلتفت أحد الى المديح الذى وجهته مسز تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا لجورباتشوف عندما زارها فى لندن ·· وتحدث معها بالضرورة عن أفكاره فى التحول بالاتحاد السوفيتى ·

وبدأ تطبيق البيروسترويكا ·· وسط حماس شديد فى الاتحاد السوفيتى والعالم كله ·· فماذا جاء بهذه البيروسترويكا من أفكار ؟ ··

ان واضعها ومؤلف الكتاب باسمها قال انها تمثل الخطة الجديدة لاصلاح حال الاشتراكية من الداخل ·· وهكذا تصور العالم ذلك ·· وكنت واحدا من الذين تصوروا أيضا هذا ·· بل وألفت كتابا بعنوان « ثورة بعد سبعين عاما من الثورة » ·· مما يعنى أن البيروسترويكا ثورة بعد الثورة البلشفية التى جرت منذ سبعين عاما ··

كان هناك عدد قليل جدا من الكتاب أبدوا تشككهم فى هذه البيروسترويكا وأهدافها أو بالأحرى نتائجها ·· وعبروا عن ذلك وأذكر منهم الكاتب الكبير الأستاذ كامل زهيرى فى وقت مبكر عما كشفت عنه التطورات بعد ذلك ·

لقد كان جورباتشوف يكرر فى كل مكان يذهب اليه .. وهو قد ذهب الى أماكن كثيرة واجتمع مباشرة بالفلاحين والعمال .. العبارة التالية :

« تعالوا نتجدد .. فالتجديد يبدأ منا نحن .. وعلينا أن نغير ما فى أنفسنا بكل حزم واصرار .. » !

والدعوة للتجديد ليست جديدة على الأحزاب الشيوعية .. ذلك لأن المفروض أن الحزب الشيوعى يضم طلائع المجتمع وقواه .. ويسترشد بنظرية ثورية وخبرة تاريخية خلال ذلك التطبيق وبالتالى فانه فى داخله يحوى قوة ديناميكية حيوية تجعله قادرا على تكشف أخطائه وتناقضات التطور التى تثيرها الاشتراكية واعلان ذلك على الملأ .. والقيام بعملية تجديد واسعة النطاق بعد النقد الذاتى الصريح والحاسم .. أى لا مجال للتوفيقية والتعمية واخفاء الحقائق ..

ونضرب ـ مثلا .. بالبيروقراطية .. البيروقراطية موجودة فى كل النظم . لكنها فى النظام الاشتراكى يمكن أن تتضخم أكثر لأن قيام الدولة ولأول مرة بقيادة التطور الاقتصادى فى البلاد مما يعنى ادارتها لمعظم مؤسسات ووسائل الانتاج يخلق جهازا حكوميا ضخما ومعقدا ..

نضرب مثلا آخر .. خلال النضال الشاق والعنيف من أجل انجاح الثورة الاشتراكية وتثبيت النظام الجديد .. تلتف الجماهير عادة حول الزعيم الذى يقود هذا النضال .. واذا ما نجح ذلك الزعيم .. فانه يكتسب صفات من صنع الخوارق والمعجزات .. ويمكن أن يتحول الحب والتقدير لدوره التاريخى الى نوع من عبادة الفرد والتأليه ..

وعندما يحدث مثل ذلك التأليه .. يصبح الرأى الفردى هو الرأى السائد .. بل يصبح أشبه بالنصوص الدينية المقدسة .. فهو الحقيقة التى لا تقبل الجدل .. بل ان الجدل حولها يعتبر تشكيكا .. وكفرا وتجديفا .. ربما استحق صاحبه العقاب حسب درجة ذبول الديمقراطية هذا الذبول الذى تفرزه عبادة الفرد بشكل حتمى ..

وعندما يوجد ذلك التقديس تختفى المناقشة الحية والفكر المبدع والمبادرات لا بين الجماهير فقط بل داخل الحزب القائد نفسه .. ويحل الجمود العقائدى محل الحيوية والمرونة والارتباط بالواقع .. وتحل الكلمات الضخمة .. والنظريات الجوفاء ... وعبادة النصوص القديمة محل الدراسة الواقعية والتحاليل البناءة .. وتوقفت التصورات النظرية عن الاشتراكية فى مجالات كثيرة عند حدود الثلاثينات والأربعينات فى ظروف مغايرة تماما لظروف انقسام العالم الى معسكرين وهو الوضع الذى كان نتاجا للحرب العالمية الثانية .. وظروف الأسلحة الذرية والنيوترونية

وغزو الفضاء ٠٠ وظهور كتلة عدم الانحياز ٠٠ ووصـــول عجلة التقدم والتوجه الاشتراكي الى قلب افريقيا ٠٠ حيث المجتمعات القبلية والتخلف الاجتماعي والحضاري الذى لا مثيل له ٠٠

ومن هنا فان بحوثا علمية قيمة حول تناقضات وجدلية الاشتراكية وانطباقها على الواقع الجديد وكيفية تطـويعها لذلك الواقع بحيث يمكن لقواها المحركة من الداخل أن تدفع المجتمع الى مراحل أكثر تطورا بالتغلب على كل مشاكله ٠٠ نقول أن مثل تلك البحوث كانت تفتقدها الأدبيات الاشتراكية الى حد كبير ٠٠ وربما كان هذا هو السبب فى تحدث بعض القادة الاشتراكيين عن افتقاد الاشتراكية العالمية الى « لينين » جديد بمعنى افتقاد التطوير النظرى المســتمد من خبرة الواقع العالمى والمحلى المعاصر للنظرية الاشتراكية العلمية ٠٠

لقد كانت هناك محاولات جادة وناجحة لوقت قصير من ذلك النوع أحيانا داخل الحزب الشيوعى السوفيتى ٠٠ وأحزاب شيوعية أخرى ٠٠ لكن فى السنوات الأخيرة للثمانينات حدث ما يمكن أن نسميه الصحوة داخل الحزب الشيوعى الســوفيتى ٠٠ الذى وضع قادته الواعـون مع حيوية الحزب الذى اكتسب أضخم خبرة تاريخية فى تطبيق الاشتراكية واثرائها باستمرار ٠٠ نقول وضع الحزب يده على بداية الطريق الصحيح لذلك التطوير النظرى الخلاق المفتقد ٠٠ بحيث يمكن أن يحدث التلاؤم بين النظرية والواقع الجـديد ٠٠٠٠ ويبــدو أنه سيكتب لتلك الصحوة الديمومة والاستمرار والتطور أيضا ٠٠ هكذا فهم الشيوعيون فى العالم البيروسترويكا وبهرهم قول جورباتشوف وهو يشخص الأزمة :

« ان السبب الرئيسى ، وهذا ما يرى المكتب السياسى لزاما عليه أن يبوح به بكل صراحة أمام الاجتمــاع الكامل هو أن اللجنــة المركزية للحزب وقيادة البلاد لم تتمكنا بحكم أسباب ذاتية بالدرجة الأولى من أن تقدرا فى الوقت المناسب وبالحجم الكامل ضرورة اجراء التغييرات وخطر تفاقم دوافع التأزم فى المجتمع ومن رسم سياسة واضحة لتخطيها للانتفاع الأوفى من الامكانيات الكامنة فى النظـام الاشــتراكى ٠٠ ان المسئولية المترتبة على كل ذلك أيهـــا الرفاق تتحملها الهيئــات القيــادية للحزب والدولة » ٠٠

ونلاحظ هنا أن جورباتشوف تحدث باسم المكتب السياسى ٠٠ وهو دائما يتفادى الحديث عن نفسه كأنه صاحب القرار والسياسة ٠٠ بل هو يتقدم دائما كمتحدث باســـم المكتب الســياسى معبرا عن ارادة الحزب ومستوياته جميعا ٠٠

وسنلاحظ دائما أن الدعوة للتجديد التى كان ينشرها جورباتشوف

طولا وعرضا داخل الاتحاد السوفيتى يصحبها دائما لقاءاته بالناس العاديين فى المزارع والمصانع والمؤسسات ‥ انه يتوقف معهم ‥ ويجلس اليهم ‥ ويستمع اليهم ‥ ويخاطبه العمال والفلاحات باسمه مجردا :
ميخائيل سرجيفتش ‥ نريد كذا أو نقترح كذا ! .

وهذا الأسلوب كان فى نظر الشيوعيين يمثل قدوة يضربها زعيم حركة الاصلاح فى الاتحاد السوفيتى لكل المسئولين والقادة حتى يتحرروا من قيود البيروقراطية ويهجروا مكاتبهم وينزلوا الى الواقع الحى ويستمعوا الى « الحكمة » من أفواه الجماهير وليس من التقارير ! .

ولأن قيادة الحزب تدرك أنه ولو أن ممارسة النقد والنقد الذاتى هى الخطوة الأولى لبداية اصلاح الأحوال ‥ الا أن ذلك لا يكفى ‥ بل لابد من تشخيص الأمين العام للجنـــة المركزية للحزب الشيوعى تلك العيوب والنواقص ‥

وليتأمل القارىء ما كان يقوله جورباتشوف الذى كان يقف على رأس واحدة من أعظم دولتين فى العالم ‥ هكذا فى شجاعة وصراحة مذهلة ‥ فى وقت كانت وما زالت الحملة الدولية التى بدأت منذ عام ١٩١٧ ضد الاشتراكية والدولة الاشتراكية مستمرة ومستعرة ‥ بل انها ازدادت شراسة فى السنوات الأخيرة فى عهد رونالد ريجان .

وسنطوف معا ببعض تلك العيوب التى كان قد تحدث عنها السكرتير العام للحزب الشيوعى فى الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب يوم ١٧ يناير ١٩٨٧ مثلا :

تحدث جورباتشوف عن ضعف الرقابة على الملكية الاشتراكية فى المجتمع ‥. وان هذا الضعف يكمن فى رقابة من يتصرف بها ‥ وكيف أن ذلك التصرف قد أدى الى أن تصبح تلك الملكية « فريسة نزعات المصلحية والمحلية العنيفة حتى باتت وكأنها – أى الملكية العامة أرضا « محايدة » ‥ كأنها ملكية مجانية ليس لها مالك فعلى ؟ . ! » .

وكأن جورباتشوف يقول فى بلاده ما يردده بعض الكتاب والمواطنين فى مصر من أن القطاع العام والمال العام عندنا ليس له صاحب ! .

ولا يقتصر جورباتشوف على هذا الكشف القاسى ‥ بل يمضى فى كشف العنـاصر الطفيلية التى تستغل وضعها لنهب ثمار تلك الملـكية الاشتراكية فيقول « انها راحت تستغل وضعها فى حالات كثيرة لجباية الدخل غير المشروع » ‥

● والمصيبة أن هذه الدخول الطفيلية لم يكن الكفاح ضدها قويا حاسما ·· مما كان يعنى انتهاكا لأبرز مبدأ من مبادىء الاشتراكية ألا وهو « التوزيع حسب المجهود » ·· يقول جورباتشوف : « كانت مكافحة الدخل غير المشروع تفتقر الى الحزم ·· كما لم تكن سياسة توفير الحوافز المادية والمعنوية لقاء لعمل العالى الانتاجية تتسم بالثبات والتواصل ، فقد كانت تدفع مبالغ كبيرة كمكافآت لا مبرر لها ·· كما كانت تحدث حالات بلف فى سبيل الكسب غير المشروع ·· وكثرت رغبات البعض فى العيش عالة على جهد الآخرين · ! » ·

● وفى اطار مثل هذه المعايير فانه من الطبيعى أن يحدث بعض التأمل لدى الكثيرين فى العمل مادام من الممكن الحصول على دخل بغير حق ·· « وأخذت تترسخ فى وعى الناس نفسية المساواة حسب مبدأ الأوانى المستطرقة ·· وكان هذا يلحق الأذى بأولئك الكادحين القادرين والراغبين فى العمل بصورة أفضل ، كما ييسر فى الوقت نفسه أسباب العيش لهواة الاسترخاء فى العمل ! » · أى ببساطة استوى الذين يعملون والذين لا يعملون ·· وهذا ولا شك يؤثر على انتاجية العمل ويدفع بها الى الوراء ·· كما يؤدى الى تشويه مبدأ العدالة الاجتماعية الذى يعكس فى النهاية نتائج سياسية أيضا ذات طابع خطر ·· لقد انتشر التهليب ·· فى الاتحاد السوفيتى ·

● ولعل من أطرف ما أشار اليه جورباتشوف من افرازات ظاهرة الدخول غير المشروعة ما سماه « بالمغازلات السياسية كالتوزيع الجماعى للجوائز والألقاب وتحمل المسئولية ·· وذلك بدلا من العناية الحقيقية بالمواطنين وظروف حياتهم وعملهم ورفاهيتهم الاجتماعية » ·

● وكان من الطبيعى فى ذلك الاطار أيضا أن تؤثر عناصر الفساد الاجتماعى التى برزت خلال سنوات طويلة قبل تلك الصحوة فى الوضع النفسى للمجتمع ·· بحيث بدأت عملية « افساد خفية للقيم الخلقية الرفيعة التى كان شعبنا يتسم بها على الدوام ·· تلك القيم التى نعتز ونفخر بها ·· وهى الايمان الفكرى والحماس فى العمل والشعور الوطنى السوفيتى » ·

بل ولم تتوقف علامات الفساد عند هذا الحد بل حدث « هبوط فى الاهتمام بالشئون الاجتماعية وتجلت مظاهر غلاظة الخلق والارتياب وانحطاط دور حوافز العمال المعنوية ، ونمت شريحة من الناس بعضهم من الشباب ، انحصر هدف الحياة بالنسبة لها فى اليسر المادى والكسب بشتى السبل والوسائل ·· واكتسب موقفها الماجن مزيدا من المظاهر العدوانية ، وراح يسمم وعى الآخرين فتمخض عن موجة من النزعات

الاستهلاكيــة ، وتمثل مؤشر انحطاط الطباع الاجتماعية في نمو ظاهرة السكر وانتشار تعاطى المخدرات وتنامى الاجرام » ٠٠ وزاد من الفساد « حوادث الاســتخفاف بالقوانــين وتجميل الأوضــاع المتردية والرشوة وتشجيع عادات التزلف والنفاق والتبجيل !! » ٠

« وتبدت فى أبشع أشكالها العمليات السلبية من انحطاط الكوادر وانتهاك الشرعية الاشتراكية فى أوزبكستان ومولدافيا وتركمانيــا وعدد من محافظات كازاخستان وفى اقليم كراسنودار ومحافظة روستوف وكذلك فى موسكو وبعض المدن والمحافظات والأقاليم والجمهوريات الأخرى وفى أجهزة وزارة التجارة الخارجية ووزارة الداخلية » ٠

حتى الفن تسرب اليــه لفساد ٠٠ فيقول جورباتشوف « انعكست أيديولوجية وسيكولوجية الركود كذلك على الأوضاع فى ميــادين الثقافة والأدب والفن فانخفضت المعــايير فى تقويم الابداع الفنى ، مما أدى الى ظهور قدر لا يستهان به من الأعمال السطحية الشاحبة التى لا تقدم أية غذاء لا للعقــل ولا للمشاعــر الى جانب الأعمال التى تثير قضايــا خلقية اجتماعية جادة والتى تعكس صدامات الواقع المعاش ٠٠ واشتد تعرض المجتمع السوفيتى لتغلغل قوالب الثقــافة الجماهيرية البرجـوازية التى تفرض الابتذال والأذواق الساذجة والخواء الروحى » ٠٠

وفى تقرير جورباتشوف هذا الذى نقلنا فقرات منه يشرح بطريقة مبسطة جدا ودون تعقيدات اصطلاحية أو تقعرات لفظية سلبيات النظام فى سنواته الأخيرة ٠٠٠ حديث عن انعكاس هذه الأوضاع الاقتصادية فى البلاد ٠٠ فنرى التقرير يقرر أنه حدث انخفاض فى معدلات نمو الدخل القومى خلال فترات الخطط الخمسية الثلاث الأخيرة أكثر من مرتين ٠٠

ولم تنفذ الخطط فيما يتعلق بمعظم المؤشرات منذ بداية السبعينات وبات الاقتصاد بوجه عام عاجزا عن المنــاورة وقليل التقبل للجديد من المبتكرات ٠٠ ولم تعد نوعية جزء كبير من المنتجات تنــاسب المستلزمات العصرية كما تفاقم عدم التوازن فى الانتاج ٠٠

وتخلفت الأبحاث العلميــة والأعمــال التصميميــة التجــريبية عن متطلبات الاقتصاد الوطنى ولم تعد تتجاوب ومتطلبات التحديث ٠٠

كما أن المشتريات من السوق الرأسمالى العالمى سواء من المعدات أو السلع فوق طاقة الاقتصاد وفى أحيان كثيرة لم يكن هناك مبرر لشراء بعضها ٠٠

وتنامى فى المجتمع فهم خاطىء للملكية الاجتماعية ·· فحدث اقلال فى تقدير قيمة الملكية التعاونية « وكأنها من الدرجة الثانية ولا تعد بمستقبل » ··

وساعدت البيروقراطية على القضاء على التعاونيات الحرفية ··

ونشأ نوع من المخاوف والتصورات الخاطئة بشأن الاستثمارات الشخصية والنشاط الاقتصادى الفردى ··

حتى التخطيط ناله التشوه والاختلال ·· ولم تنفذ خطط الانتاج لسنوات فى مدن ومناطق مختلفة وعلى ذلك لم يتحمل المسئولون فيها أى تبعة لقاء ·· هذا الفشل ولم تصل اليهم يد العقاب ·· وتقوض أساس منح الحوافز المادية وبالتالى انخفضت نشاطات المواطنين وتدهور الانضباط والنظام ··

ماذا حدث داخل الحزب الشيوعى السوفيتى ؟ ·· وماذا أصابه من خلل وانحراف ؟ ·· هذا الخلل الذى هو الأساس والمصدر الرئيسى لأى خلل وانحراف داخل النظام نفسه ·· فالحزب هو قائد المسيرة ·· موجه وملهم النظام ·· وطليعة الجماهير لوضعه موضع التطبيق وحمايته ؟ ·

يقول جورباتشوف ان بين أعضاء الحزب « من مارس الاختلاس والرشاوى وتزوير العمل وخالف الانضباط الرسمى والحزبى وتعاطى الخمور ·· » ·

ومع هذا فانه يجب الاعتراف أنه « لم يتم خلال السنوات التمكن من وضع حاجز متين بوجه الأشخاص غير الشرفاء الماكرين الجشعين الذين يسعون الى المكاسب من وراء عضويتهم بالحزب » ·

وقال جورباتشوف أيضا :

« لقد فشل كثير من منظمات القاعدة الحزبية فى التمسك بالمواقف المبدئية رغم أنها تمتلك القدرات الهائلة وتنشط عمليات فى داخل كافة أسر العمل · ولم تخض كل منها النضال الحازم ضد الظواهر السلبية واستباحة كل شىء والتضامن فى ممارسة الأعمال السيئة · ولا ضد ضعف الانضباط وانتشار الادمان على الخمور · ولم يجر التصدى اللازم دائما للمصلحية الذاتية والنزعة المحلية الضيقة ولمظاهر التعصب القومى ·

« ان منظماتنا الحزبية كانت تعوزها فى بعض الأحيان الروح الكفاحية والصرامة ضد أعضاء الحزب والانتباه الى تكوين الخصال الفكرية والسياسية لدى الشيوعيين » ··

وحدد جورباتشوف تلك الخصال الفكرى التى يجب أن يتحلى بها الشيوعى بأنها : الدرجة العالية من الالتزام الفكرى وعمق الوعى والادراك والاستعداد لجعل المصالح الشخصية خاضعة للمصالح العامة والتفانى فى خدمة الشعب ٠

ويقول جورباتشوف ان ذلك الوضع الذى كان قائما فى الحزب « قد صرف بعض الأجهزة الحزبية فى عدد من الحالات عن الاهتمام اللازم بمراعاة المبادىء والقواعد اللينينية فى الحياة الحزبية معارضة صارمة وقد ظهر هذا أكثر ما ظهر فى انتهاك مبدأ الجماعية فى العمل أى اضعاف دور الاجتماعات الحزبية والهيئات المنتخبة وهو ما حرم الشيوعيين امكانية المشاركة بنشاط فى مناقشة القضايا المهمة حيويا وفى خاتمة المطاف التأثير فعليا فى الوضع فى أسر العمال وفى المجتمع ككل » ٠

ووصل هذا الى داخل اللجنة المركزية للحزب نفسه ولنستمع الى جورباتشوف وهو يقول بصراحة مثيرة حينذاك :

« علينا أن نقوم الكثير مما أعوج وحاد عن الطريق السليم ٠٠ « وتعالوا نقولها بصراحة : فعلى امتداد عدد من السنين بقى غير قليل من المشاكل الملحة التى كانت تقلق الحزب والشعب خارج جدول أعمال اجتماعات اللجنة المركزية الكاملة والرفاق يتذكرون أن الاجتماعات الموسعة للجنة المركزية عقدت مرات عدة باقتضاب وشكلية ، ولم يتمكن العديد من أعضاء اللجنة المركزية خلال كل فترة وجودهم ضمن عضويتها من المشاركة فى المناقشات وحتى من طرح اقتراحاتهم ٠ هذه الأجواء فى الاجتماعات الموسعة للجنة المركزية انعكست أيضا على أسلوب عمل الجان والمنظمات الحزبية المحلية » ٠

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنه « تم الاخلال أحيانا كثيرة بمبدأ تساوى الشيوعيين ، فالعديد من أعضاء الحزب اللذين تقلدوا مناصب قيادية باتوا بلا حسيب ولا رقيب عليهم مما أدى الى الفشل فى العمل والى انتهاكات خطيرة لأدب السلوك الحزبى ٠٠ » ٠

وانعدام الرقابة على أعضاء الحزب كان ضروريا أن يؤدى الى أن بعضهم راحوا هم أنفسهم يسيئون استعمال السلطة ويكبحون الانتقاد ، ويكدسون الثروات حتى أن بعضهم قد ضلع فى أعمال اجرامية ان لم يكن مدبرها » !! ٠

ومرة أخرى نلفت النظر الى هذه المواجهة الصريحة والشجاعة للأخطاء بل والانحرافات ليس داخل المجتمع السوفيتى فقط ٠٠٠ بل داخل

الحزب الذى يقود النظام فيه ·· بحيث لا يمكن لأى ناقد لهذ النظام أن يقول أكثر من ذلك ·

وبدا أن هذا الموقف الشجاع والموضوعى نابع من الحقيقة التى ذكرناها أن النظرية الاشتراكية العلمية نظرية حيوية ديناميكية تعترف بالتناقضات التى تتفاعل داخل النظام الاقتصادى والاجتماعى الذى يقوم على أساسه ·· وتطرح أفكارا لكيفية التعامل مع تلك التناقضات ·· ومنذ خمسين عاما تقريبا قال فيلسوف فرنسى ماركسى هو هنرى ليفيفر أن الماركسية « تتخطى ذاتها » ·

لكن الأهم من ذلك أن الحزب الشيوعى السوفيتى قد وجد فى ذاته القوة والجرأة على تقييم الوضع بشكل منصف والاقرار بضرورة التغيير الجذرى فى السياسة والاقتصاد والمجالين الاجتماعى والروحى والانعطاف بالبلاد الى طريق التغيير ·· » ·

لأن ذلك الحزب يحوى فى داخله ·· وفى نسيج كيانه ·· الحيوية والوعى اللازمان لاكتشاف انحراف المسار ·· وتعديل ذلك الانحراف ·· ولا عجب فهو حزب قاد ثورة ·· وبنى الاشـــتراكية ·· وانتصر على الفاشية ·· ويواجه الامبريالية مصدر الشرور فى العالم ! · هكذا تصورنا جميعا ··

اذن أصبح الشعار المطروح على الساحة يتلخص فى كلمة واحدة هى « التغيير أى تغيير ؟ ·· وفى أى اتجاه ؟ ·· وكيف يكون ذلك ؟ ··

ولقد استجاب الشعب السوفيتى استجابة مدهشة لصيحة التجديد التى أطلقها المكتب السياسى للحزب الشيوعى ·· ولجنتــه المركزية ·· ومؤتمره ··

« ان مجتمعنا عانى بالفعل ليصل الى ضرورة التغيير ، وقد قاربه فعلا لا وهما واذا نحن أضعنا الوقت خسرنا الكثير ·· الكثير » ··

« نحن الآن نتحدث محدقين أحدنا فى عين الآخر ·· لكن بودى أن أقول مرة أخرى : لا تردد أبدا ·· وعلينا أن نغير ما بأنفسنا بكل حزم واصرار ·· على الكل أن يفعلوا ·· » ·

« نحن نعرف أن فى مجتمعنا قوى قادرة على أخذ عملية التغيير على مسئوليتها ·· على أخذ هذا الحمل على عاتقها ·· وكلنا ثقة بأن مجتمعنا سوف ينفذ مهام التغيير اذا ما تطهر من الأدران وتحــرر من أمور كثيرة وأول هذه الأمور هو التفكير العتيق البــالى ·· التعــامل مع الأمور كما لو كانت فى الماضى » ·

« التجديد يبدأ منا نحن ٠٠ يبدأ من الحزب من كوادره القيادية ٠٠ هكذا كان يردد جورباتشوف دائما ٠٠ وكان يشرح معنى التغيير قائلا :

« انها ثورة الأماني » في عصر المبادرات الهائلة واعادة تقدير القيم والآمال المتزايدة القوة ٠٠ والمد الاجتماعى ٠٠ والصراع الذى لا يعرف الهوادة بين الجديد والقديم ٠

لقد ولى زمن قوى التواكل والاهمال والخمول والعرقلة « والفرملة » بل لابد من تحطيم هذه القوى ٠٠ وينبغى وضع كل شيء تحت رقابة الشعب حتى نجعل التغيير لا رجعة فيه وحتى يمكن ضمان منع تكرار ما حدث فى الماضى ٠

ويمضى الى القول :

يبدأ التغيير بانتقاد الماضى بوصفه قاعدة هامة أو محطة من محطات التطور يمكن على أساسه استخلاص الدروس والعبر والاستنتاجات اللازمة لتقدير الحاضر وفهمه وتطويره ٠٠ ثم نفس الشيء للغد ٠٠ بحيث يمكن الاندفاع فى عملية البناء على أسس سليمة ٠

ان عملية التغيير قد وضعت استراتيجيتها على أسس علمية ٠٠ وتعنى أول ما تعنى الحزم فى التغلب على عمليات الركود وكسر الميكانيكية « الرجعية » التى سادت بعض نواحى المجتمع أصبحت تغل مؤسسات المجتمع عن التطور والتقدم ٠٠ وخلق ميكانيكية جديدة فى المجتمع فعالة ومتقدمة لتعجيل تنمية المجتمع السوفيتى اقتصاديا واجتماعيا ٠

ويعنى هذا اجراء عملية توحيد ما بين آخر منجزات الثورة العلمية التكنولوجية والاقتصاد المبرمج ، ثم تحريك كل قدرات وقوى الاشتراكية ٠

والتغيير يعنى الاستناد على الابداع الحى للجماهير ٠٠ والتطوير الشامل للديمقراطية والتسيير الذاتى للاشتراكية وتشجيع المبادرة والنشاطات الذاتية وتعزيز الانضباط والنظام وتوسيع نطاق العلنية والنقد والنقد الذاتى فى كل مجالات حياة المجتمع ٠

ان التغيير يعنى توفير اسمى درجات الاحترام وكرامة شخصية الانسان ٠٠ وهى زيادة مضطردة لدور عوامل التكثيف فى تنمية الاقتصاد السوفيتى واعادة الاعتبار فى ادارة الاقتصاد الوطنى لمبادىء المركزية الديمقراطية اللينينية وتطويرها ، والتطبيق الشامل لطرق الادارة والتسيير الاقتصادى والعدول عن أسلوب اصدار الأوامر والنزعة الادارية وضمان انتقال كل حلقات الاقتصاد الى مبادىء الحساب الاقتصادى المستقل

كاملا والى أشكال جديدة من تنظيم العمل والانتاج والى تشجيع التجديد والمبادرة الاشتراكية بكل الوسائل ٠

عملية التغيير اذن هى انعطاف حاسم نحو العلم والمشاركة بينه وبين التطبيق فى العمل بهدف بلوغ أرفع النتائج النهائية ، والمقدرة على وضع أى مبادرة على أساس علمى راسخ ، واستعداد العلماء ورغبتهم الحارة فى دعم نهج الحزب لتجديد المجتمع دعما نشيطا ، والحرص على تطوير العلم ورفع مستوى كوادره ومساهمتهم النشيطة فى عملية التحويل ٠

وعملية التغيير تعنى أولوية التنمية فى الميدان الاجتماعى والتلبية المتزايدة استكمالا لحاجات السوفييت الى ظروف عمل وعيش أفضل واستجمام وتعليم وخدمات طبية جيدة ٠

وهى الاهتمام الدائم باثراء كل انسان والمجتمع ككل روحيا وثقافيا ٠٠ وهى القدرة على الجمع بين حل المشاكل الكبرى والجذرية فى حياة المجتمع وحل المسائل اليومية التى تقلق الناس ٠

وعملية التغيير تعنى الاسراع بتخليص المجتمع من التشوهات التى لحقت بالأخلاق الاشتراكية والتطبيق لمبادىء العدالة الاجتماعية ٠ ويعنى التغيير الوحدة بين الأقوال والأفعال ، والوحدة بين الحقوق والواجبات ، كما يعنى تشجيع العمل الشريف الرفيع المستوى من الناحية النوعية ، والغاء التوجه نحو مساواة الصالح بالطالح فى دفع الأجور للعمال ٠ كما يعنى التغيير التغلب على روح حب الاستهلاك دون انتاج شىء ٠٠ أى « التهليب » ٠

باختصار أن الهدف النهائى لعملية التغيير واضح جدا وهو التجديد العميق لكل جوانب حياة البلاد واكساب الاشتراكية أحدث أشكال التنظيم الاجتماعى والابراز الأكمل لطابع النظام الاشتراكى الانسانى فى كل أوجهه المحددة ، الاقتصادى منها والاجتماعى والسياسى والأدبى ٠

الديمقراطية هى الحل :

فى العمل السياسى توجد دائما حلقة رئيسية اذا أمكننا أن نمسك بها تداعت سائر الحلقات وأصبحت طوع البنان كما يقال ٠

ما هى الحلقة الرئيسية اذن فى عملية التغيير ٠ والتجديد التى بشرت قيادة الحزب الشيوعى السوفيتى الشعب أيامها :

بلا التواء أو مناورة أكد جورباتشوف أن الديمقراطية هى تلك

الحلقة الرئيسية ·· الديمقراطية هى الحل ·· هى الوسيلة كى تحدث عملية التغيير المنشودة ·

« ان تقدمنا فى الانتاج والعلم والتكنولوجيا والأدب والثقافة والفن وفى كافة مجالات الحياة الاجتماعية غير ممكن لا عن طريق التطوير المضطرد لأشكال الديمقراطية اللازمة للاشتراكية وعبر توسيع الادارة الذاتية ·· وهذا الطريق وحده يضمن الانضباط الواعى ·· وعملية التغيير غير ممكنة الا عبر الديمقراطية وبفضل الديمقراطية · وهكذا يمكن فقط فتح الآفاق أمام أكبر قوة ابداعية للاشتراكية ·· العمل الحر والفكر الحر فى بلد حـر ·

وهذا هو السبب الذى يجعل مواصلة اشاعة الديمقراطية فى المجتمع السوفيتى من مهام الحزب الملحة ·

وجورباتشوف يحدد مجالات تطبيق الديمقراطية هذه فى :

١ ـ مجال الانتـــاج الصناعى والزراعى ·· بحيث يمكن تطبيق أشكال من الديمقراطية المباشرة بحيث تمنح الاجتماعات العامة ومجالس أسر العمل الحق فى حل المسائل المتعلقة بالشئون الانتاجية والاجتماعية ومسائل الكوادر بحيث تصبح خطوة سياسية كبيرة فى طـريق التحول الى ادارة ذاتية حقه للشعب على حد تعبير لينين ·

كما أنه ستجرى انتخابـات رؤساء ومديرى المؤسسات والقطاعات الانتاجية والورش والأقسام والمزارع ورؤساء الفرق الانتاجية والأسطوات ·· « من ناحية أخرى يجب تحقيق نوع من الاستقلال الاقتصادى والتمويل الذاتى وتغطيـة التكاليف ذاتيـا مما يحتم ضرورة اشراف الكادحين على عملية الانتاج ·

وفى المجال السياسى تتمثل اشاعة الديمقراطيـة فى تطـوير نظام الانتخاب السوفيتى بحيث يكون هنـاك عـدد من المرشحين فى الدوائر الانتخابية · مع بحث كيفية اختيار المرشحين ومناقشة صفاتهم الشخصية « وينبغى تخليص مجريات التصويت من الشكلية والتوصل الى أن تجرى الحملة الانتخابية بمزيد من الديمقراطية ·

وفى جو اهتمام الناس بالمشاركة فى هذه العملية ·

وفى داخـل الحزب الشيوعى تجرى انتخابات سـكرتيرى اللجان بالتصويت السرى فى الاجتماعات الكاملة لها مع حقها فى أن تقدم عددا من المرشحين لا مرشح واحد ·

وينطبق هذا على انتخاب الهيئات القيادية العليا للحزب . من ناحية أخرى ان تشديد الرقابة على عمل الهيئات الحزبية والادارية والاقتصادية وكوادرها لا يجب أن يقتصر على الرقابة من أعلى ، بل يجب عمل اللازم لوجود رقابة من « أسفل » بحيث يشعر كل مسئول ومدير بمسئوليته وتبعيته للناخبين وأسر المؤسسات والمنظمات الحزبية والاجتماعية والشعب بأسره .

ولفت الرفيق جورباتشوف الأنظار الى أن النقد والنقد الذاتى يعدان أداة فعالة « للديمقراطية الاشتراكيـة وهو ما لا يعارضه أحد علنـا كما يبدو » . الا أن جورباتشوف كشف بصراحة عن العثرات والعقبات فى طريق تطبيق هذا المبدأ بشكل واقعى فعال فيقول « الا اننا نصطدم فى حياتنا اليومية بوقائع تشهد على أن ضرورة تأييـد الاتجاه الانتقادى فى المجتمع لم يدركها الجميع . ويصل أحيانا الى أن بعض الشخصيات تنظر الى أنفه ملاحظة كتطاول على سمعتها وتسخر كل الوسائل الممكنة للدفاع عن هذه السمعة ! .

وهناك عناصر أكثر حنكة فهى تعترف بعدالة الانتقادات وحتى تقدم الشكر لموجهيها ، ولكنها لا تسرع بتصفية النواقص أملا فى أن ينتهى كل شىء على ما يرام كما حدث فى الماضى .

بل ان جورباتشوف يكشف استغلال بعض المسئولين لنفوذهم بحيث يضطهدون من يوجه الانتقادات ، بعد أن غمرت البلاد موجة من الحماس لتوجيهه فى اطار عملية التجديد التى بدأت فى البلاد منذ تولى جورباتشوف السلطة عام ١٩٨٥ .

قال ذات مرة : طالعوا أعداد الصحف المركزية التى صدرت فى شهر يناير وحده (يقصد يناير ١٩٨٧ الذى كان يلقى فيه بخطابه فى اجتماع اللجنة المركزية الموسع) لتروا أن ملاحقة الناس اللذين يوجهون الانتقادات ليست بظاهرة نادرة .

وبالمنـاسبة ان عـدد قراء الصحف والمجـلات المركزية فى الاتحاد السوفيتى ازداد أيامها بأكثر من أربعة عشر مليون شـخص ، كما كان يجتمع ملايين الناس عند الشاشة الصغيرة عندما يقدم التليفزيون المركزى البرامج المكرسة لمواضيع الساعة الحيوية فى حركة التجديد .

وقد قدر المكتب السياسى للحزب الدور الذى تقوم به وسائل الاعلام فى الاتحاد السوفيتى والجهود التى تبذلها لتطوير روح الانتقاد الذاتى لزيادة حماس الجماهير فى عملية التغيير والتجديد .

وقد ضرب ذلك المكتب المثل للشعب كله ٠٠ ففى تقرير الرفيق جورباتشوف فى الاجتماع الموسع للجنة المركزية فى ٢٥ يونية عام ١٩٨٧ ضرب مثلا وقدوة لكل الهيئات والمنظمات هناك عندما قال فى حسم : باسم المكتب السياسى وانطلاقا من مبدأ النقد الذاتى أعلن أننا نرى فى النشاطات العملية مواطن ضعف تعود الينا نحن أعضاء هذا المكتب ٠

ومضى جورباتشوف بعد ذلك ينقد مؤسسات الدولة وكبار المسئولين فيها : فعندما تحدث عن الخلل الاقتصادى الذى حدث فى قطاعات اقتصادية عديدة قال ان « مسئولية ذلك تقع فى المقام الأول على لجنة الدولة للتخطيط فى الاتحاد السوفيتى (الرفيق تاليزين) ولجنة الدولة للامداد والتموين (الرفيق فورونين) ٠

ثم انتقد بعد ذلك وزارة الصناعة الحديدية ووزارة الصناعة الكيماوية ٠٠ وما يجرى فى جمهورية أرمينيا من عدم قيام المنظمات الحزبية بنشاط كاف فى عملية اعادة البناء بينما « ترى قيادة الحزب الشيوعى الأرمنى وعلى رأسها الرفيق ديمترتشيان السكرتير الأول للجنة المركزية أن الوضع فى الجمهورية جيد تماما » ويقول جورباتشوف أنه لم تجر فى تلك الجمهورية مكافحة فعالة ضد الرشوة والمضاربة التجارية والمحسوبية » ! ٠

ولفت جورباتشوف الأنظار مرة أخرى رغم حملة التجديد التى أتت بنتائج باهرة الا أن « جذوة النضال من أجل الانضباط والنظام قد خمدت فى أماكن جديدة ويجرى العمل بفتور شديد ٠٠ وقد كثرت من جديد حالات ادمان السكر ومرة أخرى يرتع الكسالى والطفيليون ولصوص المال العام أى أولئك الذين يعيشون عالة على الغير ، وهذا يثير قلق الكادحين وهو قلق مبرر أيها الرفاق » ٠

وربط جورباتشوف فى صراحة مثالية بين حادث الطائرة الألمانية المدنية الصغيرة التى هبط بها طيارها الشاب الألمانى الغربى « راست » فى الميدان الأحمر منذ عدة شهور دون اذن من السلطات وبين حالة التسيب التى مازالت موجودة فيقول :

« وضعف الانضباط وانعدام النظام تدل عليه حقائق الأحداث الطارئة الضخمة التى تتكرر دوريا ٠٠ وهنا يتضح أن الأسباب واحدة تكن فى عدم الانضباط والاهمال وسوء التدبير وعدم الشعور بالمسئولية ، وعلى هذا يدل حادث انتهاك الطائرة الرياضية الألمانية الغربية للمجال الجوى السوفيتى وهبوطها فى موسكو ٠ وهو حادث لا سابق له طبقا لكافة وجهات النظر ٠ وهو يذكر من جديد بمدى قوة وطول نفس تلك

الظواهر السلبية فى مجتمعنا وحتى فى الجيش التى كشف عنها اجتماع ابريل الكامل والمؤتمر السابع والعشرون للحزب · وهذا يؤكد ضرورة زيادة اليقظة والعمل بحزم أكبر وتعزيز الانضباط والتنظيم فى كل مكان وزيادة المسئولية والأداء على كافة المستويات » ·

ولكن جورباتشوف لم ينسى أبدا أن يبدد أية شكوك تكون قد ساورت أحدا داخل أو خارج الاتحاد السوفيتى عن القدرة العسكرية الهائلة للاتحاد السوفيتى فيمضى الى القول : باسم المكتب السياسى ومجلس الدفاع أعلن بقوة أنه يجب ألا تساور الحزب أو الشعب أية شكوك حول قدرة القوات المسلحة السوفيتية على الدفاع عن بلدنا ··

وعندما يتناول جورباتشوف مشكلة الاقتصاد يتحدث عن وجود ٨٠٠ ألف بيت مهجور مع ما يحيط بها من أراضى ولا يستثمرها أحدا ··

كما أن هناك نقصا فى عدد المستودعات والمخازن بحيث تتلف بعض المحاصيل والبضائع التى تضطر الدولة الى استيرادها من الخارج ··

وتناول ظاهرة نشكو منها نحن فى مصر أيضا وهى اعتماد القرية على المدينة فى شراء سلع كانت القرية تنتجها ·· فيقول :

« لكن ما الذى يجرى الآن عادة ؟ ابن الريف يسرع الى المتجر فى طلب كل صغيرة وكبيرة وأصبح يشترى الأغذية كابن المدينة ، فهناك ٥٤٪ من العائلات التى تسكن الريف لا تملك بقرة ·· و ٣٣٪ لا يملكون عموما أى نوع من الماشية ·· !!

ونختم هذا الحديث عن القدوة التى كان يضربها جورباتشوف لكل أجهزة الحكم والحزب حتى تنبعث روح التجديد والتغيير باشاعة الديمقراطية ·· بحكاية رواها الزميل الأستاذ حسين عبد الرازق رئيس تحرير جريدة الأهالى لسان حال حزب التجمع بالقاهرة (عدد ٢٠ مايو ١٩٨٧) ·

فى الحفل الختامى الذى أقامته جريدة برافدا مساء ٥ مايو وحضره العاملون فى الجريدة والصحفيون الأجانب وميخائيل جورباتشوف · تكلم المراسل العمالى للبرافدا فى الشرق الأقصى وهو سائق قطار كهربائى · وكان المراسل يتكلم بتلقائية وقوة وشجاعة · وحكى للحاضرين قصة المسئول الحزبى الذى تدخل لاعطاء زوج ابنته شقة متجاوزا دوره ··

وكيف يلجأ المتضررون الى المراسل العمالى الذى حاول عبثا نشر الموضوع فى الصحافة المحلية · ثم أرسل برقية لجورباتشوف ·

ونظر المراسل الى جورباتشوف قائلا ٠ لا أعرف اذا كانت البرقية قد وصلتك أم أخفوها عنك ؟ ٠٠

وانفجرت القاعة بالضحك والتصفيق ٠٠

وواصل المراسل روايته قائلا وأخيرا أرسلت القضية الى البرافدا ونشرت وتم تصحيح الأمر ومعاقبة المخطئين ؟ ٠٠

وقد فاز هذا المراسل بالجائزة السنوية المخصصة للمراسلين العماليين ٠٠ وقد لفت نظر الزميل الأستاذ سعد كامل الكاتب المعروف بجريدة الأخبار بعد زيارة له للاتحاد السوفيتى (عدد ١٤ ديسمبر ١٩٨٦) أنه نادرا ما يعثر الزائر على صور لجورباتشوف تتصدر الشوارع بل ان لصور لينين مكان الصدارة فى كل مكان ٠٠ كما لفت نظره أيضا أن خطب جورباتشوف قصيرة فى أغلب الأحيان ٠٠

ويكشف عن الفرق بين ما حققه خروتشوف عام ١٩٥٦ من ازالة الستار عن عبادة الفرد فى عهد ستالين وبين ما حققه جورباتشوف أيامها منذ عام ١٩٨٥ ٠٠ فيقول سعد كامل فى مقاله :

« ان التغييرات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى الآن بقيادته الجديدة هى الثورة الثانية بعد ثورة لينين ٠ هى ثورة من أجل اعادة البناء ٠٠ ومع أن المؤتمر العشرين منذ ثلاثين عاما بقيادة خروشوف وما أعلنه من ادانة عبادة الفرد ، قد صب جام غضبه على الممارسات الخاطئة لستالين دون ايجابيات المرحلة ، الا أنه لم يصل الى مرحلة التغيير الشامل لأنه مع تحامله الشديد على ستالين لم يقدم بديلا عمليا لانعكاس عبادة الفرد على الاقتصاد والسياسة والاجتماع ٠

وهذا ما تفاداه جورباتشوف فى المؤتمر السابع والعشرين حيث انطلق الحديث عن السلبيات بين الشعارات والتطبيق العامى ٠٠ فيتحدث عنه كل الصحفيين والكتاب والسياسيين الذين يزورون الاتحاد السوفيتى ٠٠ كما تنقل لنا وكالات الأنباء فى كل يوم أمثلة ونماذج ٠٠

لقد أصبح حق الجمهور فى أن يعلم مبدأ مقررا ٠٠ فالأحداث والكوارث تعلن أولا بأول دون خوف ٠٠ أى ساد مبدأ العلنية ٠٠

وقد جرت ندوات بالتليفزيون باستخدام القمر الصناعى بين زخاروف زعيم المنشقين فى الاتحاد السوفيتى حينذاك وبين عدد من العلماء والكتاب فى الولايات المتحدة بشكل مباشر تناول الجميع كل الأمور التى كانت تعتبر مسائل شائكة ٠٠ لا يجوز مناقشتها علنا ٠٠

كما جرت مناقشة تليفزيونيـة مشابهة مـرة بين شبان سوفييت وشبان غربيين .. فى أدق الأمور بما فيها مشكلة تعاطى المخدرات بين الشباب السوفيتى . وطرحت قضايا هامة للمناقشة العامة فى أوساط الرأى العام .. حتى أن عقوبة الاعدام ذاتها طرحت للمناقشة .. والقيود على السفر ..

وأعيد الاعتبار لكتاب كانوا يعتبرون مارقين ومضادين للثورة مثل بوريس باسترناك وسمح بعرض أفلام كان ممنوعا عرضها .. مثل فيلم « التوبة » الجورجى الانتاج وكان ممنوعا عرضه لمدة خمس سنوات .. وفيلم « موضوع » للمخرج جليب بالفيلوف وفيلم «تفتيش على الطرقات»، وفيلم « اجونيا » ..

ورد الاعتبار الى المخرج أندريه تاركوفسكى الذى لم يستطع انتاج أفلام فى بلاده فعـاش فى باريس .. فأصبحت تعرض أفـلامه الآن .. واللافت للنظر أن هذه الأفلام عرضت فى عدة دور فى وقت واحد هناك .. واحتشد الناس فى طوابير طويلة لمشاهدتها ..

والصحفى الكاتب البارز نبيل زكى بمجلة آخر ساعة يقول عقب زيارة له لموسكو : « ويقولون فى موسكو أن عملية التغيير لابديل لها .. وأنها أشبه بالأكسوجين الذى يتيح الاسعاف والانقاذ ، ويهيىء للشعب السوفيتى « الانبعاث » ..

وهكذا سقطت « المحرمات » وأصبحت « مقدسات » البيروقراطيـة مطروحة للنقاش العلنى ..

الطوابير الكئيبة أمام محلات موسكو التجارية موضع تعليق القارىء بلجاتوف فى احدى الصحف السوفيتية . وهو يكتب فيها قائلا ان المحل التجارى لا مصلحة له فى توفير عدد كبير من الباعة . بل ان مصلحته تكمن فى وجود الطوابير لأنها تخلق ظروفا ملائمة للكيل الناقص حيث لا يتوفر الوقت للزبون لمراقبة ذلك كما أن الطابور الذى يقف وراءه لن يسمح له بالتمهل والتدقيق .. وهكذا يتعرض الزبون لامتهان كرامته وحقه » !!

معنى اعادة البناء الاقتصادى :

اذا كانت الديمقراطية هى الحل فان ذلك يعنى انها الشرط والاطار الضرورى لاحداث انقـلاب فى الحيـاة السوفيتية بحيث يتطور الانتـاج ويتضاعف ويتفوق حتى يمكن تحقيق هدف الاشتراكية الأسمى هو بناء السعادة والرفاهية المادية والمعنوية للانسـان ..

ولذلك طرحت القيادة الجديدة هناك ما سمته باعادة بناء الاقتصاد جذريا ٠

أى القيام باصلاحات جذرية فى ادارة الاقتصاد وأساليبه بحيث يتيح التغير الجديد فرصا جديدة وحقيقية للاستفادة من أفضل ما هو موجود فى النظام الاشتراكى ٠٠

ومن المعروف فان نمو الانتاج لا يمكن ضمانه الا على أساس المصلحة الشخصية وعلى المصلحة المادية ٠٠ وتلعب الحماسة دورا مساعدا ٠٠

وكان نظام الادارة فى الاتحاد السوفيتى يعتمد بالدرجة الأولى على النظم واللوائح التى وضعت فى الثلاثينات ، « أى فى تلك المرحلة العصيبة التى لم يكن بلدنا فيها عالى التطور من الناحية الاقتصادية وكان يقف وحيدا فى وجه العالم الرأسمالى ووجد نفسه أمام ضرورة القضاء السريع على التخلف التكنولوجى والاقتصادى بتغييرات بنيوية جذرية فى الاقتصاد الوطنى » ٠

والحقيقة انه فى اطار تلك الأساليب والتحديات استطاع الشعب السوفيتى أن يحقق من خلال الخطط الخمسية التى سبقت الحرب نموا كبيرا فى حجم المنتجات الصناعية (٦ر٥ مرة) بحيث قفز الاتحاد السوفيتى فى هذا المجال من المركز الرابع الى المركز الأول فى أوروبا ، ومن المركز الخامس الى المركز الثانى فى العالم ، كما زادت نسبة المؤسسات المنتجة لوسائل الانتاج من ٣٩ر٥ الى ٦١٪ ٠

وعلاوة على هذا تضاعف عدد العمال والموظفين العاملين فى الصناعة ثلاث مرات خلال السنوات الاثنى عشر التى سبقت الحرب ٠

ولابد أن نفهم مبررات هذه الأساليب فى الثلاثينات التى اعتمدت على المركزية الشديدة ٠٠ اذ أنه كى يحقق الاتحاد السوفيتى هذه الانجازات الضخمة فى مواجهة حصار اقتصادى رأسمالى عالمى ٠٠ بل ومؤشرات مستمرة لاجتياح الدولة الاشتراكية الأولى ٠٠ فان الدولة كان عليها أن تكثف وتزيد من حصة الادخار القومى التى ترصدها للتنمية ، وفى مستهل الخطة الخمسية الثانية بلغت هذه الحصة ٣٠٪ ، اى أنها أصبحت أكثر بمرتين من مستواها فى أواخر العشرينات ، وأكبر عدة مرات من مستواها فى روسيا القيصرية ٠

وكان يجرى عن طريق ميزانية الدولة اعاة توزيع حوالى ٦٠٪ من الدخل القومى بينما ينفق الباقى على التنمية ٠

وهذا القدر الضخم (حوالى ٤٠٪) كان يوجه مركزيا وبالدرجة الأولى الى تطوير الصناعة الثقيلة ٠

ولهذا أنشىء نظام الادارة الذى يرتكز على أساس المركزية الصارمة والتنظيم الدقيق للعمل والمهام الموجهة لكل حلقة من حلقات الاقتصاد الوطنى ومخصصات الميزانية ٠

وفى اطار تلك الظروف الخاصة بالتجربة السوفيتية استطاع النظام الجديد حل مهام استراتيجية فى فترات قصيرة جدا احتاجت الدول الرأسمالية المتطورة الى عشرات السنين لتحقيق مثلها ٠

وساعد على اشتداد طابع المركزية فى الاقتصاد السوفيتى الحرب العالمية وكذلك ما بعدها لما كانت تقتضيه الأمور من حشد وتعبئة للموارد والقوى العاملة فى نفس الوقت ٠٠

ومن الطبيعى أنه حدثت خلال ذلك أخطاء عديدة ٠٠ مثل اتخاذ قرارات فردية وذات طابع ذاتى ٠

ما الجديد الذى استوجب وقت البيروسترويكا تغيير الادارة الاقتصادية وأساليبها جذريا ؟؟

لقد أصبح نظام الادارة القائم مع مرور السنين يتعارض بصورة أكثر حدة مع ظروف ومتطلبات التطور الاقتصادى ٠

لقد تعقد الاقتصاد وتشابكت مؤسساته وكثرت وترابطت مع مؤسسات اقتصادية خارجية ٠

وازداد عدد القوى العاملة وتنوعت أعمالهم ونشاطاتهم وهيئاتهم الاجتماعية ٠٠ وفتحت ظروف التعايش السلمى الباب على مصراعيه لرؤية ومتابعة أساليب الادارة البرجوازية ومعدلات التنمية ونوعية السلع وساعد على تلك المتابعة الانفتاح الاعلامى الهائل عالميا ٠

وتقدمت أساليب التكنولوجيا تقدما لم يكن يحلم به أكثر المتفائلين ٠٠ ولهذا التقدم أثره على الانتاج كما ونوعا ٠٠ بل أن له أثرا مباشرا على حياة الانسان وتفاصيلها اليومية ٠٠ ورغم أن التكنولوجيا تدخل الميكانيكية أو « الأوتومية » فى عملية الانتاج الا أنها عكست تعاظما للدور البشرى فيها أيضا ٠٠ فمستوى العاملين فى مثل ذلك الحقل لابد أن يكون مرتفعا من الناحية العلمية ٠٠ كما أن عمليات الاختراع وتطوير الآلات أصبحت على مستوى قاعدى خطير ٠

ولم يعد ملائما منطق المركزية الشديدة بعد أن تعددت واتسعت مجالات - ومؤسسات الانتاج المتنوعة ٠

وخلال هذه السنوات الطويلة للتطبيق الاشتراكى فى ظروف مغايرة للثلاثينات وبعد الحرب العالمية الثانية بالذات أفرزت التجربة العملية صيغا وأفكارا نظرية جديدة تنعكس هى بدورها على التطبيق فتطلق أفكارا أخرى جديدة وهكذا ٠٠

وزاد تأثير الظروف الاجتماعية نسبيا فى توجيه الاقتصاد بعد أن ارتفع مستوى المعيشة واتسعت قاعدة من يحصلون على دخل أكبر ٠٠ وما استتبع ذلك من ظهورهم فى مستوى رفاهى لم يكن مألوفا ٠٠ وانتشرت ألوان الثقافة والفنون ٠٠ وتخالطت الأفكار من الداخل والخارج ٠٠ وتبودلت الخبرات والتجارب ٠٠ وأتاح الفرصة لهذا كله نجاح السياسة السوفيتية فى تجنيب العالم كارثة حرب عالمية ثالثة ٠٠ فعاش العالم والنظام الاشتراكى العالمى لأول مرة أكثر من أربعين عاما فى سلام دائم ٠٠ رغم الحروب المحلية العديدة ٠٠

وهذا السلام قد غرس فى أعماق الناس بعد أن قل استشعارهم بخطر الفناء ٠٠ رغبات عارمة فى المعيشة فى مستوى أفضل بالاستهلاك أكثر فأكثر ٠٠ وبالحصول على خدمات ذات مستوى أرفع ٠٠ وأهم من ذلك الحصول على حقوق للانسان فى الحرية أوسع وأوسع ٠

وقد عبر عن ذلك جورباتشوف بقوله كما جاء فى مقال زميلنا الكاتب سعد كامل فى جريدة الأخبار فى ٢٤ ديسمبر ١٩٨٦ : اذ يقول « ولأول مرة يرفع جورباتشوف شعار ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ٠٠ وهو الشعار الذى كان يشهره الغرب فى وجه العالم الاشتراكى باعتبار أنه لا يهتم الا بغذاء الانسان ! ويعرف الزعيم السوفيتى الديمقراطية تعريفا شعريا فيقول : انها ذلك الهواء العليل الصافى الذى لا يمكن الا أن يحيا فيه الكيان الاجتماعى الاشتراكى حياة زاخرة ، فان تطوير الديمقراطية الاشتراكية فى جميع جوانبها هى الكفيلة بالاسراع فى تطوير المجتمع » .

ولكن ألم تحدث من قبل محاولات لاصلاح الادارة ومسار الاقتصاد بعد أن بدأت تلك العوامل فى الظهور ؟

لقد سجل جورباتشوف للتاريخ محاولات سابقة فى هذا المجال فقال : « لقد جرت خلال العقود الأخيرة محاولات علمية عديدة لتغيير نظام الادارة القائم » حدث ذلك فى الخمسينات والنصف الثانى وأواخر السبعينات » ٠

لكن ماذا كانت نتائج تلك المحاولات ؟

يجيب هو على السؤال : « لم تكن تلك المحاولات كاملة ودؤوبة وأعطت فى أفضل الأحوال مردودا مؤقتا ولم تؤد الى حدوث الانعطاف المطلوب ، فى حين كان الحافز فى الآلية الاقتصادية القديمة يضعف باستمرار ؟ أما العامل الذى يعرقل التطور فقد كان يقوى » ! ٠

والآن ٠٠٠ ان أصحاب نظرية اعادة البناء الاقتصادى كانوا يستمدون أفكارهم من :

ـ أن المسألة الرئيسية فى نظرية الاشتراكية هى كيف يمكن فى ظل الاشتراكية وبناء على أساسها خلق حوافز أكثر قوة مما هو قائم فى النظم الرأسمالية ٠٠ حوافز التقدم الاقتصادى والعملى والتكنولوجى والاجتماعى ٠٠ وكيف يمكن التوفيق الأكثر فعالية بين الادارة المخططة ومصالح الفرد والجماعة ٠

ـ كما أنه لا يجوز النظر الى الاشتراكية على أنها مجتمع جامد تصب فى قوالب ثابتة ٠٠ وعلى الاشتراكيين أن يتعلموا من لينين الموقف الابداعى من تطوير نظرية وممارسة البناء الاشتراكى والتسلح بالمنهج العلمى واستيعاب فن التحليل لمواجهة ظرف تاريخى معين ٠

وبناء على هاتين الفكرتين ـ رأى القادة الجدد أن المفتاح لايجاد حوافز فعالة لتطوير الانتاج ٠٠ هما فى خلق ظروف للكادحين يشعرون خلالها أنهم سادة حقيقيون فى مكان عملهم وفى أسرة العاملين ٠٠ وفى المجتمع عموما ٠

ومصلحة الكادحين كأسياد ولعملية الانتاج هى أقوى المصالح بل هى أعظمها قوة محركة لتسريع التقدم الاجتماعى والاقتصادى والعملى والفنى ٠٠ ويقصد بكلمة « التسريع » زيادة وتائر التقدم ٠٠ أى بدلا من زيادة انتاج السلع بمعدل ٤٪ سنويا تصبح ٥ أو ٦٪ ٠٠ وهكذا ٠٠

كيف تتحقق سيادة العاملين على الانتاج ؟ ٠ سبق أن دعى جورباتشوف الى اشاعة الديمقراطية فى الاقتصاد ٠٠ وهذا واحد من شروط تحقيق تلك السيادة ٠٠

كما أن هناك أمرا آخر للقضاء على الدخول الطفيلية ، هو تأكيد حتمية الحصول على دخل بقدر العمل ٠٠ بقدر الدخل الذى يحققه الكدحون فى نطاق عملهم ٠٠ وفى نطاق مؤسساتهم ٠٠ وفى نطاق البلاد كلها ٠٠

من ناحية أخرى انه من الضرورى توسيع حدود استقلالية الاتحادات والمؤسسات الانتاجية بشكل حاسم ٠٠ وتحويلها الى العمل وفقا لنظام

الحساب الاقتصادى المستقل التام والتمويل الذاتى وجعل مستوى أرباح أسر العاملين يتوقف مباشرة على فعالية عملها ٠

ـ كما أنه من اللازم اجراء اصلاحات جذرية فى قيـادة الاقتصاد المركزية والتخطيط والتسعير والاقراض والانتقال الى تجارة الجملة بوسائل الانتاج واعادة تنظيم ادارة التقـدم العلمى والتكنولوجى بحيث يصـل الانتاج الى مستوى النوعية العالية وتطوير الادارة الذاتية ٠

ـ من ناحية أخرى ضرورة وضـع نظم وأساليب لتنشيط قـدرة الانسان الفرد وتعيين حدود الوظائف بدقة ٠

والنشاط الفردى هذا هو الذى أثار ضجة فى العالم كله واستخدمه الغرب لكشـــف « تراجع فى الاتحاد الســـوفييتى عن الاشـــتراكية ٠٠ وعودة الى الرأسمالية بعد فشل الاشتراكية » ٠٠ وهكذا وكأنما كانوا يتنبؤن بما سيحدث ، وكان رد أنصار البيروسترويكا على هذه المقولات والتنبؤات التأكيد :

أنه فى النظم الاشتراكية جميعا سمح فى ظـروف كثيرة بالنشاط الاقتصادى الفردى لحل مشاكل متعلقة بالانتاج كما ونوعا ٠٠ كما يرتبط الأمر أيضا بمدى قدرة الدولة على ادارة المشاريع ٠٠ وكذلك أيضا بدور طبقات محددة خلال العملية الثورية لانتقال المجتمع من الرأسماليـة الى الاشتراكية ٠

وفى عام ١٩٢٤ سمحت الثورة البلشفية بنوع من النشاط الفردى لسنوات فى وقت كان الناس يتساقطون من الجوع فى الشوارع ٠

بل هناك فى الاتحاد السوفييتى منذ قامت الثورة من قبل اصلاحات جورباتشوف نشاط فردى فى مجال الزراعة والانتاج الزراعى اذ يسمح لكل فلاح بحيازة قطعة أرض يزرعها لحسابه ٠٠ ويربى ماشية ودواجن يتصرف فيها بمفرده بل ان الدولة تقيم لهؤلاء الزراع سوقا حرة خاصة يبيعون فيها انتاجهم وفقا لقانون العرض والطلب الرأسمالى ٠

والنظام الاشتراكى ٠٠ صاحب الملكية الاجتماعية الضخمة يستوعب هذه النشاطات الفردية جميعا ويوظفها لخدمة المجتمع الاشتراكى ككل ٠

وكانوا يمضون الى القول :

ومن هنا عندما تسمح الدولة الاشتراكية بأنواع من النشاط الخاص فهى لم تأت بجديد سوى عملية توسيع مجال ذلك النشاط وتنظيمه ٠٠ فهو نشاط قد أصبح داخل المدن ٠٠ وهو محدد بأن يكون القائمون به ممن يعملون فعلا فى مؤسسات الدولة المختلفة ٠٠ أى ليس هناك « تفرغ »

كى ينتج الانسان وحده ولنفسه دون أن يشارك فى عملية البناء الاجتماعية .

كما أنه بدون عمل مأجور بمعنى أنه لا يصح لصاحب مثل ذلك النشاط أن يتأجر مواطنا آخر يعمل معه ويعطيه أجرا .. انما هو نشاط فردي يقوم به الفرد أو زوجته وأولاده معه .. ولذلك يسمونه نشاطا عائليا .

ويروى الأستاذ حسين عبد الرازق رئيس تحرير جريدة الأهالى أيامها أنه شاهد مطعما فى موسكو جديدا من نوع هذا النشاط العائلى .

« لقد بدأ المنظر مثيرا عندما وقف طابور طويل من المواطنين ينتظر دوره لدخول المطعم الذى يبيع بأسعار أعلى من أسعار المطاعم الحكومية لأنه يشترى أيضا اللحوم والخضروات والفاكهة من محل الانتاج الفردى .

وعندما سألنا بعض المواطنين الوقفين فى الطابور عن سبب هذا الاقبال ، أجابوا بأنهم جاءوا ليشاهدوا الفرق بين هذا المطعم والمطاعم الحكومية » ..

وفى مدينة « تالين » بأستونيا .. احدى جمهوريات البلطيق السوفيتة أعاليها حصل ٢٠٠ مواطن على ترخيص بتسيير تاكسى بالمدينة فى غير أوقات عملهم ، بحيث كانت تعريفة الركوب هى نفس تعريفة التاكسيات الحكومية . وقد ألزم كل صاحب تاكسى بتوريد ٤٠٠ روبل شهريا للشركة المشرفة على التاكسيات .. ثم ما تبقى من ايراد يذهب الى صاحب التاكسى .

واستطاع الحزب هناك أن يساهم فى حل مشكلة المواصلات فيريح الركاب . فى نفس الوقت الذى زاد فيه أصحاب التاكسيات من دخولهم !

ولكن أخطر ما طرحه السماح بالنشاط الفردى وعلى هذا النطاق الواسع والمنظم .. هو تساؤلان مهمان :

التساؤل الأول :

ألا يؤدى مثل هذا النشاط واتساعه الى ظهور فئة أو طبقة برجوازية صغيرة « مثلا » .. يكون لها مصلحة فى استمرار واتساع النشاط الفردى باضطراد .. وتتبلور لها مصالح معينة .. مختلفة مع سائر الكادحين الذين ليس لهم نشاط فردى ؟ ..

والتساؤل الثانى :

أن هذه الفئة الاجتماعية الجديدة بحكم أن مشترواتها ستكون من أجهزة الدولة ومؤسساتها .. ألن تكون هى بفئاتها مصدرا للتأثير فى تلك المؤسسات عن طريق تقديم الرشاوى وبث النفوذ ؟ ..

بل داخل الحزب ألا يحتمل أن تشكل تيارا سياسيا فيه بدافع عن مصالحها . وحد يفتح الباب ـ للتعددية الحزبية خصوصا أنه يجب أن نتوقـع أنه سيحدث محاولات وألاعيب ومنـاورات ومؤامرات من جانب المعسكر الرأسمالي العـالمي لاستخدام هذه التطورات الجديدة لتخريب الاشتراكية ذتها ؟

وكان الرد الجاهز :

العبرة كما في أى نظام هو السلطة .. هذه السلطة في يد من ؟

والسلطة تصـدر قرارات وتتخـذ مواقف من المشاكل الموجـودة بما يحقق حـل المسائل الصعبة القائمـة .. وفي المجتمع السوفييتي السلطة سلطة اشتراكية .. سلطة جميع الكادحين .

ومن هنـا فانها ستتابـع نتائـج التجربة الحاليـة وانعكاساتها الاجتماعية والسياسية وبالتالي يمكن أن تتخذ الاجراءات المناسبة لتعديل المسار ..

كما أن هذه السلطة ليست وحدها .. بل هي محاطة باطار .. وهي الضمان لتحقيق تغيير جذري في الادارة الاقتصادية .

فكانوا متولون اننا نثق أن الجماهير في الاتحاد السوفييتي لا يخالجها أى شك في جدوى وأفضلية النظام الاشتراكي على النظام الرأسمالي .. بمعنى أنه من المستحيل تصور قيام حركة سياسية جماهيرية للعودة الى ذلك النظام ...

على ذلك فان من مصلحة تلك الجماهير ذاتها ألا يحدث انحراف عن الاشتراكية .. بنمو نفوذى أى فئة لها مصلحة في ذلك .

ولقد احتاط واضعو قانون النشاط الفردى بأن جعلوا من يمارس مثل ذلك النشاط مرتبطا بالعملية الانتاجية في المجتمع ككل . بمعنى مشاركته في العمل في مصنع أو مؤسسة من أى نوع ثم يمارس نشاطه الفردى في وقت الفـراغ فيحل مشاكل للجماهير . ويرفـع من مستوى معيشته .. قائلين أن ذلك سيجعله يعيش بأيديولوجية المجتمع الاشتراكي الذى ألحقه بواحد من مؤسساته ويقدم له خدمات عديدة ... ثم يسمح له باستثمار وقته ومواهبه فيما يعود عليه بالكسب .. مثله مثل الأطباء الذين يسمح لهم بالعمل الخاص في عيـادات الدولة بعد الظهر ساعتين أو ثلاث ساعات مقابل « فيزيتة » يدفعها المرضى المترددون على مثل تلك العيادات وقد ترددت على بعضها خلال زياراتي للاتحاد السوفييتي ..

صاحب النشاط الفردى يحس أنه مدين للدولة والنظام الاشتراكي بأى تحسن في مستواه ..

ثم هو يعمل فى اطار اشتراكى عام٠٠ اقتصاديا كان أو اجتماعيا ٠٠ أو ثقافيا واعلاميا وهذا مهم جدا ٠٠

أما عن احتمالات الرشوة والافساد والتأثير فالضمان لحصرها وحصارها هو الديمقراطية والعلانية أيضا ٠٠ والحملة مستمرة ٠٠ وتزداد وستزداد ضد كل الآفات الاجتماعية فى النظام الاشتراكى علاوة على امكانية تشديد لاجراءات البوليسية ضد المنحرفين ٠٠

ثم ان المردود السياسى من جراء السماح بهذا النشاط الفردى كبير وعظيم ٠٠ اذ انه سيساهم فى ازالة مشاعر السخط التى تنتاب المواطن السوفييتى الذى لا يستطيع الحصول على الخدمات التى يريدها فى حياته اليومية بسهولة ٠٠ ومن هنا سيشعر أن الدولة تعمل على راحته فعلا ٠٠

بل ان أسلوب دكاكين ومحلات الدولة معه سيتغير ولو بالتدريج بعد أن يلمس أسلوب تعامل أصحاب النشاط الفردى ٠٠ الذين عادة يعاملون الزبائن بأدب ورقة أكثر مما يفعله العاملون فى محلات الدولة ٠

ولكى لا يختلط الحابل بالنابل ٠٠ وتترك المسائل لأهواء البيروقراطيين فى ظل تلك الظروف والاجراءات الاقتصادية الجديدة أقرب الحكومة قانونا جديدا لأول مرة يعطى للمواطن السوفييتى حقه فى رفع الدعوى القضائية على أى تصرفات يراها تلحق بالورثة المرفقة ٠

هل كانت البيروسترويكا طريقا للاصلاح فعلا أم مجرد خطوة وتمهيد للتوجه نحو الرأسمالية ؟ ٠٠ أى خدعة ومناورة ؟ سنرى فيما يلى من فصول ٠

غير شرعية صادرة من مستويات المسئولية المختلفة فى البلاد وتنتقص من حقوقه سواء فى العمل أو تطبيق القانون فصدرت قوانين جديدة تؤكد وتعزز مبدأ استقلال القضاء وتعزيز رقابة النيابة العامة وتطوير أساليب عمل أجهزة التحقيق وكل ما كان يقوله المدافعون عن البيروسترويكا وزعيمهم صحيح فيما يتعلق بأثر النشاط الفردى الذى سمح من حيث تأثيره فى حياة الناس ورفع مستواها ٠٠

لكنهم نسوا كلمة لينين ان الرأسمال الصغير يفرز الرأسمال الكبير ٠٠ لقد كان ذلك النشاط الفردى هو بداية التحول نحو الرأسمالية ٠٠ ولا يعنى السماح به أن ذلك كان خطأ سياسيا أو اقتصاديا ٠٠ بالعكس لقد كان خطوة صحيحة على الطريق ٠٠ فقد كان واضحا أن الاشتراكية تقترب من حافة الافلاس ٠٠ وانها أصبحت قميصا من حديد يمنع تطور الاقتصاد ٠٠ ويمنع ارتفاع مستوى المعيشة ٠٠ بل يفكك انتماء الجماهير للنظام فكرا وتطبيقا ! ٠٠

حصاد البيروسترويكا ؟

هذا ما كان من البنود أو الأسس التى قدمتها البيروسترويكا من أجل اصلاح النظام الاشتراكى بحيث ينطلق بعد ذلك من حالة الجمود الانتاجى ٠٠ والحصار الديمقراطى ٠٠ والتخلف عن السباق العالمى ازاء العالم الرأسمالى ٠٠ مما أوضح أن موضوعة خروشوف الشهيرة أنه فى خلال المباراة السلمية بين النظامين الاشتراكى والرأسمالى ستنتصر الاشتراكية خاطئة ٠ وقد كان خروشوف يستخدم هذه الموضوعة للدلالة على ضرورة وأهمية اتباعه سياسة سلام لافشال أى مخططات العالم لحرب عالمية ثالثة ، وكان كمن يقول للغرب ان السلام مفيد لى لأنى سأستطيع الحاق الهزيمة بكم ٠٠ وبالتالى فانه كان يؤكد مصلحة الاتحاد السوفيتى فى السلام ازاء الذين كانوا يرددون دائما أنه انما يمثل تهديدا وخطرا على « العالم الحر » وقد يبدأ شن الحرب على حين غرة ضده من أجل دفن الرأسمالية ٠٠

سنرى ماذا حدث فى الاتحاد السوفيتى ٠٠ ثم نرى بعد ذلك ما جرى فى البلاد الاشتراكية من خلال زيارة حية لبعض تلك الدول ٠٠

ماذا جرى فى الاتحاد السوفيتى ؟ ٠

فى البداية بهر العالم بما شاهده لأول مرة من مظاهر عن حرية التعبير ٠٠ وجرت حوارات بين سوفيت وأمريكا على شاشة التليفزيون السوفيتى ٠٠ وبدأت صحف كثيرة فى الظهور ٠٠ ونشأت تيارات سياسية ومنابر مختلفة ٠٠ وعدل النظام الانتخابى بحيث يسمح أكثر بدخول الانتخابات لعناصر غير منضمة للحزب الشيوعى ٠٠ وصدرت قوانين تعزز استقلال القضاء ٠٠

وتعددت زيارات جورباتشوف لمناطق العمل فى المصانع والمزارع ٠٠ باختصار بدأت حركة نشاط ديمقراطى كان من المتصور بعدها أن تأتى

الموضوعة التقليدية : « أن التنمية الاقتصادية تزدهر بازدهار الديمقراطية » .. بثمار ضخمه على الاتحاد السوفيتى فى المبادرة السلمية بينه وبين الولايات المتحدة . خصوص أن الانفتاح على الغرب قد اتسع عن ذى قبل .. وبدأت نماذج حصر من نمط الحياة الغربية المرفهة تدخل البلاد ..

وعبرت عن هذا فى تفاؤل خريجة مصرية حاصلة على الدكتوراه من الاتحاد السوفيتى اسمها شهرت محمود العالم كريمة المناضل والكاتب الكبير محمود أمين العالم عن ذلك الجديد الذى بدأ يعم الحياة فى الاتحاد السوفيتى فى أعوام ٨٥ ـ ١٩٨٨ . فقالت فى جريدة الأهالى انها عاشت فى ذلك البلد ست سنوات هى سنوات الدراسة .

قد لاحظت أن كل شىء قد تغير فى العام الأخير .. فالملابس متوفرة وبأذواق عصرية جميلة والأطعمة متنوعة بكثرة لم نعهدها من قبل .. ولم يعد هناك سكارى فى المترو أو الشوارع فى المساء » ..

كما ذكرت الصحفية الأمريكية لويس فيشر عقب زيارة لها لموسكو فى ذلك الوقت « لقد تغير مظهر موسكو نحو الأفضل بصورة ملحوظة .. اذ زاد عدد الأوتوبيسات فى ساعة الزحام وقل عدد منتظريها فى المحطات .. وتنوعت فواكه الشتاء والمتاجر امتلأت ببنطلونات الجينز غير أن القلائل يشترونها .. » .

لقد بدأ أن عملية الانتاج فى ازدياد . وأن ما ذكره جورباتشوف فى البريسترويكا يتحقق « ان التقدم الاقتصادى واشاعة الديمقراطية الاشتراكيلة صنوان » ..

كما قال أيضا : « نحن نريد أن نجعل من بلادنا نموذجا لدولة عالية التطور ومجتمعا ذا اقتصاد على أرقى درجات التقدم ، مجتمعا يسوده أوسع قدر من الديمقراطية ويتسم باسمى القيم الأخلاقية والانسانية مجتمعا يشعر فيه الانسان الكادح بأنه السيد الكامل الحقوق بحيث يكون بمقدوره أن يتمتع بكل ميزات الثقافة المادية والروحية ، وأن يؤمن له بشكل يعول عليه فى مستقبل أطفاله ، وبحيث يكون تحت تصرفه كل ما تتطلبه الحياة الزاخرة الغنية المضمون ، وبحيث يضطر حتى المرتابون الى الاعتراف بأن البلاشفة قادرون على كل شىء حقا ، وبأن الحقيقة الى جانبهم ، وبأن الاشتراكية نظام يخدم كل ما فيه خير الانسان ، ويخدم مصالحه الاجتماعية والاقتصادية وسموه الروحى !؟ .

وكان كل ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى يدور حوله هالة من الطبل والزمر فى الغرب .. لم يكن واضحا حينذاك مغزاها .. ولم يتوقف

كثير من شيوعيي العالم أمام تلك الظاهرة التى كانت تعنى بمجرد النظرة السطحية أن الرأسمالية والاحتكارية والاستعمار فى العالم مبتهجون جميعا باصلاح النظام الاشتراكى لنفسه ليكون أكثر قوة وجاذبية ! فهل هذا معقول !

اما حسنو النية من أمثالنا أبناء شعوب العالم الثالث فقد كان يغمرنا التفاؤل باصلاح الاشتراكية ولعل الأستاذ سـعد كامل الكاتب والمفكر المعروف بجريدة الأخبار قد عبر عن ذلك عندما كتب مرة « بعد سبعين عاما فقط اكتشف الاتحاد السوفيتى الأخطاء فى التطبيق الاشتراكى وهو يعمل جاهدا لتصحيحها من داخل الفكر الاشتراكى نفسه بعد تنقيته من الانحرافات والتشويهات التى أبعدت التطبيق عن النظرية والاشتراكية فى أبسـط صـورها وهى العدالة والديمقراطية وعدم استغلال الانسان لأخيه » ٠٠

وأضاف فى موضوع آخر : نحمد الله كثيرا أنه تم اكتشاف أخطاء التطبيق الاشتراكى بعد سبعين عاما فقط ٠٠ » ٠٠

ويلاحظ أنه حتى عام ١٩٨٩ وقت كتابة ذلك المقال كان الكثيرون يؤمنون أن المسألة مسألة أخطاء فى التطبيق للنظرية الماركسية ٠٠ وليس للأمر علاقة بالأخطاء فى النظرية نفسها أيضا ٠

وساعد على جو « هوجة » الاستحسان لما يجرى فى الاتحاد السوفيتى من بروسترويكا استحداث جورباتشوف لنظريته التى فاجأ بها الفكر الاشتراكي العالمى ٠٠ وهى حتمية الغاء الصراع الطبقى على الصعيد الدولى٠ ويعنى هذا عمليا تخلى النظام الاشتراكى عن السعى لتحويل العالم الى الاشتراكية وقد كان يسعى من قبل لتحقيق هذا ليس عن طريق تصدير الثورات أو تدبير الانقلابات أو الغزو لأى بلد لفرض الاشتراكية فكل هذا حذر منه ماركس ولينين وغيرهما من مؤسسى الماركسية وزعمائها ٠٠ وان كان قد حدثت مخالفات وتجاوزات عن ذلك فعلا ٠

وانما كانت عملية التحويل تأتى عن طريق مساعدة وتشجيع حركات النضال من أجل التحرر الوطنى والأحزاب الشيوعية فى العالم ٠

وكذلك عن طريق مساعدة الدول المستقلة حديثا لبناء استقلالها الاقتصادى لأن فى ذلك البناء اضعاف لسيطرة الاحتكارات العالمية على العـالم ٠

وعدم تقديم تنازلات للمعسكر الآخر ٠٠ فى هذين المجالين ٠٠

بالاضافة الى عملية الصراع الأيدولوجي ٠٠ أو الحوار الأيدولوجي لبيان مزايا الاشتراكية عن الرأسمالية خصــوصا فى مجالات الثقافة والفن ٠٠

وقد ظل الشيوعيون منذ صدر البيان الشيوعى على يد ماركس وانجلز ورفاقهما فى ذلك الوقت المبكر يؤمنون بهذا ٠٠ حتى جاء جورباتشوف وألغاه ٠٠ ودعى الى بديل عن الصراع الطبقى فى المجال الدولى وهو التعاون بين النظامين العالميين المتنافسين فى منع الحرب ومكافحة الأخطار الأخرى التى تواجه العالم كله مثل الجفاف وثقوب الأوزون وتغير البيئة ٠٠

والحقيقة أن الحزب الشيوعى الايطالى كان قد سبق جورباتشوف فى تقديم تلك النظرية ٠٠ وان كانت صيغتها غامضة ونشرت على استحياء خوفا من رد الفعل الشيوعى العالمى ضد هذه الأفكار « المراجعة » ٠٠

ولكن ذلك الحزب تشجع بعد ذلك وفى اجتماع المؤتمر الخامس عشر وقف سكرتيره العام وراء نظرية جورباتشوف فى وجوب ابعاد الصراع الطبقى عن السياسة الدولية وأن عليه « أن يتنحى ليفسح المجال أمام علاقات انسانية يسود فيها التعاون والمصالح المتداخلة وعقلية شمولية فى ادارة أمور كوكبنا » ٠ وساعد على رواج مثل تلك الأفكار وضــجة الاستحسان لها ٠٠ أن جورباتشوف تقدم بمبادرات عديدة لتحقيق هذا التعاون الدولى ٠٠ ومنها مثلا دعوته للاتفاق على ازالة الصواريخ متوسطة المدى من شطرى أوربا والعالم كله ٠٠ ثم اقتراحه بازالة كل الأسلحة النووية حتى نهاية القرن العشرين ٠٠

وكان طبيعيا أن تجد سياسة ونظرية جورباتشوف هذه معارضة فى الاتحاد السوفيتى ٠٠ وخصوصا عملية التطوير الديمقراطى ٠٠

وقال جورباتشوف مرة فى لقائه باتحاد الكتاب السوفيت « ان التغييرات الجذرية قد أثارت معارضة انتشرت فى داخل كل المؤسسات »٠٠

كما قال فى تقرير له عام ١٩٨٧ « أقول بصراحة أن بعض الرفاق باتوا ينظرون الى الهيئات المنتخبة نظرتهم الى حمل لا لزوم له ولا ينجم عنه سوى العناء والازعاج ! ٠

وذكر الكاتب السوفيتى الســـاخر الكسندر ايفانوف : لنتحدث بصراحة فالتقلب واعادة التكيف الفورى وركوب الموجة هى العقبة الأساسية على طريق اشاعة الديمقراطية فى الثقافة ٠٠

وليس فى وسع الانسان الذى يتصف بهذه الخصائص الانتهازية ان يتغير فالبعض يحاول الاحتفاظ بالنفوذ الزائل والطفو على السطح ٠٠

ومواصلة السيطرة على العقول عن طريق الايهام بأن ثقافتنا تتعرض لضربة ساحقة قوية من قوى غريبة خبيثة تألبت على الأسس القومية الراسخة لبلادنا ومدت يدها الى أهم مقدساتنا وستقذف الى الهاوية بكل ما أبدع من قرون ٠٠ أجل ان تعلم الديمقراطية صعب ٠٠ وتنتظرنا فى الطريق معارك حامية ٠٠ » ٠٠

لقد أبدى بعض أعضاء الحزب تخوفا ٠٠ من تلك البيروسترويكا وآثارها ٠٠ ولكن كان واضحا أنهم يمثلون أقلية اذ وافقت الأغلبية عليها وعلى تطبيقاتها ٠

ودارت الأيام بسرعة لتؤكد أن مخاوف الأقلية كانت فى محلها ٠٠ وأن البيروسترويكا لم تجلب سوى الخراب والدمار للاقتصاد السوفيتى بل لدولة الاتحاد السوفيتى نفسه ٠٠ والاشتراكية كلها ٠٠

من ناحية أخرى بدأت شعوب ومثقفو العالم الثالث يستمعون لآراء سوفيتية بدت لهم غريبة فى تلك السنوات ٠٠ (٨٦ ـ ١٩٨٩) ٠٠ مؤداها جميعا ٠٠ أن الاتحاد السوفيتى سينسحب من عملية مساعدة البلاد المستقلة على بناء استقلالها الاقتصادى ومؤازرة حركات التحرر وحتى عندما طرحت هذه القضية على أنصار نظرية جورباتشوف من الحزب الشيوعى الايطالى ٠٠ وسئل مثيروها عن مصير الشعوب الفقيرة ٠٠ رد عليهم سكرتير الحزب قائلا : ان آلام الرجل الفقير تحدث آلاما للطبيعة ذاتها وبالتالى لكل البشرية وأن مصلحة الشعوب الغنية أن تدرك ذلك لا من باب العمل الخيرى ٠٠ بل بدافع من مصالحهم الأنانية البحتة ٠٠ » ٠٠

أى باختصار تملص الاتحاد السوفيتى والأممية الاشتراكية من مسئولية الدفاع عن الشعوب المضطهدة وترك الأمر لأريحية واحسان الشعوب الغنية ٠٠ وسقوط شعار : يا عمال العالم اتحدوا ويا فقراء العالم تضامنوا ٠٠ فى الحقيقة لقد كانت البيروسترويكا بداية النهاية ٠٠

عندما ترك جورباتشوف السلطة كانت التركة التى خلفها لمن بعده مروعة ٠٠ عندما انحل الاتحاد السوفيتى فى ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ ٠

كان احتياطى الذهب فى البلاد ٢٥٠٠ طن أصبح ٢٤٠ طنا ٠٠

كان سعر الدولار الرسمى ٦ر٠ من الروبل اصبح ١٠٠ روبل ٠٠ عدد أعضاء الحزب الشيوعى كان ١٩ مليون أصبح صفرا لأنه أصبح محظورا معدل نمو الاتحاد السوفيتى السنوى ٣ر٢ أصبح ينخفض بمستوى ١١٪ الى الوراء ٠٠

الديون الخارجية للبلاد عشرة مليارات ونصف المليار أصبحت ٥٢ مليار سعر ٠٠ ثمن كيلو اللحوم ٢ روبل أصبح مائة روبل ٠٠

تصدير البترول بالبرميل يوميا ١١٧٢ ألف أصبح ٥١١ ٠

البطالة كانت صفر أصبحت ١٥ مليونا ٠

الاستقلال الكامل ٠٠ أصبحت المخابرات المركزية والمستر بوش يتحكمان في مسار التطور في البلاد ٠ لكن بعد هذا تدهورت الأحوال في روسيا التي هي كانت أكبر جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي بحيث كاد الناس يموتون من البرد في الشتاء لولا البطاطين والأطعمة الأمريكية وانحدر سعر الروبل ليصبح الدولار أكثر من ١٢٠٠ روبل ٠٠

وزاد عدد العاطلين ٠٠ وعمت الفوضى في البلاد ٠٠

وازداد انشقاق القوميات حتى داخل روسيا كما يظهر من صراع الشيشان الذى ما زال مستمرا حتى كتابة هذه السطور ٠٠

وفتح ذلك الباب لنمو الاتجاهات الفاشية في بلد كان بطل الكفاح ضدها في الحرب العالمية الثانية بحيث حصل الحزب الفاشي على حوالى ٢٥٪ من أصوات الناخبين ٠٠

وننقل هنا عن الكاتب المعروف الأستاذ محمود عوض تقييمه لنتائج البروسترويكا التي قادها جورباتشوف ٠٠

« تسلم جورباتشوف السلطة في عام ١٩٨٥ ووقتها كان نصيب الاتحاد السوفيتي من الناتج الاجمالي العالمي يتجاوز ١٣٫٢٪ وهو يتجاوز نصيب الدول الصناعية الكبرى مجتمعه باستثناء الولايات المتحدة واليابان ٠

تسلم جورباتشوف السلطة في الاتحاد السوفيتي ولديه ثلث ما يملكه العالم كله من ذهب ٠٠ وتسلم السلطة وهو شريك للولايات المتحدة في استكشاف الفضاء ويتسابق معها بندية كاملة بل ومتقدم عنها في بعض شرائح التكنولوجيا الفضائية بخمس سنوات وفي سنة ١٩٩٠ أى نفس السنة التي بدأ فيها الانهيار الكبير سجل الاتحاد السوفيتي أكبر انتاج في تاريخه كله من القمح (٢٤٠ مليون طن) ومع ذلك فان تلك الكلمة لم تصل منها الى المستهلك سوى أقل من النصف وتبخر النصف الآخر (١٢٠ مليون طن) من خلال انهيار نظام جمع المحصول في الحقول ونقله وتوزيعه وانتشار الرشوة ٠

لقد تبع الانهيار الاقتصادى انهيار خلقي مروع في جمهوريات الاتحاد السوفيتي كلها ٠٠ الدعارة ٠٠ الجريمة ٠٠ الرشوة ٠٠ الفساد حتى أصبحنا نعرف أن هناك ما فياروسية تخشاها المافيا الأمركية وتعمل لها حسابالأنها عجزت عن تقسيم النشاط فيما بينهما ! ٠

ولعل المأساة بدت واضحة جدا فيما جرى للجيش السوفيتى • هذا الجيش الذى ألحق الهزيمة بجيش نابليون •• ورفع قادته علم الاتحاد السوفيتى على مبنى الرايخستاغ فى برلين بعد أن هزموا الجيوش الهتلرية •

هذا الجيش أصبح معرضا للاهانة والتحقير فى بلاده •• يعانى التفكك والتشتت والاذلال •• لفترة طويلة ••

يروى الأستاذ نبيل زكى نائب رئيس تحرير جريدة أخبار اليوم ومستشار التحرير لجريدة البلاغ الجديد عن مشاهداته فى موسكو التى زارها بعد الانهيار :

اذا سرت فى شوارع موسكو تستطع أن ترى جنودا ينامون فى خيامهم وسط الصقيع والثلوج • وتلتقى بضباط لا توجد لديهم أدنى فكرة عن مستقبلهم • ومهندسون عسكريون يحاولون فى يأس تدبير ما يكفى لسد رمق عائلاتهم •

أكبر جيش فى العالم (ثلاثة ملايين ونصف مليون) جائع ومحبط •• تصل وحداته المنسحبة تباعا من شرق أوربا فلا تجد سوى الجحود والاعراض وربما اللعنات ••

واذا صادفت مظاهرة معادية لحكومة روسيا أو رئيسها فى شوارع موسكو ، ودققت النظر فى نوعية الأفراد المشتركين فيها فسوف تجد بينهم عددا كبيرا من العسكريين بملابسهم الرسمية ! » ••

ولقد دهش ملايين القراء وانزعجوا فى نفس الوقت عندما قرءوا عن عمليات بيع السلاح •• وخاصة المواد الذرية لعصابات ودول من جانب ضباط سوفيت فى الأصل •• بحيث بدأ العالم يخشى من أن تتحقق نبوءات ايان فلنج صاحب روايات جيمس بوند الشهيرة التى قال فيها أنه من الممكن أن يصل السلاح الذرى الى أيدى عصابات اجرامية تهدد سلام العالم وليس الدول فقط ••

وفقد الاتحاد السوفيتى بعد البرسترويكا احترام وثقة العالم الثالث شيئا فشيئا •• بناء على المواقف العملية التى بدأت قيادته فى اتخاذها مما كان يعنى تخليها عن التزامها الأممى واتجاهها الى محاولة كسب الخصوم من أجل الاستثمار وزيادة موارد البلاد ••

بل حتى بدأ الاتحاد السوفيتى يتخلى عن التزاماته تجاه جمهورية كوبا التى تقع بين فكى الأسد أى الولايات المتحدة •• وقد قرأت مرة تقريرا أمريكيا عن أنه كان بوسع الولايات المتحدة أن تغزو كوبا فى تلك

الفترة ‥ فترة الاحتضار للنظام السوفيتى ‥ ولكنها لم تشأ أن تفعل ذلك للقضاء على النظام الكوبى لعدة أسباب :

ـ انها كانت لا تريد احراج قيادة الاتحاد السوفيتى وتعطى فرصة للمتشددين هناك أن يتغلبوا على التيار الساعى لانهيار وتصفية الاتحاد السوفيتى سواء بحسن نية أو بسوء نية ‥ اذ كانت هناك تعهدات سوفيتية بحماية كوبا ٠

ـ من ناحية أخرى ما كانت الولايات المتحدة تريد التضحية بجنود لها فى معركة ضد النظام الكوبى الذى كان متوقعا المقاومة من جانبه ‥ فى وقت آكد فيه مستشارو الرئيس الأمريكى أنه بعد سقوط الاتحاد السوفيتى والأنظمة الاشتراكية فى أوربا الشرقية سيأتى الدور حتى على كوبا اذ سيتوقف الاتحاد السوفيتى عن مدها بالبترول وغيره من المعونات ‥ فلينتظر البنتاجون حتى تنضج الكمثرى فوق الشجرة وتسقط !

ولقد بلغ من ذكاء القيادة الأمريكية فى مواجهة التغيرات الجذرية فى أوربا الشرقية ‥ انها حذرت القيادات الجديدة لتلك البلاد وهى قيادات معارضة للأحزاب الشيوعية أن تضطهد تلك الأحزاب أو تمنع نشاطها أو تقيم محاكمات لقادتها كما كانت دوائرة كثيرة فى تلك الأحزاب تريد ‥

ذلك لأن الولايات المتحدة كانت ترى أن فى ذلك تشجيعا للمتشددين فى تلك البلاد فى وقت كانت معظم هذه الأحزاب الشيوعية هى التى أعلنت فشل النظام الاشتراكى واستسلمت للمصير ‥ مصير خروجها من الحكم ٠

كما أنها كانت ترى أن مثل تلك الاجراءات العنيفة ضد الأحزاب الشيوعية ستخلق ربما حرب عصابات أو حروبا أهلية داخل تلك البلاد مما يهدد استقرارها ‥

أخيرا أنها ستكشف زيف الشعارات الديمقراطية التى كانت ترفعها فى مواجهة الشمولية الشيوعية ‥ وستدفع بكل أحزاب اليسار فى أوربا الى الوقوف فى وجهها وشن حملات أيدولوجية عليها ‥

وقد استجابت الحكومات الجديدة لهذه النصيحة الأمريكية فيما عدا فلتات هنا وهناك مثل محاكمة هونيكر زعيم المانيا الاشتراكية التى سويت أخيرا ‥ ثم قانون صدر فى تشيكوسلوفاكيا لمحاكمة المسئولين عن قهر حقوق الانسان فى النظام السابق ‥ ولكنه قانون لم ينفذ وانتهى بانفصال سلوفاكيا عن تشيكا ‥

وسننتقل الآن ‥ الى ما حدث فى أوربا الشرقية ٠

على أرض الواقع

زيارات لبلاد كانت اشتراكية

فى المجـــــر ...

الشيوعيون يقلبون نظام حكمهم ؟!

الحرية .. والملكية ؟! ..

.. كلمتان فقط تحددان الشعار الجديد الذى تتخذه جمهورية المجر الآن .. بعد أن شطبت تماما على كلمة الاشتراكية بل تجرى عملية جادة مثيرة لاستئصال شأفة تلك الاشتراكية ومطاردتها فى كـــل مكان فى مزيج من الحماس والكراهية التى تثير دهشة الزائـــر أو المراقب السياسى ..

بل ان الحال نفسه موجود فى كل دول أوربا الشرقية التى نفضت عنها ثوب النظام الاشتراكى .

والحرية تعنى الديمقراطية السياسية التى افتقدتها تماما لأكثر من أربعين عاما .

والملكية بكسر الميم أىحق التملك لوسائل الانتاج ذلك الحق الذى جاء الجيش الأحمر حاملا لافتات التبشير للخلاص من ملكية الأفراد لها كالطريق الوحيد لبناء عالم من الرخاء والرفاهية والمساواة .

محدثى هو الدكتور « جيزا جزنسكى » وزير خارجية المجر أول شخصية مسئولة التقيت بها فى العاصمة المجرية بودابست صبيحة اليوم التالى لوصولى هناك ..

ولقد زرت المجر عام ١٩٦٨ .. ولابد أن أسجل هنا مالفت نظرى فى البداية وأنا أزور مرفقا حكوميا .. عام ١٩٦٨ .. كانت هناك عناصر كثيرة متناثرة هنا وهناك .. ومكاتب يتحـــرك منها وفيها أشـــخاص

كثيرون ٠٠ يبدو عليهم الحماس والاستعجال وكأنهم يسابقون الزمن لانجاز شيء ٠

وكان مكتب وزير السياحة الوزير الوحيد الذى استطعت أن أقابله أيامها مثلا يعج بأعداد من الموظفين والسكرتارية والمكاتب يحيط به كثير من الهيبة مما يثير توتر الزائر بعض الشيء

ووزير السياحة كان الجميع يتعاملون معه كأنه ملك زمانه ٠٠ كل آيات الاحترام والتوقير والتبجيل كأنك فى قصر امبراطورى ٠٠ لفتت نظرى حتى أننى شعرت للحظة ببعض السعادة والزهو أنه يمازحنى ويرحب بى فى حرارة ويدعونى فى ود شديد للغداء معه ٠٠ بينما الآخرون لا يكفون عن الانحناء ٠٠ والوقوف فى تهيب أمامه ٠

هذه المرة ٠٠ أدهشنى كثيرا أننى لم أجد كل هؤلاء الحراس والموظفين ٠٠ ولا ذلك الجو المعبق بالهيبة والتوتر ٠٠ وانما حارسان فقط على الباب ٠٠ ثم جاءت سكرتيرة الى المصعد وأخذتنى الى مكتب الوزير فلم أجد الا سكرتير آخر معها ٠٠ ثم خرج الوزير وهو شاب لا يزيد عن ٣٤ عاما واستقبلنى مرحبا ٠٠ ثم وقف يتحدث مع السكرتارية ٠٠ والسكرتير يضع يده فى جيوبه وكأنهم أصدقاء يستعدون للخروج الى المقهى ٠٠ ثم دخلت ٠٠ وجلسنا طويلا نتحدث ٠٠ وخرج معى الوزير ٠٠ الى باب المصعد ٠٠ ولم ينهض لا السكرتير ولا سكرتيرة تحية وتهيبا له كما نرى عادة فى المرافق الحكومية ٠٠ وبالذات فى الدول الشمولية ٠٠

وأخذت انطباعا أن هؤلاء هم هواة للحكم ٠٠ أو عناصر جديدة لم تعالج أمر السلطة بعد وساءلت نفسى كيف سيكون حال هؤلاء الناس بعد عشر أو حتى خمس سنوات ٠

وهذه الملاحظة التى سجلتها عند وزير الخارجية ٠٠ لاحظتها فى البلاد الشرقية التى تتحول نحو الرأسمالية ٠٠ التى زرتها ٠٠ بدءا من قصر رئيس الجمهورية الى مديرى المؤسسات والمزارع ٠

والواقع أن الحكومة الجديدة التى جاءت الى السلطة فى المجر فى ٢٣ مايو ١٩٩٠ نتيجة الانتخابات البرلمانية فى ربيع ذلك العام ٠٠ كان عليها أن تواجه مسئولية عملية الانتقال الكاملة من أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة مائة فى المائة ٠

هذه الأوضاع ذات النمط السوفيتى تقريبا ٠٠ من حيث مركزية التخطيط والقرار الى حد الديكتاتورية وذلك من خلال عملية نقل سلمى

السلطة يؤدى الى بناء نظام متعدد الأحزاب منبثق من احتياجات البلاد فعلا وليست صورة منقولة من أى بلد آخر ٠٠ فقد سئم الناس النقل والتفكير ٠٠ ودفعوا ثمنا باهظا من دماء ألوف الضحايا عندما ثاروا على النقل من السوفيت عام ١٩٥٦ ٠

واذا كانت عملية الثورة الجارية فى المجر كما يسمونها فى المجر وأيضا وفقا للتعريف التقليدى لكلمة الثورة وهـــو التغيير الجذرى لعلاقات الانتاج وحلول طبقة محل طبقة أخرى فى السلطة تجـــرى بأسلوب سلمى ٠٠ بل وديمقراطى ٠٠ وهذا لم يحدث فى أغلب الثورات فى العالم ٠٠

الثورة الفرنسية أجرت التحول ولكن بأعنف الأســاليب ٠ حتى ثورة كرمويل فى انجلترا حدث خلالها شبه حرب أهلية ٠٠

والثورة السوفيتية وكل « ثورات » أوربا الشرقية والصين وكوريا حدثت بطريقة عنيفة أيضا ٠

ونحن نستخدم تعبير « ثورة » لوصف ما يجرى فى أوربا الشرقية ٠٠ لأنه حتى الشيوعيين هناك لا يصفون ما يجرى فى بلادهم من تحول من الاشتراكية الى الرأسمالية بأنه ثورة مضادة كما جرى العرف على وصف حتى أى تحرك حزبى يطالب بالسماح بحرية الحركة مؤقتا له ٠

وكلمة ثورة سمعتها فى تشيكوسلوفاكيا أيضا حيث يسمون ما جرى الثورة « المخملية » أى الحريرية وهو وصف طريف كما ترى للثورة ٠

● **ولكن لماذا لم تستخدموا العنف ؟**

سؤال وجهته الى وزير الخارجية الشاب ٠٠ وقد بدا لى انه يجتهـد فى أن يكون وزيرا ومسئولا دون تكلف أو ادعاء ٠٠

قال لى ٠٠

ـ نخون أنفسنا ونخون شعبنا اذا استخدمنا العنف ٠٠ لأننـــا والشعب كله ثار على نظام عنيف ٠٠ وعلى حـــليف مفروض عليه (يقصد الاتحاد السوفيتى) استخدم أقصى درجات العنف فى نوفمبر ١٩٥٦ ٠

وكان مطلبنا الديمقراطية ٠ وقد جئنا عن طريق ديمقراطى فعلا ٠٠ عن طريق الانتخابات ٠٠

ولابد من الاعتراف أن الحزب الحاكم قبلنا (الشيوعيون) أدركوا حقيقة الأوضاع من زمان طويل ٠٠ وأدركوا اتجاه الريح ورغبة الشعب فأجروا انتخابات حرة ٠٠ أدت الى تقلص نفوذهم حتى أصبح ١١٪ فقط من مجموع الأصوات ٠٠

(حصلت ست أحزاب معارضة للشيوعيين على بقية الأصوات ٠٠ وعدد الأحزاب فى المجر حاليا ٤١ حزبا اشتركت جميعها فى الانتخابات) ويلاحظ أنه فى آخر انتخابات فى المجر (١٩٩٤) فاز الشيـــوعيون السابقون بأغلبية المقاعد فعادوا للحكم مرة أخرى كما حدث نفس الشىء فى بولنده وليتوانيا ٠

على أن الأزمة فى المجر لم تكن لافتقاد الحريات السياسية فقط ٠ انما كانت الأزمة الاقتصادية قد قفزت الى السطح قفزات خطيرة هى التى دقت الأجراس بأن النظام الاقتصادى القائم فاشل تماما وعلى شفا الانهيار ٠٠ مما يعنى أن البلد نفسها ستحل بها كارثة ٠٠

كيف ؟ ٠٠ كيف ظهر عجز النظام الاشتراكى وافلاسه اقتصاديا فى ربيع عام ١٩٩٠ كان الدين الخارجى يساوى ٢١ بليون دولار وفوائد الدين الخارجى تراوح ما بين ٣٫٤ الى ٤ بلاين دولار تلتهم ١٣ أو ١٤٪ من الدخل القومى !٠٠

● الانخفاض المستمر فى الانتاج عاما وراء عام ٠٠

● احتكار الشركات الكبرى للانتاج أدى الى تحطـــم شركات ومؤسسات صغيرة ومتوسطة فى السوق المحدود الذى كانت الدولة قد سمحت به ٠٠

● بدا واضحا أن الآلات التى تعمل فى المصانع أصبحت متخلفة تماما عن التطور الصناعى والتكنولوجى فى العالم ٠٠ بل ولهـــا آثار « أيكولوجية » أى بيئية سيئة جدا وتسبب ارهاقا أكثر للعمال بالمقارنة الى زملائهم فى البلاد الصناعية المتقدمة ذات الآلات الحديثة ٠

وقد أفرز هذا التخلف التكنولوجى فى الصناعة انتاجا غير قابل للتصدير أو غير قادر على المنافسة فى السوق غير الاشتراكية حيث مصدر العملة الصعبة ٠ تبـــع ذلك عجــز فى استيراد الوقــود والمواد الأولية بل حتى استيراد السلع من الاتحاد السوفيتى أصبح صعبا ٠

وتبع ذلك انفجار ظاهرة التضخم بعد العجز عن زيادة الانتاج ونقص موارد العملة الصعبة مما أدى الى خفض حركة الاستيراد للآلات والسلع المنتجة أساسا ٠٠

وأدى هذا الى انخفاض مستوى حياة المواطنين ·· بعد ان تفاقم العجز فى الميزانية بحيث أصبح صعبا على الحكومة الاستمرار فى دعم السلع وتوفيرها بالكميات التى ترضى الناس ·

ماذا عن حركة الزراعة ؟ ··

يقول لى بوب لاهال رئيس مكتب التنسيق بين الحزب الحاكم الأول (المنتدى الديمقراطى ١٦٤ مقعدا فى البرلمان من ٣٨٦ مقعدا) مع سائر الأحزاب الأخرى سواء الشريكة فى الحكم أو المعامضة ·

عندما جاء السوفيت بالحزب الشيوعى ليحكم المجر عام ١٩٤٨ فرضوا اصلاحا زراعيا فى الحقيقة ·· حطم آمال الفلاحين اذ وزعو الأرض عليهم ولكنه فرض مزارع جماعية وحكومية وتعاونية بطريقـة ليس فيها اختيار حقيقى رغم أن اسمها تعاونية ·· اذ كانت تشن حملات تخويف وتحقير للفلاحين الذين يرفضون دخول مثل تلك المزارع ··

وكانت النتيجة انخفاض انتاج الزراعة بمقدار ٢٧٪ عن الانتاج الذى كان مقدرا له أن يصل ··

وما كاد عام ١٩٥٣ يأتى ·· الا وقد ظهر بوضوح أن خطة الدولة للزراعة قد فشلت · وعم السخط الدولة ··

وكان هذا واحدا من أسباب هبة ١٩٥٦ الكبيرة التى زعـــم السوفيت والشيوعيين أن الاقطاعيين هم اللذين أثاروها ونظموها ··

ويمضى محدثى المسئول المجرى ·· الذى يعادل فى منصبه رئيس الهيئة البرلمانية للحزب الحاكم بالاضافة الى تنسيق العمل مع الأحزاب الأخرى والتشاور معها بقصد الاطلاع على وجهة نظرها على الأقل ··

يقول ان الحزب الشيوعى لابد من الاعتراف أنه تعلم من درس هبة ١٩٥٦ بعض الشىء ·· فقد عدل من نظام المزارع الجماعية وبدأ فى بذل جهد لاعداد عقول الفلاحين للدخول فيها ·· لكن أهم تجديد صنعه هو تركه ملكية خاصة للفلاحين ·· وكانت هذه خطوة هامـــة وكبيرة على طريق زيادة الانتاج ··

وبالفعل لم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت المجر منتجا كبيــرا للطعــام ومصدرا له بعكس بعض البلاد الاشتراكية الأخرى ··

وبدا واضحا فى الريف المجرى أن الملكية الفردية للأرض تسبب رخاء أكثر لأن الانتاج يكون أكبر ·· ومن هنا أصبحت المزارع الجماعية هدفا للنقد والسخرية أحيانا ··

وازدادت المطالبة بتوزيع ارضها على الفلاحين ·· أو على الأقل توسيع الملكية الفردية الخاصة ··

وبدأت تحدث حركات تبرم وتمرد فى المزارع التعاونية التى كانت تتجه الى أن تكون صورة أخرى من المزارع الجماعية ··

وبدأ الانخفاض يحدث فى انتاج المزارع الجماعية والحكومية عن الخطط الموضوعة ·· ويتطلع الفلاحون الى مستوى أعلى فى حياتهم بعد أن بدءوا يشاهدون ارتفاع مستوى الفلاحين جيرانهم النمسويين أو الفلاحين السواح القادمين من كل بلاد أوربا الغربية خصوصا الألمان الغربيين ··

وكى تعالج الحكومة الشيوعية هذا فانها توسعت فى فتح باب السوق أمام الانتاج الزراعى ·· وكان طبيعيا بعد ذلك أن ينمو الاتجاه الرأسمالى فى الريف ويبدو أنه أفضل من ذلك الأسلوب الاشتراكى المفروض أصلا بعد دخول الجيش الأحمر المجر وهو يطارد ويقضى على النازية فى أوربا ··

ولم تكن كراهية الفلاحين المجريين للاشتراكية شيئا جديدا فالشيوعيون لم يحصلوا على أكثر من ١٧٪ من أصوات الناخبين فى أول الانتخابات الحرة الوحيدة التى جرت بعد التحرير من النازية ··

وكما أوضحنا أنه لم تمضى ثمانى سنوات على فرضهم فى الحكم حتى قامت ثورة مسلحة ضدهم لم يحتوها غير الجيش السوفيتى ··

وهكذا تجد أن الظاهرة المجرية فى التحول ظاهرة فريدة ·· اذ حدث التحول أو بالأحرى بدأ بواسطة الحزب الشيوعى نفسه ··

انه شعر بنبض الجماهير ·· فاستجاب لها ·· ولكن بالتدريج ·· محاولا كسب ثقتها ·· وأن تكون السيطرة له فى النهاية ·· أى يحدث التغيير وهو ما زال فى الحكم ··

فبعد حركة ١٩٥٦ حاول اسدال ستار كثيف عليها بعد اعدام ايمرى ناجى رئيس الوزراء أيامها ورفاقه ··

وبدأ يستخدم أسلوبا فيه بعض المرونة أو غير أرثوذكسى كما كان المعارضون يصفون طريقته فى حكم البلاد ··

وبدا أنه لن يحرر المجر من الدوران فى الفلك السوفيتى تماما ·· وظهر ذلك عندما رفض اشتراك الجيش المجرى مع سائر دول حلف

وارسو فى غزو تشيكوسلوفاكيا وتحطيم حركة ١٩٦٨ المسماة بربيع براغ !

ولكن فى عهد جانوس كادار (١٩٥٦ ـ ١٩٨٩) بدا واضحا أن الاشتراكية لم تعد صالحة للاستمرار لحل مشاكل الشعب ٠٠ وأنه لابد من التغيير ٠٠

وكانت أول دعوى للتغيير هى ضرورة كسر احتكـــار الحزب الواحد ٠٠ أى الدعوة للتعددية الحزبية وكان ذلك طبيعيا لأنه وجدت فى المجتمع قوى سياسية واقتصادية لها مصالح متناقضة مع النظام القائم وتريد التعبير عن نفسها ٠٠ تبلورت الجماهير والجماعات حول مطلب واحد هو ازاحة « دولة الحزب » حيث اندمج الحــزب والدولة فى كيان واحد فى ظل الدولة الشمولية ولم يعد مبنى الحزب الشيوعى ومقر اللجنة المركزية مثلا يفترق عن مبنى أى وزارة بل انه يكتسب أهمية تثير التهيب والتخوف أكثر من وزارة الدفاع مثلا أو مقر المخابرات باعتبار أنه يمسك بمقاليد الأمور ٠٠

وظهرت ارادة الجماهير واضحة فى رفض النظام القائم والرغبة فى التغيير فى تلك التجمعات الحاشدة التى تجمعت فى ١٦ يونية ١٩٨٩ للمشاركة فى الجنازة الهائلة لاعادة دفن رفات شــهداء ثورة ١٩٥٦ ٠٠

وكان الحزب الشيوعى الحاكم هو الذى رد اعتبار امرى ناجى وصحبه ٠٠ وقرر اعادة دفنهم ٠٠

بل اننا بدأنا نشهد أمرا عجيبا اذ قررت حكومة نفس الحزب فى تغيير اسم المجر ٠٠ من الجمهورية الديمقراطية الشعبية وهو الاسم الكلاسيكى لكل الدول الاشتراكية خارج الاتحاد الســـوفيتى ٠ الى جمهورية المجر فقط ٠٠

ومضى الحزب الشيوعى المجرى خطوة خطيرة أخرى الى الأمام ٠٠ اذ اجتمع فى مؤتمر قرر فيه استبعاد فلسفته ومذهبه الماركى اللينينى وغير اسمه الى الحزب الاشتراكى الديمقراطى بأغلبية ساحقة فـلم يشذ عن هذا الاجماع سوى تيار صغير يشكل اليوم حزبا جديدا باسم الحزب الشيوعى المجرى ولم يستطع فى انتخابات ربيع ١٩٩٠ أن يحصل على النسبة اللازمة ليمثله حتى نائب واحد ! وظهرت التجمعـــات والأحزاب العديدة ٠٠ حتى جاوزت خمسين جمعية وحزبا ٠٠

وكان الحزب الشيوعى السابق يتصور أنه يتفوق عليها جميعا لأن له تنظيماته المنتشرة فى كل مكان سواء مؤسسة أو قرية أو نجــع ! ـ

وكوادره متمرسة فى العمل السياسى ·· كما أن له برنامجا واضحا يغيره فى كل يوم حسب اتجاه الجماهير ··

أما الأحزاب والجماعات الجديدة فكانت حديثة التشكيل ·· وليست لها كوادر كافية ولا قواعد منظمة ولا برامج محددة ·· فقط كانت تنادى بالديمقراطية وحرية رأس المال أو الاستثمار ··

وها هو الحزب يعطيها الديمقراطية ·· وها هو يفتح الباب للنشاط الرأسمالى على مستوى البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ··

فقد سمح الحزب بفتح مقاهى ومطاعم خاصة ومصانع صغيرة وشركات للخدمات كتصليح السيارات وبيع قطع الغيار ··· الخ ··

واستورد من الغرب كل السلع الكمالية الجذابة بما فيها العطور الفرنسية والسجائر الأمريكية ··

والبلاد ممتلئة بالسياح الأجانب (٥٠ مليون سائح يزورون أو يمرون فى المجر كل عام) ··

والمرأة المجرية الميسورة الحال ·· ترتدى أحدث الأزياء ·· ووضع الحزب خططا لما سماه بالاصلاح الاقتصادى ·· ولكنه بقى متمسكا بالملكية العامة لوسائل الانتاج الكبيرة ·· وبالكوميكون ·· (السوق الاشتراكى) ·· وبحلف وارسو ·· وبالدعم للسلع ·· وبالتخلف التكنولوجى فى المصانع ·· فحدث ما حدث من تدهور اقتصادى ··

على أى حال كما يقول « بوب لاهال » كان الحزب واثقا أنه سيكسب فى الانتخابات العامة مهما كانت حرة ·· وما كان بوسعه أن يزيفها أو يجعلها شكلية قط ·

فقد كان على حد اعترافه هناك شعور عام داخل قواعد الحزب بأنه ما دام الحزب يرعى العمل من أجل الشعب فيجب أن يحترم ارادته مهما كانت ·· من ناحية أخرى كانت معظم هذه القواعد والكوادر قد أصيبت « بعدوى الرأسمالية » كما يقول ضاحكا ·· والحقيقة أنهم اكتشفوا فشل النظرية الاشتراكية!

وعندما جرت الانتخابات فى ربيع ١٩٩٠ اكتسحت أحزاب المعارضة الجديدة الانتخابات ونجح « المنتدى الديمقراطى » فى الحصول على ١٦٤ مقعدا من ٣٨٦ وتحالف الديمقراطيين على ٩٤ مقعدا ·· وحزب صغار الملاك الصغار على ٤٤ مقعدا والديمقراطى المسيحى على ثمانية مقاعد بينما حصل الحزب الاشتراكى الديمقراطى « الشيوعيون » على

٣٢ مقعدا فقط .. وتشكلت الحكومة من ثلاثة أحزاب بينما بقيت ثلاثة أحزاب معارضة من الستة التى دخلت البرلمان .

وفى عام ١٩٩٠ جرت الانتخابات البلدية فسجلت الأحـــزاب الجديدة فوزا ساحقا فيها أيضا .. وبدأ يوجد فى المجر نظام سياسى جديد .. دخلت به البلاد مرحلة التغييـر الاقتصـــادى والسـياسى الشامل !!

كان هناك الشيء ونقيضه داخل النظام المجرى الاشتراكى .. علاقات انتاج اشتراكية تتمثل فى الملكية العامة للدولة لمعظم المؤسسات الاقتصادية .. فى نفس الوقت تترعرع الملكية الخاصة فى الريف .. وفى المدينة .. حيث سمح لعمال مصانع الدولة بالعمل لحسابهم بعد ساعات العمل .. فاشتغلوا بأعمال تجعل منهم برجـــوازيين صغار كتملك ورشة .. أو بيع قطع غيار .. أو صناعة الأثاث وبيعه .. أو تملك تاكسى .. حتى بدا فى المجتمع أن الملكية الخاصة ليست شرا .. بل هى مجلبة للثراء ورغد العيش .

وبدأت تنمو العقلية البرجوازية رغم كل الجهود التى بذلت فى عهد الستالينيين لقمعها والقضاء عليها .

وتحضرنى هنا مناقشة طريفة جرت بينى وبين السفير السوفيتى فى القاهرة عقب اعلان البيروسترويكا بالســـماح باقـــامة ما سمى بالرأسمالية العائلية .. بمعنى أن الأب والأم والابن يمكن أن يقيموا مشروعا خاصا للانتاج أو للبيع والشراء .. سألت السفير فى الحديث الذى نشر عـــام ١٩٨٥ . ما الذى يمكن أن يحـــــدث من هذا النوع من الرأسمالية العائليـــة سـيخلق طبقـــة جـديدة فى المجتمـع السـوفيتى لها مصالح مختلفة مع طبقة العمال .. وبالتالى سيكبر نفوذها لانها ستكون صاحبة قدرة على رشوة أجهزة الدولة لأنها تملك ثروة أكثر .. وأيضا ستطالب يوما ما بحق التعبير عن مصالحها الجديدة فى شكل أحزاب أو حزب جديد .

أجابنى السفير السوفيتى أيامها (عام ١٩٨٥) اجابة دبلوماسية اذ قال : .. لا نستطيع التنبؤ الآن بنتائج تطبيق البيروسترويكا .. وسنرى ماذا ستفرزه هذه الرأسمالية العائلية .

ان فتح الأبواب للنشاط الفردى فى المجر .. قد خلـــق نفوذا جماهيريا بحكم الواقع والتجـربة لذلك النشـــاط .. ونعنى بالنفـــوذ الجمـــاهيرى التفاف الشعب حـــول المنهج الرأسمالى وتفضيله عن المنهج

الاشتراكى الذى بدأت تتفجر عيوبه كما شرحنا من قبل ·· علما بأنه فى الأصل كان هناك رفض لدى الشعب المجرى للاشتراكية أصلا ·

الشىء ونقيضه أيضا ظهر فى العلاقات الاقتصادية الخارجيـة بين المجر ودول العـالم ·· عام ١٩٧٠ كانت علاقة المجـر الاقتصـادية بالكوميكون تمثل ٧٩٪ من علاقتها الكلية بالعـالم ·

استطاع النظام القديم أن ينزل بها فى الثمانينات الى ٥٠٪ والى ١١٪ مع العالم الثالث ·

أى فى الوقت الذى كانت فيه روابط الأممية قوية كانت هناك عوامل تفكك فى تلك الروابط ·· من الناحية الاقتصادية ·

ولما كان ربع الدخل القومى يأتى من التجارة ·· من تصدير السلع مقابل العملة الصعبة ·· فقد تدربت البلاد على اقتصاد السوق واحتكت بالعالم الغربى حتكاكا كبيرا ساعد عليه أيضا ملايين السياح الذين يتوافدون كل عام ·· حيث يختلط الكثيرون منهم بالعائلات المجرية التى تؤجر لهم الغرف والشقق ليعيشوا معهم ويرون دخولهم الواسعة بالنسبة لدخولهم المحدودة فى ظل النظام الاشتراكى ·

لكن سيبق السؤال قائما ·· ما الذى فجر عملية التغيير ·· أى ما الذى شجع الناس فى المجر على المطالبة بالتغيير ؟

هنا نجد تأثير الظاهرة الخارجية على الأوضاع الداخلية بارزا ·
ما هى هذه الظاهرة الخارجية ؟ ··

كان التطور الخطير فى موقف الاتحاد السوفيتى « حامى حمى الاشتراكية » فى العالم كما كان معروفا من قبل ·· له أثر كبير جدا فى تشكيل السياسة الخارجية للمجر ·· وكل دول أوربا الشرقيـة عموما ·· كما أثرت على تفكير ووجدان الجيل الجديد من الشـباب الذى عاش سنوات النظام الاشتراكى ·

يقول لى جيزا جزفسكى وزير الخارجية الشاب الذى اشرنا اليه من قبل :

نحن نعلم انه خلال عامين فقط بدأت الشيوعية تتلاشى من شرق ووسط أوربا ·

عندما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى استيقظت ذات صباح لأسمع طلقات مدافع الجيش الأحمر ·· وكان معنى ذلك أن أحلامنـا ورغباتنا قد انتهت ·

● ما هى هذه الأحلام والرغبات ؟ ٠

ـ الحرية ٠٠ وانطلاق طاقاتنا نحو تحقيق حياة أفضل ٠

● ألم تكن ترى فى الاشتراكية تحقيقا لهـذه الحياة الأفضل ٠٠ وهو التفكير الذى كانت تطلقه الفئة الحاكمة ؟ ٠

قال لى وهو يقدم لى فنجان الشاى لثانى مرة ٠٠ وهو الشاى الذى أدخلته وصنعته السكرتيرة بنفسها ٠٠ وهذا أمر يثير دهشـة الزائر الشرقى هناك لا توجد سكرتيرة فى مصر تقبل صـنع الشاى وتقديمه للضيوف ! ٠

اتكأ الوزير المجرى على مقعده وهو يقول ٠٠

انى أحترم كثيرا أحلام المفكرين الاشتراكيين اللذين ظهروا فى القرن التاسع عشر لأنهم كشفوا عيوب الرأسمالية ٠٠ وتحدثوا عـن آمالهم وبرامجهم لاصلاح حال العمال والفقراء عموما ٠

لكن الأحلام والأفكار كانت شيئا ٠٠ وما حدث فى الاتحـاد السوفيتى وبلادنا شىء آخـر ٠٠ ان الذى اسـتفاد بالاشـتراكية هـو الحكومة أساسا ٠

والذى فرض الاشتراكية فى المجر هم السـوفيت ٠٠ وكـانت كارثة ٠٠ وشعبنا لم يطالب بالاشتراكية قط ٠٠ كان الشيوعيون يحصلون فى الانتخابات على ١٧٪ والاشتراكيون الديمقراطيون يحصلون على ١٦٪ فقط ، أى أن أغلبية الشعب تحبذ النشاط الفردى والملكية الفردية٠

وسكت لحظة ثم قال ٠٠

ان الملكية العامة سلبت الناس أى اهتمـام بمسئوليتهم ازاء المؤسسات التى يعملون فيها ٠٠ ان تجريد الانسان من احساسـه بملكية شىء تفقده الحرص على صيانته أو تطويره أو تحسينه ٠

ثم تأمل كيف كان سلوك هؤلاء اللذين جاءوا يبشرون بالعـدل والمساواة ٠٠ لقد طردونى من المدارس لأننى سرت فى مظاهرة صامتة عن الذكرى الأولى لشهداء هبة ١٩٥٦ ٠

ثم منعونى من دخول الجامعة ٠٠ وأجبرونى على أن أصبح عاملا يدويا ٠٠ ولكن منذ عام ١٩٧٦ حدث انفراج بالنسبة لحالتى ٠٠ وسمح لى بالدراسة ٠٠ بل وبالتدريس فى الجامعة وكان ذلك شيئا شاذا أن يسمح لشخص ليس عضوا فى الحزب الشيوعى أن يدرس فى الجامعة ؟

● كيف أصبحت وزيرا للخارجية اذن ؟

ــ لقد كان موقفى ضد النظام كما رأيت منذ هبة ١٩٥٦ ·· وأنا فى الخامسة عشرة ·· وعندما كنت أدرس فى الجامعة اتخذت موقفا هو الامتناع عن تدريس تاريخ ما حدث بعد عام ١٩٤٥ حتى لا أشترك فى حملة التطبيل والمديح للنظام القائم وتأثرت كثيرا عندما زرت كاليفورنيا كأستاذ زائر بجامعتها ·

وانضممت الى « المنتدى الديمقراطى » ·· وعندما حضرت مؤتمره الأول ·· وشاهدت السفيرين الأمريكى والسوفيتى يحضران ·· أحسست أننا نمثل قوة تثير انتباه العالم ·· وشعرت بأنه ليس فقط أطفالنا هم اللذين يمكن أن يشاهدوا انهيار الديكتاتورية فى بلادنا ·· بل نحن أيضا ·

وكانت العلامة الحاسمة فى رأيى هى عندما سمحت الحكومة لرعايا المانيا الديمقراطية باختيار حرية المرور الى الغرب عن طريق الحدود المجرية النمسوية ·

ثم تتالى كل شىء بسرعة غريبة فى أقل من عامين : سقط هونيكر فى المانيا الديمقراطية ·· ثم هوساك فى تشيكوسلوفاكيا حتى الديكتاتور الفظيع شاوشيسكو سقط سقوطا دمويا مروعا ·

وكان معنى ذلك أن نظامنا أيضا سيلحق بهم جميعا ·

وعندما لحق بهم ونجح المنتدى الديمقراطى فوجئت بأنهم اختارونى وزيرا للخارجية · ولم أسع أو أعمل من أجل ذلك ·

● حسنا ·· وما هى معالم السياسة الخارجية للمجر الآن لتحديد مستقبلها ؟

ــ أولا انتهى عهد التحالف مع الاتحاد السوفييتى والأممية وكل هذا الكلام ·· انتهى حلف وارسو ·· وانتهى الكوميكون ·

نحن دولة صغيرة ·· ليست استعمارية ·· وليس لديها أى تاريخ مشين ·· ويمكن أن نلعب دورا بين دول العالم ·

نحن باختصار حتى لا تتعب فى ملاحقتى ·· جزء من أوربا الغربية ·· فنحن متجهون بخطى سريعة الى اللحاق بكل منظمات أوربا الغربية السياسية والاقتصادية ·

● حتى حلف الاطلنطى ؟

لا نريد الانضمام له ·· فنحن نعرف أن الروس لا يحبون أن تقوم دولة منضمة للحلف على حدودهم ·· واستطرد قائلا ··

ولكن هذا لا يمنع من أننا نتشاور مع حلف الاطلنطى من أجل الاستقرار فى أوربا ·· بل والعالم ·

● وكيف كانت علاقتكم بالاتحاد السوفيتى ؟

ـ علاقة طيبة ولكنها ليست صداقة ·

● لماذا ؟

ـ ان السوفيت فرضوا علينا النظام الذى تخلصنا منه ·· وهم اللذين قمعوا ثورتنا ضده عام ١٩٥٦ ·

ثم نحن تقليديا أصدقاء لكل بلد ديمقراطى ·· والاتحاد السوفيتى لم يكن دولة ديمقراطية على الاطلاق ·· بل نقــل ديكتاتوريته الينا ·

ونحن لا نحب الشيوعية ·· والاتحاد السوفيتى كان دولــــة شيوعية ·· رغم أن الشعب السوفيتى ضد تلك الشيوعية ·· ولهذا نحن نتضامن مع الشعب فى كراهيته للشيوعية !

● وماذا عن علاقتكم بالولايات المتحدة ؟

ـ طيبة جدا فهى بلد ديمقراطى ·· ولولا وجودها لما استطعنا التخلص من النظام الديكتاتورى البغيض ·

● كيف ؟

ـ انها هى التى أقامت حلف الاطلنطى الذى منع ستالين من ابتــلاع كل أوربا ·· ولو فرضنا أن ذلك قد حدث لأمكن للشيوعية أن تسيطر على العالم كله وبالتالى كان يتعذر تماما علينا تحرير انفسنا ·

أنت ترى اذن أن أمريكا قد قامت برسالة انسانية عندما أقامت حلف الاطلنطى ؟

ابتسم الوزير ابتسامة عريضة وقال ··

ـ نحن نعلم أنكم فى العالم الثالث تصفون الولايات المتحدة بأنها دولة امبريالية وتتحدثون عن الأمريكى القبيح ·· أريد أن أقول لك اننا لا نراها كذلك ·· اننا لا نرى فى الولايات المتحدة قوة رديئة فى عالمنا المعاصر ·· اننا نحن اللذين عشنا تحت نير الشيوعية كانت أمريكــا

تمثل الأمل لنا وتشجعنا قوتها وتفوقها على الايمان بأن ساعة الخلاص قادمة حتما ·

ولذلك نعتقد أن حلف الأطلنطى بقيـادة الولايات المتحدة قد ساعدنا على التخلص من الشيوعية !

● كيف اذن ترى النظام العالمى الجديد ·· الذى يقوم على عالم القطب الواحد ·· الذى هو الولايات المتحدة ؟

ـ ان وجود المعسكرين الكبيرين فيما مضى ·· وتصاعد التناقض بينهما كان يجعل كلا منهما يتشبث بمواقفه ويتصلب فيها ·· ثم ان العالم قسم نفسه ·· فريق يعتمد على الاتحاد السوفيتى وفريق يعتمـد على الولايات المتحدة ·

الآن ·· استراح العالم من انقسام العالم والتصلب والتشدد وانتهى عصر اللعب على التناقضات والاعتماد على الغير ! ·

الكل يجب أن يعتمد على نفسه ·· ويتضامن مع الآخرين فى اطار هيئة الأمم المتحدة والشرعية الدولية واحترام حقوق الانسان ·

ولا تنسى أن الولايات المتحدة دولة ديمقراطيـــة ونحن أدرى باحترامها لحقوق الانسان فقد ساعدتنا كما قلت على استرداد تلك الحقوق لمجرد تفوقها وتصديها للاتحاد السوفيتى والشيوعية عموما ·

● أين مكان المجر اذن فى هذا النظام العالمى الجديد ؟

ـ نحن أوربيون غربيون كما قلت لك ·· ونحن مع الأمم المتحدة ·· والشرعية الدولية والتعاون الدولى ·· من أجـل رفاهية وحـرية شعوب العالم ·

● هل يقبل الغرب حاليا على استثمار الأموال فى بلادكم كى يساعدكم على تحقيق تلك « الأوربة الغربية » بسرعة ؟

ـ لقد حصلنا حتى الآن على نصف الاستثمارات الغربية التى قدمت للدول التى كانت شيوعية ·· ولكننا نريد أكثر ·

● ولماذا حصلتم على النصف وعدد السكان عندكم لا يزيد عن عشرة ملايين ونصف المليون ؟

ـ لأن هناك ثقة أكبر فى استقرار الأوضاع فى البلاد ·· وأكثر تقبلا وشوقا للنظام الرأسمالى وان كنا نفضل القول بأنه نظام السوق ·

● لماذا ؟

ـ لأن كلمة الرأسمالية توحى بنظام الرأسمالية الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر بكل مظالمها وسوءاتها ٠٠ ونحن نريد رأسمالية لا تنكر العدل الاجتماعى بل تحقق المستوى المعيشى الأفضل مما حققته الاشتراكية ٠

● ماذا عن علاقتكم بالعالم العربى ؟

ـ نحن حريصون على أن تستمر علاقتنا بالدول العربية طيبة ٠٠ ولدينا علاقات اقتصادية متقدمة مع مصر بالذات ٠٠ وهناك تاريخ طويل فى المجر للدراسات الاسلامية والعربية ٠ ولعلك تذكر الدكتور عبد الكريم جربانوس المستشرق المجرى الكبير وبالاتفاق مع السعودية ومصر لدينا مركزين اسلاميين فى المجر ٠٠ وقصص الف ليلة وليلة معروفة جيدا لأطفالنا ٠

وسكت وزير الخارجية لحظة ٠٠ وقال :

لماذا لا يأتى العرب بأموالهم هنا ليستثمروها ٠٠ ان المجال عندنا واسع جدا لمثل ذلك الاستثمار الذى سيحقق أرباحا بالتأكيد ٠٠ ولقد أجرينا مباحثات مع دولة الكويت بهذا الشأن ٠٠ ولدينا تسهيلات هائلة لكل من يريد استثمار أمواله لدينا ٠٠ وأعتقد أن علاقـــات المجر ستقوى بالعالم العربى بدخول هذا العامل الجديد فى علاقاتنا ٠

● لماذا اشتركتم فى حرب الخليج ؟ هل لارضـــاء الولايات المتحدة ؟

ـ أبدا ٠٠ نحن بحكم تجربتنا ضد الاغتصاب لحقوق الشعوب ٠٠ فرفضنا بحزم عملية غزو الكويت ٠ ونحن نحترم القانون الدولى ٠

ولقد اشتركنا حسب قدراتنا ٠٠ اى بطريقة رمزية ٠٠ فريق طبى من أطباء وممرضين وممرضات ٠

وقد قمنا بهذا لاحترامنا للعالم العربى وحق كل بلد فيه فى الأمن واستقلال وليس لارضاء الولايات المتحدة ٠

● والقضية الفلسطينية ٠٠ ما موقفكم الحالى منها ؟

ـ نحن طبعا ورثنا عن النظام السابق التمثيل الدبلوماسى لمنظمة التحرير الفلسطينية هنا فى بلادنا ٠٠ ولم تتح لى فرصة اعادة دراسة الموضوع من جديد فأنا فى مكانى هنا منذ سنة فقط ٠

لكن على اى حال نحن نريد السلام فى المنطقة وحل المشكلة ٠

● على أى أساس ؟

ـ على أساس قرارات الأمم المتحدة وعن طريق التفاوض لذلـك نحن نؤيد الجهود الأمريكية فى هذا السبيل ·· ونعجب كثيرا بالسياسة المصرية النشطة لاقرار السلام هناك ·

● هل توافقون على حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى ؟

ـ بالتأكيد فنحن كما قلت لك مع كل حقوق الانسان ·· ونريـد للشعب الفلسطينى تمثيلا ديمقراطيا يعبر عن ارادته فعلا ·

● وما علاقتكم باسرائيل ؟

ـ علاقة صداقة ·· ولنا تاريخ مشترك طويل ·· ونحن نقول لهم أن يكونوا أكثر مرونة فى حل قضية الشرق الأوسط لينعموا هـم شخصيا بالسلام ·· وعلاقتنا متوازنة فى المنطقة ·

سؤال أخير طرحته على وزير الخارجية جيزاجزنسـكى ··

● ما رأيك فيما جرى فى الشرق العربى عام ١٩٩١ ؟

قـال :

ـ الديكتاتورية هى السبب ·· نحن ديمقراطيون ·· ولذلك نعتقد أن الديكتاتورية فى العراق جلبت الكوارث فى المنطقة ·· وبالديمقراطية كل شىء يمكن أن ينصلح حاله ·· واليكم تجربتنا ·

الخصخصة هنـــاك ..

ماذا كانت خطة النظام الجديد لمواجهة ما جرى فى المجر ؟

كان الانهيار الاقتصادى قد بدأ يستشرى لا فى المجر فقط بل فى كل أوربا الشرقية مما كشف عن فساد السياسة الاقتصادية كلها .

انخفض الدخل القومى فى المجر من ٤ الى ٥٪ فى عام ١٩٩٠ وفى الاتحاد السوفيتى ٥٪ وفى بولندة ٢٢٪ ورومانيا ٢١٪ وبلغـاريا ١٥٪ ويوغسلافيا ١٢٪ وألمانيا الديمقراطية ٢٢٪ وتشيكوسلوفاكيا ٣٪ .

أما عن التضخم فقد ارتفع ارتفاعا عاليا . بولندة ٢٥٪ ويوغوسلافيـا ١١٠٪ ورومانيا ٧٠٪ وبلغاريا ٥٠٪ والمجر ٢٩٪ والاتحاد السوفيتى ٢٠٪ وتشيكوسلوفاكيا ١٠٪ .

وفى نفس العام ١٩٩٠ ارتفعت معدلات البطالة بطريقة لم تحدث من قبل .. فى المجر كانت النسبة بسـيطة (١ر٧٪) . ولكن فى ألمانيـا الديمقراطية بلغت ١٥٪ ورومانيا ١٤٪ ويوغسلافيـا ١٢٪ وبولنده ٨٪ وتشيكوسلوفاكيا ٦٪ .

ويلاحظ هنا أن بعض هذه الدول كانت عملية الاصلاح الاقتصادى قد بدأت فيها سواء فى عهد الادارة الاشتراكية السابقـة أو فى عهـد الحكومة الجديدة المضادة للاشتراكية .

لكن على أى حال ان هذا كان يعكس وصفا سيئا هو حصـيلة للسياسات الاقتصادية فى السنوات قبل ١٩٩٠ علما بأن التغيرات بدأت فى أغلب البلدان الاشتراكية منذ عام ١٩٨٩ .

وهذا الخلل لم يكن ممكنا اصلاحه الا بشىء واحد لخصه الدكتور تاماس سزابو نائب رئيس المنتدى الديمقراطى والمسئول الأول فى لجنـة الملكية والخصخصة فى الحكومة المجرية . وهو المهندس الأول لما يسمى

هناك باستراتيجية الخصخصة هذه ·· يقول د· تاماس : ان المطلوب باختصار شديد هو أن تكون العلاقة بين المنتجين والمستهلكين على أساس قوانين السوق ·

ذلك لأن ٨٠٠ ألف من السكان (يشير الى أعضاء الحزب الشيوعى) كانوا هم الحكام والمنتجون المالكون تقريبا · والموزعون للانتاج حسب ما يرتأون مما خلق تناقضات لا حد لها · وعزلهم تماما عن الشعب ·

ولما كان التغير الاقتصادى يتطلب التغيير السياسى أولا ·· فبعد أن استولى « تيار قوانين السوق » اذا جاز التعبير تمييزا له عن تيار الاشتراكية ·

كان لابد من تعديل الدستور ، ولايمكن أن يحدث هذا الا بأغلبية الثلثين وهى الأغلبية التى لم تتوفر للمنتدى الديمقراطى ، فاضطر الى عقد تحالفات مع أحزاب صغيرة حتى أمكن تعديل الدستور بحيث يتلاءم مع الاتجاه الاقتصادى الجديد ·

وكانت المهمة الأولى والعاجلة أمام النظام الجديد اذن هى تبديل علاقات الملكية · وذلك على أساس تقليص ملكية الدولة بتوسيع الملكية الخاصة · وهذه كانت الوسيلة الوحيدة للانقاذ الاقتصادى ·· باختصار يجب العدول عن الاشتراكية وانهائها من الوجود ·

ولكن هذه لم تكن عملية سهلة على الاطلاق · وانما عملية تحتاج الى وقت ·· ومراحل ·· لأن لها نتائج كثيرة وضخمة ومؤثرة فى الحياة الاجتماعية تأثيرا خطيرا لابد من عمل حساب له ·

وشكلوا لجنة خاصة لتحقيق هذا التحول سموها لجنة « الملكية والخصخصة » التى كان عليها أن تضع خطة مفصلة لتحقيق انهاء الملكية العامة لوسائل الانتاج وتحويلها الى ملكية فردية سواء لشركات أم لأفراد ·· وذلك على مراحل ·

وكان على هذه اللجنة أيضا أن تضع فى الاعتبار أن عملية التحويل هذه للملكية الخاصة يجب ألا تتم عن طريق المركزية ·· بل يجب أن تتم أيضا عن طريق المحليات ·

كما أن عملية التحول هذه التى هى فى جوهرها عملية بيع لممتلكات عامة تملكها الدولة لأفراد يجب أن يتم وفقا لقواعد السوق أيضا ·· أى لا تفرض أسعار وهمية أو تعجيزية ·· انما يترك للعرض والطلب أن يتحكما فى عملية الشراء لما تعرضه الدولة أو المحليات فى السوق للمشترين ·

ولكن ماذا يعرض للبيع والملكية الخاصة ؟ ٠

وضعت حدود ٠٠ كتحديد للمراحل ٠٠ لأن الهدف النهائى هو الوصول الى نظام رأسمالى غربى متكامل ٠٠ وهم فى المجر يدافعون عن احتفاظ الدولة ببعض المؤسسات بقولهم ان هناك بلادا مثل فرنسا تمتلك الدولة فيها بعض المؤسسات فهل هناك شك أن فرنسا دولة رأسمالية ؟ وكذلك انجلترا ٠٠ بل أن الولايات المتحدة نفسها توجد ملكية عامة للدولة يقدرونها بخمسة عشر فى المائة من وسائل الانتاج هناك ٠

ويضربون مثلا بما يجب أن تحتفظ به الدولة حاليا ٠٠ مصادر الثروات الطبيعية ٠٠ النقل ٠٠ والتليفونات والتلغراف والطرق والكبارى والطاقة ٠٠ وبعض الصناعات الثقيلة ٠

وتناقش هذه اللجنة شكلا آخر لملكية بعض المؤسسات ذات الطابع العام مثل وسائل الاعلام (الراديو والتليفزيون والأقمار الصناعية) والصناعات الاستراتيجية ٠٠ وهذا الشكل هو ملكية الأغلبية من الناس لأسهم تلك المؤسسات على طريقة الرأسمالية الشعبية التى طرحت فى الولايات المتحدة فى الخمسينات ٠

أما فيما عدا ذلك من أنواع النشاط الاقتصادى فان الدولة تشجع الرأسمالية على مستوياتها المختلفة للتطور واتباع قوانين السوق فى مرونة شديدة ٠٠ وهذا يتسبب فى اطلاق قوى الانتاج من عقالها ٠٠ وزيادة الدخل القومى بالاضافة الى كل النشاط المتعلق بالخدمات كالطب والمحاماة والهندسة وورش الاصلاح المختلفة ٠٠ يجب فتح الأبواب أمامها لأنه ثبت أنها تؤدى دورا اجتماعيا كبيرا لحل مشاكل الناس ٠

فقد كان من يريد اصلاح سيارته عن طريق ورش الحكومة عليه أن ينتظر دوره بعد شهر أو اثنين كما كان يتعذر عليه الحصول على قطع الغيار الا من السوق السوداء ٠٠ وقد كان هذا هو الطابع العام الموجود فى كل بلد اشتراكى مما كان يسبب تذمرا من جانب السكان وهم يرون كبار المسئولين يتحركون فى سيارات فاخرة مسدلة الستائر مكيفة الهواء ليلا ونهارا ! ٠

واطلاق حرية النشاط الاقتصادى كما يقول د٠ توماس سزابو ٠٠ يفتح الباب للمناقشة الحرة ٠٠ التى يستفيد منها أولا المستهلك اذ سيحصل فى النهاية ولو بعد بضعة أعوام على أفضل سلعة شكلا وموضوعا !

ولهذا فان الحكومة ستترك المجال حرا لتحديد الأسعار من المنتجين أنفسهم وكذلك تحديد الأجور للعاملين ٠٠ وتسهيل قوانين الاستيراد

والتصدير ووسائل النقل والاتصالات بحيث يكون المناخ أفضل ما يكون للمنافسة الحرة على أوسع نطـاق ! ٠

فى الوقت نفسه لابد أن تأخذ الحـكومة بأفضـل أسـاليب ونظم الضرائب المعمول بها فى دول أوربا الغربية وأسلوب الادارة والحساب وكذلك عمليات الائتمان وأساليب المصارف الدولية الراقية فى التحويل وفتح الاعتمادات وغيرها ٠

لابد أن تدار التجارة على أحدث الأساليب وأسرعها فى عالم يكتظ بالمتنافسين العتاة وذوى الخبرة الطويلة والعريقة ٠

●●●

لقد شعرت أنهم فى المجر يلهثون للحاق بركب الرأسمالية الحديثة الذى فاتهم لأكثر من أربعين عاما ويشعرون بالحيرة الشديدة على أنه قد فاتهم فعلا ٠٠ وعندما تسأل أى واحد منهم : هل لم تقـدم الاشتراكية أى تطوير اقتصادى هام فى بلادكم ؟ ٠

يرد عليك بتلك الاجابة التى أفحمتنى أنا شخصيا ٠٠ نائب وزير الاقتصاد المجرى ٠٠ قائلا :

فى السؤال هكذا خطأ ٠٠ وكان يجب أن يكون ٠٠ هل لو تطورنا على الطريق الرأسمالى بدلا من ذلك الطريق المسمى بالاشتراكى ألم يكن تقدمنا أكثر وأسرع ٠ انظر الى ما جرى فى النمسا ٠٠ وألمانيا الغربية ؟٠

وهذه الاجابة ذكرتنى على الفور بحوار طريف وهام حدث فى المركز الثقافى السوفيتى عام ١٩٨٩ فى القاهرة ٠٠ حيث كنت مدعوا للاشتراك فى حوار بين صحيفيين مصريين وصحفيين سوفيت قدموا لتوهم من موسكو حول طريق التطور الحاصل فى الاتحاد السوفيتى وكنـا نسميه بالبروسترويكا ٠٠

قال أحد الصحفيين المصريين موجها الخطاب للصحفيين السوفيت ٠٠ انه يخشى أن يكون التطور فى الاتحاد السوفيتى فى اتجاه الرأسمالية وأخذ يلقى محاضرة عن مساوىء الرأسمالية ٠٠ وهى مساوىء صحيحة ولا شك ٠٠ وعندما سكت استأذنت صحفية سوفيتية شابة جميلة لا يزيد عمرها عن ٢٧ عاما فى الحديث ٠٠ فقالت :

ـ لا يهم بماذا ينتهى الطريق الذى نسير فيه حاليا ٠٠ رأسمالية أو اشتراكية انما أريد أن أقول لك شيئا واحد ٠٠ لقد بدأنا مرحلة التطور فى العقد الثانى من القرن العشرين فى نفس الوقت الذى بدأت سويسرا فيه تطورها ٠٠ أنظر الآن ٠٠ وتأمل حالنا وحال سويسرا ٠٠

سويسرا حققت مستوى اقتصادى وحياتى أكثر منـا بكثير جدا

جدا ٠٠ كما أنها حققت تقدما كبيرا جدا فى مجـال احـترام حـقوق الانسان ٠٠ بينما نحن متخلفون فى مستوى المعيشة ٠٠ وانتهكنا حقوق الانسان بشكل يعادل أبشع النظم الدكتاتورية فى مراحـل معينـة من تاريخنا !!

وسكت زميلى ٠٠ بل سكتنا نحن جميعا وهززنا رؤوسنا فى دهشة ٠٠ وأسى أيضا على الأحلام التى تبخرت !!

قابلت نائب وزير الاقتصاد وقال لى ٠٠ أستطيع أن أحصى لك عشرات بل مئات المشاريع الجيدة التى أقامها النظام السابق ٠٠ لكن كان ممكنا أن ننشىء أضعافها وأفضل منها ونحقق مستوى أفضل للمعيشة ٠

وسكت لحظة وقال !

وأخطر من هذا وأهم ٠٠ الحرية للناس ٠٠ اننى أسمع حكايات عن أيام الاحتلال العثمانى للبلقان ومنه بلادنا المجر لمئات السنين ـ وقرأت أنهم كانوا يجرون عملية « خصى » لبعض النـاس كى يحرسوا الحريم أو كعقاب لهم ٠٠

ان حرمان أى شعب من الحرية هو أفظع من عملية الخصى فى رأيى !!

سألته ٠٠

● ما هو الشىء السحرى فى الملكية الخاصة لوسائل الانتـاج الذى يجعلكم تتوقعون زيادة الانتاج والرخاء ؟ ٠

ـ الشىء السحرى ٠٠ هو أن احساسك بملكية شىء يجعلك تعمل على صيانته والمحافظة عليه وأكثر من ذلك استخدامه ليحقق لك عائدا ٠٠ لتملك شيئين بدلا من واحد وثلاثة بدلا من اثنين ٠٠ هكذا ببساطة دون حذلقـة علماء الاقتصـــاد !!

ما هو برنامج الحكومة للخصخصة اذن ؟

يقول نائب الوزير أن الحكومة تملك الآن ٨٠٪ من المصانع وتخطط لتخفيضها الى ٤٠٪ فقط خلال أربع سنوات ٠

ففى عام ١٩٩١ تكون قد اكتملت كل النظم والقوانين التى تساعد على التحول وتتهيأ الظروف تماما لذلك بمـا فى ذلك النـظم البنكيـة والائتمان ٠

كما أنه ستنتهى القـوانين الجديدة التى تنظم معـاشات العاملين ودخولهم وخدمات الاسكان والصحة والتعليم بحيث يتحدد دور الدولة فى هذا المجال بالضبط ٠

(ويشار هنا أن الدولة تنسحب من هذه المجالات بالتدريج فالتعليم الجامعى أصبح بمصروفات ٠٠ وتكاليف التأمين الصحى زادت وستزداد ايجارات المساكن وزادت أسعار الكهرباء والغـاز) ٠

وقد انتهت الدولة من تحرير ٩٠٪ من الاستيراد من الخارج ٠٠ وبدأت العملة المحلية « الفورنت » تأخذ وضعا يقربها من الارتباط بسوق الصرف الدولية كأى عملة صعبة ٠٠ بحيث أصبح الفرق فى السعر بين السوق السوداء وسعر الصرف الرسمى لا يزيد عن ٤٪ ٠

كما حددت أسس جديدة للتعامل مع دول الكوميكون ٠ وان كان للمجر ديون مجمدة لا تقل عن بليونى دولار لدى تلك الدول هى عاجزة عن دفعها اطلاقا ٠

وقد أجرت الحكومة مع منظمات النقد الدولية (صندوق النقد والبنك الدولى اتفاقات لتعويض هذه الديون بقروض جديدة خصوصا أن حرب الخليج كلفت المجر ٥٠٠ مليون دولار زيادة فى شراء البترول ٠

وهذا التعويض الذى سيتم خلال ثلاث أو أربع سنوات كان بديلا عن خطة طرحت هى تحديد الاستهلاك للجماهير ٠٠ ورفضت بالطبع لأنها ستثير توترا اجتماعيا النظام الجديد فى غنى عنه ٠٠ ورؤى أنه يمكن تحقيق ذلك التعويض من خلال زيادة التصدير بعد تحسين الانتاج شكلا وموضوعا ٠٠ وكذلك تخفيض النفقات الحـكومية ٠٠ ورفع أسعـار السـلع ٠

وفى عام ١٩٩٢ المفروض أن يتم التنسيق والتوفيق بين القطـاع الخاص الجديد الذى تضخم ٠٠ مع نظم السوق ٠٠ فعند التوقيع تضخم هذا القطاع بفضل تدفق رؤوس الأموال الأجنبية وكذلك عمليـة الشراء التى ستحدث للمؤسسات التى ستطرحها الدولة للبيع ٠

والسوق فى حد ذاته سيبرز الملكية الفردية ودورها فى المجتمع ٠٠ حتى تسرع خطواتهـا نحو تصـدرها الدور القيـادى فى الاقتصـاد القومى ٠٠

كما أنه سيؤدى الى تحسين وتطوير فى المرافق والمؤسسات التى ستظل فى اطار ملكية الدولة ٠٠ حيث أن قوانين السوق سترغم الجميع على التنافس لكسب مواقع فى السوق ٠٠ كما أن رأس المال الأجنبى ذو

الخبرة العريقة سيلعب دورا هاما في هذه المسألة ·· مسألة تطوير أساليب الادارة كما أن التجارة الخارجية ستتحرر تماما ·· ويصبح العمل البنكى على مستوى أوربى غربى · وينتهى الفرق بين الفورنت (العملة المحلية) وأى عملة صعبة فى التعامل فى سوق المال ·

وكانوا يخططون أنه سيحدث فى عام ١٩٩٢ وفقا لخطة موضوعة هو قبول المجر بالمجموعة الأوربية الغربية اقتصاديا ·

وسيساعد على تحقيق هذا ثبات تطور الصادرات وتحقيق فائض فى الميزان التجارى من العملة الصعبة واتباع وسائل لمكافحة التضخم ·

ولا تهمل الخطة هنا مواجهة النتائج الاجتماعية السيئة التى ستنجم عن اتباع هذه السياسة وسنعرض لذلك فى حلقة خاصة ·

أما فى عام ١٩٩٣ فمن المتوقع أن يكون أول عام فى نمو الدخل القومى ·· أى زيادة الانتاج ويزداد هامش التصدير ·· وسيمكن تقليل الديون ·· وتتحسن كل الخدمات والمرافق مثل الطرق والتليفونات والمواصلات ·

ويتعود المجتمع والاستثمارات الجديدة على قوانين السوق ·

وما يكاد يأتى عام ١٩٩٤ حتى يشمل التحسن جميع نواحى الحياة ·· اذ يزداد الدخل القومى وكذلك يزداد الاستهلاك لأول مرة منذ السبعينات ·

وسينخفض التضخم حتى يصبح أقل من ١٠٪ وسينخفض معدل البطالة الى المعدل العادى ·

ويلاحظ هنا أن الدولة المجرية قد قررت فى خطة التحويل دفع تعويضات لأصحاب الممتلكات التى أممتها وصادرتها الثورة هذا اذا لم يمكن ردها لهم ليديروها بمعرفتهم ·· وينطبق هذا أيضا على العقارات · والمبانى ··

أما بالنسبة للأرض ·· فقد فتح الباب أمام الفلاحين للخروج من الجمعيات التعاونية ·· واستثمار اراضيهم بشكل فردى اذا أرادوا ·· وتدفع تعويضات لأصحاب الأرض التى صودرت · ويقدرون فى المجر أن ٥٪ من ممتلكات الدولة سترد عام ١٩٩٤ لأولئك اللذين صودرت ممتلكاتهم بطريقة غير قانونية ·

كما أن ١٥٪ مما تملكه الدولة ستنقل ملكيته للمجالس المحلية مثل المساكن ومرافق المياه والكهرباء · مما يعنى تحرير الدولة من مسئولية

مئات الألوف من المساكن · مما جعلها فى حالة عجز عن صيانتها ·· والأغاب أن المجالس المحلية ستبيعها لسكانها ·· وقد بدأت حاليا بزيادة الايجار مرتين وثلاث مرات ·

انه برنامج ضخم ومعقد ·· لكن المرء لا يشعر بذلك التعقيد · فكل شيء يجرى بسرعة ·· وبسهولة لأن هناك شعورا عاما لدى الأمة كلها بالرغبة فى التحول ·· حتى ليبدوا أن الناس مصابون جميعا بحمى الرأسمالية اذا جـاز التعبير ! ·· انهم يرون فيهـا الانقـاذ والحـلم والأمل ·· ورمز كل هذه الأحلام والأحلام هو الولايات المتحدة ·· أى نمط الحياة فيها ومستواها ·· وبالقليل يرضون بمستوى النمسا ·· وفرنسا فى الوقت الحالى على الأقل ··

ان الناس فى المجر كمن يخرجون من الجب ·· من السجن ·· وان كانوا قد بدءوا يواجهون عقبات وصعوبات وعوامل تخيب الآمال ·· لكن ذلك لم يؤثر فى هرولتهم تجاه ·· الرأسمالية ·· فهى المنقذ فى نظرهم حتى الآن حتى لو كانوا قد انتخبوا الشيوعيين القدامى عام ١٩٩٤ مرة أخرى بعد أن فشل الرأسماليون فى قيادة البلاد للرأسمالية بينما تقدم أولئك ببرنامج كسب ثقة الناس ! · ! ·

ولكن اذا كان الشيوعيون القدامى فى المجـر يؤيدون الطـريق الرأسمالى (مع تحسينات) ·· فمن اذن يعارض التغيير ؟ ·· ما هى القوى التى تقاومه · هل الحزب الشيوعى بسبب ضـياع السـلطة ؟ واستعادته الحكومة من مكانته الهـائلة ؟ ··

« أربد جور دوس » نائب وزير الاقتصاد أجاب على سؤالى ··

ان الحزب الشيوعى موافق على كل شيء ·· أى موافق على الاتجاه نحـو الرأسمالية ويؤيد كل خطوات الاصلاح ·

● هل تخلوا عن افكارهم الاشتراكية ؟

– من زمان طويل بدءوا هم حركة التغيير ·· حتى يكسبوا تأييد الناس بعد ما حدث عام ١٩٥٦ ·· وهم الآن لا يريدون الانعـزال عن الجماهير ··

● ولكنهم انعزلوا بدليل أنهم لم يحصلوا فى الانتخابات الا على ١١٪ من الأصوات ؟ · علق على ملاحظتى قائلا ولاحظ أنها كانت فى عام ١٩٩١ خلال جولتى التى أشرت اليها من قبل ·

– لأن الناس لا تصدقهم ·· وتعتبرهم مسئولين عن الكوارث التى حدثت للاقتصاد والنظام الشمولى الذى أقاموه طوال أربعين عاما ·

ولاحظ أنهم لم يوافقوا على انسحاب القوات السوفيتية فى البداية ولكنهم بعد ستة شهور وافقوا ..

● ولكن لماذا كان الشيوعيين هم البادئون بالاصلاح الاقتصادى منذ سنوات ؟

ـ ببساطة لأنهم رأوا أنهم لا يستطيعون الاستمرار بالنظام هكذا فالبلد فى الحقيقة كانت على وشك الانفجـار .

● ولكن ألا يوجد أى سبب آخر لموافقتهم على التغيير الذى بدأ منذ سنوات وعدم تصديهم له ؟ ..

أجاب

طبعا هناك سبب آخر وجوهرى .. هم أدركوا منذ سـنوات أن التغيرات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى منذ اعلان البروسترويكا .. قد جعلت الكرملين تبرر عدم مساعمة الحكومات فى البلاد الاشتراكيـة اذا وقفت فى وجه ارادة جماهيرها للتغيير . وبالذات فى المجر حيث ذكريات قاسية من احداث نوفمبر ١٩٥٦ .

● كيف كان الشيوعيون يحافظون على انخفاض أسعار السـلع والمســاكن وخـــلافه ؟ .

ـــ كانوا ببساطة يستخدمون الديون للدعم وليس للاستثمار .. لذلك استهلكت الآلات وأصبحت متخلفة .. وتسببت فى ايذاء للبيئة ووجد الشيوعيون أنفسهم فى مأزق .

اذا هم رفعوا الدعم الذى يستهلك القروض وأى مكاسب من التجارة الدولية .. فسيهبط مستوى المعيشة ولربما حـدثت ثورة .. وكانت عيونهم دائما على أوربا الغربية اذ كانوا يعرفون أن الشعب المجرى يتطلع الى مستوى المعيشة هناك .

استمروا فى الدعم اذن .. ولكن عندما بدأت معـالم الانهيـار الاقتصادى تظهر بدءوا يتجهون الى استثمار الديون فى التنمية لا الدعم فبدأ مستوى المعيشة ينخفض ، وبدأ التذمر بين الناس ..

● ولكن أسمع هنا أن مستوى المعيشة الحالى بعد وصولكم الى السلطة انخفض أكثر .. ومع ذلك لا أشعر أنكم ترون فى هذا تعبيرا عن خطأ أو عجز من جانبكم ؟!

أجاب :

ـــ ان الشيوعيين أو غيرهم عندما يقولون أن الوضع ساء عن

أيام حكمهم فهم على حق ·· فمستوى المعيشة الآن أسوأ من خمس سنوات ··

● ماذا قدمتم اذن من مميزات للجماهير ؟

أجاب :

قدمنا للناس ··

ـ حق السفر الى أى مكان بلا شروط ·

ـ تملك العملة الصعبة التى كان يعتبر تملكها نوعا من الخيانة العظمى فى بعض الأحيان ·

ـ يمكن أن تكسب أى مبلغ من المال نتيجة العمل ·

ـ يمكنك أن تشترى أى شيء دون خوف من البوليس الاقتصادى !

● ولكن ذلك لا يعنى أن الفقراء قد حلت مشكلتهم ؟

ـ هذا صحيح ·· خصوصا اذا لاحظنا أننا ورثنا عن النظام الاشتراكى الذى كان يدعى تمثيله للفقراء والكادحين أربعة ملايين مجرى يعيشون تحت خط الفقر ··

ولكننا نخطط ونحن نعرف أن النتائج الايجابية لن تظهر الا فى المستقبل ·· حيث ستتيح المشروعات التى سيقيمها القطاع الخاص ·· والشركات المشتركة ·· والاستثمارات الأجنبية التخلص من مشاكل الفقر المدقع ··

كما أن ازدياد صادراتنا للغرب سينشط الانتاج نوعا وكما ··

ولن تمضى عشر سنوات الا ونصل الى مستوى التقدم الاقتصادى فى بلاد أوربية غربية مثل فنلندة ·· بحيث يمكن تقديم أية اعانات مناسبة للعاطلين الذين سيكونون عددا قليلا بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم وبالنسبة لما سيحدث غدا ··

وقد زادت صادراتنا الى الغرب ٣٠٪ فى عام واحد ·· وهذا يعنى اننا نقترب من تحقيق الأمل الأكبر وهو أن نرتبط بالسوق الرأسمالى الغربى ·

ولقد سألت نائب وزير الاقتصاد عن مدى اقبال القطاع الخاص على عملية الخصخصة فقال لى أنه يمكن الاجابة على هذا السؤال بنعم ولا فى نفس الوقت ··

● كيف ؟

ان القطاع الخاص يريد أن يشترى ويبيع ·· ولكنه لا يملك نقودا كافية لأن قليلين جدا هم الذين كونوا ثروات فى النظام القديم ·

ولكن البعض من أبناء المجر يذهب الى النمسا والمانيا ويأتى بمستثمرين من هناك يتقاسم معهم شراء بعض المؤسسات ·· أو يتعاون معهم بنشاطه وعمله ·· حتى يعوض رأس المال الذى لا يملكه ·

أضف الى ذلك أن هناك من أبناء المجر اللذين كونوا ثروات فى الخارج ·· بدءوا يعودون ليستثمروا أموالهم فى بلدهم أو على الأقل اكتشاف مجالات ذلك الاستثمار ·

● ألا يخافون من عودة النظام الاشتراكى ؟

ـــ لا يوجد أى خوف لدى أى أحد فى العالم من هذه العودة ·· ان النظام السابق ذهب بلا عودة ·· ولن يعود لأن الجماهير جربته عمليا لأكثر من اربعين عاما ثم لفظته لفظ النواة ··

وسكت نائب وزير الاقتصاد ثم قال ··

ـــ ان الخلافات داخل المجر الآن أصبحت كالخلافات التى تدور فى عائلة واحدة بين أفرادها الكل يحرص على العائلة ولا يريد لها أن تتفكك ·· ولا أحد يريد عودة النظام القديم اطلاقا ··

وأضاف :

والحكومة تصدر كل يوم قوانين وقرارات ولوائح جديدة تسهل الاستثمار للأجنبى وتسهل لهم الحصول على الأرض لاقامة مشاريعهم ··

على أن الزائر للبلاد الاشتراكية سابقا يلمس أن البلاد تفتقر الى من يستطيع ادارة المرافق والمؤسسات بطريقة رأسمالية ·

★ ★ ★

وعندما طرحت مشكلة نقص الكادر البرجوازى فى المجر على نائب وزير الاقتصاد قال ··

ـــ هذه قضية تواجهنا فعلا ·· ان مائة فى المائة من أعضاء مجلس الوزراء مع الاختيار الراسمالى ·

لكن الوظيفة ·· أى الجهاز الادارى كله قد علموهم أن الرأسمالية وحش كاسر بغيض ·· وربوهم على التعاليم والأساليب الاشتراكية ·· ولذا فانه من الصعوبة بمكان ان يتعاملوا مع الأمور بعقلية وكفاءة تجارية راسمالية ·

وفى الانتخابات الأخيرة لمجالس البلديات انتخب الناس خمسين فى المئة من أعضائها من عناصر النظام القديم ولذلك فالمتوقع مزيدا من الصعوبات فى طريق التحول الرأسمالى .. خصوصا أن النظام الديمقراطى عندنا يسمح لهم بحرية الحركة والنشاط .

● وماذا تفعلون لمواجهة هذا الحال ؟

— نحن نحاول تدريبهم وتعليمهم قوانين السوق وأساليب الادارة فى الغرب .. وفى الأسابيع القادمة مثلا سيسافر ثلاثة آلاف مجرى الى فرنسا ليتعلموا تلك الأساليب لينقلوها الى العاملين فى النظام الجديد .

★ ★ ★

اذن هناك استقرار على عودة النظام الرأسمالى أو استعادته باعتبار انه المنقذ .. ولكن أى رأسمالية .

يقول جورجى سزابو رئيس البرلمان المجرى .. وهو الشخصية الأولى فى البلاد من الناحية الفعلية ، رغم وجود رئيس للجمهورية اذ أن النظام السياسى فى المجر يقضى بانتخاب المجلس لرئيس الجمهورية واختيار أعضاء المحكمة الدستورية العليا علاوة على اختيار رئيس الوزراء وسحب الثقة بالوزارة أى أن مجلس البرلمان هو منبع كل السلطات ومصدر تعيين كبار المسئولين فى البلاد .

يصف رئيس البرلمان هذا النوع من الرأسمالية الذى تريده المجر بأنه « رأسمالية متنازلة » أى مستعدة للتنازل لصالح الفقراء .. (اختفى من قاموس الأدب السياسى لكل المسئولين فى الدولة الجديدة أى كلمات مثل البروليتاريا والكادحين والجماهير الشعبية الكادحة .. الخ) انما الحديث يتناول الرأسماليين والأغنياء .. والعاملين والفقراء والطبقة الوسطى .

● ولكن يبدو لى من الآن أن النظام الجديد لا يقدم تنازلات بل يسحب مكاسب من الناس حققها لهم النظام السابق ؟

قال رئيس البرلمان الذى ينحدر من أصل رومانى حيث هاجرت عائلته من رومانيا الى المجر عام ١٩٣٢ :

نحن نعرف أنه ستحدث بطالة نتيجة اغلاق بعض المؤسسات الفاشلة ونتيجة استغناء كثير ممن تحولت اليهم ملكية بعض المؤسسات عن العمالة الزائدة .

وهذا ليس سحبا لمكاسب ·· وانما هو نتيجة طبيعية ومؤقتة للاتجاه نحو نظام السوق الحر ·

وهذا النظام سيزيد الانتاج وسينشىء عشرات بل مئات المشاريع الجديدة التى ستمتص البطالة ·· ولكن هذا يأخذ وقتا كما تعلم فلا تقام المشروعات الصناعية أو الزراعية فى شهر أو شهرين ·· ان الأمر سيستغرق سنوات ·

قلت ··

● ولكنكم أنهيتم مجانية التعليم فى الجامعات والمعاهد ·· وهذا سيحرم الفقراء من االتوظف وشغل المراكز القيادية فى المجتمع ·· وهذا سحب لمكسب ولا شك ·· خصوصا أنه من العام القادم سيقيم بعض الأفراد والهيئات الخاصة جامعة أهلية بمصاريف باهظة ؟

قال :

ـــ نعم حاليا سيمتنع على الفقراء اللحاق بالتعليم الجامعى ·· ويروج الشعب غيوب حرمانهم من التوظف العالى ·· ولكن هذا مؤقت اذ ستخلق السياسة الجديدة وظائف وستزيد الأجور بحيث يمكن للفقراء أن يتعلموا ·

● والصحة ·· أصبح العلاج مكلفا ؟

ـــ الأدوية ارتفعت أسعارها مثل أى سلعة فى البلاد ·· ثلاث وأربع مرات ·· لكن كل من يتمتع بالتأمين الصحى يعالج مجانا ·

● والبطالة ؟

ـــ انها حاليا ٥ر٣٪ وبالمقارنة فى الأوضاع فى أوربا الغربية فانها نسبة أقل ·· ولكنها على أى حال تمثل مشكلة اجتماعية صعبة ·· ومحتمل تزايدها ··

● كيف ستحلونها ؟ ·

ـــ اعادة تدريب العاملين ·· ثم اعطاؤهم اعانة بطالة ·

● وكيف ستعالجون مشكلة الديون ؟

ـــ لقد ورثنا هذه التركة الثقيلة ·· ومع ذلك نحن نسدد بانتظام أقساطنا وأجرينا اتفاقا مع صندوق النقد الدولى وعندنا هذا العام ٢٣٠ مليون دولار زيادة فى الميزان التجارى بعد أن كان لغير صالحنا دائما ·

اننا دخلنا المجتمع الأوربى الغربى فعلا ·

توجهت الى رئيس البرلمان بالسؤال ٠

ما هو الهدف من كل هذا الانقلاب والتغيير فى البلاد ؟

أجـاب :

أولا تحقيق سياسة الاقتصاد الحر ٠٠

ثانيا ربط المجر بالعـالم الحر ٠

ثالثا اقامة الديمقراطية

رابعا الاستقلال الكامل ٠

● كيف ترون سياسة الاقتصاد الحر ؟

ـــ باختصار بدلا من الاشتراكية والملكية الجماعية سنقيم نظاما يقوم على الملكية الخاصة فى معظم مجالات وسائل الانتاج ٠٠

ولن يتحقق هذا الا بالخصخصة لتلك الوسائل ٠٠ وتهيئة التنظيمات المختلفة فى البلاد لهذا لكى تساهم بعد ذلك فى تنفيذ هذه المهمة ٠

● هل هناك مقاومة من بعض الهيئات لهذه السياسة ٠٠

ـــ كنا نخشى أن يعارض الشيوعيون بشدة سياستنا ٠٠ ولكنهم فى الحقيقة لا يعارضون الا مسائل تفصيلية ٠٠ فالاتجاه الى الرأسمالية اصبح عاما وشاملا ٠٠ على مستوى الأحزاب ومستوى الشعب ٠٠

● الا توجد بيروقراطية قوية تعارض باعتبـار أنها ستفقد مكانها فى مؤسسات الدولة ٠

ـــ توجد مثل تلك البيروقراطية ولكنها تكتسح بواسطة الاتجاه العام القوى من جانب كل العاملين تقريبا بما فيهم العمال للخصخصة ٠

ونظر الى رئيس البرلمان متسائلا :

الا تشعر بالحماس عند الناس للرأسمالية ؟ !

استطرد المستر جيورجى سيزابو يقول :

النقطة الثانية فى سياسة السوق هى تأكيد حـرية الرأسمـالية والاستثمار ٠

والاستثمار عندنا ليس وقفا على رأس المال المحلى بل الأبواب مفتوحة على مصراعيها لرأس المال الأجنبى ٠٠ فله فائدة غير النهضة الاقتصادية وهى المساعدة على ربط المجر بالغرب ٠٠ فهو رأسمال غربى فى الأغلب ٠

● أى تسهيلات تقدمونها لرأس المال الغربى ؟

تتوقف التسهيلات على الماجال الذى ستستثمر فيه الأموال ، ومنها مثلا :

ـــ مسموح للأجانب بشراء الأرض لاقامة المشروعات ٠

ـــ مسموح باقامة مشروعات أجنبية مائة فى المائة ٠

ـــ وللأجنبى أن يسحب اقامة مشروعه فى أى وقت يشاء دون فيـــه أو شرط ٠

ـــ كما أن له أن يحول كل أرباحه بالعملة الصعبة ٠

ـ طبعا لا تحديد للأجور أو لنظام التعويض والمعاشات فلكل شركة أن تحدد ما تراه فى هذا الشأن ٠

● ومكان النقابات العمالية ؟

ـــ من يجرؤ هنا فى المجر على التعرض للحركة النقابية ٠٠ اننا لو تعرضنا للنقابات نكون قد خرقنا قواعد الديمقراطية البديهية ٠

● وهل للنقابات حق الاضراب ٠

ـــ طبعا ٠٠ هذه هى الديقراطية ٠٠ ولا يمكن التفكير فى منع هذا الحق ٠

● ألم تتدخلوا لتطهير الحركة النقابية من الشيوعيين مثلا ؟
نظر لى فى دهشة ٠٠ وقال ٠٠

ـــ ان الحركة العمالية تلفظ من نفسها من يختلف مع سياستهـا ويتعارض مع مطالبها ٠٠ ولا تستطيع الدولة التدخل ٠٠ ان ذلك مجال لمناورات وجهود ونشاطات الأحزاب المختلفة وعندنا أكثر من ٥٠ جمعية وحزب سياسى ٠٠ ولا نحب استخدام كلمة تطهير هذه ٠٠ فهى ضـد الديمقراطية ٠٠ ويكون لها مسمع وصدى عنصرى تقريبا !!

● قل لى بسرعة ماذا حققتم بفضل هذه السياسـة بعيـدا عن الأرقام ؟

ـــ خلال عام واحد كنا نعتمد على الشرق فأصبحنا فى اتجـاه الغرب ٠

ـــ تحسنت الصناعة المجرية نوعيا الى حد ما ٠٠

ـــ كانت هناك صـــناعات ثقيلة مخصصـة للتصـديز للاتحـاد السوفيتى وكانت تعانى من نقص فى الآلات وتخلف فيها · توقف هـذا وتجرى عملية تجديد وتغيير للانتـاج فى تلك المؤسسات ·

★ ★ ★

ـــ امتلأت السوق بالسلع الاستهلاكية الغربية ··

وكان من الطبيعى أن يدور الحديث مع رئيس البرلمان عن النظام السياسى الجـديد فقـال لى ··

● ان الأغلبية الساحقة من الشعب صوتت فى جانب الأحـزاب المعارضة للاشتراكية وللحكم القديم ·

● ان الشيوعيين مهما أكدوا أنهم مع التغيير فان أحدا لا يثق بهم فهم المسئولين عمـا جرى طوال أربعين عامـا فلمـاذا لم يقوموا بالاصلاحات الحاسمة أى التخلص من النظام تماما ·· لو كانوا دعاة تغيير حقا لقاموا بما نقوم به الآن منذ سنوات ··

قلت ··

ولكن لعلهم كانوا يخشون من التدخل السوفيتى ؟

قال ··

انهم لم يخشوا ذلك التدخل عام ١٩٥٦ بل طالبوا به ·· وهذا أمر لا ينسى ·· فكل التغييرات التى قاموا بها كانت فى اطـــار استبقاء النظام القديم القائم على ثلاث قواعد : الاشتراكية ·· التبعية بشـكل أو آخر للاتحاد السوفيتى ·· الديكتاتورية ·

● اذن ماذا تفعل الأحزاب المعارضة لكم ؟

ـ بعضها مثلا يريد التعجيل بالخصخصة اليوم قبل الغد ·· جذب صغار الملاك يزيد اعادة الأرض لأصحابها من الآن ·· هناك خلاف حول التعويضات ومقدارها ·· وآخرون يطالبون بدخول حلف الأطلنطى ··

والصحف تعبر عن هـــذا كله فى حماس وصراحة تثير التـوتر والسخرية من الحكومة بل ومن النظام ·

● وماذا تفعلون ؟

ـ حرية الصحافة مظهر من مظـاهر الديمقراطيـة ولا نسـتطيع كبتها ·· ولكننا نحاول سن قانون الصحافة ـ يمنع الكذب ·· ان هنـاك

صحفنا تكذب كثيرا وفى عناوين مثيرة ٠٠ والمفروض أن يتأكد الصحفى صدق ما ينشره من اخبـار ٠

● ماهى مهمة البرلمان اذاء الحكومة ؟

هو طبعا بحكم اختياره لرئيس الحكومة واعتماده لها ٠٠ يستطيع أن يسحب الثقة منها ٠٠ أو من أى وزير على حدة ٠٠

ثم أن البرلمان يختص بتأكيد الحقوق السياسية لكل مواطن ٠٠ وقد صدر قانون أخيرا يمنع التعذيب ويحاكم مرتكبيه ٠٠ وتحريم سجن أى مواطن لأية أفكار سياسية يعلن عنها ٠٠

لا يوجد عندنا مسجون سياسى على الاطلاق ٠٠

وكان من أول أعمال المجلس الافراج عن كل المسجونين السياسيين فى العهد السابق ٠ وأصدر المجلس قرار بالغـاء عقوبة الاعـدام من العام الماضى ٠٠ وألغينا كل الاستثناءات فى هذا المجال ٠٠ كما كان يحدث فى الماضى بمعنى أن يقال يستثنى من الغاء عقوبة الاعدام أولئك اللذين يرتكبون جرائم قلب نظام الحكم بالقوة أو التآمر على الدولة ٠٠ الخ ٠

وأصدر البرلمان قانونا بتشكيل المحكمة الدستورية العليـا ٠٠ وهو الذى يختار أعضاءها كما يختار النائب العـام ٠

وأصدر البرلمان قانونا باشاعة وتثبيت الديمقراطية فى كل مدينـة وقرية فى المجر ٠٠

وابتسم رئيس البرلمان قائلا فى سعادة شديدة :

يمكن القول الآن أن المجر قد أصبحت دولة دستورية أوربية غربية ! وبذلك تأكد الاستقرار فى بلادنا ٠٠

والتقطت الخيط ٠٠ وسألته ٠٠

● اذا كان الاستقرار قد تأكد فى بلادكم ٠٠ فهل تعتقد أن النظام العالمى الجديد سيحقق الاستقرار للعالم ؟

اجاب ٠٠

— فى رأيى أن النظام العالمى الجديد يجب أن يقوم على قاعدتين : الأولى هو الغاء النظم الديكتاتورية ٠٠ ومن ناحية أخرى فان الدول النامية يجب أن تكون مشاركة فى صنع القـرار فيـه ويكون لها حقوق متساوية فى الأوضاع الاقتصادية التى تسود العـالم ٠

٠اذا ما تحققت هاتان المسألتان أمكن للنظام العالمى أن يمضى فى طريق التطور والتحسن ٠٠ وتأكيد الاستقرار العالمى ٠

وعاد المستر جرجى سزابو يؤكد أنه من الضرورى لمصلحة العـالم كله اختفاء كل النظم الديكتاتورية فهى عار عليه ولا يجب قبولهـا ٠

وهذه ليست مشكلة الولايات المتحدة وحدها ٠٠ بل هى مشكلة العالم كله ٠

● وماذا عن موقف المجر من دول العالم الثالث ؟

نحن لدينا حساسية بالنسبة لمشاكل الدول التى تعانى اقتصـاديا وسياسيا فقد عشنا مراحل صعبة كلها معاناة ٠٠ وتأمل المجر تخليص هذه الدول من متاعتها ٠٠ ولذلك نحن مستعدون للمساهمة فى هـذا الأمر ٠٠

● ماذا عن علاقتكم بمصر ٠٠

بيننا وبين مصر تاريخ طيب طويل ٠٠ وليس بيننا أى تنـاقض ٠٠

● والقضية الفلسطينية ٠

نحن متضامنون مع الشعب الفلسطينى فى حقه تقرير المصير ٠٠ ونرى أن الطريق العملى لحل المشكلة ٠٠ هو طريق التفاوض ٠٠ للاتفاق على أسس السلام ٠

● وعلاقتـكم باسرائيل ٠

ـــ علاقات طيبة وجيدة وتتزايد ولسنا مسئولين عن قطع العلاقات الدبلوماسية معها فيما مضى !

★ ★ ★

ونمضى لنلتقى بمسئولين آخرين فى بودابست لنستكمل الصورة ٠

الخصخصة فى الريف ؟

بحثت عن اجابة عن سؤال ٠٠ ماذا حدث فى الريف ؟ كيف تتم الخصخصة ٠٠ هناك ؟ ٠ زرت مزرعة على بعد ثلاثين كيلو مترا من بودابست ٠٠ وجدت الصورة مختلفة حقا عما كانت عليه الأمور عام ١٩٦٨ عندما زرت المجر لأول مرة ٠

الرخاء أكثر وضوحا ٠٠ كان هناك عدد قليل جدا من السيارات فى كل عزبة ٠٠ هذه المرة سيارات كثيرة ٠٠ بعضها غربى ٠

المنازل تبدو أكثر نظافة من الخارج والزهور تطـــل عليك من نوافذها ٠٠ وعندما دخلت مكتب المزرعة التعاونية لم ألحظ عمليات الافراط فى التوقير والاحترام لرئيس الجمعيـــة التى كنت ألمســها فى زيارتى عام ١٩٦٨ ٠٠ كان رئيس الجمعية أشبه بوزير فى بلد عريق فى البيروقراطية ٠

واختفت المناظر الغليظة للمرأة العاملة فى الريف ٠٠ بل النساء أصبحن أكثر رشاقة ويرتدين البنطلونات الجينز والشورت للعمل ٠٠ وسكان العزبة ملابسهم أنظف وأكثر أناقة ٠

وأسجل هنا أننى لم أجد واحدا ممن قابلتهم فى العزبة يأسف على انتهاء النظام القديم ٠٠ لكنهم جميعا يقرون بفضله انه الســبب فى توزيع الأرض عليهـــم ٠٠ لكنه أفسد كل شىء « بعمليات القسر والارغـــام التى كان يقوم بها » ٠

كيف حدثت الخصصة هناك ٠٠

كان كل الفلاحين يعيشون وينتجون فى اطار الجمعية التعاونية ٠٠ لكن كل واحد كان يمتلك قطعة أرض (حوالى فدان) يستثمرها وحده

وله فيها حظيرة ٠٠ اذا شاء علاوة على المسكن ٠٠ والباقى أرض تزرع بواسطة آلات تملكها المزرعة وتؤجرها مع تحديد مساحات معينة لزراعة كذا هنا ٠٠ وأخرى لزراعة نوع آخر هناك ٠٠

فى البداية جاء أبناء وأحفاد المالك القديم لمعظم أرض المزرعة ـ قبل الثورة وطالبوا بالأرض ٠٠ اى استردادها ٠

قالت الحكومة عندكم الجمعية اذا أرادت بيعها لكم ٠٠ نحن لن نعارض ٠٠ رفضت الجمعية البيع ٠

قالت الحكومة لأصحاب الأرض سنعطيكم تعويضا ٠

لكن أربعة فلاحين قالوا أنهم مستعدون للبيع ٠

قالت الجمعية ٠٠ أنتم أحرار ٠٠ وحددت لهم مساحة أرضهم ٠٠ فالأصل أنهم يملكونها ٠٠ ثم قالت لهم : نشترى منكم الأرض لحساب فلاحين أعربوا عن رغبتهم فى شرائها ٠٠ وعندما رأى الملاك القدامى أنهم سيحصلون على قطع أرض غير موحدة المساحة بل واحدة هنا وهناك رفضوا الشراء ٠

المهم اشترى فلاحون أرض الفلاحين الأربعة ٠

لكن الفلاحين جميعا ٠٠ طالبوا بزيادة مساحة الأرض التى يفلحونها مباشرة وحدهم ٠٠ فأمكن توزيع الأرض بحيث حصل كل فلاح على فدان أو فدانين على الأكثر ٠

ومن هنا زاد المحصول الزراعى ٠

ولما سألت هناك عما جرى للمزارع الجماعية ٠٠ قيل لى أنها تفككت فى معظمها ووزعت أرضها على الفلاحين اذا أرادوا شراءها بأسعار مناسبة وتحولت الى مزارع تعاونية بعد أن وسعت الملكية الخاصة أيضا ٠٠ وبعض المزارع التى رفض أغلب الفلاحين شراءها وطالب أصحابها القدامى باستردادها ردت اليهم ٠٠ وعوض اللذين لم ترد لهم الأرض ٠

وأعود الى نائب وزير الاقتصاد بما رأيته فى زيارتى فيقول لى ان ٤٪ من مجموع مساحة الأرض قد تحقق شراؤها بواسطة أصحابها الأساسيين ، فليس هناك اتجاه بين الفلاحين هنا لفك الجمعيات التعاونية ٠٠ فهى متقدمة جدا فى المجر ولا تقل بعد التنظيمات الجديدة حرية عن الجمعيات التعاونية فى الدنمرك ٠

وخطتنا أن تصبح المجر دولة مصدرة للخضروات والانتاج الزراعى خصوصا اننا نستهلك ٧٠٪ فقط من ذلك الانتاج حاليا والباقى يجب تصديره .

● ولكن ما هى فلسفتكم فى تعويض الملاك القدامى ؟

ـ بض الملاك اضطروا الى الهرب تحت وطأة الاحتلال النازى .. وآخرون هربوا من الشيوعية المثلة فى الجيش الأحمـــر .. نقلت الحكومة ملكياتهم اليها .. دون أى تعويض .. ودون أن يرتكب هؤلاء المجريون حتى « جريمة » مقاومة السلطات وعندما يطالبون بحقهم الآن .. هم يتقدمون بمطلب عادل .

ثم هناك اللذين صودرت ممتلكاتهم وهم موجودون فى البـلاد .. فاذا أنت أردت اقامة نظام جديد يقوم على أسس رأسمالية يجب أن يستفيد من هذا الاتجاه كل الناس وفقا للقاعدة المعروفة أن القاعدة الأفضل تطبق على من أضير بسبب القاعدة القديمة !

واعلان استعدادنا للتعويض يخلق حالة من الثقة لدى المستثمرين المحليين والأجانب لأنهم يتأكدون اننا رأسماليون فعلا ! .

والتعويض يتقرر فى حالة صعوبة اعادة المؤسسات لأصحابها .. لأن بعض المصانع القديمة قد توسعت وتضاعف حجمها عدة مرات فكيف نعيدها ؟

● ولكنكم تخلقون طبقة جديدة يمكنها الضغط على الحكومة ؟

ـ ومن قال لك أننا لا نريد خلق طبقة جديدة .. اننا نعيد الرأسمالية الى الحياة .. ونعيد ملاك الأرض .. من الممكن بيع الأرض ويصبح لدينا بعد سنوات ملاك كبار أو شركات تملك أراضى زراعية كبيرة .. وهذا يطالب به حزب صغار الملاك فعـلا .. الذى لن يعود يمثل صـغار الملاك .

بل لقد ظهرت عندنا فئة الوسطاء والسماسرة لتسهيل عمليـة الخصخصة . واغراء الممولين بشراء المؤسسات المختلفة بأسعـــار أرخص .

كما أفرز هذا الوضع مسئولين يتآمرون مع الممولين للانحـدار بمستوى المؤسسة حتى يمكن أن تباع بأسعار أرخص .

اننا جادون فى خلق الطبقات المالكة لوسائل الانتاج بحيث تكون

الحكومة منظما للعملية الانتاجية مع المحافظة على قواعد للعـــدل الاجتماعى ٠

أنت تعرف أنه فى الغرب يوجد ما يسمى بحد الأمـان : الخبـــز واللبن ٠٠ وفى أمريكا الخبز والزبد ٠

وتوقف « جيورجى لابت » نائب وزير الاقتصاد ٠٠ ليقــول لى ٠٠ لابد من أن نحقق تخفيضا لدور الحكومة خلال سنوات قليلة الى ٥٠٪ من دورها الحالى فى الاقتصاد القومى !

وحاليا نحن فى سنة واحدة حققنا خفضا لدورها ١٠٪ ٠

● ما هو الدور الأجنبى الآن فى الخصخصة ؟

– هناك حوالى أربعين شركة كبيرة اشتريت بواسطة شركـات أجنبية ٠٠ شركات من أمريكا مثل جنرال موتورز وجنرال اليكتريك ٠٠ ودخل سيتى بانك مشتريا ٠

ثم بعد ذلك الرأسمالية الفرنسية ٠

ومن اليابان جاءتنا شركة سوزوكى ٠٠ والكوريون الجنوبيـون فى الطريق ٠٠ وفى فترة قليلة كهذه أمكن اقامة سبعة آلاف مشروع مشترك بين المجريين والأجانب ٠

وربع هذه الشركات المشتركة يساهم فيها الألمان ٠٠ والألمان لهم « مزاج » بالمساهمة فى الصناعات الوسيطة والصغيرة بالذات ٠

واستطرد يقول :

اننا نقفز المراحل فعلا ٠٠ فلم تعد لجنة « الخصخصة » التى شكلت وحدها هى التى تحتكر عمليـــة التحـــول من الاشتراكيـــة للرأسمالية ٠٠ أى بيع المؤسسات بل أصبح من حق الأفراد أن يقوموا بذلك عن طريق البنوك و المستثمرين الأجانب ٠

كما وسعنا تلك الخصوصية فى السياحة ٠٠ فنحن بلد يزورها فى العام الواحد ٣٥ مليون أجنبى منهم عشرين مليون سائح ٠

كما نشجع شركات الغـرب أن تسـاعدنا فى تحسين الطـرق ٠٠ والتليفونات فكل ما يلزم لتسهيل الاستثمار وربط المجر بالغرب علاوة على تطوير علاقاتنا التجارية الدولية لتحقيق هذا الهدف ٠

وسنقيم منطقة حرة تجارية مع تشيكوسلوفاكيا وبولنده ٠

● وما علاقتكم التجارية حاليا بالاتحاد السوفيتى ؟

ـ نحن لا نرفض التعاون الاقتصادى مع الجمهوريات السوفيتية السابقة التى حصلت على حريات واستقلالية أكثر ·· وكل البلاد التى كانت اشتراكية اننا وان كنا نسرع فى خطانا للارتباط بأوربا الغربية واستعادة أنفسنا كجزء من كيانها ·· فاننا مستعدون بل مصممون على أن تكون المجر جسرا للشمال والجنوب والشرق والغرب ·

والاستقرار فى بلادنا الذى يقوم على أساس واحد فقط وهو الديمقراطية يضمن ذلك ويجذب المستثمرين ·

وقد نجحنا فى ذلك فان حوالى من ٥٠ الى ٦٠٪ من جملة رءوس الأموال الغربية المستثمرة فى أوربا الشرقية يستثمر فى المجر ·

● وماذا عن علاقتكم الاستثمارية مع مصر ؟

ـ نحن نرحب بالشركات المصرية لاقامة مشاريع مشتركة ·· وعندنا حاليا أربع شركات مصرية مجرية مشتركة فى مجال الخدمات وهناك واحدة تنتج الأطعمة المحفوظة ·

انتقلت بعد ذلك الى طرح السؤال الذى بحثت فى كل مكان عن اجابة له ·

● ما هو بالضبط الخطأ أو الأخطاء التى ارتكبها الشيوعيون فى المجال الاقتصادى حتى تدهورت الأمور الى ما تدهورت اليه ؟

ـ أنتم لا تستطيعون تصور معنى حكم الحزب الواحد ·· ان ذلك حول الحزب الشيوعى الى حزب جامد عقائديا ·· وبيروقراطى ·· بل ومستغل وتمتع بامتيازات على حساب الناس ·· ان الحزب وقد فرض نظام الحزب الواحد يأمن خطر وشر المعارضة فيتخبط ويخطىء فى سياسته ·

ثم ان وجود السوفيت جعلهم يفرضون أوضاعا لا تقبلها المجر ·· لقد فرضوا حتى نفس الزى الذى كان يرتديه جنود الجيش والبوليس السوفيتى على جيشنا وبوليسنا ·

وانظر ماذا يكون شعوركم اذا وجدت شوارع القاهرة مليئة بتماثيل أشخاص أو شخص واحد ليس مصريا ولا تعرف عنه شيئا طيبا سوى أنه يفرض عليك حكما بالحديد والنار وتملأ جنوده شوارع البلد ·

وهذا يفسر لك حماس الناس للتخلص من تماثيل ستالين ولينين وتغيير أسماء الشيوعيين فى الشوارع لأنهم ساهموا فى هذا الفرض والقهر لبلادنا ٠

هبط الانتاج فى البلاد ٥١٪ عن المعدل المطلوب فى كل مشاريع السنوات الخمس ٠٠ وأصبح مستوى العامل المجرى ثلث مستوى العامل الألمـــانى ٠

وعندما حدثت عمليات القمع فى عام ١٩٥٦ ترك مائتا الف مجرى البلاد من خيرة المهنيين والعمال المهرة والمثقفين ٠٠ فخـلق عشـكلة فى الكوادر الفنية ٠

عجز النظام السابق عن اجراء اصلاح جذرى وان كان قد صنع ، خميرة ، لاقتصاد التنوق بمحاولة ربطنا بالسوق العالمى من خـلال عدم مركزية الاتفاقات التجارية بين الشركات المنتجة والمشترين ٠٠ علاوة على التساهل فى مجال الزراعة نسبيا ٠

كما أن النظام البنكى عندنا كان اكثر تطورا من أى بلد اشتراكى وافادتنا الدخول من السياحة (حوالى ٧ ــ ٨ بليون دولار فى العام) ٠

وأترك نائب وزير الاقتصاد ٠ لألتقى بالمستر جابور كيلمان رئيس تحرير جريدة « هارلاب المجر » وهى واحدة من الصحف الكبيرة فى المجر التى ظهرت بعد انهيار النظام الاشتراكى ٠

● ماذا ترى فى هذا الذى يحدث فى بلادكم ؟

اجـــاب ٠٠

ــ لا احد ينكر أن الاشتراكية ذات أهداف نبيـلة ٠٠ لكن التطبيق فى بلادنا كان خطأ بل سلسلة من الأخطاء ٠

● ما هو الخطأ الرئيسى فى تقديرك ؟

ــ أن كل شىء كان مفروضا ٠٠ لم يكن اختياريا ٠

واستطرد قائلا ٠٠ هل قرأت شـيئا عن الكيبوتز ٠٠ ضرورى قرأت فاسرائيل جارتكم مشهورة به ٠٠

ان أبرز قاعدة للكيبوتز هـو حـرية الاختيار ٠٠ ولذلك نجح ٠٠ زاد الانتاج وارتفع مستوى معيشة أصحابه ٠

أما عندنا فقد اجبرونا على المزارع الجماعية ٠٠ والحكومية ٠٠ واجبرونا على تعلم اللغة الروسية وأجبرونا على التعامل مع دول

معينة ·· وأجبرونا على قراءة صحف محددة ·· وحرمونا من قراءة أخرى ·

● هل عندكم حرية صحافة حقا ؟

ـ حرية زيادة عن المعقول حقا ·· فكل من يريد اصدار صحيفة يحصل على الاذن فى ظرف يومين فقط ·· ويمكن أن يعد بطبعها بعد أسبوع ·

ولم ترفض الحكومة قط حق أى واحد أو هيئة فى اصدار صحيفة· وعندنا عشر صحف يومية تتنافس ·

وأكبر توزيع لصحيفة ٣٢٠ ألف نسخة يومياً ·

وصحيفة الحزب الحاكم السابق اصبحت مجلة أسبوعية صغيرة منزوية ·· كما أصبح المبنى الهائل على ضفاف الدانوب الذى كان مقرا له مقرا للائتلاف الحاكم ·

● ما عيب الصحافة عندكم اذ أسمع أن الحكومة غاضبة منها ؟

ـ الصحف هنا تتبارى فى نشر الفضائح الشخصية وتخوض فى حياة السياسيين الشخصية وتنشر الاشاعات والأكاذيب ·· هناك صحف وصحفيون غير مسئولين فعلا ·· وبعضهم يهاجم الحكومة وقراراتها « عمال على بطال » ·

فالحكومة تريد معالجة هذا بعمل قيود على الصحف فى نشر الاخبار الشخصية وكذلك عدم نشر الاشاعات ·

● ما موقف الصحفيين من ذلك ؟

ـ هناك اجماع بين الصحفيين حتى صحف الحكومة ضد هذا القانون الذى تريد الحكومة اقراره ·· لا احد يريد تقييد حرية الصحافة بأى طريقة ·· ومثلهم الأعلى الصحافة الأمريكية ·· ويقولون ان كثرة الصحف هناك وأكاذيب البعض وصدور صحف جنسية تروج حتى الشذوذ الجنسى ·· لم يمنع من التقاف اغلبية القراء الأمريكيين حول ثلاث او اربع جرائد مثل النيويورك تايمس والواشنطن بوست ولوس انجلس تايمز وشيكاغو تريبيون ··· الخ ·· وهى صحف جادة ووقورة !

سكت لحظة وقال :

ـ الناس هنا عندها أرتيكاريا تجاه أى قيد ·

● هل توجد سيطرة صهيونية على الصحف هنا ؟ أو الاعلام عموما ؟

ـ ليس سهلا وجود مثل تلك السيطرة ٠٠ وحدثت محاولات لاثارة حملة معادية للسامية ليستثمرها اليهود ولكن الحكومة والرأى العام استنكرها ٠

● هل توجد سيطرة لأمريكا ؟

ـ لا يسمى الناس الأمريكان هنا بالاستعمار ٠٠ لأن أغلب الناس يحبونهم ٠٠ وأحلام معظم الشباب السفر الى أمريكا أو النمط الأمريكى فى الحياة ٠٠ والحكومة تعتمد كثيرا على أمريكا والغرب ٠

● وما رأيك فى هذه السياسة ؟

ـ هذا خطر ٠٠ على مستقبل البلاد ٠٠ بل انه نتيجة لذلك التسرب الأمريكى والمالأة لأمريكا أن تمكنت شركات أمريكية من شراء شركات مجرية بأسعار رخيصة جدا ٠٠ لأن هناك اناسا فى الحكم يؤيدون أمريكا ويحصلون على الرضى الأمريكى بأى طريقة !

● هل جريدتك معارضة لسياسة الحكومة ؟

ـ لا نحن معارضون للنظام القديم ٠٠ ومستقلون ٠٠ واشترانا أجانب ٠

● قل لى أسماء بعض الشركات التى بيعت ٠

شركة جانز لقاطرات السكة الحديد وعرباتها ٠٠ التى باعت لكم الديزل المجرى ٠٠ ومصنع ناوردس للمطاط ٠

● من اشترى هذه الجريدة ؟

ـ اشتراها مكسويل كما اشترى مردوخ واكسل شبرنجر صحفا أخرى ٠

● وهل يتدخل مكسويل فى توجيه الجريدة ؟

ـ الاتفاق معه على أن يتولى رئيس التحرير توجيه الجريدة ٠

● هل استغنى عن صحفيين فى الجريدة ؟

ـ لا ٠٠ بالعكس رفع المرتبات ١٠٠٪ ٠

● ما متوسط أجر الصحفى هنا ؟

ـ الحد الأدنى للأجر ٦٠٠٠ فورنت (٨٠ دولارا) ومتوسط أجر الصحفى الذى يبلغ عمره أربعين عاما ما بين ٥٠ و ٦٠ ألف فورنت ·· (حوالى ٨٠٠ دولار) · وايجار الشقة ٥ أو ٦ آلاف فورنت ·

● كيف ترى صورة المستقبل كصحفى ؟

ـ لا أرى المستقبل مطمئنا ·· أى لا أرى أننا وصلنا الى البديل الملائم والأفضل كثيرا عن النظام السىء القديم ·· عندنا أخطار النفوذ الأجنبى ·· عندنا العيوب التى بدأت بالتفجير ·· كل شىء أصبح تقييمه بالمال حتى العواطف فقد انتشرت تجارة الحشيش بشكل مخيف ·· والبطالة ·· وسلبيات أخرى ·· لا أدرى الى أين ستؤدى بنا ·· نحن لا نستطيع التنبؤ فعلا ·· بما ستكون عليه الحال بعد خمسة عشر أو عشرين عاما ·

ونظر الى متسائلا ·· هل أنت تعرف ؟!

وجهت السؤال الى عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المجرى (الحزب الاشتراكى الديمقراطى الآن) ولكن بطريقة أخرى ·

أنت ترى بلادك تتجه بسرعة الى الرأسمالية ·· فهل تجربة فشل الاشتراكية سواء فى المجر أو فى كل البلاد الاشتراكية تقريبا ·· تعنى أن النظام الرأسمالى نظام أبدى صالح لكل زمان ومكان ·

قال الرفيق « ناج زابدن » ·· عضو اللجنة المركزية ·

ـ ان قوانين التجارة ورأس المال والنفوذ موجودة فى كل نظام فى المجتمع ·· ولقد أخطأنا عندما تجاهلنا قوانين السوق ·· والاقتصاديون الرأسماليون ثبت أنهم أكثر قدرة على فهم المتغيرات وبالتالى نجحوا فى تجديد الرأسمالية وتغيير أثوابها حسب الظروف ·· فهم اللذين خلقوا الرأسمالية الشعبية التى كنا نسخر منها ·· وهى التى تطرح اليوم بديلا عن الملكية العامة لوسائل الانتاج بواسطة الدولة وتقدم على أنها ملكية عامة ويصدق الناس ذلك ليقبلون على شراء أسهم الشركات ·

ولقد حدثت تغيرات بناء على ذلك فى وسائل الرأسمالية ·· بحيث انها لم تعد فى بلاد مثل السويد وفرنسا والنمسا رأسمالية كلاسيكية ·

ولا تنس أن الاشتراكيين الديمقراطيين فى معظم بلاد العالم ينسبون أنفسهم الى كارل ماركس ·· ويقولون انهم أكثر من فهموا أفكاره ·

لم يعد العامل الشخصى الذي يبيع قوة عمله فقط ·· لكنه أصبح يتمتع ويفرض بقوة تنظيم النقابات ·· وبفضل نضـــال الأحـــزاب الشيوعية ·· مشاركة أكبر فى عائد انتاج المؤسسات فى شكل ضرائب وخدمات ·

ثم الرأسمالية تثير الحافز الفردى ·· وكنا ننكر ذلك ولا نفهمه ·· لا أستطيع أن أقول لك أن الرأسمالية أبدية ·· لكن المؤكد أنها باقية لفترة مجهولة ·· وتتغير ·· فالواقـع اثبت أنهـا أكثر مرونـــة من الإشتراكية ولنعد قراءة ما كتبه كينز ·· وغيره من منظرى الرأسمالية ·· لنفهم ونتعلم ·· ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بصورة المستقبل بعد ربع قرن من الزمان !!

مايجرى في عيون الآخرين ؟

كان طبيعيا كى نستكمل صورة ما يجرى أن تعرف رأى العرب فى بودابست وأغلبيتهم كانوا بالنسبة لى من المصريين ٠

السفير المصرى فى المجـر محمد الشريعى ٠٠ سـفير نشيط واسع الاتصال بدوائر الحكومة وكل دوائر الأحزاب القديم منها والجديد ٠٠ يقول فى بساطة شديدة ٠٠ وكالة البلح تطل على الزمالك ٠٠ بماذا يشعر سكانها ؟

ثم كانت هناك القبضة الحديدية التى أرهقت السكان ٠٠ وبدا لهم أن الحزب الحاكم لا يفكر قط فى التنازل عن السلطة ٠

كان الناس يفكرون ويتساءلون ٠٠ هل سنظل هكذا الى الأبد ؟ ٠٠ ولكنهم كانوا سرعان ما يتذكرون ما حدث عام ١٩٥٦ لبلـــدهم ٠٠ وما حدث لتشيكوسلوفاكيا فيتراجعون ٠٠ ولكن عندما بدأت حـركة « تضامن » فى بولندة فى النجاح منذ ١٩٨٢ ٠٠ بدءوا يدركون أن شيئا جديدا قد حدث ٠٠ وهو أن السوفيت لم يتدخلوا ٠٠ ولم يحاولوا قمع التمرد الذى كان واضحا انه خروج على الاشتراكية وخـروج على المعسكر الشيوعى كله ؟!

وبدأت الهمهمة بين الناس ٠٠ بل بين أعضاء الحزب أنفسهم ٠٠ ماذا يمكن أن يحدث لو تمردنا نحن أيضا ؟ ٠

هذه ناحية ٠٠ الناحية الأخرى أن المجريين لم يكونوا ممنوعين من السفر الى النمسا ٠٠ وهذا هو الذى جعلهم يرون العالم الرأسمالى بميزاته كارتفاع وسائل المعيشة ٠٠ وملكية السيارات والحرية السياسية

كل ذلك أمامهم حتى أصبح الأمر كما قلت لك كأن أهل وكالة البلح يطلون على سكان الزمالك ..

وفى رأى سفير مصر أن هناك عاملا آخر فى تفسير ما جـرى لا يلتفت اليه كثير من المراقبين السـياسيين وهو قوة النزعة القـومية لدى الشعب المجرى .. فقد عاشوا مئات السنين فى اطار الامبراطورية النمسوية المجرية (الهابسبورج) بعد سنوات قهر من الامبراطوريـة العثمانية .. ثم جاءت حكومة أوتوقراطية .. ثم النـازية .. ثم النظام الشيوعى بعد دخول السوفيت ١٩٤٥ .

من هنا فان المجريين يتشوقون الى القبض على زمام أمورهم بأيديهم بحيث يكونوا دولة مستقلة حقا .

وعندما يتحدث عن الخصخصة .. قال السفير أنهم هنا يطبقونها بطريقة غير ما نتحدث نحن فى مصر عنها .

● كيف ؟

ـ هم قسموا شركات القطاع العام لثلاث شرائح :

ـ قطاع مربح

ـ قطاع لا يربح ولا يخسر

ـ قطـاع يخسر

وبدءوا ببيع المؤسسات التى تحقق أرباحا أكثر .. لماذا ؟ .. لأنهم سيستطيعون بيعها بأسعار أعلى تملأ الخزانة بالمال وتثير دعاية طيبة لعملية البيع كلها اذ ها هى شركات تحقق أرباحا للبيع .. ثم انه من حصيلة المبيعات يعمل على تحسين حال الشركات الأخرى بحيث تستطيع بيعها هى الأخرى بأسعار مجزية .

ثم ان على الحكومة أن تفكر فى مواجهة مطـالب العمال الجديدة وهى المشاركة فى أرباح البيع لتلك المؤسسات .

وقد حصلت الحكومة المجرية على كميات كثيرة من العمـلة الصعبة بفضل بيع بعض تلك الشركات الكبيرة وذات الشهرة العالمية مثل شركة « جانز » للقاطرات ويرى سفير مصر أنه اذا كان قد جرى العرف على أن

توجه الحكومات مسار الاقتصاد وفقا لأهداف سياسية ٠٠ وكان هذا واضحا فى سياسة دول أوربا الشرقية ٠٠ فان الوضع الآن ٠٠ هو ما يمكن تسميته بتقصيد السياسة ٠٠ أى أن السياسة تقام على أسس مصالح اقتصادية بالدرجة الأولى ٠

فاذا كانت كوريا الجنوبية يفيد التعامل معها فى تنمية اقتصاد المجر فعلى المبادىء السياسية العفاء والتوافق مع جمهورية كوريا الديمقراطية ليذهب الى الجحيم ٠٠ وتقيم الدولة علاقات دبلوماسية مع كوريا الجنوبية ٠

بل حتى مع جنوب أفريقيا بدأت حكومة المجر فى اقامة مكتب تمثيل تجارى ٠٠ وكذلك بدأ حوار سياسى ٠

وتشهد الآن خطوات سريعة فى سبيل توثيق العلاقات المجرية الاسرائيلية ٠٠ وأسأل السفير ٠٠

● هل هناك نفوذ لليهود هنا فى المجر ؟

ـ اليهود هنا عددهم كبير ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف ٠ ولهم نفوذ فى وسائل الاعلام ٠٠ ويذكى وجودهم وانتشارهم التاريخ الطويل لاضطهادهم ليس أيام النازية فقط بل أيام الحكم الحليف للنازية ٠٠ ثم هم يثيرون حملات ارهابية من حين لآخر بدعوى معاداة السامية ٠٠ كما أن لهؤلاء اليهود نفوذ فى بعض أحزاب المعارضة ٠٠ وحتى فى الحزب الشيوعى الذى كان يحكم من قبل ٠

وأضاف السفير محمد الشريعى ٠٠

خذها قاعدة ٠٠ هؤلاء الناس فى أوربا الشرقية يريدون الالتحام بالغرب ٠٠ بالولايات المتحدة بالذات ٠٠ والطريق الى هذا يمر عبر القدس وتل أبيب ٠

والمجر لعبت دورا مهما فى تسهيل الهجرة لليهود من الاتحاد السوفيتى الى اسرائيل فقد مر هنا أكثر من ربع مليون منهم ٠

والاتجاه نحو اسرائيل بدأ منذ أيام الحزب الحاكم القديم وأقيم

مكتب علاقات ٠٠وتبودلت أخيرا زيارات بين البلـــدين على أعلى المستويات ٠

● ماذا عن الاستثمار العربى ٠٠ فى المجر ؟

يقول السفير المصري أنه مندهش لماذا تأخر رأس المال العربى عن الاستثمار في المجر حتي الآن ٠

اذ لا يوجد مشروع عربي واحد أقيم فى هذا البلد ٠

وكان قد قيل أن الكويت ستدخل بمشروعات عن البتروكيماويات ولكن ذلك لم يحدث ٠

وكان المجريون يتصورون من واقع مشاركتهم فى حرب الخليج أن العرب سينظرون اليهم باعتبارهم جزءا من الغرب ويستثمرون بعض المال عندهم ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ٠

● ماذا يكسب العرب من استثمار بعض الأموال فى المجر ؟

ـ يكسبون موقفا متوازنا من جانب هذه الحكومة مع اسرائيل ٠٠ هذا علاوة على الربح والكسب المؤكد حدوثه من الاستثمار هنا فى هذه الأرض البكر ٠٠ ولا تنسى أن المجـر ستلحق غـدا او بعـد غد بأوربا الغربية ٠٠ ومن مصلحتنا أن تكون صديقة لنا ومؤيدة للحق العربى ٠

ولدى المجريين قابلة للتعاطف مع قضايا الشعوب المضطهدة ٠٠ اذ أن ثلثى عدد سكانهم ٠٠ بل ثلثى مساحة أرضهم مشردون ومقتطعة ٠٠ فالمجر الحالية فى الحقيقة هى ثلث المجر عام ١٩٢٠ ٠

وتوزع الناس والأرض فى ترانسلفانيا ٠٠ وجزء فى كردانيا ٠٠ وجزء فى تشيكوسلوفاكيا ٠٠ وهم يهتمون بهذه الأقليـــات ويدركون المعاناة التى يواجهونها من القوميات التى تضطهدهم ٠

● ما هى النتائج السلبية التى أفرزها النظام الجديد ؟

ـ هناك اتجاهات قومية حاليا ضد الأجانب ٠٠ بل هناك اتجاهات مضادة للقضية العربية ٠٠ وظهرت اتجاهات معادية للسامية فعلا ٠٠ وكذلك اتجاهات فاشية ٠

في نفس الوقت بدأ الإنضباط يتفكك في البلاد حتى البوليس لم يعد محترما وذلك كرد فعل للكبت ·

وهناك البطالة وارتفاع الأسعار ·· ولكنهم سيتغلبون على ذلك بالتطور الاقتصادى ·

● ما الدرس الرئيسى من تجربة المجر الحالية؟

يقول السفير : الدرس الرئيسى ليس من تجربة المجر فقط بل من تجربة العالم الاشتراكى كله ·· هو أن الحافز الفردى هو محـــرك التاريخ ·· لا يمكن كبت رغبتك فى العمــل والكسب لنفســك ·· واذا حدث هذا فان المجتمع كله لن يتقدم ! وسيجد المجتمع نفسه رغما عنه يعيش فى اطار من الديكتاتورية ·· والنهب ·· واسأل عن كيف كان يعيش زعماء الحزب وقادته المحليين ·· رغد وبذخ يصل الى حـــد السفه ! ·

والتقيت بالدارسين المصريين ·· فى بودابست ·· ماذا يقولون وهم اللذين عاشوا السنوات فى المجر ·· العصر القـــديم والعصر الجديد ؟ ·

● الشباب هنا يتطلع الى الغرب ·· والكثيرون يريد الهجرة الي المانيا والنمسا ·· ولعلكم سمعتم عن مئات الألوف من أهل أوربا الشرقية اللذين ازدحموا فى شوارع ومحطات السكة الحديد فى بلاد أوربا الغربية حتى امتصتهم هذه الدول ·

● ظهرت النقود التى كانت مختفية وكانت قد جاءت نتيجـــة عمليات التجارة فى السوق السوداء والدعارة والنهب والسرقـــة من مؤسسات القطاع العام ·

وبدأوا يشترون ·· حتى العـــربات من الغـــرب واستفاد أولئك اللذين كانت لديهم عشرات الألوف من الفورنات بعد أن ثبتت الحكومة سعـــر العملة ·

● كبار السن فى المجتمـــع هـــم اللذين يتحسرون على النظام القديم لأنه كان يضمن لهم معاشا مناســبا وخدمات صحية سكنية ·· وقد قامت أخيرا مظاهرات لأصحاب المعاشات ·

● بدلا من حالة الكبت والخوف من الشرطة أصبحت هناك حالة من الفوضى النسبية ويبدو ذلك فى مخالفة قواعد المرور ·· وعدم احترام كبار السن والحوامل فى وسائل المواصلات ·

● الناس بدأت تفكر وتبحث عن ذاتها والمادة أصبحت العامل الأساسى وتتقطع عوامل الرحم والمودة شيئا فشيئا ·

● أصبح أصحاب البيوت ينفردون بالسكان ·· فلا يحررون عقودا واذا تأخر الساكن فى دفع الايجار شهرا طرده ·

● زاد عرض السلع من جميع الأنواع وفى كل وقت وفتحت محلات أجنبية فروعا له ·

● ظهرت فئة « المهلباتية » و « الهبيشة » أى أصحاب الدخول الطفيلية من كل نوع !

● زاد معدل الجريمة وخصوصا سرقة الشقق والسيارات ·

● انتشرت الدعارة وأصبح لها منظمات وجماعات ومؤسسات وملأت الصحف والمجلات الجنسية أكشاك الصحف وكنا لا نرى شيئا كهذا فى ظل النظام القديم ·

● بعض المعاهد الدراسية بيعت وتتحول الى مؤسسات ويطرد المدرسون منها ·

● هل يشعر الدارسون المصريون بتغير فى مشاعر المجريين تجاههم ؟

– يشعرون ·· ذلك لأن النظام الجديد ينظر الى جميع بلاد العالم الثالث على أساسين :

الأساس الأول أن هذه البلاد كانت صديقة للنظام القديم ويشعرون فى المجر أن هذه البلاد (أى دول العالم الثالث) كانت تفضل الا يحدث الانقلاب الاقتصادى والسياسى الذى حدث هناك !

من ناحية أخرى ينظر المجريون الى بلاد العالم الثالث على أن الصداقة معها مكلفة ·· فهى قد استنزفت من الخزانة المجرية الكثير

تحت شعارات المساعدات والمعـونات .. وتتنفس الـدوائر الحـاكمة الصعداء انها خلصت من هذا العبث الثقيل .

لذلك فان التدليل الذى كان يلقاه المبعوث المصرى أو العربى عموما من الأجهزة الحكومية قد أوشك على الاختفاء .

ولولا المصالح المتبادلة لمنعت المنح الدراسية أو لتقلصت .

ولكن الدكتور مروان شبانه المستشـار الثقـافى المصرى فى بودابست يقول أن الأجهزة الحكومية فى المجر متمسكة بحسن العلاقات مع مصر .. ليس فقط من ناحية الدارسين والمنح .. بل على النطاق الثقافى .

فالمجريون لا ينسون أن أحد قبائلهم عاشت فى النوبة فى أعالى صعيد مصر منذ آلاف السنين .

كما أنهم معجبون بالتاريخ المصرى القديم .

وفى المرحلة الحالية يتابعون التجربة المصرية للتخـلص من الشمولية .

والتبادل الثقافى بين البلدين قائم . فقد جاءت فرقة الموسـيقى العربية ثلاث مرات الى المجر ولقيت حفلاتها نجاحا باهرا . كما عزفت العازفة المصرية الشهيرة د. مشيرة عيسى عدة مرات فى بودابست مع اقبال شديد من جانب أهل المدينة .

وأسبوع الفيلم المصرى ينجح تماما فى أى مدينة مجرية يقام فيها .

على أن هناك مسئولية كبيرة تقع على عاتق فئات عربية تقيم فى المجر وبالذات فى بودابست .

ففى وقت من الأوقات كان يفد الى المجر بعض العرب قائلين بالصوت العالى أنهم مضطهدون سياسيون فى بلادهم لتعاطفهم مـع الاشتراكية أو التقدم عموما .. ويعيشون كلاجئين سياسيين ... أى تعولهم الحكومة وتنفق عليهم من ميزانيتها .

بعض هؤلاء العرب كانوا لا يكتفون بكرم الضيافة هذا .. بـل

يعمدون الى التجارة فى السوق السوداء سواء العملة أو بعض السلع ٠٠ وبعضهم كان يمارس تجارة الرقيق على مستوى « عال » بمعنى توريد النساء للأغنياء والأثرياء فى أنحاء مختلفة من العالم العربى وهناك قصص دامية حول هذا ٠٠ وكانت السلطات فى العهد القديم تتغاضى عن هذا كله لأسباب سياسية الا اذا كانت رائحة الفضيحة رهيبة ٠

الآن ٠٠ لم يعد هناك تعاطف مع هـــذه النوعية من اللاجئين السياسيين ٠٠ والغيت الاعانات أو خفضت بدرجة كبيرة ٠٠ فكانت النتيجة أن أغلب هؤلاء العرب غير السياسيين حقا ٠٠ خرجوا الى الأسواق وبدءوا يتاجرون فى العملة الصعبة علنـا ٠٠ ويتسكعــون متجمعين فى شوارع بودابست قائلين لكل عربى يمر : تصريف ٠٠ أى تصريف العملة ٠

ولا يبدو عند هؤلاء الناس أى اتجاه للعودة الى بلادهم ويشعرون أن فى المجر مكان افضل لهم منها لأسباب عديدة ٠٠ ومع ذلك هناك عرب منتجون وذوى سـمعة جيدة ٠٠ هناك مصريون يقومون بأعمـال الاستيراد والتصدير وبذلك يفيدون الاقتصاد المصرى ٠٠ ويوثقـــون العلاقات بين المجر ومصر ٠٠ ولهم مكانة رفيعة وسط دوائر المجتمع المجرى التى بدأت تغمرها عطور البرجوازيــة وتعيد تقاليد المـاضى فالمجر بلد تقليدى للبارونات ٠٠ وأمراء الهابسبورج ٠٠ واقام فيها عدد كبير من أمراء أسرة روماتوف الروسية بعد انتصار الثورة الشيوعية فى روسيا ٠

ان رياح الارستقراطية الجديدة فى المجر تحمل روائح الارستقراطية الامبراطورية القديمة ٠٠ وليس أرستقراطية اليانكى او المانيا الاتحادية ان تقاليد الاقطاع والبارونات تختلط بالثراء ٠٠ والبارونات العائدون من كبار الملاك هربوا من البلاد منذ أربعين عاما ٠٠ وبالتـالى لم يعيشوا لحظــة فى اطار تقاليد المجتمع الاشـتراكى ٠٠ وانمـا عاشوا فى بــلاد برجوازية محتفظين بتقاليدهم وتصـــوراتهم عن أنهم من ذوى الـــدم الأزرق ٠٠ وهم عندما يعودون اليوم يحاولون بعث ذلك وفرضه من جديد فى بلد علموا أهله نظريا أن الناس سواسية وأن سادة المجتمع الطبيعين هم العمال والفلاحون بينما الأغنياء عموما هم أعداء الشعب -

ويحدث التناقض ·· ويحدث الصراع فى كل نواحى الحياة ·· ولكنه على أى حال صراع سلمى جدا جدا ·· لأن الديمقراطية تظلل الجميع ·· وهى فوق الجميع ·· وهناك اقتناع كامل بضرورة بقائها دائما ·· حتى تنجلى الصورة ·· ولا أحد يدرى ·· ماذا اذا حدث فشل للنظام الجديد ·· هل يمكن أن تعود الديكتاتورية من جديد ·· أقصد ديكتاتورية من نوع فاشى اذ لا سبيل لعودة ديكتاتورية الاشتراكية من جديد على الاطلاق !

الثورة «المخملية» ؟

ربما كانت تشيكوسلوفاكيا هى البلد الوحيد فى شرق ووسط أوربا الذى تحول الى الاشتراكية بطريقة ديمقراطية وارادة شعبية ٠٠ ففى عام ١٩٤٨ حصل الشيوعيون بزعامة جوتوالد (وهـو فى الأصـل عامل نجارة) على ٤٨٪ من الأصوات فى انتخابات حرة ٠٠ مما جعـل توزيع مقاعد السلطة كالآتى : رئيس الجمهورية ديمقراطى برجوازى ٠٠ ورئيس الوزراء زعيم الحزب الشيوعى ٠

ولكن فى صيف ١٩٤٨ ٠٠ دعى جوتوالد الى اجتماع عام فى أكبر ميادين براغ ٠٠ وحث الطبقة العاملة على الحضور فى ذلـك الاجتماع ٠٠ فحضر العمال وهم يحملون الهراوات فى أيديهم والخوذات الحديدية فوق رءروسهم ٠٠ وأعلن جوتوالد أنه من العبث أن تظـل تشيكوسلوفاكيا دولة برجوازية ٠٠ وأنه قد آن الأوان لتتحول الى دولة اشتراكية وأعلن ذلك على الملأ ٠٠ وسط صياح حمـاسى جماهيرى قـوى ٠

ولم تحدث أى مقاومة فى أى مجال ضد هذا الاعلان ٠

وعلى النطاق العالمى اهتم الدارسون ببحث هذه الظاهرة الجديدة ٠٠ التى تحدث لأول مرة ٠٠ وهى ظاهرة تحول بلد ما من الرأسمالية الى الاشتراكية بطريقة سلمية ٠

وأذكر فى مصر هنا أن سلطات الأمن انزعجت جدا من هذا التحول لأن المتهمين فى قضايا الشـيوعية كان محـاموهم يؤكدون أن موكليهـم لا يسعون لقلب نظام الحكم بالقوة ٠٠ وأن الاشتراكية ممكن تحقيقها بوسـائل سـلمية ٠

فى نوفمبر ١٩٨٩ أى بعد ٤١ عاما من ذلك الحدث التاريخى الفريد حدث عكس ثورة عام ١٩٤٨ تماماً وان كان بنفس الأسلوب ٠٠ حدث اجتماع كبير ٠٠ ومظاهرة أكبر ٠٠ أدت الى سقوط النظام القديم واعلان عودة الرأسمالية من جديد ٠٠ كل هذا بطريق سلمى ٠٠ دفع أصحاب الانقلاب الى وصفه بالثورة المخملية ٠٠ أى الثورة الحريرية ٠

وما بين ١٩٤٨ و ١٩٨٩ حدثت أحداث وتطورات هائلة فى ذلك البلد الذى لا يزيد عدد سكانه عن ستة عشر مليون ويتكون من قوميتين مختلفتين تماما : التشيك والسلوفاك ٠٠ التشيك أكثر من عشرة ملايين ٠٠ والسلوفاك أكثر قليلا من خمسة ملايين ٠

والتناقض بينهما شديد ولم يستطع النظام الشيوعى أن يحل هذا التناقض ويخلق الوئام والانسجام بين أبناء وطن واحد ٠٠ بينما هو يبشر باحلال مثل ذلك الوئام بين شعوب العالم جميعا ٠

وتفجر التناقض بعد الانقلاب الذى حدث ٠٠ ولكنه لم ينفجر بطريقة « مخملية » مثل الثورة ٠٠ بل بطريقة حادة وعنيفة ٠٠ وفى سلوفاكيا حاليا مطالبة ملحة بالانفصال والاستقلال ٠٠ وقد اضطر النظام الجديد الى تسمية الدولة باسم جمهورية التشيك والسلوفاك ٠

وتشيكوسلوفاكيا كانت واحدة من أكثر دول أوربا تقدما قبل الحرب العالمية الثانية ومستوى المعيشة فيها كان أفضل من دول أوربية كثيرة من بينها النمسا لأن الصناعات فيها كانت متقدمة جدا ٠

ولكن الاشتراكية قد جرتها الى الوراء حيث تفوقت عليها النمسا ٠٠ وحتى اليونان ٠٠ اللتين سلكتا طريق التطور الرأسمالى ٠

والطريق من المجر الى تشيكوسلوفاكيا سهل جدا ـ فهناك سبعمائة كيلو متر تقريبا بين بودابست وبراغ ٠٠ يقطعها القطار فى حوالى سبع ساعات أو ثمانية ٠٠ والطائرة فى خمس وخمسين دقيقة ٠٠ كما أن هناك أتوبيسات سياحية منظمة والانتقال بين البلدين دون فيزا أو جواز سفر ٠

والناس تذهب من المجر الى الحدود مع تشيكوسلوفاكيا لتشترى السلع بأسعار أرخص مما هى فى المجر ٠٠ فما زال الدعم موجودا الى حد ما هناك ٠٠ كما أن فى تشيكوسلوفاكيا سلعا ذات شهرة عالمية لا تتوافر فى المجر الا بأسعار عالية مثل الكريستال والنجف والصينى ٠٠ وأنواع من الأقمشة ٠

مع أن الذى يتجول فى شوارع براغ يلاحظ أنها أقل بريقا ولمعانا من شوارع بودابست التى تحولت فاترينات المحلات فيها الى فترينات أوربية غربية تقريبا للبدء فى عملية التحول من زمان بعيد ٠

وسيلحظ المسافر أن نساء تشيكوسلوفاكيا رغم جمالهن الصارخ وخاصة ذوات الأصل السلوفاكى الا أن أناقتهن أقل ٠٠ لأن التحـول الغربى جديد ٠٠ وبالتالى فلم تعد المودة الحديثة ذات طابع انتشارى كبير !

وسيلمس الزائر وجود حركة عمران كثيرة فى شوارع براغ خاصة منطقة المشاة فيها ٠٠ حيث تفتح شركات غربية لبيع الأثاث ٠٠ محالا جديدة لها بديكورات غربية جذابة ٠٠ وهى فى الأصل كانت محـلات ملكا للدولة فى أغلبها ٠٠ وبيعت أخيرا واشترتهـا شركـات مثل كريستيان ديور وبيير كاردان وبنتون ٠٠ الخ ٠

والصحف الأجنبية التى كانت ممنوعة تماما أصبحت فى كـل مكان وتصل جرائد انجلترا وفرنسا فى نفس يوم صدورها ٠٠ وقيل لى ان تشيكيين كثيرين بدءوا فى تعلم اللغة الانجليزية وبالذات حتى يستطيعوا قراءة الصحف علاوة على أنها مفيدة فى العمل ٠

أما الافلام الأمريكية فهى فى كل مكان والترجمة اما على الشريط أو دوبلاج ٠٠ ويثير الدهشة أنك لن تجد حواجز عند النزول الى المترو كى تتوقف وتختم التذكرة ٠٠ بل يمكنك النزول الى منطقة الأرصفة دون أى عائق ٠٠ بل حتى فى الأوتوبيس والترام تركب دون كمسارى أو مراجعة من أحد ٠٠ وعندما سألت أين التذاكر قالوا لى تستطيع أن تقطع كمية منها فى أماكن كذا وكذا ٠٠ ومن يعرف وكيف يذهب الى تلك الأماكن حتى أننى سمعت تعليقا ساخرا من زميلى عبد الملك خليل مراسل الأهرام الشهير فى موسكو وهو يتجول معنا فى شوارع براغ وكأن الحكومة تقول لنا اركبوا المترو والاوتوبيس والترام ببلاش !!

ولكن طبعا هذا سيزول ٠٠ ذلك لأن الناس فى العهد الشمولى ما كانوا يجرئون على مخالفة القانون والركوب خلسة ٠٠ بالاضافة الى نوع التربية والقيم التى كانت الحكومة تروج لها ٠

أما الآن ٠٠ ففى جو البطالة الذى سيزداد ٠٠ وتغيـر القيم والأخلاق وازدياد عدد السياح ٠٠ ستضطر الحكومة الى فرض رقابة من نوع ما على ركوب وسائل المواصلات التى ارتفع ثمنها الى الضعفين وستزداد عام ١٩٩٥ أربعة أضعاف ٠

كما أن جو الأمن أصبح الآن مفتقد الى حد ما ٠٠ وستجد توصيات عديدة الا تسير فى الأركان المظلمة اذ بدأت تظهر حوادث السطو ٠٠ والسرقة بالقوة ٠

وأصبح الآن على أصحاب البيوت عندما يغادروها أن يتركوا الأنوار مضاءة والراديو مستمرا فى الاذاعة لايهام من تسول لهم انفسهم بالسرقة أن الشقة بها سكان حتى يخافوا وينصرفوا ٠٠ ولكن الأطرف من ذلك أن أصحاب البيت يتركون سماعة التليفون مرفوعة اذا ما خرجوا من البيت حتى يوهموا اللصوص أن أحدا فى البيت ولكنه يثرثر :

اذ لو لم يرد أحد لعرف اللص أن أصحابها ليسوا موجودين فيها٠

وتشعر وأنت تتجول فى مدن تشيكوسلوافكيا عموما أنها بلد ينزع عنه ثوب الكآبة الذى فرضه النظام الشمولى على البلاد ٠٠ فالأنوار بدأت تتألق لكثرة عدد المصابيح وتنوعها ٠٠ والمحلات بدأت تتجمل ٠٠ واعلانات عن السلع بدأت تومض فى كل مكان ٠

وثمة زحام فى الشوارع ٠٠ ومرح ٠٠ وشباب يجرى ٠٠ ويلهو ويلعب ويضحك من أعماقه ٠٠ والميادين تمتلىء بالشباب وهم يتطارحون الغرام والمقاهى تزدحم بالرواد ٠٠ وأجمل ما رأيت كونشرتو الموسيقى فى كل كنيسة وكاتدرائية فى مواعيد محددة حيث يدخل الناس يتعبدون بعض الوقت ثم يحين موعد الحفل ٠٠ فيستمعون فى خشوع الى الموسيقى الكلاسيكية ٠

ويوم جلاء القوات السوفيتية من تشيكوسلوفاكيا ٠٠ صعد شباب تشيكى الى نصب تذكارى لدبابة سوفيتية واقفة على منصة رمزا لتحرير الجيش الأحمر لتشيكوسلوفاكيا من النازية ٠٠ ولطخوها باللون البمبى سخرية من الاتحاد السوفيتى ومن نظامه الاشتراكى ٠

ولم يحاول البوليس منع الشباب من فعل ما فعل ٠٠ وكان بصحبتهم عدد من أعضاء مجلس النواب !

ولاحظت أن كل من كان يدعونى الى الغداء أو العشاء فى أحد المطاعم كان يختار لى مطعما يملكه القطاع الخاص ٠٠ قائلا لى هذا أفضل من مطاعم القطاع العام ٠

وبالفعل عندما دعانى الدكتور خالد الكومى وزيرنا المفوض فى براغ الى الغداء فى مطعم هندى تمتلكه الدولة اكتشفت أن تقدير التشيكيين صحيح فمستوى مطعم الدولة رغم انه « خمس نجوم » كان متخلفا ٠٠ والزائر فى براغ سيجد أن أسعار الأطعمة ارخص من أى

بلد أوربى بما فيها المجر ٠٠ ولكن تلك الأسعار أصبحت مرتفعة بالنسبة للمواطن التشيكى بمقدار يزيد عن ثلاث أو أربع مرات ٠٠ وهو ينتظر زيادة أخرى فى المستقبل ٠٠ لذلك فانك تستطيع تناول وجبة طعام جيدة جدا مثل تلك التى تتناولها فى أفخر فنادق القاهرة مقابل عشرة جنيهات فقط !! فأجر العامل أو الموظف يتراوح ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه وأجر الأستاذ الجامعى أربعمائة جنيه ٠

واللوكاندات الفاخرة غالية الثمن فى كل أوربا الشرقية ٠٠ لقد كنت أدفع ما يوازى خمسمائة جنيه فى الليلة الواحدة فى بودابست وعندما هربت من ذلك السعر العالى ونقلت الى فندق آخر ٠٠ كان السعر ثلاثمائة جنيه فى الليلة الواحدة !

وفى تشيكوسلوفاكيا نفس المشكلة بل أسعار الفنادق أكثر ٠٠ والمرء يتساءل كيف تشجع هذه البلاد السياحة ٠٠ بل ان السياحة موجودة فعلا وبغزارة تثير الدهشة حتى منذ أيام الحكم الشمولى ٠٠ ومع ذلك فالفنادق غالية ٠٠ وقد أقامت شركات أجنبية فنادق فاخرة جديدة فى عاصمتى المجر وتشيكوسلوفاكيا ٠

ويتجمع التشيكيون خاصة الشباب منهم حول دائرة صغيرة فى أحد الشوارع يلقون عليها الزهور ٠٠ بكثرة ٠٠ ويقفون فى خشوع واجلال ٠٠ ويحكى الآباء لأبنائهم وأحفادهم قصة هذه الدائرة ٠

انها البقعة من الأرض التى حرق فيها طالب تشيكوسلوفاكى نفسه احتجاجا على دخول قوات حلف وارسو براغ وتحطيمها لربيع براغ المشهور أول محاولة للتخلص من الحكم الشمولى ٠

هذه الدائرة دخلت التاريخ التشيكى فمن عندها بدأت الثورة المخملية ٠٠ كما يصفونها ٠

ومن أجمل المواقع التى يزورها أى زائر لبراغ هو قصر الثقافة فيها ٠٠ وهو قصر يشبه مركز كنيدى فى واشنطن حيث الفن والمكتبات والموسيقى والأدب ٠٠ وقد تجولت فيه ذات يوم أربع ساعات ولم أنته من رؤية كل شيء فيه ٠٠ وقد بنى هذا القصر الفاخر فى عهد الشيوعيين ٠٠ ولا تملك نفسك الا أن تتساءل وأنت تفتح فمك اعجابا بهذا المكان كيف ولماذا أضاع الشيوعيون التشيك عالما بأسره من أيديهم ؟!

ما الذى جعل الحزب الذى وصل الى السلطة على أكتاف الجماهير ٠٠ يصل الى حالة من الانحدار والانعزال عنها حتى أنه تخلعه وتلقى به خارج الحكم ٠٠ وتستولى الحكومة على ممتلكاته ٠٠ ومقره الضخم

.. لينزوى فى حارة صغيرة فى مبنى متواضع .. ويصدر جريدة أسبوعية متواضعة بعد أن كان يمتلك جرائد عديدة .. أذكر منها جريدة « رودى برافو » التى أذكرها جيدا فقد كان مراسلها فى القاهرة جاردسلاف بوتشاك الذى كان أول صحفى اشتراكى يجرى حديثا صحفيا مع المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ .

ومنذ أن التقيت ببوتشاك عام ١٩٥٦ .. لاحظت أنه كان ليبراليا وناقدا لكثير من تطبيقات الاشتراكية على استحياء ! .. وبعد عام ١٩٦٨ عرفنا أن الحكومة التشيكية قبضت على بوتشاك وتريد محاكمته لأنه تعاطف مع حركة دوبتشيك .. وأذكر أن الأستاذ محمد عوده كان يجمع توقيعاتنا نحن الصحفيين المصريين اللذين نعرفه على بيان موجه لحكومة براغ لاطلاق سراح جاردوسلاف بوتشاك .

وقد بحثت عن بوتشاك فى رودى برافو فى زيارتى لبراغ .. ولكنى لم أجد أحدا يعرفه قط أو سمع عنه .

ولم يكن بوتشاك هو الوحيد المفقود بعد الاجراءات التى اتخذتها الحكومة عقب « ربيع براغ » .

ففى تشيكوسلوفاكيا الآن مشكلة اسمها « المفقودون بعد وارسو » .. أى أولئك اللذين لا « حس ولا خبر » عنهم بعدما دخلت قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا وأجهضت ثورة بوتشيك من أجل ما كان يسميه بالاشتراكية الانسانية .

فقد قبض على عدد كبير من أنصار ومحركى تلك الثورة وأدخلوا السجون .. وحوكم البعض .. وخرجوا .. ولكن عددا من الناس لم يظهر لهم أثر .. وقيل انهم أرسلوا الى الاتحاد السوفيتى « ليعاد تربيتهم » وهو التعبير المهذب لاصطلاح غسيل المخ .. ولكنهم لم يعودوا قط من الاتحاد السوفيتى .

ولكن أحدا لا يستطيع أن يؤكد انهم أرسلوا فعلا الى الاتحاد السوفيتى .. ومازال الأمر سرا لا يعرفه أحد .

والحكاية كما ترى أقرب الى قصة المفقودين فى الأرجنتين .. لكنها ليست على حال فى بشاعتها .. ففى الأرجنتين عدد المفقودين يزيد على عشرين ألفا .. وظهرت مقابر جماعية وشهادات على قتل فلان وفلان ..

لكنا فى حالة تشيكوسلوفاكيا .. لم يرد أحد شيئا .. والعدد

قليل لا يزيد عن سبعمائة شخص ‥ لكن هناك ضجة كبرى على الأمر كله الآن ٠

وما من مواطن تشيكي الآن اضطهد في عصر الحكم الشمولي ‥ الا ويحمل للسوفيت حقدا دفينا اذ يعتبره هو المسئول عن كل مصيبة في البلاد ‥ فهم أي السوفيت كانوا يؤيدون النظام ويدعمونه ويحافظون عليه ‥ ولولاهم لما استمر طويلا رغم أنه جاء على أكتافهم ٠

ولكنهم بدأوا يكرهونه منذ محاكمات ١٩٥٣ عندما أعدمت الحكومة عددا من المعارضين وزجت في السجن بالعديد منهم لسنوات طوال بدعوى حدوث مؤامرة ضد الاشتراكية وكان هذا تطبيقا حرفيا للستالينية وحملاتها التطهيرية ٠

وصحيح أن الحكم في تشيكوسلوفاكيا لم يرتكب بعد ذلك جرائم ستالين ‥ لكنه كبت حرية الشعب ‥ وهو شعب عاش تراث ديمقراطيا عميقا ‥ ويكفي أن بنيش كان رئيسا للجمهورية وكذلك مازاريك الذي انتحر ابنه الذي كان وزيرا للخارجية في الحكومة التي سبقت استيلاء الشيوعيين على الحكم ‥ حزنا وكمدا على ذلك الاستيلاء فقد كان يدرك أن هذا هو آخر أيام الديمقراطية في بلاده ٠

يبقى أن نعرف ماذا كانت أهداف حركة ربيع براغ ‥ التي قمعها جيش حلف وارسو ‥ وأدت الى القبض على رئيس الحكومة دوبتشيك وارساله الى موسكو مكبلا بالأصفاد !

كان دوبتشيك شيوعيا مخلصا ولا شك ‥ ولكنه رأى أن الاشتراكية قد ثبتت في بلاده بعد عشرين عاما من استيلاء الشيوعيين على الحكم ‥ فرأى أن يقرن الديمقراطية بالاشتراكية حتى يكف الحزب الشيوعي عن أن يكون جهازا بيروقراطيا ومتميزا عن الشعب ‥ وكي يزداد حماس الجماهير للانتاج ‥ فدعى الى تعدد الأحزاب واطلاق الحريات السياسية ‥ أو بالأحرى دعى الشارع التشيكي لهذا بواسطة منظمات تبنت ذلك ‥ وتجاوب معها دوبتشيك ٠

وخلال هذه الحركة الجماهيرية التي رفعت شعار الاشتراكية الانسانية ‥ تسللت عناصر صهيونية كالعادة ورفعت شعارات لصالح اسرائيل وشبهت اسرائيل بثورة الجزائر ‥ وهاجمت موقف الحكومة التشيكية من ادانة اسرائيل لعدوانها على مصر وسوريا والأردن عام ١٩٦٧ ٠

ولهذا فهم الناس في العالم العربي حركة ١٩٦٨ التشيكية خطأ ‥ وسعدوا كثيرا بقمع السوفيت وحلفائهم لها متصورين أنها حركة صهيونية ٠

وكان ذلك خطأ طبعا ·· كما كان خطأ أن تدخل السوفيت وحلف وارسو ·· وقد اعترف الجميع بهذا الخطأ ·

ومرت الأيام ·· وأتوقف فى براغ أمام متحف كبير يضم نموذجا مصورا ومقتنيات من معسكر اعتقال سوفيتى فى الاتحاد السوفيتى ·· وكأننا نرى معتقلا نازيا ·· أيام هتلر ! ·· والناس يقبلون على زيارة المتحف ويدفعون أجرا زهيدا للدخول ولا تملك نفسك من الدهشة ·· وأرجو أن أحدثك يوما عن مشاهداتى فى هذا المعتقل ! ماذا حدث وكيف حـــدث ؟ ··

وكيف يرى الحكام الحاليون الصورة ·· وماذا يريدون ·· وقبل هذا لماذا ثاروا على الأوضاع السابقة ·· وكيف انتزعوا السلطة ·· بل قل أخذوها بقفاز من حرير اذ يسمونها الثورة المخملية ·

نلتقى بالدكتور ميتشنكى نائب رئيس البرلمان الفيدرالى وهـــو أعلى سلطة فى البلاد اذ هو الذى ينتخب رئيس الجمهورية ويختار رئيس الوزراء الفيدرالى ويصدر القوانين الفيدرالية ·· بل ويعمل حاليا فى نصوص دستور جديد للجمهورية التشيكية والسلوفاكية ·

وينتمى الدكتور متيشنكى الى المنتدى الديمقراطى الذى حل محل الحزب الشيوعى وكان أحد المنشقين على الحزب من زمان ·· وانضم الى المنتدى ·· وانتخب من البرلمان الفيدرالى نائبا لرئيسه ·· أى أنه واحد من المجموعة القليلة التى تصدر القرارات المصيرية فى البلاد ·· وطرحها فى القنوات الشرعية ··

وقد بادءنى بالحديث عندما التقينا فى البرلمان المشيد على طرق العمار الحديث بحيث لا يتفق مع عراقة الديمقراطية فى تشيكوسلوفاكيا بينما البرلمان المجرى مشيد على طريقة مجلس العموم البريطانى وينافسه فى العراقة والقدم من حيث الشكل المعمار ··

قال لى المستر متيشنكى وهـــو يرحب بى ·· أنا لا أعـرف كثيـرا عما يجرى فى مصر والبلاد العربية من تحولات ولا أدرى اذا كان هناك وجه للمقارنة بينكم وبين تشيكوسلوفاكيا لكنا نكن لكم تقديرا واحتراما ومودة ·

سألته ·· وقد دخلنا فى الحوار مباشرة ·

هذا التحول الذى تشهده بلادكم من الاشتراكية حتى الرأسمالية ·· هل هذا نتيجة لخطأ فى صلب النظرية الاشتراكية أم لأخطاء فى تطبيقها ؟

أجـــــاب ٠٠

عام ١٩٨٦ لم يكن النظام عندنا اشتراكيا ٠٠ الأيدولوجيــة الرسمية كانت حقا الاشتراكية لكنه فى الحقيقة بعد ضرب ربيع براغ ١٩٦٨ كان نظاما مفروضا على للشعب ٠٠ ولكن الحزب الشيوعى لم يكن يفهم الاشتراكية ولا يطبقها ٠

ولهذا فان رد الفعل كما تراه الآن بين الشعب هـــو كراهيــة الاشتراكية وكل ما له علاقة بها ٠

بل انى أقول لك ان كل ما يمت للحركة اليسارية مهما كان لونها ومداها فانه يثير الشبهات عن أغلبية الناس !

● بماذا تصف نظامكم الحــالى ؟

ــ لم تتبلور وضعية النظام بعد ولكنا نستعمل التعبيرات السائدة فى العالم من يسار ويمين ووسط ٠

● ولكن يلاحظ أن النظام السياسى يمكن تحديده فعندكم تعددية حزبية وحريات سياسية ٠

ــ هذا صحيح ٠٠ لقد كان النظام السابق نظاما بوليسيا لم يتمكن بسببه الكثيرون من تشكيل أى تنظيمات سياسية فعالة ولو سرية ٠ والحركة أو المنتدى الديمقراطى ولد بعد ١٧ نوفمبر تلقائيا ٠ وتوقعنا تشكيل أحزاب بسرعة ٠٠ وبالفعل عندنا حاليا ستين حزبا ٠٠ ومعظمها أحزاب هشة ٠٠ وقد دخل منها فى الانتخابات فى العام الماضى ٢٣ حزبا ٠ ولم يمثل فى البرلمان الا الحزب الذى حصل على ٥٪ من الأصوات فأكثر ٠

● كم حصل المنتدى الديمقراطى فى الانتخابات ؟

ــ على ٥٠٪ وقد انقسم المنتدى الى خمس أحزاب منها حزبان قويان ٠

وفى سلوفاكيا حدث نفس الشىء (اسم المنتدى الديمقراطى هناك الحركة المدنية ضد العنف) اذ انقسم الى حزبين وستستمر العمليــة الانقسامية حتى يمكن فى النهاية الاستقرار الى ثلاث أو أربع أحزاب رئيسية ٠

● وما هى قوة الحزب الشيوعى ؟

ــ لقد غير اسمه الى الحزب الديمقراطى اليسارى ٠٠ ويحدث

فيه تطور داخلى كبير ·· قسم تخلى عن معظم أفكار الماضى القديمة التى ثبت فشلها ·· وقسم آخر مازال يتشبث بها ·· وهذا التشبث يساهم فى خلق موجة معادية للشيوعية باستمرار فى البلاد · وقد حصل الحزب الشيوعى على ١٤٪ من الأصوات وهو فى سلوفاكيا أقوى منه فى الجمهورية التشيكية · (لاحظ أن تشيكوسلوفاكيا تتكون من جمهوريتين : التشيك والسلوفاك واسمها الجمهورية التشيك والسلوفاك) ·· وله ٤٧ عضوا فى البرلمان الفيدرالى من ٣٠٠ عضو ·

● ما هى المشكلة الأساسية التى تواجهها عملية التحول عندكم ؟

ـ مشكلة جهاز الدولة ·· الآن لا يحكم الشيوعيون اذ ليس منهم وزراء لكن معظم موظفى أجهزة الدولة من الحزب وأنصاره ·· والحزب كان يعين الناس ليس بحسب الكفاءة بل بحسب الولاء ·

وهؤلاء يعطلون تنفيذ البرامج ·

● ألا توجد محاولة لاعادة تثقيفهم ؟

ـ البعض قد توصل الى حل توفيقى مع نفسه بأن اكتشف خطأ الحزب ويتمشى مع النظام الجديد ·

أما اعادة التثقيف فيبدو أنك تمزح ؟ ·· نحن نثقف الشيوعيين وهم يتصورون أنفسهم زعماء وأساتذة الثقافة فى العالم ؟! ·· ونحن نعترف فعلا بأنهم يثقفون أنفسهم ·· ومن زمان طويل كشف الكثيرون منهم عيوب النظام الذى اقاموه وغيروا سياستهم ·· لكن ما العمل مع التحجر والجمود ؟

● ماذا ستفعلون اذن ؟

ـ لا يمكن تغيير الجهاز الحكومى مرة واحدة ·· العملية ستستغرق وقتا ·· ولاحظ أن الحزب ظل وحده هو الذى يختار الموظفين لأربعين عاما متتالية ·

والحكومة علمت الناس أو عودتهم على الاعتماد عليها اذ كانت تمسك بكل المؤسسات الاقتصادية وبذلك أحكم قبضته على الدولة ·

● ما أخطر عقبة معنوية تواجهونها الآن ؟

ـ عدم استقلالية تصرف الناس ·· ليس لديهم حافز لأنه كان غير مرغوب فيه فى النظام القديم أن يتم التصرف بدافع ذاتى ·

وهذا يمثل عبئا وعقبة أمامنا فى تطوير البلاد لأن الناس مازالوا

ينتظرون ما سيحدث لهم من جانب الدولة . ويعطون أهمية أقل مما يجب عليهم عمله .

كما أن عزلتنا أكثر من عشرين عاما عن الغرب وافتقار الطلبة عندنا للدراسة فى الخارج ومتابعة ما يجرى هناك من تطور .

● ما السبب الرئيسى فى تلك الاتكالية التى تتحدث عنها ؟

ـ ببساطة افتقاد اقتصاد السوق .. ان قوانين السوق تلهب حافز وحماس الفرد للاعتماد على الذات .. لاثبات مكانه ودوره وحقيقة امكانياته فكل انسان حسب جهده فعـلا .

لذلك يجب البدء فى تطبيق نظام السـوق حتى يمـكن انتفاض الشعب كما تقولون عندكم عن « الانتفاضة » الفلسطينية !

● ولكن لنظام السوق مساوئه وردود فعله على صالح الجماهير ؟

ـ هذا صحيح لذلك يجب أن تضع فى الاعتبار مسألة السلام الاجتماعى .. اذ أنه لو ساءت الأوضاع الاجتماعية لحدثت أضرار جسيمة لعملية التحول كلها .

● لماذا تصبح الدول الاشتراكية التى تتحول الى الرأسمالية أيها الغرب أدركنا وساعدنا .. لماذا تحتاج عملية التحول الى مبالغ ضخمة ؟

ـ لعدة أسباب :

ـ أولا الاحلال والتجديد للآلات القديمة فى المؤسســـات منذ تأسيسها بواسطة النظام القديم .

ـ شراء التكنولوجيا .

ـ الديون المتراكمة .

ـ تحقيق عملية انقاذ الشعب بالسلع الاستهلاكية اذا كانت ناقصة وهى فى الغالب ناقصة .

ـ مواجهة تبعات البطالة التى ستحدث .

ـ استثمارات فى مشروعات جديدة للتنمية .

وأضاف قائلا وهو يبتسم :

ان المسألة لا تقتصر على عملية نقل الملكية من يد الدولة للقطاع الخاص .. ثم ترك الأمور للمنافسة والعرض والطلب فقط ! .. لابد

من العون الخارجي والا حدثت كارثة حقيقية بل كوارث ·· وتحولت البلاد الى فوضى أو سقطت فى يد قوى فاشية أو أشبه بها !

● هل يقدم لكم الغرب مساعدات ؟

ـ يساعدنا بالخبراء وتدريب خبرائنا وعمالنا ·· ولكننا نريد رأسمال أجنبى لأن إمكانياتنا لا تكفى لاعادة بناء هيكل الاقتصاد ·

وبعض الشركات دخلت فى مشاريع مشتركة مثل العقد بين فولكس واجن الالمانية وشركة سيارات سكودا عندنا ·

وعندنا شركات ضخمة تنتج آلات ضخمة ·· وفيها عشرات الألوف من العمال وتحتاج الى رأس مال أجنبى ·

ان كل الهيكل الاقتصادى يجب أن يتغير · لأننا كنا مرتبطين كثيرا جدا بالاقتصاد السوفيتى ·· واهتممنا كثيرا بصناعة الاسلحة وذلك جعلنا نعتمد كثيرا أيضا على ذلك الاقتصاد ·· وتضخمت البيروقراطية عندنا ·

● ما هو برنامج التطوير الاقتصادى عندكم باختصار ؟

ـ بعض الشركات ستباع ·

والبعض لن يباع لأن أحدا لن يقبل على شرائه بل سيدخل المتاحف ·

ونريد اقامة مشاريع مشتركة ·

والخصخصة مازالت تسير ببطء ·· لأن هناك مقاومة لها من قوى كثيرة ·· هم لا يعترضون على المبدأ لكن يقولون لك هذه المؤسسة لا ·· وتلك جائز الخصخصة فيها ·· الخ ·

● هل ستعاد الأرض لأصحابها ؟

ـ نحن فى تشيكوسلوفاكيا قمنا باصلاح زراعى عام ١٩١٨ قبل الاشتراكية ثم قمنا باصلاح زراعى آخر عام ١٩٤٥ وحدود الملكية القصوى خمسين هيكتارا وقانون الأراضى الذى أصدره النظام الجديد يبيح اعادة الأراضى لأصحابها السابقين اذا أراد الفلاحون بيعها ·· أو يقبلون تعويض ·· والنظام الزراعى عندنا يقام على أساس جمعيات تعاونية ·· وتحت تأثير المزارع السوفيتية الجماعية كنا نجمع الجمعيات التعاونية فى مزارع كبيرة وبالتالى ساءت العلاقة بين الفلاحين والأرض وانعدم الاحساس بالملكية ·

وقد قررنا انهاء هذا التجميع القسرى ·· فنحن نريد تقوية الشعور بالملكية داخل المزرعة التعاونية ·· ويكون العمل الجماعى اختياريا ·· لزيادة الانتاج · والحقيقة أن أغلب الفلاحين متمسكون بالمزارع التعاونية · فقط يريد الفلاح قطعة أرض صغيرة خاصة به ·

● ما الرأى فى المشكلة القومية عندكم ؟ (لم تكن تشيكوسلوفاكيا قد انقسمت الى دولتين أيام جرى هذا الحوار)

ــ الحزب الشيوعى لم يحلها رغم الادعاء بقدرة الماركسية التى لا حد لها على حل المشكلة القومية ·· نحن نعمل على حلها ·· حتى يمكن تجميع جمهورية التشيك مع جمهورية سلوفاكيا فى دولة واحدة بناء على حرية الاختيار ·

وهناك حركة توتر فى سلوفاكيا للاستقلال ·· كما يحدث فى يوغوسلافيا · وفى جمهورية التشيك هناك اتجاه عام من أجل استمرار وحدة البلاد ·· ولكن نحن نريد دستورا ديمقراطيا يتغلب على نتائج البيروقراطية الشديدة كما ان هناك نقطة هامة فى المشكلة وهى أن سلوفاكيا متخلفة فى التطور عن التشيك حيث فى براغ مركزية شديدة أدت الى الحاق الاضطهاد أحيانا بالسلوفاك ·· ولذلك تنم الاتجاهات الاستقلالية عبثا ·

● هل المشكلة حـــادة ؟

ــ نعم حادة وخطيرة وهناك خطر استقلال سلوفاكيا فعلا ·· ولكن لا يبدو احتمال صدام اذ الديمقراطية التى تسود البلاد تفتح الباب للحوار أكثر من الاتجاه للعنف ·· ورئيس الجمهورية يزور سلوفاكيا دائما ويجرى حوارا فى الشارع مع الناس وفى لقاءات عامة ·· ولا أحد يجرم الانفصال أو يصف دعاته بالخيانة والجريمة ·· بالعكس هناك اعتراف كامل من الأغلبية التشيكية بأن السلوفاك قومية منفصلة غير قومية التشيك ·· لكن الدعوة لاستمرار وحدة البلاد من أجل مصلحة القوميتين فى وقت تتجه فيه الدول فى أوربا الغربية للوحدة ١٩٩٢ · ونحن نريد أن نلحق بأوربا الغربية هذه فنحن ننتمى اليها ·· وارتباطنا بالشرق كان ظاهرة عارضة ·· وعلى فكرة هناك خطأ تسميتنا من شرق أوربا ·· نحن من وسط أوربا مثل النمسا ·· أى نحن من أوربا الغربية وكنا من أكثر الدول الأوربية تقدما ·· أكثر من النمسا وهولنده ·

وهناك أشكال مطروحة للوحدة : فيدرالية ·· أو كونفدرالية حسب ما يريد السلوفاك ·

● ماذا يعمل البرلمان الفيدرالى اذن ؟

– كل قومية ٠٠ لها رئيس وزراء ٠٠ وبرلمان ٠٠ ثم هناك برلمان يجمع القوميتين يسمى البرلمان الفيدرالى وهو الذى يختـــار رئيس الجمهورية والوزارة الفيـدرالية ويضـع القـوانين ذات الطابع العام ٠٠ مثل التحول والاستثمار ٠٠ وهناك جيش واحد وسياسة خارجية واحدة وجهاز أمن فيدرالى ٠

وأول مهمة للبرلمان الفيدرالى حاليا هى تمرير قوانين تزيــل التوتر بين القوميتين وتساعد على تطوير البلاد وهذه أول مرة تناقش قضية التناقض القومى علنا فقد كان الشيوعيون يغطون عليها حتى لا ينكشف فشلهم فى حلها ٠٠ وهم اللذين كانوا يزعمون دائما أن لديهم المفتاح السحرى لأكثر المشاكل صعوبة !

انتقلت بعد ذلك للحـــديث عن مستقبـل التطـــور بالنسبـة ليس لتشيكوسلوفاكيا فقط ٠٠ بل للعالم كله ٠٠ هل يســود النظـــام الرأسمالى العالم الى الأبد أم ماذا ؟

يقول نائب رئيس البرلمان الفيدرالى المستر ميتشنكى وهو حاصل على دكتوراه فى القانون ودكتوراه فى العلوم أيضا ٠

ان الدول الرأسمالية ذاتها لا تجاهر بأنها دول رأسمالية وانما تقول دول العالم الحر ٠٠ وأن لها نظاما خاصا : رغم أنه يقوم على أساس الاقتصاد الرأسمالى ٠

ولكن الحاصل فى تلك البلاد أنها تعد الرأسمالية الكلاسيكية حيث يعمل العمال ١٢ ساعة فى اليوم والنساء والأطفال ١٤ ساعة ٠٠ ويطرد العمال للشارع فى أى وقت دون أى سند ٠

ان هناك مكاسب أحرزها العمال على طول الطريق منذ نشأة النظام الرأسمالى ٠٠ وهى تمثل تنازلات من جانب الرأسمالية عن بعض مكاسبها وامتيازاتها سواء باختيارها أم مرغمة ٠

ولذلك فنحن هنا نتحدث عن الرأسمالية ونحن نعلم أن الشعب عنده حساسية خاصة لها ٠٠ وأن الشيوعيين متربصون للاثارة ٠٠ لذلك نمشى فى طريق التحول فى حذر وذلك عن طريق الحرص على مصالح الشعب ٠

وأضاف الدكتور متشنسكى قائلا ٠٠

ـ ولا أعتقد أن النظام الرأسمالى الذى يسود العالم اليوم وينتصر بدليل عمليات التحول الحالية فى كل الدول التى كانت اشتراكية أو بالأحرى يزعم أنها اشتراكية ·· ليس نهاية التطور فى العالم ·

ولا أعتقد أن أحدا يستطيع التنبؤ بماذا سيحدث بعد نصف قرن من الزمان ! لكن الشىء المؤكد أننا رأينا أن الاشتراكية تقود الناس الى طريق مسدود ولا تدفع بهم الى الأمام ·· وهى لم تحقق مستقبلا مشرقا للبشرية كما بشر مبتكروها ·· بدليل ثورة الشعوب ذاتها عليها ·

بل هى عطلت الانتاج فى المجتمعات التى طبقت فيها ·· وجعلت مستواه منحط ·· متخلفا مع أن دعاتها زعموا أنها هى التى ستفتح الباب لانطلاق قوى الانتاج وزيادته الى حد الكفاية الهائلة فى المجتمع بحيث يستطيع الانسان أن يحصل على حاجته ·· مهما كانت قيمة عمله ·

أحلام وخيالات سعيدة ·· ولكنها فى الواقع لا تعدو أن تكون أوهاما ·· أصابتنا بضرر بليغ !!

وبالمناسبة كان د· متشنسكى شيوعيا من قبل !!

نمضى نبحث عن أسباب التغيير أو الانقلاب خصوصا أن الحزب الذى كان حاكما · قد شارك فيه بل وانتخب هافيل رئيسا للجمهورية والمنشق العريق روبتشيك رئيسا للبرلمان ·· وعين واحد من أبرز قادته « كالفا » رئيسا للوزراء ·· روبتشيك كان شيوعيا بل زعيما للحزب الشيوعى ·· وكالفا كان كذلك زعيما للحزب ودخل رئاسة الوزراء كممثل للشيوعيين بناء على اتفاق مساومة بين الحكومة والمعارضين ··

استقبلنى بافيل رنجنسكى نائب رئيس الوزراء الفيدرالى بعد أن اعتذر كالفا لانشغاله بموعد طارىء ·· وبدأ الحديث باستفاضة ·· رغم أنه كان عائدا من جلسة فى البرلمان الفيدرالى « ساخنة » جدا على حد قوله ضاحكا ··

ـــ عندنا فى البرلمان تسمع ما لم تسمعه فى حياتك وبصورة مضاعفة عما يسمعه غيرنا لأننا لم نتعود أن نسمع شيئا من قبل سوى ما تقوله السلطة الحاكمة ! فى رأى رنجنسكى ·· أن الشمولية قد تكون شمولية يسارية ·· وقد تكون شمولية يمينية ·

حسنا ·· لكن هناك فرق ··

● ما هو ؟

ان الشمولية اليمينية قد لا تدمر الاقتصاد ٠٠ بينما الشمولية اليسارية بالتأكيد ستدمره ؟!

وأخذ يعد على أصابعه ـ خذ عندك أسبانيا ٠٠ كانت شمولية فرانكو تمثل أقصى اليمين ٠٠ ومع ذلك انتعش الاقتصاد الأسبانى أو مضى فى طريقه ٠٠ حتى النازيين لم يدمروا الاقتصاد الا بسبب نزعتهم الحربية والعدوانية ٠

لكن كل البلاد الاشتراكية حيث كان النظام شموليا ٠٠ خرب اقتصادها أو كاد أن يخرب ٠٠

● لماذا

ـــ لأن اليمين لا ينكر ميكانيكية قوانين السوق ٠٠ بينما يعمد اليسار الى تجميدها أو شلها عن العمل فتحدث الكارثة ٠٠

ونحن هنا فى تشيكوسلوفاكيا بدأ الكساد يحدث ٠٠ لأن الانتاج بدأ فى النقصان ٠٠ وأصبحت الدولة مجرد واجهة للحزب ٠٠ وأصبح كل شىء يدار بواسطة الحزب بما فيه من عناصر متعصبة وجهولة ٠٠ واستمر الحال على ذلك أربعين عاما ٠٠

● هل كان النظام الاشتراكى مفروضا على الشعب ؟

أجاب :

ـــ نعم والنموذج السوفيتى بالذات ٠٠ وكانت الظروف مهيأة لذلك فقد حظى الشيوعيين بتأييد جماهيرى جارف لانفصالهم ضد النازية ٠٠ فقال الناس لم لا نجرب النظام الذى سيطرحونه ؟!

وعاد نائب رئيس الوزراء يقول ٠٠

ان ذلك النظام علاوة على افساده البيئة المادية فى البلاد أفسد البيئة الروحية أيضا ٠٠ لقد فسدت القيم الأخلاقية وانهارت ٠٠ اذ تعلم الناس الخوف والنفاق والوشاية ٠٠ ودمر النظام تراثنا الديمقراطى مع أننا كنا أكثر دول وسط أوربا ديمقراطية ٠

ان بلادا أخرى مثل المجر وبولنده ربما كان دافعها الى الانقلاب على الاشتراكية هو النقص فى كل شىء ٠٠ لكن عندنا لم يكن الدافع قط هو « جوع المعدة » ٠٠ انما كان الدافع الأول هو القيم الروحية التى ابتذلت ٠٠ والتى اشتعلت عند بعض الناس ٠٠ فأشعلوا ثورة الجماهير ٠٠ وجعلوها تنفض رداء الخوف والشعور بالعجز !

● هل هذا فقط الذى شجع على الثورة ·

ـــ أو ·· هناك عوامل أخرى ··

ـــ ان ضغط الدول الغربية ودعايتها المستمرة ضد انتهاك حقوق الانسان قد أثر فى الضمير التشيكى ··

ـ كذلك التغييرات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى وسياسة جورباتشوف فى عدم التدخل العسكرى ·

● ما هى الخطط الاستراتيجية عندكم لاقامة النظام الجديد ؟·

ـــ دعك من العبارات الضخمة ·· المسألة ببساطة :

يجب تغيير النظام السياسى الى نظام دولة ديمقراطية يشارك الشعب فيها بجدية فى صنع القرار ·

ثانيا : تغيير نظامنا الى نظام السوق ·· وهذا ممكن والمثل للنهضة اليابانية بارز وواضح أمامنا ··

وأخرج المستر بافيل ريجنيسكى من درج مكتبه تقريرا من ثلاث صفحات قال لى وهو يقدمه هذه هى « الخطة الاستراتيجية » على حد تعبيرك لعملية التحول عندنا · قلت وأنا أشكره ·· وأتأمل الخطة المكتوبة باللغة الانجليزية وربما شعر بما يدور فى رأسى ·· فقال حسنا ··

ـــ عندنا نسخ بالانجليزية والفرنسية والألمانية نعطيها لكل من يريد أن يعرف سياستنا ·

سألتـه ··

● هل هناك نتائج عاجلة وظاهرة لهذه السياسة ·

قال ·· نعم ·· انخفض التضخم من ٣٠٪ فى أول يناير ١٩٩١ الى ٣ر٢٪ بعد ثلاثة شهور فقط ·· والفرق بين سعر الكورونة الرسمى والسوق السوداء لا يزيد عن كورونتين (الدولار ٣٢ كورونة) ·
ونحن الدولة الوحيدة فى أوربا الشرقية التى لها ديون خارجية ·· فالاتحاد السوفيتى وليبيا والعراق وسوريا مدينة لنا ·· الاتحاد السوفيتى عليه خمسة بلايين دولار ·· وتلك الدول العربية سبعمائة مليون دولار !

وسكت لحظة ·· وقال :

ـــ لكن ، من الصعب الحصول على تلك الديون · فهذه الدول تقول أنها لا تستطيع الدفع ·· والاتحاد السوفيتى اكثر منها عجزا وان كان

يطالبنا بدفع ثمن ما ناخذه منه بينما هو لا يدفع ثمن ما يشتريه ٠٠ ونحن لا نستطيع أن نفقده كسوق ٠٠

★ ★ ★

كيف يرى صانع السياسة التشيكى العلاقات بين النظام الجديد والدول العربية ؟٠

يجيب على سؤالى نائب رئيس الوزراء بافيل ريجنسكى فيقول :

السياسى الواقعى الذكى لا يمكن أن يتوقع المساعدة من جانب الدول المتقدمة لأنها تريد تعاونا من نوع معين ٠٠ ونحن نريد تعاونا من نوع لا نجده عندها ٠٠

● ما صورة هذا التعاون ٠

ـــ نريد أسواقا لمنتجاتنا والسوق فى الدول المتقدمة شبه مغلق ٠٠ ولهذا فان التعاون التقليدى بين بلادنا وبين الدول العربية مهم جدا وله مستقبل ٠٠ فنحن كنا نصدر سلعا انتاجية لها ٠٠ كما أنه من الممكن أن نتحول بانتاجنا الذى كان موجها للاتحاد السوفيتى اليها هى ٠٠

● ماذا عن كم البيع للعالم العربى غير الأسلحة ؟

ابتسم وقال ٠٠

ـــ آه ٠٠ الأسلحة ٠٠ اننا لا نريد أن تكون الدبابات على رأس صادراتنا ٠٠ نريد تصدير وسائل انتاج وتكنولوجيا ، عندنا قطارات وكاميونات وانسجة وأنواع الزجاج ذا الشهرة العالمية مثل الكريستال ٠٠

من ناحية أخرى اننا نعرف أنه فى البلاد العربية جزء من رأسمال العالم ٠٠ فرحبنا به للمشاركة فى تطوير اقتصادنا ٠٠ والربح مؤكد فالمجال لا حدود له ٠٠

وماذا عن الغرب ؟

ان ثلثى حدودنا مع ألمانيا ٠٠ حيث ٨٠ مليون من السكان وهى أعظم قوة فى أوربا ٠٠ والاقتصاد الثانى أو الثالث فى العالم اليوم ٠٠

ويهمنا أن تكون لنا علاقة بها ٠٠ لكن المشكلة أن ألمانيا فى الوقت الذى هى فيه جذابة بالنسبة لنا فهى خطرة ٠٠ ونحن لا نريد أن نعود الى جيب رأس المال الألمانى ٠٠

ربما يبدو الأمر سهلا ولذيذا فى السنوات الأولى ٠٠ لكن يجب أن نضع فى اعتبارنا ماذا يمكن أن تكون عليه النتائج بعد عشرين عاما ٠٠ وكيف سينظر الينا أبناؤنا فى المستقبل !!

● والحل ؟

ـــ علينا أن نقيم علاقات متوازنة وحذرة فى نفس الوقت ٠٠

ماذا اذن عن القضية الفلسطينية :

فى رأى المستر بافيل ريجنسكى أن الحكومة الحالية لا تتبع نفس السياسة التى كانت تتبعها الحكومة الماضية بالنسبة للشرق الأوسط ٠٠ لأنها كانت تبالغ فى التحيز للعالم العربى على حد قوله ٠٠

وفى رأيه أنه كان خطأ سخيفا أن العلاقات الدبلوماسية ظلت مقطوعة مع اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ ٠٠

ولكن مع ذلك الحكومة ترى ضرورة اقامة علاقة مع الفلسطينيين وتحترم حقوقهم القومية وتؤيدها ٠

أما عن أسلوب حل المشكلة فترى دولته أن الطريق لحلها هو نفس الطريق التى تتبعها دول أوربا لحل مشاكلها ، أى التفاوض واحترام حقوق كل الشعوب فى تقرير مصيرها ٠

نمضى نبحث عن اجابة للسؤال ٠٠ كيف حدث التحول ولماذا على لسان المسئولين التشيك ٠٠

وكان لقائى هذه المرة مع المستر ميشيل زانتوفسكى ٠٠ وهو يقوم بنفس الدور الذى يقوم به الدكتور أسامة الباز بالنسبة لرئيس جمهورية مصر ٠٠ وهو شاب لا يزيد عمره عن ٣٧ عاما وكان يعمل مراسلا لوكالة رويتر الانجليزية فى براغ ٠٠ ولذلك يجيد الانجليزية ببراعة ٠٠ كما انه غاية فى الدماثة مع الصحفيين ٠٠ ويقول دائما : أشعر بحزن وخجل عندما لا أستطيع تحقيق رغبة صحفى ٠

يقول زانتوفسكى ٠٠ كى نستطيع فهم التحول فى تشيكوسلوفاكيا يجب أن نضع فى الاعتبار أن اقتصادنا كان مؤمما أكثر من أى بلد اشتراكى آخر ٠٠ القطاع الخاص كان له مكان محدود جدا ٠٠

ولذلك سيثير دهشة أى مراقب أن يسمع عن بيع الدولة مئات الألوف من المؤسسات ٠٠ وهى فى الحقيقة دكاكين ومطاعم ومقاهى ٠٠ أما الشركات فلا تزيد عن بضع ألوف ٠٠ وأغلبها شركات متوسطة وصغيرة ٠

وفى هذه العملية اخرج التشيكوسلوفاكيين مدخراتهم التى لم يكونوا يعرفون كيف ينفقونها ‥ واذا حدثت صعوبة ما ‥ ما على المواطن التشيكوسلوفاكى الا أن يركب سيارته ويذهب الى أحد معارفه أو غير معارفه فى ألمانيا أو النمسا ‥ ويقنعه أن يكون شريكا له بتمويل مطعم أو دكان ‥

لكن الصعوبة الحقيقية التى تواجهنا هى خصخصة الشركات الكبيرة ‥ وهذه تستدعى اقبال رأس المال الأجنبى ‥ فرأس المال العملى عاجز عن ذلك تماما ‥ فانه خلال أربعين عاما لم تشكل بالمطبع طبقة رأسمالية تملك الملايين ٠

● وكيف تحققون تلك الخصخصة ؟

ـــ نحول رأس مال الشركات الى أسهم للتداول ‥ فيمكن للرأسماليين الأجانب الشراء ‥ علاوة على الأفراد من البلد ‥

● من الذى يقاوم الاتجاهات الاقتصادية الجديدة ؟

ـــ هناك قوى سياسية تعارضنا ‥ والنقد الأكبر يأتينا من اليسار : الحزب الشيوعى ، الحزب الاشتراكى ومن جماعات يسارية أخرى ٠

ولا أحد يقدم بديلا عن اقتصاد السوق ‥ ولكنهم ينتقدون نتائج هذه السياسة مثل البطالة ٠

● لكن هل هذا النقد لمثل تلك النتائج يمكن أن يؤدى الى عودة النظام القديم ؟

ـــ لا أعتقد أبدا أنه ممكن العودة ، الاشتراكية أصبحت مرفوضة تماما على المستوى الجماهيرى والعالمى ‥ والحزب الشيوعى نفسه تبرأ من الشيوعية وغير اسمه ٠

ووزن اليسار فى بلادنا ١٥٪ فقط أو أكثر قليلا ‥ والعالم كله يؤيد النظام الجديد عندنا ٠

● سمعت هنا حديثا يتردد عن أن الحكومة فتحت ملفات جرائم التعذيب فى العهد الماضى ‥ فهل تنوون شن حملة ضد الحزب الشيوعى باعتباره كان الحزب الحاكم وبالتالى المسئول عن مثل تلك الجرائم ؟

أجاب المستشار الخاص للرئيس التشيكوسلوفاكى هافيل :

ـ نحن لا نعترف بالنظم الجماعية ٠٠ وبالتالى لا نؤمن بما يسميه البعض المسئولية الجماعية ٠ انما نؤمن بالمسئولية الفردية فاذا كان هناك شخص ما قد انتهك حقوق الانسان يمكن تقديمه للمحاكم وعلى الذين يتهموه أن يبرهنوا على ذلك أمامها ٠٠

وحاليا تبحث وتحقق الاتهامات الموجهة لأى فرد كان فى النظام القديم وقد سجن فعلا عضو بالمكتب السياسى للحزب الشيوعى هو وبعض زملائه ثلاثين شهرا لأنهم أصدروا قرارات بضرب المتظاهرين ضربا عنيفا وبالنار ٠٠

● ما هو رد فعل الجماهير ازاء تلك المحاكمات ٠

ـ الجماهير لا ترضى عن البطء فى عملية التحقيق والاتهام والمحاكمة ٠٠ وتريد السرعة وتقديم الكثيرين ممن ارتكبوا مثل تلك الجرائم فعلا ٠

● كيف يرى الرئيس هافل حل المشكلة القومية بين التشيك والسلوفاك ؟

ـ لقد فشل الشيوعيين فى حلها رغم الدعاية الجوفاء عن قدرة أفكارهم على حل المشاكل القومية ٠ كما أنهم عينوا بعض قادة حزبهم من السلوفاك ٠ ولكن كل ذلك لم يجد ٠

وفى رأينا أنه لا يوجد خطر الانفصال اذ من يريدونه من السلوفاك لا يزيد عن ١٥٪ من عدد السكان ٠

انما المطلوب فى الحقيقة تحقيق المساواة بين القوميتين فى اتحاد كونفدرالى أو فيدرالى بجانب التطور الاقتصادى ٠ وأعتقد أن الدستور الجديد سيحل هذه المشكلة ٠

● ماذا ترون فى النظام العالمى الجديد ؟

ـ لقد قيل ويقال كلام كثير عن هذا النظام ٠٠ ولكنه فى الحقيقة لم يتبلور بعد ، ولا أرى سمات محددة له ٠٠ لكن على أى حال ان تشيكوسلوفاكيا تريد التطور كمجتمع مفتوح ونريد علاقات حسنة من كل دولة تفتح أبوابها لنا ٠٠

ـ لقد قيل ويقال كلام كثير عن هذا النظام ٠٠ ولكنه فى الحقيقة كانت تساعد الارهاب الدولى ٠٠ فهل صحيح هذا ؟

ـ يؤسفنى أن أقول لك أن هذا صحيح الى حد ما ٠٠ فقد تبين اننا أرسلنا مواد معينة تستخدم فى الأعمال الارهابية لليبيا ٠٠ ودول أخرى

ايضا ·· كما قدمنا غطاء وملجا لبعض اعضــاء الجماعات الارهابية ووزعنا عليهم أسلحة ودربنا جماعات عسكرية لبعض الدول لاستخدامها ضد دول أخرى · وقد اعلنا هذا على العالم ·· وشجبنــاه ·· ولكن كما اعلم لم نقدم أحد للمحاكمة على هذه الأفعــال !

● ما موقف تشيكوسلوفاكيا الأساسى من قضية فلسطين ·· هل أنتم متأثرون بدعاوى الصهيونية ·· مع الاعتذار مقــدما فانى أعرف انك يهودى الديانة ··

ـــ ابتسم وقال :

ـــ ليس هذا مهما ·· وأنا أعرف وجهة نظركم ومشاعركم فى العالم العربى ·· ولكن يجب الاعتراف بأنه حدث تحول فى السياسة التشيكية ازاء النزاع فى الشرق الأوسط ··

● كيف ؟

قال :

ـــ لقد أعدنا العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ·

ـــ ثانيا كانت الحكومة السابقة تنظر للمشكلة من جانب واحد ·· ولا تتحدث الا مع هذا الجانب (أقصد العرب) ·

الآن نحن نتكلم مع الجانبين ·· ونحاول التوفيق بينهما ·· وقد أعلن الرئيس هافل استعداد بلاده لعمل شيء كدولة صغيرة من أجل ذلك التوفيق ·

● حسنا ·· المهم ·· هل أنتم مازلتم تعترفون بالحقوق القومية للشعب الفلسطينى ؟

ـــ نعم نحن نعترف بذلك ·· وبحقهم بأن يكون لهم وطنهم ·· ان الرئيس هافل ·· وكل الذين قاموا بالانقلاب ضد النظام القديم يؤمنون تماما بحقوق الانسان ··

واستطرد قائلا ··

ولكن شكل هذا الوطن والحل للمشكلة برمتهــا ·· يعتمــد على مباحثات السلام بين الطرفين الفلسطينى والاسرائيلى بمشاركة الأطراف الأخرى ·

● ما مصير سفارة دولة فلسطين عندكم ؟

ـــ لنا علاقات بمنظمة التحرير ولا أرى أى مشكلة ٠٠

● هل أنتم تريدون استثمارات عربية فى بلدكم حقـا ؟

ـــ حاليـا تجرى مباحثات مع دول عربية من أجل تحقيق هـذا الهدف ٠٠

● مع من تتباحثون ؟

ـــ مع الكويت والسعودية ودولة أو اثنتين من دول الخليج ٠

● ما مستقبل علاقتكم بمصر ؟

ـــ فى رأينا أن مصر تعتبر كلاسيكيا قلب العالم العربى ٠٠ وهى القوة العربية الكبرى ٠٠ وعلاقتنا كانت ترتفع ٠٠ وتنخفض أحيانا ٠٠ وتتسع وتضيق ٠٠ ومع ذلك لم يصيبها سـوء أبـدا ٠٠ فمن مصلحتنـا استمرار تلك العلاقات وتطويرها ونحن نهتم بذلك ٠

★ ★ ★

وعندما التقيت بالمستر بيتر بتهارت رئيس وزراء الجمهورية التشيكية ٠٠ كرر لى نفس الاجابة عن أسباب التحول ٠٠ ولكن أضـاف أبعـادا أخرى ٠٠

قال ان الدولة قد عمدت الى اذلال المثقفين ٠٠ وأى مؤلف لم يكن يضمن البقاء فى عمله اذ بتليفون صغير يفصل أو يتحول من مهندس الى « جناينى » أو من طبيب أو حتى وزير الى جرسون فى مطعم ٠

لقد كان هناك خطة لعزل المثقفين عن الشعب ٠٠ واثارة تناقضات بين الاثنين ٠

وقال ان النظام السابق فشل ٠٠ لأنه جعل الشـعب يعيش على حساب المستقبل ٠٠ وتحول معظم الشعب الى عناصر سلبية ازاء كل ما كان يحدث وانتشر الفساد وبشكل مروع ٠٠

وأضاف : لا تنسى أن الحكومة كانت تلك التى حاربتها جيوش حلف وارسو عام ١٩٦٨ ٠

● وماذا عن القوى المضادة للثورة ٠

قال رئيس الوزراء ٠٠

ـــ قد يثير دهشتك أن تعلم أننا متسامحون تماما مع اللذين كانوا يطاردونا ويعذبونا ٠

وعن حملة التطهير من الشيوعيين ·· قال انها ليست حملة بالمعنى المفهوم فنحن نعلم أن ٩٠٪ ممن انضموا للحزب الشيوعى بعد أحداث ١٩٦٨ انضموا لا لأنهم كانوا يؤمنون بالاشتراكية بل فقط ليعيشوا فى أمن وسلام ·

وتصور أن عدد أعضاء الحزب كان مليون وسبعمائة ألف عضو من بين تعداد سكانها خمسة عشر مليون فقط ·

واللذين ارتكبوا أخطاء لابد أن نحاسبهم ·· لكن على أى حال نحن نواجه مشكلة قلة عدد الكادر البرجوازى ·· ونحاول أن نلحق بالعمل أولئك الذين لا يهتمون بمحاربة النظام الحالى ·

ولابد أن نعترف أن هناك شيوعيين طيبين ·· أولئك اللذين طردوا من الحزب لأنهم قاوموا تدخل عام ١٩٦٨ ·

وعلى أى حال فمنهج التعيين حاليا للموظفين يقوم على الأساس التالى :

ــ لو كان عندك مرشحين للوظيفة على درجة واحدة من الكفاءة وأحدهما شيوعى والآخر غير شيوعى يجب اختيار غير الشيوعى بلا تردد !!

● سمعت من البعض هنا أنهم يخافون على تشيكوسلوفاكيا من الاندفاع بحماس نحو أوربا ؟ ·

ــ لا مخاوف فى الحقيقة من أوربا ··فنحن جزء منها ·· لكن أصارحك القول أننا نخاف من الاعتماد تماما على ألمانيا فهى رأسمال كبير جدا ·· ونخشى أن تبتلعنا !

● هل عندكم اتجاه للالتحاق بحلف الأطلنطى ·

ــ لا أظن ·· ولا يجب الانضمام اليه ·

وللمستر بتهارت رئيس وزراء جمهورية التشيك وجهة نظر مثيرة للاهتمام بالنسبة لمعالم النظام العالمى الجديد ·

ــ نحن نرى أن أمريكا جزء من أوربا ·· ولا شك أن سياسة أمريكا أثرت كثيرا خلال السنوات الماضية فى تحديد مصير ومسار التطور فى أوربا الشرقية · ونحن مدينون لهذه السياسة ولا نقول هذا من قبيل الشكر والمديح للولايات المتحدة بل نحن نقرر واقعا ·

● سمعت أيضا من بعض السياسيين هنا أنه كانت هناك مؤامرة سوفيتية أمريكية لهدم النظام الاشتراكى ··

اجـاب :

قليلون جدا من الناس هم اللذين يعتقدون بهذا ٠٠

ولكن لا اعتقد فالتغيير كان لأسباب موضوعية ٠٠ ومن الذى تآمر على التغيير الحاصل فى الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٨٥ ٠

● ما تصورك للنظام العالى الجديد ؟

ــ الاتحاد السوفيتى لم يعد له تأثير هام فى توجيه الأحداث فى العالم ٠٠

● لماذا حدث هذا ؟

ــ حدث لأسباب داخلية وسبب خارجى رئيسى ٠٠

● ما هو ٠٠

ــ دور الولايات المتحدة التى ارهقت الاتحاد السوفيتى ببرامج التسليح حتى يعجز عن القيام بأى تنمية اقتصادية حقيقية ٠٠ صـناعة السلاح تخفيض مستوى المعيشة فى بلد مازال بعيدا عن التطور الكامل ليصبح دولة غنية !٠



خطة التحول بالتفصيل ؟

كانت نهاية عام ١٩٨٩ ٠٠ هى نهاية النظــام الاشــتراكى فى تشيكوسلوفاكيا ٠٠ فبعد انتصار الثورة المخملية (لأنها كانت سلمية) فى ٢٥ نوفمبر ١٩٨٩ انتهى حكم الشـيوعيين والأحزاب الأربعة الصـورية الحليفة لهم ٠٠ وجاءت للســلطة حكومة وضعت نصب عينيها تحويل الاقتصاد التشيكى الى نظام الاقتصاد الحر ٠٠ أى الرأسمالية ٠٠ وأحيانا يقول المسئولون فى البلاد التى تتحول عن الطريق الاشتراكى بأنه نظام السوق وذلك واضح فى الاتحاد السوفيتى حتى لا يصدموا مشاعر المواطنين اللذين تربوا طويلا على كراهية الرأسمالية وكل ما يمت لها بصلة وتمجيد التخطيط ومركزية التطوير الاقتصادى ٠٠ الخ ٠ لوازم الاشــتراكية التقليدية ٠٠

فى ١٠ ديسمبر ١٩٨٩ تشكلت حكومة فيدرالية جديدة برئاسة ماريان كالفا الذى كان سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى ٠٠ وكنا قلنا من قبل لقد تولى رئاسة الوزارة بصفته هذه فى عملية التوفيق التى تمت بين المنتدى الديمقراطى أى المعارضة والحزب الحاكم ٠٠

هافيل لرئاسة الجمهورية ودوبتشيك لرئاسة البرلمان والشيوعيون لرئاسة الوزارة ٠٠ ولكن كالفا قدم استقالته من الحزب الشيوعى بعد أيام قليلة من توليه الوزارة وبذلك ضاع اشتراك الشيوعيية فى السلطة تماما رغم احتجاجهم ٠٠ فقد كانت الجماهير قد انصرفت عنهم ولم تعد تريدهم ٠٠

وأعلنت الحكومة الجديدة برنامجها الاقتصادى ٠٠ الجديد ٠٠ من المفيد للقارىء العربى أن يعرف نقاطه الأساسية :

ـ الحكومة ستجرى عملية التحول الى النظام الاقتصادى الحر تدريجيا حتى لا تتسرب آثار التضخم من الخارج ٠

ـ لن تتخذ اجراءات اقتصادية ارتجالية أو مفاجئة حتى لا تنعكس عنها آثار سلبية تؤثر فى مستوى ٠

معيشة الناس :

ـ تخفيض الدعم بل الغائه بناء على خطة تدريجية لبعض السلع الاستهلاكية وايجارات المساكن والنقل والمواصلات والفحم والطاقة بأشكالها ٠٠ مع اعادة تنظيم السياسة السعرية للبيع والشراء وكذا السياسة الضرائبية ٠

ـ الحد من تدخل الحكومة فى الشئون الداخلية للمؤسسات والوحدات الانتاجية كما يعطيها الحرية والمرونة لادارة شئونها الداخلية مع إشراك العاملين فى القرارات والمسئوليات والقضاء على البيروقراطية الادارية ٠

ـ تغيير هيكل الوظائف والتخصصات والاستغناء عن العمالة الزائدة فى بعض المؤسسات بما يستلزم اعادة تأهيل تلك العمالة للاستفادة بها فى أعمال أخرى كخطوة أولى للقضاء على البطالة المقنعة التى تعانى منها المؤسسات التشيكية مع اعادة تنظيم الهيكل الادارى الحكومى وتخفيض أعداد الوزارات والمؤسسات ٠

ـ تهيئة المناخ المناسب لاقامة المشروعات الخاصة بحيث يتم التنسيق بينها وبين المؤسسات والهيئات الحكومية لخدمة الاقتصاد القومى وأهداف خطط التنمية ٠

ـ اصدار قوانين تنظيم انتقال الملكية العامة الى ملكية خاصة وفق ضوابط ومعايير معينة حتى تكون مرحلة الانتقال مدروسة ولا تؤثر سلبيا على اقتصاد الدولة ٠

ـ الاسراع بأخذ أحدث ما أنجزته التكنولوجيا فى العالم لرفع كفاءة الانتاج وتكثيف التعاون مع الدول الأوربية المتقدمة لخلق ميزة تنافسية للمنتجات التشيكية بالأسواق العالمية ٠

ـ اعادة النظر فى نظام التسعير ووضع قواعد جديدة للرسوم والضرائب والأجور على أساس العلاقة بين المستهلك والمنتج وفقا لمتطلبات السوق الحرة والمفاهيم الاقتصادية الجديدة ٠

ـ التقريب بين الأسعار العالمية والمحلية مما يساعد على تعضيد وتحسين وضع الكرونة التشيكية أمام العملات الحرة وما يستلزم ذلك من

مراجعة دائمة للأسعار حسب ظروف العرض والطلب وحجم الاستيراد والتصـــدير والانتاج ٠

ـ ترشيد استخدام الطاقة والمواد الخام بالصورة التى تخفض من تكلفة الانتاج حيث أن ارتفاع وتكلفة الإنتاج كانت ولازالت من أهم المشكلات التى يواجهها الاقتصاد التشيكى وعجز النظام السابق على حلها ٠

ولكن كيف تتم الخصخصة ٠٠ أى تحويل الملكية العامة الى ملكية خاصة ؟

وافق البرلمان الفيدرالى بصفة نهائية على قانون تحويل الملكية العامة الى ملكية خاصة ويسرى القانون ابتداء من أول ابريل ١٩٩١ اذ كان عام ١٩٩٠ هو عام التمهيد لعملية الانتقال ٠٠

وقد تم تقسيم ممتلكات الدولة وفقا للقانون المشار اليه الى قطاعات ثلاث :

● قطاعات ذات أهمية استراتيجية ٠٠ قررت الحكومة بقاءها ضمن ممتلكات الدولة مثل قطاع صناعة الأسلحة والمعدات الحربية وقطاع الطاقة النووية ٠

● قطاعات يمكن تحويلها تدريجيا الى شركات مساهمة حيث تم اصدار صكوك اكتتب فيها المواطنون بالاضافة الى تحديد نسبة يتم بيعها للعاملين فى شركات القطاع على أن يتم فى مرحلة تالية طرح بعض من تلك الأسهم للبيع لجهات أجنبية ٠ وقد رأت الحكومة تأجيل ذلك حتى يتم الانتهاء من وضع المعايير والضوابط اللازمة لذلك ٠

وفى هذا الصدد تم تحويل مؤسسة CRK لصناعة المحولات الى شركة مساهمة قابضة تضم ١٨ شركة مساهمة برأسمال قدره نحو سبعة آلاف مليون كرونة (الدولار يساوى ٣١ كرونة) ، كذلك تم تحويل كل من مؤسسة « ستروج اكسبورت » ومؤسسة « انترسيجما » الى شركات مســـاهمة ٠

● قطاعات يتم بيعها للقطاع الخاص التشيكى كالمحلات التجارية ـ بعض المشروعات الخدمية كشركات النقل والفنادق ٠

وقد ألقى رئيس الجمهورية خطابا أمام البرلمان فى الأسابيع الأولى من عام ١٩٩١ أعلن فيه أنه سيتم طرح المشروعات الصغيرة للبيع للمواطنين من خلال مزادات حكومية على أن يتم بيع المشروعات الكبيرة خلال فترة لاحقة وبعد دراسة متأنية قد تطول الى أكثر من عامين ٠

● ونشير هنا الى ما سبق أن سجلناه فى حلقات سابقة عن مخاوف بعض رجالات الدولة المتحمسين للتحول نحو الرأسمالية من رأس المال الأجنبى وخاصـــة الألمانى ·· كما أن هناك معارضة قوية لفتح الباب بلا ضوابط لهذا الرأسمال فيما بعد تخوفات حتى على النطاق الجماهيرى ·

● وتشجيع الحكومة انشـاء شركات التصدير والاستيراد وشراء العملات الأجنبية من البنوك التجارية التشيكية مقابلة العملة المحلية ·

وفى أقل من عام تلقت الحكومة ٣٥٠ ألف طلب لانشاء شركات خاصة بدأ نحو ١٩٠٠ شركة مزاولة أعمالها التجارية بالفعل ·

كما أقر القانون اقامة المشروعات المشتركة مع الأجانب مع السماح للمســـتثمر الأجنبى بتحويل ٩٠٪ من أرباحه للخارج بالعملات الحرة وستتغير هذه النسبة بقدر ثبات العملة المحلية بالنسبة للعملات الحرة ·

وقعت الحكومة خلال شهر أغسطس ١٩٩٠ عدة اتفاقات مع كل من سويسرا وألمانيا الاتحادية وبلجيكا وبريطانيا والنمسا والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا لحماية الاستثمارات داخل تشيكوسلوفاكيا وذلك بغرض توفير الضمانات والمناخ الملائم لرأس المال الأجنبى المستثمر ·

وقد أسست فعلا شركات مشتركة يمثل رأس المال الأجنبى فيها نسبة ٧٥٪ ·

واذا ما تأملنا ·· عملية التحول نحو الرأسمالية فى تشيكوسلوفاكيا ·· فلابد أن نضع فى الاعتبار أن قرار التحول لم يمض عليه سنتين كما أن الاشتراكية كانت قد طبقت فى هذا البلد حتى نخاع العظام ·· ولم يكن هناك تساهل ما مع رأس المال الخاص ·· كما حدث فى المجر ··

ان حكام تشيكوسلوفاكيا لم يتعلموا من درس قمع حركة ١٩٦٨ الديمقراطية بواسطة قوات حلف وارسو ·· كما تعلم رفاقهم حكام المجر بعد عملية القمع فى عام ١٩٥٦ ·· انهم أى التشكيك شددوا فى عملية التطبيق الاشتراكى · وكذلك شددوا الخناق على المعارضة حتى عندما تأسست حركة ميثاق ١٩٧٧ التى رفعت شعارات عادية عن حقوق الانسان متأثرة أو مستثمرة اتجاهات مؤتمر هلسنكى للأمن الأوربى ·· فان الحكومة طاردت الموقعين على ذلك الميثاق (حوالى الألفين من المثقفين) فاشـــعل نار الحرب بينها وبين المثقفين بالرزات ··

ومن رحم حركة ميثاق ١٩٧٧ هذه ولدت حركة المقاومة الكبرى ·· المنتدى الديمقراطى ··

ومن الطريف أن هذا الأسلوب الديكتاتورى قد ساهم كثيرا فى احداث انشقاقات داخل الحزب الشيوعى ٠٠ فهناك عدد كبير من الموقعين على ميثاق ١٩٧٧ كانوا من أعضاء الحزب الشيوعى ٠٠ وكذلك التحق عدد من أعضاء الحزب بالمنتدى الديمقراطى بل شاركوا فى تأسيسه ٠٠ وهو المنتدى الذى كان أشبه بحزب الوفد عند تأسيسه عندنا فى مصر عام ١٩١٩ أو حزب المؤتمر الهندى ٠٠ أى شبه جبهة تضم كل الاتجاهات المعادية لنمط ما من الحكم ٠٠

وبالفعل انقسم المنتدى الديمقراطى حاليا الى أحزاب عديدة ٠٠ لكن ليس منها من يعمل على اعادة النظام القديم طبعا ٠٠

وانعكس هذا داخل الحزب الحاكم نفسه ٠٠ اذ أصبحت فيه تيارات عديدة ٠ مما اضطر الحزب الى تغيير سكرتيره العام عدة مرات فى شهور الأزمة ٠٠ كما أن بعض تيارات الحزب اتهمت تيارات أخرى بالتواطؤ مع المنتدى الديمقراطى تارة ٠٠ ومع الصهيونة تارة أخرى ٠٠ ومع جورباتشوف نفسه على تسليم الحكم للبراجوازية على طبق من ذهب (راجع الحديث مع السكرتير العام للحزب الشيوعى الحالى واسمه حزب الديمقراطية لليسار) ٠٠

ويبدو أن الصعوبة الأساسية التى يواجهها النظام الجديد هو تمويل عملية التحول ٠٠ بحيث يمكن القول مع بعض المبالغة اذا كانت اشتراكية النظام السابق اشتراكية بلا مشاركة حقيقية من جانب المنتجين فى رسم الخطط وصنيعة القرارات الاقتصادية فان رأسمالية العهد الجالى رأسمالية بلا رأسمال !

ولذلك فانا نرى أن قادة النظام قد وضعوا قوانين عديدة لتشجيع رأس المال الأجنبى على الاستثمار ٠ ولكن حتى الآن ما جاء هو أقل بكثير من المطلوب ٠

ومعروف أن هناك ثلاث طرق لايجاد رأس المال :

الطريقة الأولى هى النهب الامبرايالى ، والطريقة الثانية هى التراكم القسرى لرأس المال على غرار ما لجأ اليه ستالين ٠٠ أما الطريقة الثالثة فهى الاقتراض كما فعلت أوربا الغربية من خلال مشروع مارشال بعد عام ١٩٤٥ ٠

ولكن ما أبعد الفرق بين اليوم والبارحة ٠٠ لقد كانت الولايات المتحدة قد خصصت ٢ر٥ فى المائة من دخلها القومى كله لمساعدة أوربا الغربية ٠٠ حتى تواجه خطر تحولها الى الاشتراكية أو قريبا منها بعد

الانتصار الساحق للاتحاد السوفيتي على المانيا النازية وما تلا ذلك من مد ثوري اشتراكي في العالم كله وأوربا على وجه الخصوص ٠٠

أما الآن ٠٠ وأوربا الشرقية تركع مهزومة بفضل الاشتراكية فان الرئيس الأمريكي السابق بوش قد قرر المساهمة بخمسة عشر مليون دولار لمساعدة تشيكوسلوفاكيا ! وهو رقم ذو مغزى اذ هو الى البقشيش أقرب ٠٠ ولكنه يعكس الادراك الأمريكي أن هذا البلد قد هزم نظامه الاجتماعي ٠٠ ولا مجال للخوف من أن يعود ٠٠ فلماذا الاغراق عليه ٠٠ وليصبح دولة رأسمالية ولكن ليس بالضرورة أن يكون دولة رأسمالية متقدمة ٠٠

وهي تفرقة في التعامل مع دول أخرى مثل المجر وبولنده ٠٠ اذ كانت قوى التغيير موجودة فيهما وتناضل وتحقق مكاسب ضد الاشتراكية مثل الكنيسة البولندية وبعد ذلك حركة تضامن ٠٠ فكان على الأمريكيين أن يدفعوا حتى يكسبوا القوى المادية للاشتراكية قوة على قوة ٠٠ ولتحقق مكاسب أكثر ٠٠

أما في تشيكوسلوفاكيا فلم يكن هناك أي انتصار لأي قوة من أجل دحر النظام الاشتراكي أو اضعافه كما كان في المجر مثلا تشجيع للرأسمال الخاص ٠

من ناحية أخرى ان رأس المال يفضل طبعا أن يستمر في بلد ان يكون المردود فيها سريعا ومضمونا وتعود عليه ٠٠ ومن الأمثلة الساطعة على ذلك أن مجموع الاستثمارات الأمريكية في أوربا الشرقية كلها والاتحاد السوفيتي تبلغ ٢ر٥ مليار دولار بينما تبلغ في المكسيك وحدها ٢١ر٢ مليار دولار ؟! ٠٠

على أن الصعوبة لا تتوقف عند هذا أي عند قلة رأس المال ٠٠ بل ان هناك مشكلة لا تقل عن ذلك أهمية ٠٠ وهي عملية انعدام تقاليد اقتصاد السوق بآلافه المؤلفة من رجال الأعمال صغارا وكبارا ، وكذلك الكوادر والخبرات التقنية والأعراف الراسخة ٠٠ الخ ولذلك فانا نجد أن اللجنة الاقتصادية الأوربية التابعة للأمم المتحدة قد أوصت بأن ما تحتاجه بلدان أوربا الشرقية هو ليس الحصول على رءوس الأموال بشروط صندوق النقد الدولي بل المزيد من المساعدات التقنية في مجال الادارة واعداد الكوادر ٠٠

من ناحية أخرى انه نشأت مشاكل حساسة في عملية نقل الملكية العامة الى ملكية خاصة ٠٠ مثل حقوق الملاك اللذين أممت ممتلكاتهم في عام ١٩٤٨ ٠٠ ونسبة الأسهم التي تحتفظ بها الدولة والنسبة التي يجب أن تئول الى العاملين في المؤسسة وكيفية تحقيق مشاركة جدية للعمال في ادارة المؤسسات المشتركة ٠٠

أضف الى ذلك مشكلة تعود المواطن التشيكى على أن خدمات مثل مجانية التعليم وضمان حق العمل والعـــلاج الطبى المجانى وتوفر دور الحضانة والسكن الرخيص والكهرباء والغاز الرخيص ٠٠ انما هى خدمات مفروغ منها ونوع من الحقوق المكتسبة ٠

بينما تقضى عملية الانتقال الى الرأسمالية باخضاع هذه الخدمات لقوانين السوق شأنها شأن السلع الأخرى ٠٠

بل ان الأيدى العاملة ستصبح سلعة هى الأخرى وبالتالى ستخضع لقانون العرض والطلب ومن هنا يمكن أن تتزايد أعداد العاطلين ٠٠ وقد بلغت نسبة البطالة ٤٪ فعلا أى أكثر من ٣٥٠ ألف عاطل وهو ما لم تشهده البلاد من قبل ـ وهذا حدث وتشيكوسلوفاكيا مازالت فى بداية الطريق للتحول ومازالت هناك علاقات « اشتراكية » قوية وكثيرة موجودة فى صلب نسيج المجتمع ٠

وهذه البطالة مع المشكلة القومية والتهديد المستمر للمكاسب التى تحققت للشـــعب فى ظل النظام القديم تمثل خليطا سريع الاشتعال ومصدرا للتوترات الاجتماعية يخيف رأس المال الذى يميل الى الاستثمار فى الأوضاع التى يسودها الاستقرار ٠

وقد اعترف صندوق النقد الدولى نفسه بمثل هذه المخاطر الاجتماعية عندما أكد مدير الصندوق ميشيل كاد ماديوس على ضرورة ايجاد نظام للاعانات الاجتماعية من أجل حماية الاصلاحات الاقتصادية التى يدعو اليها الصندوق فى بلدان أوربا الشرقية ضد الانفجارات الاجتماعية ٠٠

ورغم توجسات رجال الأعمال ازاء هذه الظروف والاحتمالات ٠٠ الا أن هناك ادراكا عاما أن هذه أرض بكر فى مجال الاستثمار وتحتاج فقط الى مبادرات جريئة سريعة والمكاسب من ورائها مضمونة تماما ٠٠

لكن صمام الأمن الأكبر الذى تقدم الدولة التشيكية الجديدة لطمأنة رجال الأعمال واجتذابهم هو قيام الديمقراطية البرلمانية وتوفر الحريات والارادة السياسية ٠٠ ففى دولة القانون لن تصادر حقوق أحد ٠٠ وفى ظل الديمقراطية يعطى لكل صاحب حق حقه ٠٠ واذا لم يحصل عليه من حقه أن يتوجه الى القضاء ووسائل الاعلام والرأى العام بأسره ٠٠

كما أن تشيكوسلوفاكيا تريد الانخراط بأسرع وقت فى عملية التكامل الأوربية كما بدا ذلك واضحا فى تصريحات المســـئولين التى نشرناها فى فصول سابقة ٠٠

وتشيكوسلوفاكيا تعرف جيدا أنها لن تستطيع الانضمام الى الأسرة الأوربية دون حل مشاكلها وتذليل العقبات على اختلافها واشاعة الاستقرار

وازالة الحواجز التى تعترض حرية حركة رءوس الأموال لا سيما وأن السوق الموحدة الأوربية على الأبواب (١٩٩٢) ٠٠ يضاف الى ذلك أن المؤسسات المالية الدولية وخبراؤها أعربوا عن ثقتهم بأن عملية الانتقال الى السوق التى تدعمها هذه المؤسسات بالمال والخبرات انما هى عملية لا رجعة فيها ٠

ولا بأس بأن تلجأ الى الأرقام لترى ترجمة للمتاعب والصعوبات التى يواجهها النظام الجديد فى عملية التحول ٠

وهى أرقام تأخذها من مكتب الاحصاء الفيدرالى فى براغ ٠٠

تقول الأرقام ٠٠ أن حجم الناتج الاجتماعى فى عام ١٩٩٠ (العام الأول بعد سقوط الحكم الاشتراكى) كان يقل بنسبة ٢ر٣٪ عنه فى عام ١٩٨٩ ٠

ولذلك يسمونه بعام التحضير للاصلاح الاقتصادى الذى بدأ تنفيذه حقا من يناير ١٩٩١ ٠

وانتهت تجارة تشيكوسلوفاكيا الخارجية بعجز فى العام الماضى سواء مع اقتصاديات السوق (١٧ بليون كرونة) أو مع مجلس الكوميكون (٩ر١٢ بليون كرونة) ٠٠

وازداد اجمالى ديون تشيكوسلوفاكيا الخارجية بمقدار ٢٠٠ مليون دولار خلال عام ١٩٩٠ ومعنى ذلك أن هذه الديون أصبحت فى نهاية العام ٨ر١ مليار دولار ٠٠

وتتناقص حجم التجارة الخارجية بنسبة ٦ر٧٪ بالمقارنة مع عام ١٩٨٩ ، وانخفض حجم المنتجات المصدرة الى المانيا الديمقراطية سابقا بنسبة ٤ر٥٣٪ والى الاتحاد السوفيتى بنسبة ٤ر١١٪ والى بولنده بنسبة ٤ر٢١٪ كما انخفضت الواردات من هذه البلدان ٠٠

ولم يتحقق الهدف من التخفيضات المتكررة لسعر الكورونة التشيكية لحفز عملية التصدير وتشجيعها وتقليل الاستيراد فى التبادل التجارى مع الدول الرأسمالية ٠ اذ ازداد الاستيراد منها بنسبة ٧ر٩٪ بينما انخفض التصدير اليها بنسبة ١ر٣٪ ٠

وازدادت مساهمة رأس المال الأجنبى فى الاقتصاد التشيكى فى عام ١٩٩٠ وزاد عدد المؤسسات العاملة بمساهمة أجنبية على ٢٠٠٠ مؤسسة ٠

وازداد دخل السكان بسرعة كما ازداد انفاقهم ٠٠ فالمدخل النقدى زاد بنسبة ٧ر٨٪ بينما الانفاق بنسبة ٢ر١٢٪ ومعنى ذلك تناقص

المدخرات بشدة . وبلغ الادخار عام ١٩٩٠ نسبة ٣ر٠٪ من الدخل بينما كان عام ١٩٨٩ ٥ر٣٪ ..

وازداد عدد الرأسماليين بصرف النظر عن مستواهم الاقتصادى فأصبحوا ٤٤٨٤٠٠ أى حوالى نصف مليون فى نهاية العام ..

فى نفس الوقت ارتفعت تكاليف المعيشة بنسبة ٩ر٩ للعاملين فى المدن .. وعشرة فى المائة بالنسبة للمقيمين فى الريف ..

من خلال أحاديث ولقاءات عديدة مع صحفيين تشيكوسلوفاكيين .. ومن حسن الحظ أن أغلبهم يجيد الانجليزية أو الفرنسية بعكس الصحفيين فى المجر حيث أغلبهم لا يعرف غير المجرية .. يمكن تسجيل الملاحظات حول تجربة بلادهم ..

المستر بيتر أوهل رئيس وكالة الأنباء التشيكية مثلا .. فى رأيه أن الشيوعيين فى بلاده لم يستطيعوا أن يدركو أن مائة عام يمكن أن تكون قد غيرت من صحة وفاعلية بعض المبادىء الاشتراكية .. علاوة على أنهم طبقوا ما فهموه منها تطبيقا غاية فى السوء .

● الخلاف الحقيقى بين الأحزاب هنا يتركز حول نقطة واحدة .. اذ الجميع مع الاقتصاد الحر .. لكن البعض يريدون ما يمكن تسميته بالرأسمالية الاصلاحية .. والأخرون يريدونها اقتصادا حرا على طريقة المسز ثاكستر ونسميهم فى تشيكوسلوفاكيا « بشيكاغو بويز » أى أولاد شيكاغو !

● الحرية الواسعة الآن قد أدت الى انقسام كل حزب وتجمع : المعارضة والحكومة . لكن هذه الظاهرة لا تخيف أحدا .. فمن الطبيعى ان يحدث الاختلاف والانقسام والا فما معنى الحرية .

● كان عدد أعضاء الحزب الشيوعى مليون ونصف أصبحوا الآن أربعمائة ألف فقط ..

● سقوط حائط برلين ألهم شعبنا بالثورة .

● فى تشيكوسلوفاكيا يرفض اللذين خرجوا من الحزب الشيوعى

أن يسموا بالمنشقين على الحزب بل يسمونه هو بالمنشق لأنهم يعتبرون أن قيادته قد انشقت على أعضاء الحزب بقبولها الحكم فى عام ١٩٦٨ ! .

● هناك حملة فى البلاد للتخلص من الشيوعيين فى أجهزة الدولة ووزير المالية كلاوس يتزعم هـــذه الحملة ويردد فى هوس تقريبـــا

الشيوعيين ·· الشيوعيين · لأنهم ما زالوا يحتلون مواقع أساسية فى البرلمان مثلا توجد أربعة لجان برلمانية يترأس الشيوعيون لجنتان منذ عشرين عاما ··

ولكن لن تحدث حملة تصفية غير قانونية فنحن متمسكون بالديمقراطية تماما ولو جاءت الانتخابات القادمة بالشيوعيين مرة أخرى سنحترم النتيجة ونخضع لها ونواصل الكفاح ضدهم ··

● الاتجاه السائد بين المثقفين غير الشيوعيين هنا ·· أن الخطأ الرئيسى فى الاتحاد السوفيتى بدأ منذ تولى ستالين السلطة فأخطاء لينين يمكن تبريرها بحداثة قيام الثورة والقوى المعادية الكبيرة التى تصدت لها ·· أما ستالين من ١٩٢٤ بعد الانتصار فى حرب التدخل بدأ سياسة ارهابية تخريبية لم يكن لهـا مبرر قط وتخرج عن أهداف الاشتراكية النبيلة · ويعتقدون أن ستالين كان مجرما وليس مخطئا ·

ونظريته عن استمرار الصراع الطبقى بعد نجاح الثورة كانت ورقة الثورة لصراعه هو ليبقى فى السلطة ولوصفى معارضيه بعشرات الألوف · كما أنه ظل يخترع نظريات مثل ضرورة تقوية نفوذ الدولة لأنها محاطة بالأعداء داخليا وخارجيا عن طريق الأجهزة ·

ان ستالين خان الشعب الروسى الذى ناضل تحت أعلام الاشتراكية كما ناضل أى شعب من أجل أهداف نبيلة مثل المسلمين اللذين خاضوا نضالا ضد الاستعمار تحت أعلام الاسلام فى الجزائر ·

● أعتقد أن المستقبل يحمل فى طياته صراعا بين الشمال والجنوب وليس حول علاقات الانتاج ·· وأعتقد أن البشرية ستحتاج طويلا لاقتصاد السوق ·

ولكن الاتجاه لملكية الدول لبعض وسائل الانتاج الكبرى سيزيد · وأعتقد أن ذلك سيحدث فى أمريكا واليابان ·

● فصلنا من وكالة الأنباء التشيكية ٣٠٪ من المحررين · لأننا نتحول بسرعة الى وكالة على الطريقة الغربية ولن نبيع الوكالة وان كنا أقمنا مشروعا مشتركا مع الطليان خاص بمطبعتنا ·

● أخطر ما يواجه تشيكوسلوفاكيـا اليوم هو المشكلة القومية السلوفاكية حيث يريدون الانفصال هناك ·

ومن وجهة نظر الصحفى كولرمان ·· رئيس تحرير صحيفة مستقلة ·· فانه يرى ·

● لا شك أن السوفيت قد ضغطوا كثيرا على قيادة الحزب الشيوعى لقبول رغبة الجماهير فى التغيير وان كان لا يعتقد أنه كانت هناك مؤامرة أمريكية سوفيتية وانما ببساطة أن الاتحاد السوفيتى أدرك أن هذه النظم فى أوربا الشرقية لا تستطيع البقاء طويلا ٠ ولكنه يعتقد أن جناحا فى الحزب الشيوعى اتفق مع البوليس على ضرب المظاهرات فى البداية بشدة حتى يمكن استفزاز الجماهير ودفعها الى التظاهر أكثر حتى يمكن اسقاط الجناح المتشدد فى السلطة !

ولم يكن ذلك الجناح المعتدل يتوقع أن تفلت الأمور من يديه ٠٠ ولكن الذى حدث أن مليون متظاهر خرجوا للشارع وأضربت المسارح عن تقديم برامجها وكان لهذا تأثير كبير فى اثارة الجماهير واشعارها أن شيئا ما سيحدث أو يجب أن يحدث ٠٠

وعندما قامت المظاهرات بمئات الآلاف بعد ذلك دون تدخل من البوليس تشجع الناس وسقط الخوف من الدولة ٠٠

وعندما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الحاكم وأعلنت قبولها للتغييرات الديمقراطية ٠

● كان الوقت قد فات والزمام أفلت اذ سيطر المنتدى الديمقراطى على الجماهير ٠ ولم يعد هناك تقبل ولا ثقة فى الشيوعيين سواء الجناح المعتدل أم الجناح المتشدد ٠٠ وساعد على ذلك توالى استقالات الشيوعيين من الحزب فى تلك الفترة الحرجة ٠

● لا شك أن ارهاب الدولة كان العامل الأساسى لثورة الجماهير فقد كان هناك أكثر من عشرين ألف معتقل وسجين سياسى ٠٠ يعاملون معاملة سيئة ٠ وذلك فى فترة الخمسينات حتى قامت حركة ١٩٦٨ ٠

● ضعفت مكانة الشرطة فى الوقت الحالى وانتشرت الجريمة المعادية ويهاجم أى رجل شرطة أنه كان عميلا للعهد الماضى ٠

● المستر هافل رئيس الجمهورية الحالى هو الرجل الذى يمكن أن يمسك بزمام الأمور ويجمع أطراف البلاد ٠ وهو شخص نظيف عف اليدين وغير ملوث ٠٠ ويثق به الناس من زمان طويل وقد دفع من حريته سنوات ٠

● لا يعتقد أن اليهود لهم دور أساسى فى الانقلاب ٠٠ انما رجال البوليس السياسى السرى هم اللذين أشاعوا ذلك وزعموا تعاون المخابرات الأمريكية مع الموساد فى هذا الأمر وذلك للتغطية على أنه كانت هناك أسباب موضوعية تجعل من الانقلاب أمرا حتميا ٠

كيف يرى العرب الصورة فى تشيكوسلوفاكيا ..

تحدثت مع سفير مصر الأستاذ نبيل حلمى .. ومع الوزير المفوض فى السفارة المصرية هناك الدكتور خالد الكومى وهو متخصص فى شئون أوربا الشرقية وله اطلاع واسع بشأنها .. وساعده على ذلك أن رسالته فى الدكتوراه كانت عن الاشتراكية الدولية .. وكذلك المستشار التجارى ايهاب زيدان وهو شاب نشط واسع الاتصالات .

وهذه بعض الملامح التى فهمتها من لقاءاتى المستمرة بهما وهما يقدمان لى كل مساعدة .

● الرئيس هافل تسيطر عليه فكرة أساسية هى حقوق الانسان .. ومن ثم فهو يرى أن حل كل قضايا العالم يجب أن تحل من هذه الزاوية .

ولذلك فان تأييد تشيكوسلوفاكيا للقضية الفلسطينية سيستمر .. وان كانت تركز على أسلوب التفاوض . وقد استقبل هافل ياسر عرفات عام ١٩٩٠ كرئيس دولة .

● السياسة الأساسية لتشيكوسلوفاكيا قائمة على ١١ وجه نحو أوربا الغربية وقد نجحوا فى التوصـــل الى قرار بأن تكون براغ مقر للسكرتارية الدائمة لمؤتمر الأمن الأوروبى .

ويحاولون حاليا الحصول على الموافقة لتكون مقرا للسوق الأوربية المشتركة عام ١٩٩٥ .

● يتحدثون فى تشيكوسلوفاكيا عن عيوب الرأسمالية وتناقضاتها على أنها ظاهرة مؤقتة ستستمر طوال مرحلة انتقالية فقط ..

ولا يعلم الكثيرون أنها ظواهر مستمرة باستمرار النظام الرأسمالى وموجودة دائما فى كل بلد رأسمالى مثل البطالة واتساع دائرة الجريمة وبلوغها حد الجريمة المنظمة .

ولذلك بدأ خبراء الاقتصاد يوضحون من الآن .. أن التعويض عن استمرار تلك العيوب هو زيادة الانتاج بحيث يمكن القيام باصلاحات اجتماعية كالتأمين ضد البطالة لتخفيف ضرر هذه الظواهر ..

● لم تعد هناك أية دعاية فى تشيكوسلوفاكيا عن ظواهر نتحدث عنها نحن فى العالم الثالث مثل الاستعمار والامبريالية ونهب الشعوب . فأمريكا هى النموذج الذى يستهدف فى تحقيق مثله ولو بعد سـنوات طويلة بعكس الاتحاد السوفيتي الذي أصبح مكروها جدا .

● العلاقات بين تشيكوسلوفاكيا ومصر مستمرة وتتحسن وتشيكوسلوفاكيا لها رصيد طيب فى مصر منذ صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ ٠٠ والحكومة فى براغ تعتقد أن لمصر دورا هاما فى منطقة الشرق الأوسط ويسعدون طبعا بأنها أبرمت معاهدة سلام مع اسرائيل ٠٠ كما أن التناقضات التى حدثت بين مصر والاتحاد السوفيتى خففت الشعور الموجود لدى الحكام الجدد أن دول العالم الثالث كانت حليفة للاتحاد السوفيتى وللنظم الاشتراكية ولذلك فانها تتخذ مواقف عدائية ضد عمليات التحول الحالية ٠٠ بالاضافة الى التحول نفسه الذى يجرى فى مصر وهو يشابه كثيرا ما يحدث فى تشيكوسلوفاكيا وكثيرا ما يسأل المسئولون التشيك عن معلومات عما يجرى فى مصر ٠

● أن الفرصة مواتية جدا لرجال الأعمال المصريين كى يمارسوا نشاطا اقتصاديا بالتعاون مع الأوضاع الجديدة ٠٠ فالسوق خال ٠٠ وخصب وواسع ويتسع لأكثر ٠٠ والطريقة المثلى هى أن يقيم التجار المصريون محلات أو مجمع لبيع السلع المصرية هناك ٠٠ وستجد اقبالا ٠٠ بحكم التجربة ٠٠ ولا يجب الاعتماد من الآن فصاعدا على المؤسسات التجارية الحكومية اذ يذبل دورها يوما بعد يوم فى موضوع التبادل التجارى الدولى ٠

● ولعل العرب يبادرون بالاستثمار فى تشيكوسلوفاكيا حتى يكون لنا وجود هناك ٠

الحزب التشيكى يفسر !

والآن ماذا يقول الشيوعيون تفسيرا الانهيار نظامهم ؟ ٠٠٠

تعاقب على قيادة الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى عدد من الشخصيات القيادية ٠٠ كان آخرها « كالفا » الذى يتولى رئاسة الوزارة اليوم وأعلن استقالته من الحزب بعد أيام قليلة من توليه هذا المنصب بموجب اتفاق توفيقى بين القوى السياسية فى نوفمبر ١٩٨٩ فى عملية سنعرض لها فيما بعد ٠٠

وحاليا يترأس الحزب المستر سفوبودا ٠٠ وهو زعيم لا يعطيك فرصة تصور أنه يرأس حزبا كان يحكم هذا البلد الصناعى المتقدم حتى عام ١٩٨٩ ٠٠ فهو شاب لا يزيد عمره عن ٣٥ عاما ٠٠ ويعمل مخرجا سينمائيا (قبل تولى مسئولية الحزب) ٠٠ ويرتدى قميصا عاديا جدا فوق بنطلون جينز ٠٠

ويبدو أن الجينز عادة محببة لكل السياسيين البارزين فى تشيكوسلوفاكيا فهذا كان هافل رئيس الجمهورية الحالى يرتدى الجينز دائما وظل يرتديه وهو يتزعم يوما بعد يوم قيادة الثورة المناوئة للحزب الشيوعى ولم يخلعه مضطرا على حد تعبيره الا عندما اختير رئيسا للجمهورية ومع ذلك فان الرئيس يعود الى ارتداء الجينز كلما ترك أعباء المنصب وسافر للاستجمام أو الراحة ٠٠

ظاهرة أخرى أن معظم قادة العمل السياسى فى تشيكوسلوفاكيا والمجر من الشباب ٠

وتفسير هذه الظاهرة بسيط أن الثورة الشيوعية جاءت على أيدى الشباب ٠٠ وهى ظاهرة ذات مغزى لأن الشيوعيين فى تلك البلاد كانوا

يقولون دائما ان الشباب هو غرس الثورة الذى استفاد أساسا بمكاسبها من تعليم مجانى ومساكن وتشجيع على الزواج وقضاء على البطالة ·· وفوق هذا أقامت الدولة أو الحزب له منظمات شباب تعلن وتدرب على الاشتراكية والعمل الاشتراكى ·· ومع ذلك أن الذين شقوا عصا الطاعة على الاشتراكية كانوا فى البدء من الشباب استمروا فى ثورتهم حتى كسبوا ·· وانتصروا وتولى الحكم عدد منهم ··

غرفة زعيم الحزب الشيوعى (بحالته الحالية) متواضعة جدا ·· رغم أنها واسعة وقد انتشرت الكتب والمجلات فى كل مكان ·· وجاء اثنان من أعضاء الحزب ومعهما أوراق وأقلام وجلسا يسجلان فيما يبدو لى الحوار أو نقطا منه ··

لم تكن هناك رائحة الفخفخة والبيروقراطية والعنجهية والهيبة التى تعودت أن أراها فى مكاتب قادة الأحزاب الشيوعية حتى فى الجمهوريات الآسيوية الاسلامية ·· ولم تكن هناك على الجدران صور لينين ·· ولا أى زعيم شيوعى ··

ولكنى لاحظت أنه لا توجد أى علائم أو سمات تدل على أن هؤلاء الجالسين أمامى يمثلون جيشا مهزوما ·· فشل بعد أربعين عاما من امساكه بالسلطة بكل أطرافها أن يكسب رضا الجماهير ·· بل فى أول فرصة مارست هذه الجماهير بعض الحرية أطاحت به فى ساعات ··

كانوا عاديين جدا ·· ومرحين ·· وهادئين ·· وواثقين جدا من أنفسهم ·· وكان أول سؤال سألته لزعيم الحزب عن هذه الظاهرة ·· اذ قلت له وأنا أضحك ··

عندنا التلميذ الذى يرسب فى مجرد امتحان الثانوية العامة يبدو طول الوقت فى حزن عميق وينتابه الأسف والندم ·· ألا تشعرون أنتم بشىء من هذا ؟!

لدهشتى ضحك فى صوت عال ·· أجزم أنها من أعماق قلبه ·· وقال ·· الندم أو الحزن يجب ألا يستغرق السياسى ويلهيه عن أن السياسة عمل مستمر ·· ملىء بالانتصارات والهزائم ·· اننا لسنا هواة ·· نحن لنا تاريخ عميق جدا فى الكفاح من أجل تحرير هذا الوطن الذى تراه من النازيين ·· وساعدنا الانجليز والأمريكيون والسوفييت بالدرجة الأولى ·· ثم نحن اختارنا الشعب ــ رغم أن البعض ينكر هذا الآن ــ وكانت لنا أحلام أن نحقق معه السعادة والتقدم والرفاهية والمساواة ·· ولكنا فشلنا فى تحقيق كل ما نريد ·· حققنا البعض فعلا ·· ولكننا لم نحقق الكثير ··

التقطت الخيط وسألته ..

● لماذا لم تحققـــوا ما تريدون وكل شيء كان في أيديكم .. وكانت لكم تجربة هامة هما ثورة الشعب أو هبته ضدكم عام ١٩٦٨ .

قال في هدوء .. وابتسامته العذبة لا تفارقه ..

ـ لقد أخطأ الحزب الشـــيوعي أخطاء جســيمة .. أدت بنـــا وبتشيكوسلوفاكيا الى الحال التي وصلنا اليها الآن .

قلت :

● لحظة من فضلك .. مفهوم الحال التي وصلتم أنتم اليها .. خرجتم من الحكم وأصبحتم مجرد حزب صغير لكن ما هي الحالة التي وصلت اليها تشيكوسلوفاكيا التي تستدعي الآسى وضرب المثل ؟ ..

قال :

ـ أولا نحن لسنا حزبا صغيرا .. نحن ثاني حزب معارضة في البلاد ولنـــا ٤٣ نائبـــا في البرلمان الفيدرالي .. أما تشيكوسلوفاكيـــا فسأحدثك عن حالها فيما بعد .. ودعنا نتحدث الآن عن أخطائنا .. ربما استفدتم من تجربتنا ..

وسأل ..

أليس عندكم حزب شيوعي ؟ ..

الحزب الشيوعي ممنوع اقامته في مصر بموجب القانون .. لكنه موجود سرا وله بعض النشاط العلني .. ولكن مع ذلك فان الشيوعيين المصريين وغيرهم من شيوعي العالم قد تعلموا من رأس الذئب الطائر .. فلم ولن يعودوا يطالبون بالملكية العامة لوسائل الانتاج .. ولا بالديكتاتورية للعمال والفلاحين .. الخ .. انهم يناضلون من أجل نفس الأهداف التي تنادي بها الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب تقريبا !

بدأ مستر سفوبودا .. رئيس الحزب يعدد الأخطاء ..

أول وأكبر خطأ ارتكبه الحزب هو تخليه عن البرجوازية الصغيرة بل انه طعنها في الصميم .. ذلك لأن الحزب في برنامجه عام ١٩٤٦ وعد أنه سيحمي الرأسماليين الصـــغار ضـــد الرأسمالية الكبيرة وكبار الملاك ..

لكن بعد نجاحه في الانتخابات .. تنكر لوعوده وبرامجه ومضى في يسارية متطرفة يؤمم كل وسائل الانتاج « ويخرب بيوت » البرجوازية

الصغيرة وهى طبقة واسعة جدا ·· ومنتشرة فى المدن والريف ·· ويقوم قطاع كبير منها بتقديم الخدمات للجماهير ··

● أريد أعرف منك بشرح مبسط كيف أضر ذلك بالاقتصاد الاشتراكى وتطوره فى بلادكم ؟

قال :

ببساطة ان هذا يؤدى الى انخفاض معدلات الانتاج لأنك حرمت قطاعا يقدر عدده بالملايين من أن ينتج ويستخدم حوافز الرغبة فى العائد الشخصى عليه من ثمرة عمله ··

من ناحية أخرى أثرت تذمر الملايين من السكان الذين كانوا يبحثون عن خدمة مثل اصلاح سيارة أو حلاقة للشعر مثلا فيأخذ دوره فى ورش الدولة بعد شهر أو شهرين ·· بل ان محلات الحلاقة كانت أشبه بالمصنع اذ تدخل المحل تجد فيه خمسين أو مائة مقعد ·· والناس متراصون والعمال فوق رءوسهم يحلقون ·· منظر غير مريح كما نرى !!

وأدى هذا النظام الجماعى المتشدد الى ظهور بيروقراطية شديدة جدا ·· فى كل مرافق الدولة ··

والبيروقراطية كما تعلم لا تكتفى تعطيل النشاط وعرقلته بل يتحول البيروقراطيون أنفسهم الى طبقة تستحوذ على الامتيازات وتضع نفسها فوق الشعب ·· بل بمرور الزمن تتحول الى طبقة جديدة وأذكرك هنا بكتاب ملفين جيلاس فى يوغوسلافيا عن الطبقة الجديدة ··

ويشجع تلك الطبقة الجديدة على الانتشار ويثبت مكانها ·· غياب الديمقراطية · فلا أحد يكشفها أو يحاسبها ··

الخطأ الثانى أن الحزب أصبح جزءا من الدولة ·· أى اندمج الاثنان وأصبح الحزب هو القوة الحاكمة فعلا ·· وبالتالى فان أى تصويت للجماهير ومشاركتها فى الانتخابات لا جدوى منه ·· لأنه فى النهاية يتحكم فى مصير البرلمان والمجالس المحلية وأى شكل منتخب خلايا الحزب فى كل مكان ··

من هنا يلغى تماما دور الجماهير أو مشاركتها فى الحكم ·· لأن الشعب كله ليس شيوعيا ·· وبالتالى ألغى دور كل الناس الذين ليسوا شيوعيين أو مناصرين للشيوعية ··

قلت له أريد هنا أن أستوقفك وأنت تتحدث عن الانتخابات ··

هل كانت الانتخابات تزور وتزيف اذن اذ كنا نرى النتائج ٩٩٪ أو أحيانا مائة فى المائة • فهل كان هذا صحيحا ••

انها كانت تزور فعلا •• أو بالأحرى ان النتائج لم تكن تعبر عن الحقيقة لأنك اذا كنت تقصد بالتزوير التلاعب فى الصناديق أو العبث بالأوراق الانتخابيـة نفسهـا وتسجيل أرقام مضللة •• فهذا لم يكن يحدث •• ولم يكن يحدث فى البلاد الاشتراكية فى عهد ستالين ••

ان التزوير كان فى المناخ العام الذى يفرضه النظام •• فقد كانت الشمولية تجعل الجماهير كأنها « فأر فى مصيدة » فالى أين تذهب •• ليس أمامها الا أن تصوت مع الذين يرشحهم الحزب •• فأولا كان هناك وقت لا يوجد مرشحون غيره أعضائه •• ثم لما وجد غيره كانوا حلفاء له فى جبهة •• ولا توجد حرية اجتماعات وتعبير ولا صحافة حرة تنقد هذا المرشح أو ذاك ••

وبالتالى •• كان الجميع كأنهم منومون مغناطيسيا •• يختـارون ما اختاره لهم الحزب منذ البداية ••

ولكن من الطبيعى أنه كان يوجد جماهير تختار أعضـاء الحزب باختيارها الحر لأن هؤلاء الأعضاء كانوا يقدمون خدمات فعلا •• لكن حرية الاختيار هذه تضاءلت يوما بعد يوم بانعزال الجماهير عن الحزب •• وبالتالى كان رد الفعل هو تشديد قبضـة الدولة والمبـالغة فى الاثارة والدعاية ••

● لكن كيف كانت انتخابات ١٩٤٨ حرة اذن ؟

ـ لأننا كنا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة والمد الديمقراطى الذى نتج عنها موجود وكانت هناك أحزاب وقوى سياسية عديدة شاركت فى المعركة ضد النازية فكانت حرية التعبير السياسى موجودة •• لذلك قال الناس رأيهم عند صناديق الانتخابات دون ضغط وهم واعون جدا لما يفعلون ••

نمضى بعد تلك المقاطعة فى الحديث عن أخطاء الحزب الشيوعى التى أدت الى طرده من الحكم ••

يقول رئيسه •• ان جوتوالد زعيم الحزب بعد نجاحه فى انخابات عام ١٩٤٨ وعد الشعب بأن تشيكوسلوفاكيـا ستطبق الاشتراكية على طريقتها الخاصة التى تتفق مع ظروفها •

ولكن ذلك لم يحدث فى جميع الأحوال بل ان نظام ستالين فرض على تشيكوسلوفاكيا نظاما سوفيتيا من اشتراكية وغيرها ••

وعندما عارض بعض أعضاء الحزب المخلصين هذا التوجه فى تخليد الاتحاد السوفيتى قبض عليهم بايحاء من ستالين وقدموا للمحاكم بتهمة المنشقين والتعصب القومى ومعاداة الأممية ٠

وكانت محاكمات ١٩٥٠ فى تشيكوسلوفاكيا مثل محاكمات ستالين فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٣٦ ضد خصومه ٠٠ وتركت جراحا غائرة فى نفس الشعب التشيكى ٠٠

وسكت رئيس الحزب لحظة وقال :

ـ فى رأيى أن هذه المحاكمات كانت بداية انصراف جماهير الحزب الشيوعى التى انتخبته فى حماس عام ١٩٤٨ عن تأييده ٠٠ ومهدت لأحداث ١٩٤٨ ٠٠

لقد كانت محاكمات ذكرتنا بمحاكم التفتيش فى القرون الوسطى !٠

قلت للمستر سفوبودا ٠٠

من فضلك أريد التوقف هنا لأسألك لماذا خضعت قيادة الحزب التشيكوسلوفاكى للضغط الستالينى لفرض النموذج السوفيتى فى الاشتراكية ٠٠ حيث أن هذه ظاهرة عامة فى كل بلاد أوربا الشرقية ؟٠ ما الذى يجبر بلدا مستقلا وحزبا مناضلا معظم أعضائه أثبتوا صلابتهم فى معارك مباشرة مع أخطر الأعداء وأشدهم بشاعة وجبروتا ؟ ٠٠

قال زعيم الحزب ٠٠

ـ هذا سؤال وجيه حقا ٠٠ ولقد حيرنا نحن شباب الحزب طويلا ٠٠ حتى استطعنا العثور على اجابات مقنعة حوله ٠٠

أولا ضع فى اعتبارك الأحوال الدولية التى أحاطت بالدول الشرقية وهى فى حالة المخاض للاشتراكية !

المؤامرات كانت مستمرة على النظام الاشتراكى ٠٠ التهديدات بسحق الاتحاد السوفيتى بالقنابل الذرية ٠٠ ولعلكم لا تنسون دعوى تشرشل بشأن هذا منذ عام ١٩٤٦ ٠٠ والحصار الاقتصادى ٠٠ والحملة الهيستيرية ضد الشيوعية والحزب الكورية ٠٠ ثم حرب فيتنام ٠

وما كان يجرى من تخريب فى جمهورية المانيا الديمقراطية عن طريق مدينة برلين التى كانت مفتوحة بين شطريها حينذاك وكيف أدى ذلك الى حصار برلين الشهير ٠٠ هذا الجو العدائى للنظم الاشتراكية الجديدة جعل قادة الأحزاب الحاكمة فيها لا تجد ملاذا لهـا ولحمايتها الا الاتحاد السوفيتى ٠٠

ثم ان الجيش السوفيتى كان موجودا على أرض البلاد ٠٠ وكان يمثل بالنسبة لزعماء هذه البلاد درع الأمان فى مواجهة أعداء الاشتراكية ٠

من ناحية أخرى كان ستالين قد اكتسب سمعة هائلة فى كل العالم الاشتراكى ٠٠ ووصل احترامه وتعلق الجماهير به على أنه البطل المفرد الذى ينقذ البشرية والدعوة الاشتراكية ٠٠ وهو ما سمى بعد ذلك بعبادة الفرد ٠٠

وهذه الهالة التى كانت تحيط بستالين كانت تجعل معظم الزعماء الشيوعيين يعملون حسابا له ويخشونه ٠٠

● ولكن تيتو تمرد عليه عام ١٩٤٨ ولم يحدث شىء ؟

علق على تولى قائلا ٠٠

ـ كان تيتو نفسه يعد نفسه ليكون الها جديدا ٠٠ وتذكر أن الجيش الأحمر لم يكن يحتل يوغوسلافيا ٠٠ وتقريبا حركة التحرير اليوغوسلافيا بقيادة تيتو هما التى حررتها ٠٠ والانجليز كانت لهم يد طولى فى مساعدتها ٠

وعزز ايمان قادة الأحزاب الشيوعية بالستالينية أى بمنهج ستالين أنه استطاع أن يهزم النازية فى حرب قاسية وحشية مما عزز فكرة أن النظام الذى بناه كان نظاما ناجحا بدليل صموده ٠

ولا تنس أن أغلب هؤلاء القادة كانوا فى المنافى قبل أن يجىء بهم الجيش الأحمر ٠٠ وكانوا مقيمين فى الاتحاد السوفيتى فى معظم الأوقات ٠٠ وبالتالى يشعرون أنهم مدينون له حتى بالبقاء ٠٠

● لماذا عمدت هذه الدول ومنها بلادكم وهى التى كانت تتمتع بالديمقراطية الى فرض نظام ديكتاتورى ؟

ـ لايمان قادة الحزب الشيوعى بنظرية ستالين التى ثبت خطؤها وهى التى جرت المصائب على كل الدول الاشتراكية ٠

نظرية استمرار الصراع الطبقى بعد تطبيق الاشتراكية واشتداده بحيث يشكل تناقضا رئيسيا ٠٠

● ما الخطأ فى هذه النظرية اذن ؟

ـ الصراع الطبقى يكون حادا طالما يوجد قطبا الصراع فى حالة نزاع ٠ لكن اذا استطاع قطب من القطبين نفى وجود الآخر فكيف يستمر حادا ويمثل تناقضا رئيسيا ؟ ٠

وسأضرب لك مثلا : كان هناك التناقض الرئيسى بين المعسكرين الرأسمالى بزعامة أمريكا والاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفيتى ٠٠

الآن ذبل دور الاتحاد السوفيتى ولم يعد قطبا ينافس الولايات المتحدة وأصبح فى العالم قطب واحد هو الولايات المتحدة ٠٠ فكيف تقول ان هناك صراع بين قطبين ٠٠ وصراع حاد أيضا ٠٠ (لم يكن الاتحاد السوفيتى قد انتهى أيام ذلك الحوار) ٠

كذلك فى الصراع الطبقى بين الرأسمالية والطبقة العاملة ٠٠ عندما تستولى الطبقة العاملة على الحكم ٠٠ يصبح المجتمع تحت سيطرتها ٠٠ صحيح أن الرأسمالية ستواصل المقاومة لكن وهى مجردة من الأنياب ٠٠ أى أجهزة الدولة ٠٠ وهنا فان الصراع لم يعد حادا ولا يمثل تناقضا رئيسيا ٠٠

● ما نتيجة هذا القول عمليا ٠٠

ـ نتيجته ان الشيوعيين مفروض أنهم عندما يستولون على السلطة يكفون عن استخدام القوة والعنف مع خصومهم لأن خصمهم الرئيسى قد هزم ولا يمارسون ديكتاتورية ٠٠ بل يفتحون الباب دون خوف للنشاط السياسى الحر ٠٠ فهذا يكسبهم ارتباط الجماهير بهم ٠٠ ويشحذ عزيمة حزبهم للاستمرار فى العمل من أجل استمرار كسب الجماهير التى أيدته عندما استولى على السلطة أو شاركت فى الاستيلاء عليها ٠٠ وذلك بمواصلة النضال من أجل مصالحها ٠٠

أما اذا كنت مقتنعا بنظرية ستالين عن حدة الصراع الطبقى بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم فمن الطبيعى أن تفرض نظاما ديكتاتوريا ارهابيا رهيبا ويتحول الحزب الشيوعى الى مجموعة من العناصر الدموية التى تتصور نفسها مبعوثة العناية الالهية لفرض الاشتراكية والعدل الاجتماعى بين الناس وتفرض عليهم وصاية باعتبار أنهم عملاء ستضللهم الرأسمالية بألاعيبها وحيلها التاريخية ٠٠

● اذن السبب فى فشل الاشتراكين هو أخطاء فى صميم النظرية نفسها وليس بمبدأ فى التطبيق فقط ! ٠٠٠

ـ ان ستالين زعم أنه أضاف الى الماركسية كما أضاف اليها لينين ولذلك أطلق الشيوعيون السوفيت على النظرية الماركسية اللينينية الستالينية ٠٠ وبهذا المعنى تكون الستالينية قد أضافت أخطاء فى صميم نظرية الاشتراكية العلمية ٠

مثلما أضاف فى وقت من الأوقات نظرية ازدياد التناقض بين الدول الرأسمالية بعضها البعض أكثر من تناقضها مع النظام الاشتراكى واحتمال قيام حرب بينها كما حدث فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ٠٠ وثبت أن هذا كله هراء !

● لنستمر فى حديثنا عن أخطاء حزبكم خلال حكم تشيكوسلوفاكيا.

ـ بناء على التبعية للنموذج السوفيتى فاننا ركزنا على الصناعة النقيلة بينما تشيكوسلوفاكيا كانت مشهورة بأنها بارعة فى انتاج الصناعات الخفيفة الاستهلاكية التى تحقق ارتفاعات فى مستوى المعيشة ٠٠ وكان ممكنا لو اتجهنا هذا الاتجاه أن ننافس بلادا رأسمالية فى هذا المجال ٠٠

ولكنا كنا نعتبر للأسف أن تقدم حياة الشعب تقاس بمقدار نصيب الفرد فيه من الحديد والصلب !! بينما كان الناس يتطلعون الى الترانزستور وزجاجة الكوكاكولا ٠٠

تصور كنا نستطيع صناعة الدبابات واللوريات الثقيلة ٠٠ ونعجز عن صناعة زجاجة كوكاكولا تجذب الناس وتطفى ظمأهم بحيث جاء وقت كان وجود زجاجة كوكاكولا يعتبر أعجوبة الزمان ويثير الدعاية للنظام الرأسمالى ٠٠ بل ويسيل لعابْ الجماهير لهذا النظام ٠٠

الشيوعيون :

أين الطريق الثالث ؟

ويستمر الحوار مع رئيس الحزب الشيوعي المستر سوفوبودا عن أخطاء حزبه منذ تولى السلطة فى تشيكوسلوفاكيا نتيجة اختيار حر فى انتخابات ١٩٤٨ آخر انتخابات حرة فى البلاد ..

سألته من الذى أثار سخط الجماهير على النظام الاشتراكى وألبها عليه ؟ . قال ..

اسمح لى أن أعدل لك سؤالك .. فالجماهير كانت ساخطة فى الأصل على النظام للأخطاء التى ارتكبها الحزب .. والأحرى أن يكون السؤال : من الذى نظم ذلك السخط .. وقاد الجماهير لتكسب المعركة ضد الحزب الحاكم ..

قلت ..

حسنا .. شكرا لهذا التعديل والتحديد .. من هى القوة السياسية اذن ؟

قال :

ـ بلا تردد .. المثقفون ..

قلت :

● اذن كان وهما التصوير التقليدى أن الطبقة العاملة هى الطبقة الثورية والطليعة للنضال من أجل التغيير والتطور .. الخ ..

قال ضاحكا ..

ـ الواقع أن المثقفين على مدى التاريخ هم صانعو الأفكار ٠٠ لم يحدث فى التاريخ أن أفرز عامل أو فلاح نظرية للتطور الاجتماعى أو العلمى ٠٠ وهذا طبيعى ولايدل على نقص فى الطبقة العاملة أو عيب ٠٠ لكن المشكلة أنه ليس بوسع العمال أن يخترعوا أو يكتشفوا نظريات لسبب بسيط جدا هو حظهم المحدود من العلم والاستغلال البشع الذى خضعوا له بحيث يستغرق كل وقتهم ولا يجدون وقتا للتأمل والتفكير فى وضع النظريات ٠٠

أما المثقفون ٠٠ منذ بدأ الانسان يستعثر فى عملية الانتـــاج فى المجتمع الزراعى العبودى فهم اللذين أتيحت لهم فرص التأمل والتفكير واكتشاف القوانين الطبيعية ٠٠ ووضع الاقتراحات بل المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فردريك انجلز ٠٠ ولينين ٠٠ وستالين ٠٠ وتروتسكى ٠٠

هؤلاء اكتشفوا واستنبطو أن الطبقة العاملة هى القطب المضـــــاد للرأسمالية وبالتالى فان مصلحتها الأساسية هى القضاء على ذلك القطب ٠٠ وبحكم هذه المصلحة فان نضالها هو طليعة النضالات الأخرى وأكثرها فعالية ٠٠

أنظر الى ما يحدث فى أى بلد عندما يضرب العمال عن العمل ؟ ٠٠

من هنا فان المثقفين التشيكوسلوفاكيين هم أول من اكتشف عيوب النظام وفهم أسبابها ٠٠ وتشوف المستقبل ٠٠

فى نفس الوقت كان الطلبـــة وهم قطاع من المثقفين وان كانـــوا محدودى الثقافة الا أن بوسعهم تلقيها والاستزادة منها ٠٠ علاوة على طابعهم الجماهيرى اذ يوجدون فى شكل تكتلات فى الجامعات والمعاهد والمدارس ٠٠ وبالتالى فان بوسعهم القيـــام بمظاهرات تجمع عشرات بل مئات الألوف ٠٠

المثقفون والطلبة ٠٠ هؤلاء هم اللذين فهموا ٠٠ وسرى اليهم الوعى ٠٠ ثم تحركوا ٠٠ وجذبوا وراءهم جميع المتمردين ٠٠

ولاحظ أن المثقفين والطلبة يمثلون قطاعا من البرجوازية الصغيرة فأثروا فيها تأثيرا كبيرا ٠٠

● وأين كان الحزب الشيوعى من عملية الوعى التى بدأت تنتشر بين المثقفين ؟

ـ الحزب الشيوعى جزء من الشعب ٠٠ لهـــذا بـــدأ الكثيرون من أعضائه يتأثرون ويفيدون التفكير فى كثير من المسلمات التاريخية ٠٠ وقد تأثروا كثيرا بالكشف عن عيوب وجرائم الستالينية ٠٠ وسقوط اضافاتها

النظرية بعد التقرير الجرىء الذى قدمه خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٥٦ ٠٠

ويمكن اعتبار فترة الستينات فترة هامة فى حياة حزبنا ٠٠ اذ تنامى الوعى خلالها بحقوق الانسان ٠٠ وتكشفت عيوب الشمولية ٠٠ وكبت الحريات خصوصا بعد صدمتى محاكمات ١٩٥٠ وكشف عبادة الفرد الستالينية ٠٠ **لم يعد ستالين مقدسا ٠٠ ولا الستالينية مقدسة ٠٠** ولا النموذج السوفيتى للاشتراكية مقدسا ٠٠ هذا بالاضافة الى تمرد البرجوازية الصغيرة التى أدخلها النظام قسرا فى الاشتراكية ٠٠

والنقص الحاد فى السلع الاستهلاكية ٠

ثم ان المثقفين بداوا يشعرون أنهم من الناحية الاقتصادية على الأقل مواطنون من الدرجة الثانية اذ كان أجر الطبيب أو المهندس أقل بكثير من أجر العامل ٠٠ مع أن الطبيب أو المهندس قضى ثلاثة عشر عاما مثلا يعمل أى يتعلم حتى أصبح مهندسا ٠٠ بينما العامل حصل على فترة تدريب ستة شهور فقط مثلا ٠٠

فكانوا يردون على المثقفين فى الحزب ان العامل يستحق أجرا أعلى لأنه ينتج ٠٠ فيرد المثقفون : وهل عمل المهندس ليس انتاجا ٠٠ وهل علاج المريض ليس انتاجا ٠٠

وظهرالجمود العقائدى بأقصى درجاته عندما صور منظرو وكهنة الحزب الشيوعى أن الانتاج فقط هو الانتاج السلعى فقط أى انتاج سلعة يستهلكها أو نصنع بها سلعا أخرى ٠٠ بينما الخدمات ليست سلعا ٠٠ والنقل ليس سلعا ٠٠ وهكذا ٠٠ ظهر تناقض ما كان له ضرورة ولا أساس على الاطلاق بين المهنيين (وهم قطاع من المثقفين وبين العمال) ٠٠

وسكت رئيس الحزب الشيوعى لحظة ٠٠ ثم قال لى وهو يدعونى لشراب عصير التفاح البارد فى ظل درجة حرارة مرتفعة فى براغ قف ذلك الوقت وكأننا فى القاهرة ٠٠

ـ هل تذكر كيف كان جومولكا رئيس الحزب الشيوعى البولندى يأتى بالعمال حاملين الهراوات ويقتحمون الجامعات ليضربوا الطلبة اللذين كانوا يتظاهرون من أجل مطالب ديمقراطية واقتصادية لهم ؟ ٠ لقد كان ذلك نموذجا لتجسيد كيف خلقت تلك النظم الاشتراكية التناقضات فى صفوف الشعب وكثفتها ! ٠٠

وأضفت أنا قائلا ٠٠

ولم يفد ذلك النظام الاشتراكى بشىء اذ مرت الأيام وثارت الطبقة العاملة ذاتها بقيادة عامل مسيحى ديمقراطى نصف جاهل ضد الحزب الشيوعى المفروض أنه حزبها وطليعتها ·· ولفظت الحزب ·· ونصبت ذلك العامل الشديد العداء للاشتراكية رئيسا للجمهورية ··

عاد مستر سفوبودا يقول ··

ـ كل هذه التيارات كانت فى الحزب ·· وتجمعت ·· وتلاقت عند هدف واحد لخصه فى كلمتين : الاشتراكية الانسانية ··

● ما معنى هذا ·· اذ أذكر أن هناك نقدا ساخرا كان يوجه لذلك الشعار عندما قامت حركتكم عام ١٩٦٨ ·· بزعم أن الاشتراكية بطبيعتها انسانية ··

أجـاب ··

لا ·· من الممكن أن توجـد اشتراكية وغير انسانية ·· وهى فى الحقيقة ليست الاشتراكية التى تحدث عنها ماركس ·· وأعنى ·· أن تستولى الدولة على وسائل الانتاج وتجعل ملكيتها مشتركة أى جماعية ·· لكن النظام السياسى يصبح ديكتاتوريا ·· ويسلط سـيف الارهاب على الجميع حتى على الاشتراكيين لمجرد خلافهم مع زعامة الحزب ·· فيتحول النظام فى الحقيقة الى رأسمالية دولة ديكتاتورية ارهابيـة تسبب ثورة الجماهير عليها ··

وقامت حركة ١٩٦٨ ·· وللأسف قمعت الحركة بالقوة بواسـطه الجيش السوفيتى وحلف وارسو ·· وكان هدفها ببساطة ·· أن تحقق الاشتراكية الديمقراطية أى الحرية السياسية لكل أبناء الأمة فى جميع مجالات الحياة خصوصا الثقافية والصحفية ·· سألت رئيس الحزب ··

● أعتقد أنه منذ ذلك التاريخ بدأ الزلزال ··

ضحك وقال ··

فعلا هو زلزال ··

فقد بدأت الكراهية تدخل قلوب التشيكيين ضد الاتحاد السوفيتى ·· ولم يعودوا يرون فى الأممية سوى سـيفا لردعهم هم وقمعهم ·· وللعلم لم يكن الاتحاد السوفيتى مكروها من الشعب التشيكى فى البداية·

تغيرت الحكومة وعلى رأسها دوبتشيك كما هو معروف وجاء حكام أخرون ·· واعتقد الجميع أن هؤلاء الحكام الجدد انمـا جاءوا على رأس الحراب السوفيتية ··

ــ حدثت أول عملية انتحارية للنظام الجديد ·· اذ حدثت عملية تطهير واسعة فى الحزب فقد فصل ٥٠٠ ألف عضو لأنهم عارضوا التدخل السوفيتى فى شئون بلادهم ··

وقطاع كبير جدا من المفصولين كان من المثقفين والتكنولوجيين ··

وتقرر فصلهم جميعا من العمل ·· فأصبحوا عاطلين يضفون أحزانهم وسخطهم وينشرونه بين الناس فى جلساتهم ولقاءاتهم ·· خصوصا أن أغلبهم كان لديهم أسرة كاملة · فخلق هذا الوضع تذمرا داخل المجتمع ·· والتذمر تحول الى مقاومة ··

وسكت رئيس الحزب لحظة وقال ولذلك فانى أحذر أى نظام من عمليات الانتقام أو التطهير الجماعى ·· انه فى الحقيقة يحفر قبره بيديه أو على الأقل يتسبب فى متاعب تستمر طويلا ·

● لماذا تعتقد أن الاتحاد السوفيتى قد قام بعملية قمع حركة ١٩٦٨ ؟

ــ هذا ما أثار دهشة أعضاء الحزب ·· فلم تكن العلاقات متوترة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بحيث يبرر تشدد السوفيتى فى مواجهة حركة اصلاح داخلية ·· كان ممكنا أن تؤثر فى تطور المنطقة كلها وتطور الاتحاد السوفيتى نفسه ·· ولا يوجد تفسير معقول واحد سوى تجمد الفهم للماركسية وتحجره عند قيادة الحزب الشيوعى السوفيتية ·· ولا تنس أن تيار التجديد فيه الذى حاوله خرشوف قد وجد مقاومة ضخمة حتى هزم بل تحطم ·· ولا تنس ما ينسب اليوم الى بريجنيف من تحجر وتجمد أديا الى ركود النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى تسعة عشر عاما كما يقولون هى سبب المصائب التى حدثت وتحدث له ·· وللوضع العالمى كله ··

● هل ترى اذن أن هناك مصائب حدثت نتيجة الوضع العالمى الحالى ؟

ــ دعنى أسألك ·· ألا تحسون أنتم بذلك فى العالم الثالث ·· أنتم وحدكم الآن ·

● ماذا تحقق خلال الفترة التى سبقت ١٩٦٨ ؟

ــ أمكن تدبير كفاية تشيكوسلوفاكيا من الطعام ·· وبالتالى تفادينا خطر استخدام قوة أو سلاح الغذاء ··

وأنت ترى أنه سلاح قوى جاء وقت استخدمته أمريكا مع الاتحاد

السوفيتى · وتشترى به نفوذا سياسيا مهما كابر السوفيت ··

● وكيف نجحتم فى تحقيق الاكتفاء الذاتى اذن ؟

ـ حققنا الوفرة فى الغذاء بواسطة الجمعيات التعاونية الريفية ·· لقد اعتبرناها جزءا من التنمية الاشتراكية بل وأمكننا تصدير بعض الطعام الفائض ·

وسكت لحظة ليقول :

والواقع أن ما يؤرق نظام الحكم الحالى هو تلك التعاونيات ·· انها الشكل الجماعى الوحيد الناجح فى عملية الانتاج ويجد تمسكا من معظم الفلاحين به ·· ورجال النظام الحالى يعتقدون أنهم لن ينجحوا فى رسملة تشيكوسلوفاكيا بشكل كامل الا اذا قضوا على التعاونيات ·· ويضغط من أجل ذلك كبار الملاك القدامى اللذين يريدون استعادة أرضهم ·· ويحمسهم لهذا أنهم يعتقدون أن نفوذ الحزب الاشتراكى (الشيوعى سابقا) يتركز بين الفلاحين فى تلك الجمعيات ·

هل تصدق وزير الزراعة الحالى قال علنا أن مهمته الرئيسية هى تحطيم النظام التعاونى فى الريف ·

وهل تصدق أن رئيس الجمهورية هاجم مزرعة تعاونية مشهورة فى بلدنا لنجاحها الكبير مرتين ؟ خطابين ! ··

وأعود أسأل سكرتير الحزب الشيوعى ·· ما الذى جعل الشباب يتحرك ضد النظام ؟

ـ لقد نشأت حركات وتيارات عديدة داخل الحزب الشيوعى نفسه ضد الديكتاتورية وتطالب بالاصلاح ·· وتشكلت حركات خارج الحزب مثل لجنة ميثاق ١٩٧٧ ·· ثم المنتدى الديمقراطى الذى كنت أنا شخصيا عضوا فيه ·· رغم عضويتى فى الحزب الشيوعى ·· وكان مطلبنا جميعا الديمقراطية ·· لكنا لم نكن نريد فى الحزب الغاء الاشتراكين ·

● ماذا تقصد بالاشتراكية التى لم تكن تريد الغاءها ؟

ـ أى لم نكن نقصد بيع الشركات والمؤسسات الكبرى التى تملكها الشعب · ولم نكن نقصد اباحة أرض وأقتصاد بلادنا لألمانيا وكل الغرب· يبيعون فينا ويشترونا ·· ولم تكن نقصد حرمان الشعب من حق التعليم المجانى ·· ورفع ايجارات المساكن خمسة أضعاف ·· ولم نكن نقصد التبعية للغرب ·· كنا نريد الحرية ·· والديمقراطية ·· وبواسطتها

سنصلح عيوب الاشتراكية ٠٠ حتى لو تنازلنا عن تأميم شركات عديدة ٠٠ لكن لن نحارب التعاونيات الزراعية مثلا ٠٠

● لقد حدث انهيار قبل بلدكم بالنسبة للاشتراكية مثل بولنده والمجر ٠٠ مما يثبت فشل النظام الاشتراكى عندكم ٠٠

ـ هذا غير صحيح ٠٠ لقد كان فى بولنده نقص هائل فى الطعام ٠٠ أما نحن فلم يكن عندنا شىء كهذا ٠٠ وكانت ديون بولنده تستهلك ٣٥٪ من صادراتها وديون المجر ١٨٪ من تلك الصادرات أما ديون تشيكوسلوفاكيا فكانت ٤٪ فقط ٠٠

مستوى المعيشة كان عندنا لا بأس به ٠٠ وكل عائلة فى المدينة تقريبا عندها كوخ صيفى للراحة والاستجمام فى الريف ٠٠ وكل عائلة تملك سيارة تقريبا ٠٠ وكنا نستورد أشياء استهلاكية من أجل الناس مثل التليفزيون والفيديو ٠٠

● ولكن بماذا تفسر ثورة الجيل الجديد ٠٠ ثورة الطلاب ٠ التى صنعت كل هذا الانقلاب ؟

ـ قلت لك ان مربط الفرس أو جوهر القضية كان الحرية والديمقراطية ٠٠ لم يكن مسموحا بحرية الكلام والتعبير حتى التعبير الأدبى والفنى كان مضروبا ٠٠ويضطهد الناس بسببه واليك مثلا على ذلك رئيس الجمهورية هافل رغم اختلافنا معه فقد اضطهد من أجل أفكاره وسجن ٠٠

أضف الى ذلك أن الجيل الجديد لم يكن يعرف عيوب الرأسمالية انما يراها كما يرى السياح أى ظاهرة لاينفذون بأبصارهم الى أعماقها ٠٠ فقد بهرتهم الفتارين فى الشانزليزيه وأكسفورد ستريت ٠٠ وناطحات السحاب فى مانهاتن ٠٠ لكنهم لم يزوروا قط الأحياء الفقيرة الشعبية فى أى بلد رأسمالى ٠٠

وكانوا يرون مظاهر الدهاء مع السياح الأجانب وبالذات الألمان اللذين كانوا يتدفقون على بلادنا ٠٠ وأغلبهم يفتح زجاجة الويسكى فى البيت الذى يقيم فيه كبنسيون ويترك نصفها ويقوم ٠٠ وأصبح الويسكى أسطورة فى كل بيت ٠٠ لأنه من غفلة الحكومة عندنا لم تشأ أن تستورده أو تصنع شيئا مشابها له بدلا منه الفودكا التى كانت تستوردها أو تصنعها ! ٠٠

وحديثى عن الويسكى هو رمز لما قلته لك من قبل أن الحكومة لم تهتم بالصناعة الاستهلاكية الخفيفة ٠٠ لم تهتم بصنع أشياء صغيرة

تهم المستهلك العادى ٠٠ حتى المقاهى لم تهتم • باقامة البعض منها ٠٠ مما كان يشعر الشباب بالكآبة لأنه لايجد مكانا يشم الهواء فيه ويثرثر !!

قلت له ٠٠

● هذا لأن الاشتراكيين لم يكونوا ينظرون للانسان كانسان وانما ترس في عجلة كبيرة اسمها النوع البشرى أو المجتمع ٠٠ وبالتالى لم يفكروا فيه كفرد ٠٠ يحتاج الى فنجان قهوة ٠٠ والى مقعد فى الطريق العام ٠٠ بل الى مقاعد يجلس عليها فى محطة السكة الحديد فقد أذهلنى عند زيارتى لمحطة براغ أمس أنه لايوجد مقعد واحد يمكن الجلوس عليه ٠٠ ولا يوجد بوفيه أو مقهى كبير فيها ! وهذا كفيل بأن يلعن الانسان العادى كفرد الاشتراكية وأصحابها أومأ سكرتير الحزب الشيوعى ٠٠ برأسه وقال :

ـ معك حق ٠٠ وأعود بك الى انبهار الشباب بالنظام الرأسمالى ٠٠ لقد خلقوا لأنفسهم أوهاما ٠٠ جعلتهم يعتقدون أن بوسعهم اقامة نظام يضمن لهم كل ما حققته لهم الاشتراكيــة مثل التعليم المجانى والمسكن الرخيص والعلاج المجانى ٠٠ ثم كل ماتتضمنه الرأسمالية من سلع جميلة وأنيقة ورائعة تمتلىء بها الفترينات ٠٠ فى اطار من حرية التعبير والحركة ٠٠ ولاتنس أبدا أن افتقاد الديمقراطية فى بلادنا كان المحرك الأساسى ٠٠

● هل تعنى أن الخطأ الأساسى لحزبكم هو رفضه لسنوات طويلة اقامة نظام ديمقراطى ؟

ـ نعم ٠٠ بجانب الأخطاء الأخرى التى حدثتك عنها ٠٠ ولكن يجب أن تعذر قادة الحزب اذ بعد قمع حلف وارسو لحركة ١٩٦٨ كان هناك خوف دائما من تكرر المأساة ٠٠ رغم كثرة المنادين فى الحزب بتطبيق الديمقراطية حتى تكونت تيارات ومنتديات وتحالفات حتى مع ديمقراطيين وليبراليين برجوازيين ٠٠

دخلت بعد ذلك فى حوار تصورته شائكا فى البداية عما ردده بعض السياسيين والصحفيين أمامى من أن هناك كان اتفاق ضمنى بين الولايات المتحدة وجورباتشوف على هدم النظام الاشتراكى فى دول أوروبا الشرقيه ٠ وعندما فتحت الموضوع ٠٠ قلت لسكرتير الحزب أنه حر فى رفض الحديث حول هذا الموضوع ٠٠ وان كان يهمنا كثيرا فى مصر والعالم العربى أيضا اذ بعض الناس يتصورون أن جورباتشوف خائن للاشتراكية بل وعميل للغرب منوط به تصفية النظام الاشتراكى فى العـــالم ٠٠ فكيف ترى الصورة من واقع ما حدث فى بلادكم ؟ ٠٠

ابتسم سكرتير الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى وان كانت ابتسامته لم تخف علامات بالمرارة على وجهه ·· وقال ··

أولا لا أعتقد أن تشيكوسلوفاكيا يمكن انتزاعها من مائدة البحث والمساومة بين الدول الكبرى ·· وسقوط أنظمة اشتراكية فى فترة قصيرة كهذه أمر يثير التساؤل والتأمل أيضا ·

قلت :

● أنت تعرف نظرية الجدل فى التطور ·· يحدث تطور كمى فى البداية لفترة طويلة ثم يحدث التطور الكيفى أى الطفرة مرة واحدة ·· كذلك من الممكن أن تكون عيوب تلك النظم قد تطورت واحدا وراء الآخر ·· حتى جاء وقت حدث فيه الانفجار ··

ـ هذا صحيح ·· ولكن ماحدث فى تشيكوسلوفاكيا غير هذا ·· فى الحزب كان يعرف ما يريدونه ·· أى قلب النظام ·· لقد كان البوليس فى الدولة الاشتراكية يطارد المنشقين والمكتب السياسى ومع ذلك اجتمع ٣٠٠ من المنشقين لتقرير ما يريدونه لتحقيق هذا ·· ولمدة أربع ساعات ولم يأت البوليس للقبض عليهم ·

أين كانت الدولة ؟ · لماذا اختفت فجأة ·· وهى التى أظهرت قسوة شديدة فى مواجهة حركة الطلبة قبلها بيومين فى شارع نارودنى ·· وهى قسوة استنكرناها فى الحزب لأننا تصورنا أنها استفزاز للشعب كله ليتحرك ضد النظام خصوصا أن اشاعة سرت بأن طالبا قتل ·· وتبين بعد ذلك أن أحدا لم يقتل وأن مخبر بوليس سرى رقد على الأرض متظاهر بالموت وانتشرت الاشاعة فقد سقط النظام فى تشيكوسلوفاكيا بشكل تآمرى يثير الريبة ··

سألته ··

هل يعتقد اذن أن جورباتشوف تآمر مع الأمريكيين لاسقاط الاشتراكية فى بلادكم وسائر الدول الاشتراكية ؟ ··

كلمة واحدة قالها بحزم وابتسامة مريرة واضحة هذه المرة ··

ـ لا تعليق !

● هل تعتقد أن الصهيونية كان لها دور فى الانقلاب ؟
أجاب ··

ان الصهيونية « تلعب » دائما منذ زمان طويل فى الدول الاشتراكية

جميعا للضغط على الاتحاد السوفيتي للهجرة وجذب العطف لاسرائيل ٠٠ بل والانتقام من الاتحاد السوفيتي لمواقفه المضـــادة للعدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ٠٠ وتأييده للعرب وللقضية الفلسطينية ٠ وطبعا من مصلحة الصهيونية دمار البلاد الاشتراكية جميعا كنظم سياسية وكان بروقمان رئيس الحركة الصهيونية الدولية موجودا فى براغ قبل الانقلاب بيومين٠٠

وحاليا تجد موجة من الاعلام للتعاطف مع اسرائيل ٠٠

وتوقف لحظة ليقول :

كل ما يمكن للسياسى أن يعتمد عليه فى تقديراته هو التعامل مع الحقائق ٠٠ أما التخمينات والشبهات فلا يمكن الاعتماد عليها فى تفسير ظواهر معينة ٠٠ ولذلك لا يمكن القطع بشىء فى مســـائل كثيرة ٠٠ وليس أمامنا الا أن ننتظر لنرى ماذا تكشف عنه الأيام وغالبا خطط الدول الكبرى تعرف بعد حين ٠٠

● أفهم من حديثك أن الشعب التشيكى كان يريد شيئا من حركته الجماهيرية غير هذا الذى يحدث اليوم فى بلادك ؟

ـ نعم كان الشعب فى معظمه يريد التغيير ٠٠ فى اتجاه حـركة اصلاحية جذرية شاملة تعتمد الديمقراطية وتحقق أهدافا اقتصاديا محددة مع الحفاظ على تشيكوسلوفاكيا دولة مستقلة ٠٠ مرفوعة الرأس ٠٠

أما الآن ٠٠ فالحاصل أن قادة البلاد يريدون الاندفاع بالبلاد نحو أذرع الولايات المتحدة وحلف الأطلنطى مما سيسلب استقلالنا بالتدريج ٠٠ ولن يتحقق الرخاء لشعبنا ٠٠

وسكت لحظة ليقول ٠٠

مثال صارخ على ذلك موقف الحكومة من أزمة الخليج ٠ لقد أرسلت قوات الى هناك ٠ انها لم تكن مجرد مساهمة مع قوات الأمم المتحدة فى بعض الظروف كما تفعل فنلنده مثلا ٠٠ انما كان مغزاها أكبر ٠٠ كان معناها أننا نقول نحن معك أيها الغرب !

● ولكن كان العراق قد انتهك حقا من حقوق الانسان عندما غزا دولة مستقلة هى الكويت وسلب شعبها حريته ؟! ٠

علق سكرتير الحزب على ملاحظتى قائلا ٠

ـ هذا صحيح ولكنا كنا نرى رأيا آخر ٠٠ لحل المشكلة ٠٠ وهو عدم اللجوء الى الحرب ٠٠

● ماذا كان موقفكم اذن ؟

ـ لقد أصدرت اللجنة المركزية لحزبنا بيانا دعت فيه الى استنفاد كل وسيلة للحل السلمى ٠٠ لاجبار العراق على الانسحاب ٠٠ وعندما حدثت الحرب رفضناها وقلنا ان كل الوسائل السلمية لم تستنفد ٠٠ واستنكرنا استعراض الولايات المتحدة لقوتها وتجربتها للأسلحة الجديدة وتضييع أرواح البشر ٠٠ هذا فى الوقت الذى كانت صحف الحكومة تصور الحرب كأنها مباراة كرة ٠٠ وكانت تبدى حماسا لنجاح الأمريكيين فى ضرب الأهداف العراقية بينما كنا نحن نحتج ونستنكر ونتزعج من صور الحرب على شاشات التليفزيون ٠٠ فقد كانت حربا حية بشعة ٠٠ ولكن أعصاب المنادين بحقوق الانســـان والمتباكين عليها من الحكام ٠٠ لم تهتز ولم تتأثر ! حتى من المنظر المروع للمخبأ الذى دمر الناس فيه بالمئـات !

● أنتم اذن اتخذتم موقفا مضادا للموقف السوفيتى :

ضحك وقال ساخرا :

ـ تذكر أننا دولة ليست كبرى ٠٠ وبالتالى لاندخل فى مساومات مع دول كبرى أخرى !

● وما رأيكم الآن ؟ ٠

ـ ما رأيك أنت ٠٠ وقد انتشر النفوذ الأمريكى فى منطقتكم ؟ ٠٠ والأمريكيون يلعبون بشعب العراق ويتسلون بتعذيبه ٠٠ كما أن الكويت تنتهك حقوق الانسان وقد كتبت رسالة الى المستر هافل رئيس الجمهورية أوضحت له فيها أن النظام الذى يحكم الكويت الآن ليس نظاما ديمقراطيا ٠٠ ولذلك فان على تشيكوسلوفاكيا وهو بالذات أن يدعو ذلك البـــلد لاحترام حقوق الانسان ويطالب الدول التى دخلت بجيوشها الكويت أن نشارك فى تلك الدعوة ٠٠

اذا كان الحال كما يصفه سكرتير الحزب ٠٠ الذى أخرج من الحكم بحركة جماهيرية ٠٠ رغم كل تلك التفســـيرات والتبريرات ٠٠ فكيف يرى الحزب الصورة ٠٠ فى المستقبل ٠٠ ماذا يريد ٠٠ وهل يتوقع أن يعود الى الحكم من جديد ؟ ٠٠

أعتقد أن التطور فى العالم اليوم للتغلب على عيوب الرأســمالية يحتاج الى ما يمكن تسمية بالطريق الثالث ٠٠

● ما هى معالم ذلك الطريق ٠٠

ـ المشاركة الشعبية فى الملكية للمؤسسات الكبرى ٠

ـ اللامركزية فى الانتاج ٠٠

ـ ملكية الشعب والعاملين للمؤسسات وتعمل وفقا لقوانين السوق

ـ الاعتماد على الذات وليس الأجنبى والحرص على الاســتقلال الاقتصــادى ٠

ـ السماح باستثمار رؤوس الأموال الأجنبية وتقديم التسهيلات لها اذا كان ذلك يتفق مع مصلحة التطور الاقتصادى فى بلادنا ٠ ولا يؤدى الى طرد العمال ٠

ـ استخدام أحدث وسائل تكنولوجية فى العمل ٠ ومازال الغرب يحبسها عنا بالمناسبة ٠

ـ التعاون الاقتصادى الدولى مع كل بلاد العالم دون أى حساسية وعلى أساس مبدأ واحد هو المنفعة المتبادلة ٠

ـ الاهتمام برفع المستوى الاقتصادى لدول العالم الثالث فان هذا من صالح الاستقرار العالمى ويقــرب من تحقيق يوم التعــاون الدولى الشامل ٠٠

ـ الحرص على أن تلعب تشيكوسلوفاكيا دورا مستقلا فى النظام العالمى الجديد بحيث لاتصبح حقل تجــارب للدول الكبرى ٠٠ وتحدد مصيرنا دون مشاركتنا ٠٠

سؤال أخير وجهته لرئيس الحزب الشــيوعى المستر سفوبودا عن المشكلة السلوفاكية والاتجاه الانفصالى فى جمهورية سلوفاكيا ٠٠ فقال :

ـ لقد كانت نظرتنا دائما الى هذه المشكلة أنها مشكلة اجتماعية وليست مشكلة قوميــة فالبطالة هناك ضعف البطالة فى الجمهــورية التشيكية ٠٠ ومستوى المعيشة أقل ٠٠ واذا ما حلت هذه المشاكل فى اطار ديمقراطى ستقل النزعات الانفصالية والاستقلالية ٠٠

وعندما تهيأت للانصراف بعد تبــادل التحيــة ٠٠ بادرنى المستر سوفوبودا بالسؤال : كنت أريد أن أسمع منك عن تجــربتكم فى اذابة الحكم الشموى وحال مشاكلكم الاقتصادية ٠٠

المانيا الديمقراطية سابقا

العودة الى الامم الرأسمالية ؟!

أمام مبنى الرايخستاغ الشهير فى برلين ٠٠ مساء اليوم الثالث من أكتوبر ١٩٩٠ وقف أكثر من مليون ألمانى من الشرق ومن الغرب ٠٠ وهم يحسبون مرور الوقت بالدقيقة والثانية أمام مبنى البرلمان العتيق فى انتظار تعانق عقربى الساعة له منتصف الليل حيث يبدأ ميلاد دولة ألمانيا الوحدة مرة أخرى بعد ٤٥ عاما من الانفصال والانقسام ٠٠ ووقوف الألمانى وجها لوجه شاكى السلاح ٠٠ حيث سيكون الألمان سواء من الغرب أو الشرق أول صرعى وضحايا لأى حرب أو صدام مسلح بين العملاقين الجبارين ٠٠

وقبل تلك الساعة التاريخية بعام أو أكثر قليلا ٠٠ كانت الثورة السلمية قد حدثت فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ٠٠ ثم سقط حائط برلين ٠٠ وبسقوطه ٠٠ أصبح الطريق الى الوحدة مفتوحا ٠٠

لقد سقط النظام السياسى والاقتصادى بفضل تلك الثورة السلمية ٠٠ فسقط على الفور مبرر ٠٠ مبرر وجود جمهورية ألمانيا الديمقراطية الاشتراكية وبالتالى مبرر انقسام ألمانيا ٠٠

فى عام ١٩٥٥ صرح مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى بعد عقد معاهدة الحياد بين الدول الأربع الكبرى حول النمسا ٠٠ عندما سئل لماذا لاتوحد ألمانيا ٠٠ قال : انه لم يعد ممكنا تحقيق ذلك الآن ٠٠ فهناك فى ألمانيا الديمقراطية نظام سياسى واقتصادى مختلف أعطى الطبقة العاملة والفلاحين حقوقا لايستطيعون التنازل عنها فى أى وحدة مع ألمانيا الغربية٠

وأشار مولوتوف أن الاتحاد السوفيتي كان قد تقدم باقتراح لتوحيد شطرى ألمانيا بشرط أن تكون الدولة الموحدة محايدة وذلك عام ١٩٤٩ ·· ولكن كونراد ايدنادر رفض ذلك رفضا باتا ··

وأضاف مولوتوف أن هذا الاقتراح كان صالحا وممكن تحقيقه حتى عام ١٩٥٣ · وقد بدأ الانهيار والتحول فى ألمانيا الشرقية بطريقة لا ميثل لها فى التاريخ ··

لقد بدأ باللجوء الى السفارات بالمئات والآلاف ·· للهرب من جنة الى الاشتراكية الى « جحيم الرأسمالية » فى ألمانيا الغربية ·

لقد تعودت السفارات فى العالم أن تستقبل لاجئا ·· أو اثنين أو حتى عشرة وعشرين ·· لكنها كانت المرة الأولى التى تستقبل آلافا مؤلفة ·· مما كان يعنى أنه لو استطاع أغلب الشعب اللجوء للفرار لفعل ! ·

فى يوليو ١٩٨٩ تدفق اللاجئون من السياح الألمان الشرقيين فى تشيكوسلوفاكيا والمجر على السفارات الألمانية فيها ·· يريدون الهرب من خلالها الى الوطن الأم ألمانيا الغربية ··

وما كان شهر سبتمبر ١٩٨٩ يجيء حتى كان هناك خمسون ألف من أهالى ألمانيا الديمقراطية قد فروا الى هناك عن طريق المجر ·· حتى لأن المستشار كول وجه الشكر للحكومة المجرية ·

وفى ٣٠ سبتمبر (نفس الشهر) سمح لستة آلاف لاجيء ألمانى شرقى فى السفارة الألمانية فى براغ بالرحيل الى ألمانيا الغربية ·· ومن « قطار الحرية » عبر جمهورية ألمانيا الديمقراطية ولم تستطع السلطات فيها أن تتعرض لركابه حسب اتفاقها مع وزراء خارجية بلاد مجاورة من بينها الاتحاد السوفيتى ·

وفى أكتوبر حدث نفس الشيء مع ١٥٠٠ لاجيء فى السفارة الألمانية فى بولندة ·· تلا هذه الهجرة التى أثارت دهشة العالم وكشفت النظام الألمانى الشرقى كشفا مروعا اذ كان الألمان الشرقيون يتركون بلادهم وبيوتهم وما يملكون فيها بل وربما أولادهم ويجرون على شاشات التليفزيون وهم فى حالة سعادة شديدة وهم لا يحملون حتى حقائبهم ··

كما أنهم عانوا الأمرين أثناء لجوئهم بالآلاف فى مبانى محدودة مثل السفارات الألمانية لا تسع لسكنى الآلاف مرة واحدة !

كان السلوك أقوى وأكثر بلاغة من أى عبارات ··

وتداعت الأحداث بسرعة ٠٠ وبدأ البناء الذى استمر ٤٦ عاما ٠٠ يتشقق ويتداعى حتى سقط مكوما ٠٠

١٨ أكتوبر استقال الديكتاتور العتيد اريك هونيكر وخلفه ايجون كرنز ٠٠

ثم استقالت الحكومة فى ٧ نوفمبر ٠

وحدث بعد ذلك أخطر حدث ٠٠ هو فتح سور برلين للخروج والدخول ٠٠ فكان ذلك اعلانا عن قرب الوحدة ٠٠

ففى قاعة البرلمان فى برلين الشرقية عاصمة ألمانيا الديمقراطية صوت النواب لحذف المادة التى تنص على احتكار حزب الوحدة الاشتراكى (الحزب الشيوعى) للسلطة ٠

ويبدو أنه فى ٤ ديسمبر فى اجتماع بوش بجورباتشوف تم الاتفق على أن يحنى الاتحاد السوفيتى رأسه للعاصفة ويقبل الواقع الذى تحركه الجماهير ٠٠ وهو انتهاء النظام الاشتراكى وبالتالى وحدة ألمانيا خصوصا أن جورباتشوف كان قد نصح هونيكر من زمان طويل وقبل حدوث الزلزال بتغيير الهيكل السياسى لنظام الديكتاتورى البيروقراطى ٠٠ ولكن هونيكر أبى واستكبر ٠٠

وفى ٢٤ ديسمبر تقرر الغاء فيزا دخول ألمانيا الديمقراطية لألمان الغرب وفى ١٨ مارس ١٩٩٠ أجريت أول انتخابات حرة وسقط الشيوعيون ونجح خصومهم ٠٠ وتشكلت فى ابريل أول حكومة برجوازية ديمقراطية ٠ وأصبح لوثار مازيير رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى رئيسا للوزراء ٠٠

وتتالت الأحداث حتى وقعت معاهدة الوحدة بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية فى ٣١ أغسطس ١٩٩٠ ٠

وما جاء ٣ أكتوبر من نفس العام حتى تقرر الحاق الولايات الخمس التى تتشكل منها جمهورية ألمانيا الديمقراطية (براند نبرج ٠ ماكلنبرج ـ بوصراينا الغربية وساكسونيا وساكسونيا أناهالت وتورنجيا) ٠٠ بالمانيا الاتحادية ٠٠ وانتهى وجود ماكان يسمى بجمهورية ألمانيا الديمقراطية ٠

ويقدر الخبراء الاقتصاديون الألمان ٠٠ فى الوثائق الرسمية كما سيجىء بعد ذلك تفصيلا أن تكاليف رفع مستوى الولايات الخمس التى تشكل شرق ألمانيا ٠٠ حتى يتحقق نوع من المساواة مع ولايات الغرب الأحد عشر ٠٠ حوالى تريليون مارك ألمانى (ألف ألف مليون) خلال السنوات العشر القادمة ٠٠

وتحدث الآن تجربة مثيرة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ وهى عودة جزء من الوطن الى رحم الأم الكبرى ‥ وهذا الجزء كان يقوم على أساس نظام مختلف تماما عن نظام الأم ‥

حكم شمولى اقتصاديا وسياسيا ‥ يندمج بين عشية وضحاها فى نظام اقتصاد حر رأسمالى عريق مع ديمقراطية متقدمة أيضا ‥ ويشكل الاثنـــان أكبـــر دولة فى أوربـا الآن ‥ بعـــد الجزء الأوربى مـــن الاتحاد السوفيتى ‥

ثمانون مليون مواطن ألمانى يعيشون فى مســاحة أقل من مساحة أسبانيا أو فرنسا ولكنهم قد شيدوا أقوى وأضخم اقتصاد فى أوربا ‥ والدولة الأوربية الوحيدة القـــادرة على منافســـة العمـــلاق اليابانى الاقتصادى ‥

وبعد أن انتهت الحرب الباردة بين الشرق والغرب أصبحت ألمانيا اليوم قلب أوربا كما كان الحال قبل الحرب العالمية الثانية ‥ ولها حدود مع تسع دول مجاورة ·

والنظام السياسى فى ألمانيا الفيدرالية هو النظام الوحيد من نوعه فى المجتمع الأوربى الغربى اذ تتكون من ١٦ ولاية اتحادية ‥ لكل ولاية برلمانها الخاص وحكومتها الخاصة وتلعب كل ولاية دورها فى عمليـــة تشريع القوانين وذلك عن طريق المجلس الأعلى للبرلمان الاتحادى ويتكون من ممثلى الولايات الاتحادية · وهذه الاستقلالية الذاتية للولايات الألمانية حقيقية لحد أن ولاية بافاريا (عاصمتها ميونيخ) تسمى نفسها دولة بافاريا وتعلق لافتات بذلك على مبانى الحكومة ! ·

وهذا الوضع الجديد لألمانيا يكسب حكامها وأهلها طموحا لاحد له من ناحية لعب دور قيادى فى أوربا ‥ بعد أن ظلت القيـــادة تتأرجح بين فرنسا وانجلترا ‥ قبل الوحدة ‥

اليوم يهدف الساسة الألمان الى أن تلعب بلادهم دور المحرك لتوحيد جميع أنحاء أوربا ‥ وقد طرح وزير خارجيتها هانز جنشر شعارا لذلك هو « القوة خلف النمو الجماعى لأوربا » ·

وتهدئة لمخاوف اللذين يجزعون من نمو سرطانى لألمانيا الاتحادية يهدد الاستقرار والاســـتقلال فى أوربا حسب التجربتين المريرتين فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ‥

فان حكومة المستشار كول بطل الوحدة الألمانية كما يسمونه هناك ‥ قد أكدت أنه لا مجال لاحياء العسكرية الألمانية بدليل أنه في عام ١٩٩٤

سوف يكون حجم القوات العسكرية لألمانيا الموحدة نصف حجم قوات دولتي ألمانيا السابقتين ٠٠

كما تشير الى أن الدستور الألماني يحرم استخدام قوات القتال الألمانية خارج نطاق حلف شمال الأطلنطي ٠٠ كما أن ألمانيا ملتزمة بميثاق الأمم المتحدة كما تؤكد أنها ان تحاول اللحاق بالنادي الذري في العالم ٠٠

كيف ٠٠ ولماذا حدث ما حدث ؟ ٠٠

من أطرف ما رأيت في برلين الشرقية أو بالأحرى التي كانت شرقية ٠٠ أن الحزب الشيوعي الذي قيل أنه قد هرب ستة بلايين مارك الى الخارج وبنوك سويسرا بالذات ٠٠ قد تنازل أو تبرع بعدة ملايين من الماركات الى جمعيتين دينيتين في برلين : الجمعية الأولى جمعية يهودية ٠٠ والأخرى جمعية اسلامية تشيد الآن تحت اشراف « عمدة » برلين الشرقية المصري الشهير د ٠ مصطفى هيكل الأستاذ بأكاديمية همبولدت وقد عاش هناك وعاصر كل الأحداث منذ عام ١٩٥٦ ٠٠

وقد التقيت بالهرهانز بورمنج عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (اسمه السابق وحصل على ١٦٪ في الانتخابات الأولى) ٠٠ لأسأله كيف أضاعوا دولة بأسرها من أيديهم ٠٠ فقال لي بلهجة أسى وحزن ٠٠

ـ لا أوافقك على تعبير أضعتم دولة ٠٠ فلم تكن ألمانيا الديمقراطية ملكا خاصا لحزب من الأحزاب انما هي ملك لشعبها !

على أي حال سأحاول الاجابة على سؤالك ٠٠ من وجهة نظري ٠٠

ان جورباتشوف كان عبقريا لأنه أدرك الواقع بسرعة ٠٠ اذ عرف أن الاشتراكية في سبيلها الى الانهيار فقال أبدأ بالتغيير بنفسي بدلا من ثورة الشعب في الاتحاد السوفيتي حيث الأمور أكثر تعقيدا من أي بلد آخر ٠٠

● كيف ؟

ـ هناك عشرات القوميات ٠٠ واللغات ٠٠ واختلاف المستوى الاقتصادي واتساع رقعة البلاد والعلاقات الدولية المتشابكة والدقيقة ٠٠

ان ثورة في الاتحاد السوفيتي ٠٠ لها نتائج خطيرة ورهيبة ٠٠ وقد تؤدي الى حرب عالمية ثالثة ٠٠

● **كيف ؟**

انقسم الجيش على بعضه وقرر جنرالات « مجانين » انقاذ الاشتراكية

باشعال حرب ذرية ضد الرأسمالية العالمية التى سيتهمونها بأنها تساند الجانب الآخر ·· وهكذا ··

انه سيناريو مرعب حقا ·· ولكن محتمل أيضا ··

ومضى عضو اللجنة المركزية يقول لى :

لقد فاتح جورباتشوف زملاءه من قادة الدول الاشتراكيــة وطالبهم بعمل خطط اصلاحية تعتمد على الديمقراطيـــة ·· وقال لهم ان الظروف عندهم ستكون أسهل ويستطيعون التحكم فى الأمور ·· ولكنهــم كانوا يرفضون نصائحه وأولهم هونيكر وزملائه من قادة الحزب الشيوعى ··

● لماذا التصلب الألمانى فى الشرق هذا ·· لقد لاحظته وكتبت عنه فى آخر زيارة لى لالمانيا الديمقراطية فى نوفمبر ١٩٨٨ ؟ ··

قال ·· لأسباب عديدة تجمدت عندها عقلياتنا وفهمنا للنظرية ·· بحيث أصابنا العمى السياسى اذا جاز التعبير ·

● كان الغرب يركز على المانيا الشرقية بالذات ·· ولا يكف عن تدبير المؤامرات ضدها مما جعل أعصاب الحاكمين عندنا فى حالة توتر دائم ·· والتوتر الدائم يؤدى الى التشدد ·· والتشدد هو التربة الخصبة لنمو الجمود العقائدى ··

ليس هــذا فحسب بل ان مؤامرات الغرب المستمرة كانت تمثل تبريرا قويا لكل اتجاهات الديكتاتورية فى البلاد ··

وأعتقد أن ذلك كان خطة مقصودة من الغرب للوصول الى هذا الحال فى المانيا الشرقية ·

● من ناحية أخرى كان هناك اقتنــاع دائم لدى الشعب الألمانى شرقا وغربا بضرورة الوحدة ·· وكان الجميع يرى أن تقسيم ألمانيا ضد طبيعــة الأشـــياء ·· لذلك لم يكن هناك فرق فى الولاء لدى الألمانى الشرقى ·· اذا ما تطلع الى أن يكون من رعايا المانيا الغربية ·· ولم يكن يفهم معنى لاتهامه بالخيانة اذا فعل ذلك ·· كما كان يسخط جدا على ضرب الذين يحاولون قفز السور بالنار ··

وبمناسبة السور فانه لعب دورا دعائيا دائما ضد نظامنا فى المانيا الديمقراطية واستغل من جانب الحكومة فى الغرب « أحسن » استغلال من الناحية الدعائية خصوصا على أساس اننا شعب واحد وأمة واحدة وضرورى أن يصبحوا فى دولة واحدة ! ··

● كانت برلين الغربية فاترينة للنظام الرأسمالى داخل المعسكر الاشتراكى وداخل المانيا الشرقية بالذات ٠٠ فكان الناس يسمعون ويرون الرفاهية والرخاء وأنواع التسلية هناك وبالطبع فى سائر مدن المانيا الغربية ٠٠ مما كان يجعلهم يصغون فى اهتمام الى كل ما كانت تبثه الدعاية الغربية عن فشل الاشتراكية فى تحقيق الرخاء بينما نجحت الرأسمالية فى ذلك ٠٠

وعندما فتح باب الزيارة وتبادل الهدايا ٠٠ كانت سلع الغرب أقوى من أى منشور دعائى عن أفضلية وتفوق النظام الرأسمالى لدى أهل المانيا الشرقية ٠٠

● كان المثقفون الألمان فى الشرق يشعرون بالقهر وأنهم مثقفون من الدرجة الثالثة بالنسبة لزملائهم المثقفين فى المانيا الغربية والغرب عموما ٠٠ فلم يكن الواحد منهم يستطيع السفر الى بلد رأسمالى الا بعد تحقيق وتدقيق فى أصله وفصله وشيئا فشيئا تكون لديهم يقين أن فردوس الحرية والانطلاق للابداع هو النظام الغربى ٠٠

وساعد على ذلك سهولة متابعة ألمان الشرق للتليفزيون فى ألمانيا الغربية ٠٠ الذى كان اعلانا صريحا عن أفضلية الديمقراطية والحرية ولو كان النظام رأسماليا !

أما من الناحية الاقتصادية ٠٠

فقد بدا واضحا أن مستوى الانتاج فى الشرق يتخلف كثيرا عن مستواه فى الغرب ٠٠ رغم أن المانيا الشرقية كانت تعتبر متقدمة تكنولوجيا بالنسبة لأى دولة اشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتى ٠٠

وحاول المسئولون هناك توجيه المانيا الشرقية الى التركيز على الصناعات الاليكترونية أى الأخذ بتجربة اليابان ٠٠ لكن ذلك كان قد جاء متأخرا ٠٠ وفات زمانه ٠٠

وأصبحت السلع الألمانية الشرقية لا تستطيع أن تجد لها أسواقا فى الغرب ذات قيمة ٠٠ فانهار دخل البلاد من العملة الصعبة ٠٠

فى نفس الوقت زادت الأعباء على الحكومة لدعم السلع والمسكن والطاقة والوقود للسكان فقد كانت عين الحكومة على الجزء الغربى من ألمانيا وتريد تعويض الناس عما يفتقدونه ٠٠

ومنذ عام ١٩٨٦ دار حديث فى أروقة الحكم حول خفض الدعم بعد أن تكرر العجز فى ميزانية الدولة وعجزها عن توفير الاستثمارات

اللازمة ·· ولكن كانت الحكومة تخشى من رد الفعل ·· والحقيقة أن الأحزاب الحليفة فى حكم الجبهة التى كانت معنا كانت تطالب بتقليل الدعم ·· لكنها لم تكن « تناضل » من أجل تسويد رأيها لأنها كانت حريصة دائما على عدم تجاوز الخط الأحمر فى تحالفها مع الحزب الشيوعى الذى كان يحتكر قيادة الجبهة بوجب الدستور ذاته !

كيف بدأ ما جرى ؟

يقول الدكتور مصطفى هيكل الأستاذ المصرى بأكاديمية همبولدت ·· ان المقاومة قديمة ليس فى المانيا وحدها ·· بل فى بلاد اشتراكية عديدة ·· همبولدت ·· كان العلماء والأساتذة يتساءلون بصوت خافت حقا ·· لماذا تحرم مظاهرات العمال من أجل حقوقهم فى نظام مفروض أنه نظامهم ·· بينما يفتح الباب على مصراعيه لأى مظاهرة عمالية فى المانيا الغربية حيث يوجد نظام مضاد لمصالحهم كما يتعلم الناس هنا ؟!

وفى الأكاديمية ثار نفس الجدل أيام سحق هبة الشعب فى المجر عام ١٩٥٦ ·· واتسع الجدل أكثر عندما حدثت مداهمة ربيع براغ عام ١٩٦٨ ربما لأن تشيكوسلوفاكيا أقرب ·· والسياح الألمان كانوا يترددون عليها دائما ·· وأهم من ذلك أن جنودا ألمان شـــاركوا فى قوات حلف وارسو التى اقتحمت تشيكوسلوفاكيا ·· بل كانت المانيا الديمقراطية أكبر مشجع للاتحاد السوفيتى للقيام بذلك الاقتحام ! ··

حتى جاءت أحداث بولنده فأحدثت هزة وسط المثقفين عـلاوة على العمال أنفسهم : اذ كيف يتحرر العمال على نظامهم وحزبهم ·· ويلتفون حول قيادة مضادة للاشتراكية ؟! ·· وثار سـؤال : كيف ولماذا يكفر العمال بالاشتراكية مع أنهم حسب قول الشيوعيين أصـــحاب المصلحة الأولى فى وجودها ·· بل هم الذين أتوا بها ؟!

ونعود الى هانز برومنج عضو اللجنة المركزية ليكمل لنا الصــورة فيقول ·· ان ترجمة هذا القلق الفكرى بين المثقفين ·· بدأ يتبلور عمليا فى تجمعات للمثقفين ·· والطلبة تلتف حـول مطـالب تتعلق بالحرية السياسية وتعديل العلاقات مع المانيا الغربية ··

وللعلم كان هناك أكثر من عشرة آلاف معتقل سـياسى حتى عام ١٩٨٢ ·· ثم أصبح هناك مسجونون سياسيون (أكثر من ثلاثة آلاف)

أدينوا بنشاطات معادية للنظام ٠٠ مثل نقد بعض القوانين والاجراءات فى اجتماع عام فى أحد نوادى الشباب الكثيرة هناك ٠٠ أو ترجمة مقال فى صحيفة غربية وتوزيعه على الأصدقاء ! ٠

وقد بدأت هذه التجمعات من الستينات ٠٠ وتتحرك فى حذر ٠٠ ولكنها فى الثمانينات تشجعت وظهرت فى شكل أنشطة فى الجامعات ٠٠

وبعد أحداث بولندة (١٩٨٢) بدأ بعض الشباب يعلن عن نفسه وتوجهاته المضادة للنظام علنا ٠٠ ويخطب فى اجتماعات ومؤتمرات ٠

وكان النظام يواجه هـذا بمقاومة هادئة غير معلنة ٠٠ حفاظا على سمعته خصوصا بعد اتفاقية حقوق الانسان فى مؤتمر هلسنكى للأمن الأوربى ٠٠

لكن منذ ١٩٨٨ بدأت الاحتجاجات العلنية تزداد ٠٠ وازدادت أكثر فى ١٩٨٩ ٠٠ وأصيب النظام بحيرة فى الطريقة التى يواجه بها تحركات الجماهير ٠ وحدثت عمليات قمع أحيانا كما اعتقل الكثيرون ٠٠ فأثار ذلك سخط الشعب فى الشرق ٠٠

وحدثت نقطة الحسم كما يقولون بمظاهرات ليبزيج ٠٠ التى بدأت ترفع شعارات الوحدة ٠٠

وبدا أن الدولة عاجزة عن المواجهة ٠٠ فأدى ذلك الى تشجيع الجماهير على التحرك ٠٠ ودخول الكنيسة البروتستانتية فى مسـانـدة للجماهير بوضوح وفاعلية ٠

وهنا بدأت قوى سياسية من المانيا الغربية تتدخل ٠٠ وتشـارك علنا ٠٠ حتى تم الانهيار السياسى والاقتصادى ٠٠

وبدأت عملية دمج المانيا الشرقية ذات النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى المختلف مع المانيا الغربية ٠٠ بحيث يحدث التحول من نظام الشرق الى نظام الغرب أى من الاشتراكية الى الرأسمالية ٠٠

وبدأت الوحدة بالوحدة النقدية ٠٠ تحويل المارك الشرقى الى مارك غربى ٠٠ وكانت العملية تثير مخاوف عن حدوث تضخم بسببها ٠٠ ولكن كما قال لى الهر لوبرنج رئيس القسم الاقتصادى فى بنك « دوتيش بنك » بفرانكفورت ٠ أن هذه المخاوف ثبت أنه لم يكن لها مبرر ٠٠ فقد تمت فى هدوء ٠٠ ودون ارتفاع يذكر لنسبة التضخم ٠٠ حتى لما زادت الأجور بالنسبة لعمال الشرق ستين فى المائة بالمارك الغربى ٠٠ لم يحدث تضخم كبير رغم اقبال ١٧ مليون مستهلك هم سكان المانيا الشرقية على شراء سلع من انتاج غرب المانيا !!

مؤسسة الخصخصة !

عهدت السلطات الألمانية (الغربية) الى وزير الداخلية الألمانى الغربى مسئولية الدمج بين البلدين ..

وعندما التقيت بالمستر « هويسل » المتحدث الرسمى لوزارة الداخلية فى بون .. قال لى ان أول خطوة كانت أمامنا .. لتحقيق الدمج هى المشكلة الاقتصادية .

ان الأوضاع السياسية مسألة سهلة .. لقد أطلقت الحريات فى الصحافة والأحزاب والجماعات والهيئات من جميع الأشكال والألوان دون أى مشكلة ..

والناس فى ألمانيـــا الشرقية فرحون ومبتهجون بهذه الحرية .. ويستخدمونها على أوسع نطاق حتى للتعبير عن احتجاجهم وانتقاداتهم لأخطاء يرون أن الحكومة المركزية أو المحلية ترتكبها ..

قلت له وأنا أحاوره ..

بالفعل .. لقد توقف بنا القطار المتجه الى برلين ساعتين .. لأن عمال السكك الحديد أضربوا هاتين الساعتين احتجاجا على عدم الوفاء بوعد رفع أجورهم ٥٠٪ ؟!

ما هى المشكلة الاقتصادية اذن ؟ ..

فى ألمانيا الشرقية قطاع عام هائل يعمل فيه ثلاثة ملايين من العاملين والمطلوب تفكيك هذا القطاع العام أى تحويله الى قطاع خاص .. ويعنى وجود هذه الملايين ضرورة خصخصة ذلك القطاع بالتدريج حتى لا تنفجر مشكلة البطالة .

وتقدر شركات القطاع العام بثمانية آلاف شركة .

● مستوى الانتاج فى المانيا الديمقراطية مختلف لأن ٧٠٪ من صادراتها كان للبلاد الاشتراكية والاتحاد السوفيتي التى كانت تقبل أى شيء ..

وفى عام ١٩٩٠ عندما حاول المسئولون فيها بيع انتاجهم الصناعى بالعملة الصعبة فشلوا . فليس لهم مكان فى المنافسة اذ كيف تنافس سيارتى فارتنبورج وترابند سيارات تيوتا وفولكس واجن ؟ فى نفس الوقت الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية مدينة بمليارات الماركات لألمانيا الديمقراطية وهى تكاد تكون ديونا معدومة ..

● مستوى انتاجية العامل الألمانى فى الشرق ٣٠٪ بالنسبة لانتاجية العامل فى الغرب لا بالنسبة للتخلف التكنولوجي فقط .. وانما بالنسبة للعامل النفسى حيث يفتقد العامل الشرقى الحماس والوازع لزيادة الانتاج وتجويده ..

● آلات المصانع الموجودة فى الشرق من طراز قديم لا تشجع على شرائها .. فى وقت تقدمت فيه التكنولوجيا عالميا .. بل ان كثيرا من الآلات تحتاج الى اصلاح وتجديد .

● زيادة نسبة التلوث فى المانيا الشرقية لتخلف الآلات واستخدام الفحم ..

● تفسخ المرافق فى الدولة .. حيث تحتاج الطرق الى اعادة رصف وزيادة التليفونات ، واصلاح المجارى والسكك الحديد و .. و .. الخ ..

● انخفاض شديد فى ايجارات المساكن وتكاليف الكهرباء والغاز والتدفئة والمواصلات والصحة الى مستوى يقل أحيانا عن ٥٪ عما هى عليه فى غرب ألمانيا .. فى نفس الوقت الذى تحتاج آلاف المساكن لعملية اصلاح ولا توجد مصادر للتحويل ..

● يوازى هذا انخفاض فى الأجور فى الشرق عن مستواها فى الغرب وظهر هذا واضحا بعد توحيد العملة ..

والأخطر من ذلك كما يقول محدثى المستر هومان مدير القسم الاقتصادى بالمستشارية الألمانية فى بون .. أى هو الرجل الذى يضع ويعرض الخطط الاقتصادية ويقدمها للمستشار كول ..

هذا الشيء الأخطر الذى يشير اليه هو أن الناس فى ألمانيا الشرقية غيرهم فى ألمانيا الغربية اذ تعودوا على أن تقدم لهم الدولة كل شيء ..

وبذلك قتلت عندهم الحافز الفردى وضرورة الاعتماد على الذات ٠٠ بينما الناس فى ألمانيا الغربية يقظون ويعمل الواحد منهم عملية أو أكثر ويبحث بجدية عن مصادر للرزق دون أن ينتظر أن تسقط عليه سماء الحكومة رزقا !

فى نفس الوقت كما يقول مستر هومان ٠٠ انه لا يمكن مقارنة الوضع هنا فى ألمانيا بالوضع فى تشيكوسلوفاكيا مثلا ٠٠ رغم حدوث عملية تحول فى المكانين من الاشتراكية للرأسمالية ٠٠

لأننا هنا ٠٠ ينظر ألمان الشرق على أن لهم نفس الحقوق لاخوانهم أبناء الغرب فكلهم ألمان ٠٠ ومسئولية الحكومة الألمانية هى تحقيق المساواة بينهم ٠٠ والا اتهموها بأنها عنصرية مثلا !

وأول ما يواجه الحكومة من مطاب هو أن ألمان الشرق يطالبون برفع مستواهم المعيشى الى مستوى أقرانهم ألمان الغرب ٠٠ ويقولون بصوت عال : لقد سئمنا أن يكون مستوانا ثلث مستوى الغرب !

وهذه أعقد مشكلة تواجه الحكومة ٠٠

فكيف نساوى فى الأجر بين عاملين أحدهما ينتج ثلث ما ينتجه العامل الآخر ؟! ٠٠

يقولون لك ما ذنبنا ٠٠ لقد كنا محتلين بالروس !!

واذا ما دخلت فى جدل معهم ٠٠ قالوا لقد رفضنا ذلك الوضع منذ عام ١٩٥٣ على الأقل وتحركنا كثيرا ٠٠ وقدمنا ضحايا على السور من أرواحنا ونحن نحاول الهرب وتأكيد أننا شعب واحد ! ٠٠

ولذلك نسرع بعملية الخصخصة ٠٠ وأيضا بعملية زيادة الاستثمارات فى المنطقة الشرقية ٠٠ ومن هنا شكلنا مؤسسة « التراوهند ٠٠ » ٠٠ لتحقق هذه الأهداف ٠

شأن كل الكادر السياسى والاقتصادى الذى يدير عملية التحول وهضم ألمانيا الشرقية فى معدة الأم ألمانيا الموحدة الرأسمالية ٠٠ كانت المسز أولهر جرنبروك سيدة شابة ٠٠ تعمل رئيسة العلاقات الدولية بمؤسسة التراوهند هذه ٠٠ ويمكن ترجمة هذه الـــكلمة بمؤسسة الخصخصة ٠٠ أى المؤسسة التى عليها أن تصفى القطاع العام ٠٠ وتحول الاقتصاد الألمانى الاشتراكى الى اقتصاد قطاع خاص ٠٠

وهذه المؤسسة أنشئت فى مارس ١٩٩٠ وكانت مهمتها فى البداية تملك بعض المؤسسات فى ألمانيا الديمقراطية وتحويلها الى شركات خاصة

داخل ألمانيا ·· ولكن بعد الوحدة فى ٣ أكتوبر ١٩٩٠ أصبحت مهمتها تشمل الدولة الموحدة كلها ·· وتشرف عليها وزارة المالية ·· التى سنت قانونا وضعت بموجبة كل الشركات التى كانت تملكها الدولة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية تحت سيطرتها وكأنها شركة قابضة ··

وتركت لها حرية خصخصة تلك الشركات ·· واجتذاب رأس المال الألمانى والأجنبى للاستثمار فى شرق ألمانيا ··

ولما كان أسلوبا من أسلوب الخصخصة هو بيع تلك الشركات أو بعضها للرأسمال الأجنبى ·· فقد فتحت « الترويهاند » لها فروعا فى نيويورك وباريس وطوكيو علاوة على فروعها المحلية فى مدن ألمانيا ·· وان كان مركزها الرئيسى هو برلين « الشرقية » ··

كم شركة قطاع عام تم تحويلها الى شركات قطاع خاص ؟ ··

قالت المسز جرنبروك من تقرير أمامها ·· حيث الدقة هى طابع كل شىء ·· وأسلوب كل متحدث فى ألمانيا ··

ـ ٢٥٠٠ شركة من ثمانية آلاف شركة ·· من بينها عدد كبير من الشركات الصغيرة ··

لكن لماذا تصممون على الخصخصة ·· مع أن بعض البلاد الرأسمالية العريقة تملك شركات انتاجية أيضا ؟!

أجابت مسئولة العلاقات الدولية ··

ـ لأن هذه الشركات لن تقوى على منافسة شركات القطاع الخاص هنا على الاطلاق ·· انها شركات آلاتها قديمة وفيها عمالة زائدة ·· وليس لانتاجها أسواق ··

ـ وسكتت لحظة وقالت وهى باسمة ··

ـ ثم نحن لا نحب الاشتراكية هنا ·· ونريد اجتثاث النظام القديم من جذوره ! ··

● ومن الذى اشترى الشركات ؟

ـ الشركات الألمانية ··

● ألم يشترى الأجانب شيئا ؟

ـ اشترى ٦٨ مستثمرا أجنبيا ثمانين شركة ··

● لكن لماذا لا يقبل الغرب على الشراء ؟

ـ السبب هو التلوث ·· وضعف الاعلام عن الشركات التى يراد بيعهـــا ··

● سمعت أن هناك مناورات تجرى بين الشركات حتى يمكنها شراء الشركات المعروضة للبيع بأرخص الأسعار ٠٠

نفت المسز جردنبرك ذلك ـ كما نفت ما ذكرته له من اشاعات من أن الشركات الألمانية تحاول استبعاد الشركات الأجنبية من شراء تلك الشركات ٠٠ وقالت أن السر فى اقبال الألمان على الشراء هو أنه كانت بين شركات ألمانيا الغربية وشركات ألمانيا الشرقية صــــلات وعـــلاقات ومعاومات متبادلة ٠٠ بحيث أنها أقدر على التقدم والسرعة فى الشراء ٠٠

لكن الحكومة لا تفرق بين أنواع المشترين ٠٠ بدليل أن فرنسا اشترت بعض الشركات ٠٠ وكذلك سويسرا ٠

● ما موقف الشركات اليابانية ؟

ـ مازالت تدرس !

أما عن ما هى أهم عقبة فى طريق الخصخصة فعلاوة على تخلف الآلات هناك مشكلة التلوث فالمياه ملوثة ٠٠ والمصانع ملوثة ٠٠ والجو حولها ملوث ٠٠ بالاضافة الى مشكلة العمالة الزائدة ٠٠

وقد أصــــبح عدد العاطلين فى ألمانيا الشرقية يقترب من المليون (٨٥٠ ألف) وهذه ظاهرة جديدة لم يعتدها المجتمع هنـــاك طـــوال أربعين عاما ٠٠

وعدد العاطلين فى غرب ألمانيا مليون ونصف المليون ٠٠

يشترى المستثمرون شركة من شركات القطاع العام ٠٠ على الفور يبادرون بفصل المئات والألوف من العمال ٠٠

ولم تكن من مسئولية مؤسسة الخصخصة مواجهة مشكلة البطالة ٠٠ لكن لما أصبحت المسألة تمثل مشكلة اجتماعية خطيرة ٠٠ وضعت المؤسسة شرطا ضروريا لكل من يريد شراء شركة أنه لابد أن يضع اعتبارا للأوضاع الاجتماعية ٠٠

فتقرر أن يمنح أى عامل يفصل مبلغ خمسة آلاف مارك (حوالى عشرة آلاف جنيه تمثل متوسط الأجر لشهرين) ثم بعد ذلك تأمين شهرى ضد البطالة ٠٠ ثم فتح مراكز كبيرة لتدريب العمال على وسائل الانتاج الحديثة التى ستستخدمها الشركات الجديدة ٠٠

ويقدرون فى ألمانيا الموحدة أن ثلث عدد العمال فى الشرق سيتعطلون عن العمل ٠٠ وستظل البطالة قائمة حتى يمكن التوسع فى الاستثمارات الى الحد الذى يستوعب مئات الألوف من العمال من جديد ٠٠

هل هناك مستثمرون عرب تقدموا لشراء بعض المؤسسات الألمانية الشرقية ؟

تقول المسز جرنبروك ·· أن مؤسسة الخصخصة ليس لها موقف مع أوضد أى استثمار من أى بلد ··

البـــاب مفتوح للاستثمارات العربية شأنها شـــأن الاستثمارات الأجنبية ·· ونحن لم نتوجه الى أحد بطلب ليستثمر نقوده عندنا ··

ولعلك قرأت ما دعى اليه وزير الاقتصاد الألمانى « مولدمان » لرأس المال العربى للاستثمار فى شرق ألمانيا ·

وكما قلت لك نحن ينقصنا الاعلام عن دعوة العالم للاستثمار ·

وقد أحدث عمل المؤسسة ضجة كبيرة فى ألمانيا فى بداية عهدها ·· وكان نشاطها رمزا لأولئك اللذين لم يعترفوا بفشـــل النظام الاشتراكى فجنحوا الى استخدام سلاح الارهاب ·· فاغتالوا أول رئيس للمؤسسة ··

وقد قالت لى مسز أولهر جرنبروك ·· أن ذلك الاغتيال قد استنكره الشعب خصوصا أنه قبل ذلك كان رئيس البنك المركزى فى دوسلدورف قد قتل فى بيته الخاص ·· وحزن الناس عليه خصـــوصا أن رئيس المؤسسة كان رئيسا لشركة الصلب من قبل ·· ومهتما جدا بالجانب الاجتماعى لحياة العمال ··

وواجهت المؤسسة مشكلتين :

الأولى ديون الشركات التى تكونت خلال ملكية الدولة لها ·· وقد حلت المشكلة عن طريق تحمل المؤسسة والمشترى هذه الديون ان وجد لها مطالب ·· وكانت هناك مفارقات غريبة اذ وجدت شركات لا تساوى أكثر من عشرة ملايين مارك بينما الديون عليها ستين مليون ؟!

الثانية عودة الملاك السابقين ومطالبتهم باستعادة ملكياتهم ·· ولقد حلت الحكومة المشكلة بأن طالبت كل من يريد استعادة ملكية أن يضع خطة استثمار لها فان لم يرد ذلك ·· تبيع الحكومة المؤسسة التى كان يمتلكها ·· ثم تدفع له التعويض ··

والسبب واضح أن الأغلبية الساحقة من الشركات التى أخذت من أصحابها قد تطورت وأدخلت عليها توسعات ·· فأصبحت قيمتها أكثر من قيمتها أيام صودرت أو أممت ··

ماذا عن المساكن ؟ ··

مؤسسة الخصخصة ليس لها شأن الا بالمساكن التابعة للمصانع والمؤسسات أما غير ذلك فخاضع لسيطرة البلديات ··

وتملك المؤسسة بناء على ذلك عشرة آلاف مسكن ستبيعها لمن يريد الشراء ٠٠ بصرف النظر عن أن النظام السابق قد ملكها لساكنيها اذا كان قد حدث هذا فهذه اجراءات لا يعتد بها ٠٠

واذا كانت الدولة قد ألقت على عاتق « الترويهاند » مشكلة انهاء الاشتراكية أو الملكية العامة لوسائل الانتاج ٠٠

فان ذلك لا يعنى أنها تحقق الدمج بين الدولتين السابقتين ٠٠ بل انه لابد لتحقيق الدمج من رفع مستوى الاقتصاد فى الجانب الشرقى وذلك عن طريق استثمار أقصى قدر من الأموال ٠٠ لرفع مستوى المعيشة هناك وأيضا لتلافى النتائج الرهيبة التى بدأت فى الحدوث خلال فترة الانتقال من الاشتراكية الى الرأسمالية ٠٠ مثل البطالة مثلا ٠٠ التى يتوقعون لها أن تزداد الى ثلاثة ملايين ! ٠٠

ان الحكومة تأمل المساواة فى الأجور بين الشرق والغرب فى عام عام ١٩٩٣ ولكن ذلك يتوقف على زيادة الانتاج فى الشرق ٠٠ وازدياد كفاءة العمال ٠٠ والانتاج الصناعى بعد الوحدة لم يتحسن كما يقول مدير بنك التجارة فى فرانكفورت الهر هانزل دوجمان ٠٠ بل قد انخفض مستواه الى النصف بعد شهور قليلة من الوحدة ٠٠ وفى الزراعة كانت نسبة الانخفاض أقل ٠٠ وزادت فى مجال الخدمات ٠٠ بحيث أصبح الناتج القومى فى ألمانيا الشرقية يعادل ١٠٪ من الناتج فى ألمانيا الغربية بعد أن كان فى عهد النظام الاشتراكى يمثل ٢٥٪ ٠

ويقول الهر هانزل لى ٠٠ ان ذلك كان أمرا طبيعيا نتيجة التحول المفاجىء فى فترة الانتقال من نظام اقتصادى الى نظام متناقض معه تماما ٠٠ فى سرعة شديدة تدفع اليها الرغبة المحمومة بين الناس فى الشرق الى المساواة باخوانهم فى الغرب وهم يصدقون تماما أن الرأسمالية قادرة على صنع المعجزات بعد أن كرهوا الاشتراكية كراهية شديدة ٠٠

لقد توقفت شركات كثيرة عن الانتاج ٠٠ بل المتوقع أن تجرى تصفية نصف الشركات فى شرق ألمانيا ٠٠ وهذا يؤدى الى تسريح العمال المنخفض معدل انتاجهم أصلا الى ثلث انتاجية العامل الغربى ٠

وحتى الشركات الألمانية الشرقية التى مازالت تنتج ٠٠ فانها لا تقوى على منافسة ما تنتجه زميلاتها الشركات الألمانية الغربية نظرا للتفوق الساحق للأخيرة تكنولوجيا ٠٠ مما أدى الى اغلاق مؤسسات كبيرة ٠٠ مثل معمل تكرير النفط « ليفنوك » فى شرق ألمانيا ٠٠ وكان يمثل ١٠٪ من طاقة ألمانيا الشرقية كلها على تكرير البترول ٠٠

أضف الى ذلك أن القوة الشرائية تناقصت فى ألمانيا الشرقية ليس فقط بسبب الفرق فى الأجور ·· وانما بسبب خطة عدت اليها الحكومة الألمانية فيضيفون أعباء جديدة على الاقتصاد هناك ويزيد عدد العاطلين علاوة على ارتفاع نسبة الجريمة اذ هؤلاء المهاجرين فى حالة تخلف عامى وثقافى وحضارى عن الألمان بسبب التخلف الاقتصادى والديكتاتورية التى عاشوا فيها فى الشرق ··

بل ان هذا التهجير والتوطين قد سبب مشكلة للحكومة الاتحادية ذاتها اذ خلق شعورا بالمرارة فى نفوس أهل شرق ألمانيا اذا تصوروا أن تلك الحكومة تعاملهم معاملة الدرجة الثانية بالقائها بلوى اللاجئين عليهم ··

ولقد لاحظت بنفسى فعلا أن سكان القطاع الغربى الألمانى ينظرون فى تعال الى سكان الشرق فى بعض الأحيان ·· خصوصا أن حكومة شرق ألمانيا فى النظام القديم ربما يكون من محاسنها أنها أضعفت الشعور الألمانى الآرى التقليدى لدى ألمان الشرق وجعلتهم يشعرون أنهم ليسوا الجنس المتفوق فى العالم ·· بعكس الغرب حيث لم تبال به حكومة ألمانية غربية باعادة تربية الناس هناك ··

وقد قالت السيدة جرنبروك رئيسة العلاقات الدولية بمؤسسة الخصخصة أنها كانت فى دوسلدورف قبل أن تأتى للعمل فى برلين الشرقية حيث مقر المؤسسة فاكتشفت أنها رغم كونها ألمانية فانها تحس أن ألمان الشرق أناس مختلفون كثيرا ·· حتى كما لو كان الطرفان يتكلمان بلغتين مختلفتين ·· وبالتالى حتى تحقق « الأمة الواحدة » فان ذلك سيستغرق وقتا طويلا ··

ومشكلة ارتفاع أسعار أو ايجارات المساكن والكهرباء والغاز والمواصلات ·· تسبب قلقا عاما ·· وتحدث مفارقات طريفة ·· فمثلا اذا ركبت المترو من محطة فى برلين الشرقية الى محطة فى برلين الغربية ·· تدفع عشرين فنك شرقى قيمتها لا تزيد عن خمسة قروش مصرية بسعر ذلك الوقت · بينما اذا ركبت نفس المترو من برلين الغربية لبرلين الشرقية تدفع مائتين وثمانين فنكا غربيا ·· أى ما يساوى خمسة آلاف وستمائة فنك شرقى أى ثمن التذكرة يصبح ١٨٠ مرة ثمنه فى ألمانيا الشرقية !

خذ عندك رغيف الخبز مثلا ·· كان ثمنه فى ألمانيا الشرقية خمسة فنك فقط أي ربع فنك غربي أي تضاعف ثمنه أربعمائة مرة ! ··

ومطلوب من حكومة الدولة الموحدة ٠٠ حل هذه المشكلة ٠٠ وهى تحلها فعلا ٠٠

ولا تتصور أن أهل برلين الشرقية يعانون المجاعة أو ما أشبه ٠٠ بالعكس انهم بكل المدخرات التى حولوها من مارك شرقى الى غربى ٠٠ قد اشتروا السيارات الغربية واليابانية ٠ بل وألقى بعضهم فى الطريق العام بسيارة الترابند التى كان يمتلكها اذ يعتبرها سيارة حقيرة ٠٠ وامتلأت البيوت بأجهزة الكهرباء الحديثة ٠٠ وأضاءت فترينات المنشآت والشوارع ٠٠ وحلت المناظر البهيجة بدلا من مناظر الكآبة السابقة فى برلين الشرقية ٠٠

ومع ذلك لم تلحق بعد بجمال وبهجة وصخب برلين الغربية رغم أنهما أصبحتا مدينة واحدة ٠٠ ولكن ذلك يحتاج الى سنوات ٠٠

وقد رصدت حكومة ألمانيا المتحدة ٢٤ مليار مارك مثلا لانفاقها فى عام ١٩٩١ على تطوير القطاع الشرقى ٠٠

خمسة مليارات ونصف المليار على شق الطرق وتجديد شبكات السكة الحديد ٠٠ ومليار ونصف المليار لتشجيع الاستثمارات الخاصة أى أولئك اللذين يشترون المحلات والورش الصغيرة التى تقدر بعشرات الآلاف وكانت الدولة تملكها ٠٠ وخمسة مليارات لانشاء مدارس جديدة ٠٠

والخطط طموحة لتطوير شرق ألمانيا ٠٠ ويكفى مثالا على ذلك أن عدد التليفونات التى تم انشاؤها من ١٩٤٩ حتى ١٩٩٠ كان مليون وثمانمائة ألف تليفون ٠٠ الخطة الجديدة تريد انجاز اقامة تسعة ملايين تليفون حتى عام ١٩٩٧ أى فى سبع سنوات فقط ٠٠

عملية التحول تسير ٠٠ بخطى واسعة ٠٠ وتتغلب الحكومة والشعب على الافرازات السيئة للعملية مثل ازدياد معدل الجريمة ٠٠ ولم تكن ألمانيا الشرقية بالذات تعرف الا القليل منها ٠٠ ورغم ظهور جماعات الهانك التى تثير دعاية معادية وعنصرية ضد الأجانب علاوة على المنظمات النازية الصريحة ٠٠

وبدايات للنشاط الصهيونى فى ألمانيا الشرقية وبرلين بالذات التى يعملون على اقامة مجمع يهودى كبير فيها جنبا الى جنب تقديم قوائم جديدة بمطالبة عن تعويضات من الشرق عن جرائم النازى ٠٠

ولقد كان هناك اتجاه يدعو الى تقليص علاقة ألمانيا الموحدة بالعالم العربى ·· ومصر بالـــذات ·· عن طريق تقليـــل القروض والمنـــح والاستثمارات ·· ولكن كما قال لى رءوف غنيم سفير مصر فى بون حينذاك ومدحت الجوينى المستشار التجارى لقد دمر هذا الاتجـــاه العـــلاقات ستتوطد أكثر فأكثر !

ملاحظات واستنتاجات ..

بعد هذا الاستعراض الذى قدمناه من خلال جولة طويلة فى بعض دول أوربا الشرقية يمكن استقراء واستخلاص نتائج وحقائق عديدة .. تساعدنا على محاولة الاجابة على السؤال الذى يتردد فى كل الدوائر فى أنحاء العالم . رأسمالية كانت أم اشتراكية .. يمينا أم يسارا .. وهو ماذا بعد الانهيار ؟ انهيار الاشتراكين .. والى أين اتجاه التاريخ ؟ .. هل الرأسمالية نظام أبدى .. وأى رأسمالية .. هل فى الرأسمالية الكلاسيكية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. أم أن هناك أنواعا أخرى من الرأسمالية .. واذا كان الأمر كذلك فهل هناك نوع آخر من الاشتراكية غير تلك الاشتراكية التى انهارت ؟ ..

نستطيع أن نستخلص الآتى :

● أولا ان دول أوربا الشرقية فرض عليها النظـــام الاشتراكى فرضا بواسطة الجيش الأحمر الذى حررها من النازية دون نضوج الظروف الموضوعية التى تجعل من الشيوعيين أغلبية بين الجماهير بحيث يمكن القول أنها أى الجماهير اختارتهم بملء حريتها باعتبار أن الظروف الداخلية فى البلاد تستوجب وصولهم الى الحكم لحل مشاكل تلك الأغلبية بعد أن أفلست كل الأحزاب الرأسمالية .

وسنجد استثناء محدودا لهذا الواقع فى تشيكوسلوفاكيا التى ساعد وجود الجيش الأحمر فيها على تقوية الحزب الشيوعى وتدعيم مواقعه قبل اجراء الانتخابات الحرة التى حصل فيها على أقل من ٥٠٪ من الاصوات قليـــلا .

● ان هذه الدول قد طبقت النموذج السوفيتى كأنه قالب مفروض .. بصرف النظر عن اختلاف الظروف ومستوى التطور الاقتصادى ..

والنموذج السوفيتى يقوم على أساسين :

الحرفية والنصوصية اللتان تؤديان الى الجمود والديكتاتورية ٠

● لم يستطع النظام الجديد فى تلك البلاد أن يكتسب تأييد الشعب اللهم الا لسنوات قليلة يمكن تسميتها سنوات النهضة وفى بعض البلدان وليس كلها ٠٠ أى أن الرفض الشعبى كان هو الطابع العام ويبدو ذلك واضحا فى هبة عمال البناء فى برلين الشرقية عام ١٩٥٣ ثم ثورة المجر عام ١٩٥٦ وحركة ١٩٦٨ فى تشيكوسلوفاكيا ٠٠ ناهيك عن التحركات المستمرة المضادة للنظام فى بولندة ٠٠

وكلها قمعت بالقوة حتى الى حد استخدام قوة حلف عسكرى بأسره كما جرى فى تشيكوسلوفاكيا ٠

● أن الانهيار الذى حدث فى تلك النظم كان يشمل الناحيتين الأساسيتين فى أى نظام : الجانب الاقتصادى والجانب السياسى ٠٠ وارتبط النضال من أجل الديمقراطية بالنضال ضد الاشتراكية ٠

● أن الاختيار الوحيد الذى طلبته أو وافقت عليه الجماهير التى قادتها الأحزاب والهيئات السياسية سواء سرية أو علنية هو الطريق الرأسمالى الذى سماه الثائرون بنظام السوق ٠

● أن الانهيار الذى حدث انما حدث نتيجة حركة جماهيرية عارمة ولم يحدث نتيجة انقلاب عسكرى ٠٠ وهذه الحركة الجماهيرية لعبت فيها الطبقة العاملة دورا بارزا ان لم يكن قياديا مثل ما حدث فى بولندة ٠

وفى الاتحاد السوفيتى نفسه لعب عمال المناجم وعمال السكة الحديد دورا بارزا فى تحطيم النظام الاشتراكى باضراباتهم المستمرة بل طالبوا صراحة بانهاء النظام نفسه ٠

● أنه مما شجع على قيام التحركات الجماهيرية فى بلدان شرق أوربا واستمرارها هو رفض السوفيت التدخل لقمعها ٠ حتى أن أغلب الأحزاب التى قادت التحرك تعترف أنه لولا هذا الرفض من جانب الاتحاد السوفيتى لما نجحت حركتهم ٠

لقد سقط مبدأ بريجنيف ٠٠ وشعار الأهمية الذى كان يتيح للاتحاد السوفيتى التدخل لقمع أى محاولة للتخلص من الاشتراكية أو حتى تحقيق اصلاحات جذرية غير مألوفة ٠٠ مهما كان ذلك يعبر عن ارادة الجماهير ٠٠

وظهر هذا المسلك السوفيتى الجديد أول ما ظهر ازاء بولندة قبل البيروسترويكا (١٩٨٢) واستعاض السوفيت والحزب الشيوعى البولندى بفرض الأحكام العرفية والجيش بدلا من التدخل المسلح السوفيتى ٠٠

ولكن كل ذلك فشل ·· وانتصرت الطبقة العاملة البولندية بقيادة عامل ديمقراطى مسيحى أمى سياسيا على النظام ·

● أن القوى المضادة للاشتراكية لم تكن وحدها هى التى قلبت النظام بل شاركت الأحزاب الشيوعية أو أقسام منها فى عملية الانقلاب هذه · ففى المجر مثلا كان الحزب الشيوعى المجرى هو الذى قرر التعددية الحزبية واجراء انتخابات حرة جنبا الى جنب اتخاذ قرارات بالاتجاه نحو اقتصاد السوق ··

والمراقبون السياسيون يلاحظون أن الأحزاب الشيوعية فى تلك البلاد لا تعارض التحول الجديد نحو الرأسمالية والديمقراطية فى الأساس ··

ويمكن القول أن هذه الأحزاب قد استجابت للضغط الشعبى ولم تحدث مقاومة الا فى رومانيا جزئيا ·

● أن الصين نفسها بدأت تعمل على اقامة تنمية رأسمالية وفتحت الباب من زمان للاستثمارات الغربية التى تستجديها من الغرب وتتعاون معه الى أقصى حد ·· ولكن مع فارق واحد هو احتكار الحزب الشيوعى لعملية التغيير حتى لا يفلت الزمام منه كما حدث فى كل دول أوربا الشرقية ·

ولذلك قمع النظام الصينى حركة الطلبة قمعا وحشيا ··

ونجاح الصين حتى الآن فى الاستئثار بذلك النموذج الفريد للتحول نحو الرأسمالية دون الديمقراطية يرجع الى ظروف عديدة ليس هنا مجال ذكرها وان كانت تستحق دراسة متأنية ·

● أن عملية التحول قد أفرزت متاعب وسلبيات كثيرة فى تلك البلاد مثل البطالة والجريمة والفوارق الحادة والغلاء ·· ولكن حتى الآن لا توجد أدنى رغبة لدى الجماهير فيها للعودة الى النظام القديم · وعندها القدر الكبير من الحرية التى يمكن أن تعبر عما تريد ·

● أن من بين افرازات عملية التحول انتشار حملة معادية للشيوعية فى شرق أوربا · الى حد صدور قوانين بعدم تعيين الشيوعيين فى مناصب هامة فى بلد مثل تشيكوسلوفاكيا ·· ومطاردة بعض رجال الشرطة والمخابرات اللذين قاموا بعمليات تعذيب وتنكيل بالمواطنين وتقديم بعضهم للمحاكم وحرمان البعض من التوظف أصلا · علاوة على طرد أغلب العاملين فى وزارات الخارجية والجيش والتعليم من وظائفهم فى القسم الشرقى بألمانيا ·

ويواجه هذا كله مقاومة من أحزاب وهيئات ديمقراطية كما بدا فى الحملة المضادة الموجودة فى ألمانيا هذه الأيام لمحاكمة هونيكر رئيس ألمانيا الديمقراطية السابقة .

ومع هذه الحملة المعادية للشيوعية فان حكومات هذه البلاد لم تحرم نشاط الأحزاب الشيوعية وتشارك فى الانتخابات .. وفى عضـــوية البرلمانات ..

وهذا الموقف أيدته الادارة الأمريكية .. ولكن لا أحد يدرى ..

هل سيتغلب الطابع الديمقراطى الغربى دائما على أى ردود فعل مضادة للحرية .. أم ستنجح الاتجاهات المتشددة ؟

● أن اتجاه دول شرق أوربا الى أن تلحق بأوربا الغربية وتنضم اليها .. وذلك يعنى بالدرجة الأولى استثمارات غربية تغرق هذه البلدان لمساعدتها على عملية التحول .. هذا الاتجاه لم يلق الاستجابة الواجبة من الغرب على عكس ما كان يتوقع الزعماء الجدد هناك .

وقد بدا ذلك واضحا فى الانتقادات الغاضبة التى وجهها زعماء المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندة (وهذه الدول تكون شبه ترابط أو تحالف فى شرق أوربا) فى اجتمــــاع قمة عقدوه فى كراكوف ببولنده .. وجهوا انتقادات للدول الغربية لعدم تقديمها للتأييد المطلوب لدعم الديمقراطيات الجديدة وحذروا من أن هبوط مستوى المعيشة بين شعوبها سيحولها الى طاقات متفجرة تهدد بالاضطرابات والمعارك العرقية والطائفية !

وبلغ الشعور بخيبة الأمل مداه عند ليش فاليسيا رئيس بولنده اذ وصف موقف الغرب السلبى بأنه قصر نظر « ووقاحة » ! ..

وحذروا مما سموه « بالستار الاجتماعى » بدلا من الستار الحديدى الذى كان يفصل بين الدول الاشتراكية والرأسمالية ..

وطورت الدول الثلاث مطالبها الى حد طلب الالتحاق بحلف الأطلنطى وهو ما كانت تحرص على عدم طلبه حتى شهر واحد مضى حرصا على علاقتها بالاتحاد السوفيتى .. لكن يبدو أنه بعد الانهيار الاشتراكى هناك زال مثل ذلك التحفظ !

● ان الصهيونية كانت لها جذور قوية فى تلك البلدان .. وكانت قدرتها على العمل تتحدد بمقدار الحرية التى تكتسبها الجماهير فيها .. لأن النظام السابق كان يحرم النشاط الصهيونى نتيجة تأييده للحقوق القومية العربية .

وحاليا انطلق النشاط الصهيوني بدون أى قيد ·· ويجد لديه عدة عوامل مساعدة لازدهار ذلك النشاط :

الأول أن حكومات هذه البلدان تعتقد أن الطريق الى واشنطن يمر بتل أبيب ·

ثانيا أن معظم العناصر الحاكمة حاليا كانت من المنشقين اللذين كانت تتلقفهم المنظمات الصهيونية العالمية وتمد لهم يد العون والتشجيع · فالارتباط هنا وثيق كما أن الارتباط وثيق أيضا بالولايات المتحدة ·

ثالثا أن هذا النوع من العناصر الحاكمة لم يتلق أى تربية جدية معادية للصهيونية ودورها العدواني فى الشرق الأوسط ··

رابعا : أن هناك خوفا مستمرا من الابتزاز الصهيوني عن عودة المشـــاعر اللاسامية حيث كان اليهود أيام النازية بالذات يضطهدون اضطهادا مزوعا فى تلك البلدان ·

ويكاد المرء يتصور أن الصهيونية تشجع مثل تلك الجماعات التى بدأت أخيرا معادية لليهودية حتى يمكن اثارة ضجة وخلق جوا مناسب للابتزاز !

وهذا واضح جدا فى ألمانيا الشرقية حيث بدأت تظهر شعارات نازية ·

● دول أوربا الشرقية التى تسير فى طريق التحول حاليا ·· لاتهتم كثيرا بالعالم العربى ولا بالعالم الثالث ·· بل هناك انطباع بأن هذا العالم شريك فى المسئولية ازاء الحكم الشيوعى السابق فيها اذ كان حليفا له ومؤيدا له ··

علاوة على أن جزءا كبيرا من دخل هذه البلاد كان يذهب الى الدول النامية لمساعدتها ··

والحقيقة فان بعض العرب أعطوا الفرصة لنمو الاتجاهات المعادية للعرب الموجودة هناك حاليا ·· اذ كان هناك عدد من الشبان العرب يأتون الى تلك البلاد زاعمين أنهم مضطهدون فى بلادهم ويطلبون اللجوء السياسى ·· فيقيمون معززين مكرمين ويتقاضون الاعانات ·· ويتســـكعون فى البارات ويتعاطون النساء وتحدث صدامات مشينة هناك ··

الآن ·· يمثل هؤلاء اللاجئون مشكلة ·· فتطردهم تلك الحكومات حاليا ·· والبعض الذى لم يطرد يعمل فى الأسواق فى تجارة العملة ·· وهم كثرة فى شوارع بودابست وبراغ بطريقة تثير الدهشة !

وتطرد أيضـــا فى أدب تلك البلاد عشرات الآلاف من الفيتناميين والكوبيين اللذين كانت قد جلبتهم للعمل فى المصانع والمزارع ..

● ان المجال الوحيد لاستبقاء العلاقات مع هذه الدول .. هو اقامتها على أساس المنفعة المتبادلة فقد انتهى زمن أنها تعطى ولا تأخذ .. هم يرحبون جدا باستثمار رأس المال العربى عندهم .. ويرحبون باقامة علاقات تجارية دون أن يصابوا بأى غرم .. اذ هناك هوس رأسمالى .. الى حد الجليطة والخروج عن تقاليد الاستقبال والتعامل البسيطة جدا فكل شىء له ثمن بشكل فج .

ومكان لصداقة حارة أو تضامن بلا مصلحة مشتركة .. ومن مصلحة العرب التعاون الاقتصادى والتجارى والثقافى مع هذه البلاد .. فهى غدا أو بعد غد ستلحق بالمجموعة الأوربية الغربية .. ووجود صوتها فى جانبنا يفيدنا كثيرا ..

لكن يجب ادراك أن النظم اختلفت تماما .. وبالتالى اختلفت الأهداف وأساليب التعامل !

لماذا السقوط . .

الصورة على حقيقتها !

كان الواحد منا ·· يرى عيوب النظام الاشتراكى وهو يزور بلدا اشتراكيا اذا أتيح له ذلك · ومع ذلك كان لا يهتز على الأقل ظاهريا ·· وربما كانت الحقائق تتخمر فى العقل الباطن ·· ولكن ايمانه بصلاحية الاشتراكية كانت تظل ثابتة ·

كانت لدى كل منا ·· (أقصد اليساريين خاصة الشيوعيين) ·· عبارة سحرية تكفى لتهدئة أى هواجس أو بالأحرى تطمس أى اتجاه للتفكير بحرية خارج نطاق النظام القالبى الذى ربينا عليه من قراءتنا للماركسية وتطبيقاتنا لها فى واقعنا النضالى المخلص المتفانى ولا شك ··

كانت تلك العبارة هى : مخلفات الرأسمالية يا رفيق ·· أو سلبيات مازال لها وجود وهو أمر طبيعى ··

وعندما أفكر اليوم فى هذا أتذكر أن بعض ما كنا نراه كان يمثل فى الواقع حقائق جذرية راسخة وليست مخلفات رأسمالية يا رفيق ·· ولكنى أعترف أننا كنا بطريقة ايرادية لا شعورية نكبت كل تلك الهواجس والأفكار المقلقة ··

وحقا كان هناك شيوعيون فى العالم قد استطاعوا أن يتغلبوا على ذلك السد الأيدولوجى الحاجب للرؤية عن عقولهم ·· وتحرروا ·· ففكروا فاكتشفوا العيب ·· والجانب السلبى الذى كان كامنا فى أعماق ذلك النظام حتى جاءت اللحظة المناسبة وتفجر فدمر النظام من الداخل وصدقت نبوءة بريجنسكى عندما قال ان النظام الاشتراكى سينهار من الداخل ·· وكنا نسخر من تلك النبوءة بالكليشية المعروف والذى كنا نستحلبه فى تلذذ شديد : سى · آى · ايه ·· مخابرات أمريكى ·· رجعى عميل الاحتكارات أو صانعها ·· الخ ··

لقد كانت أول زيارة لى للاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٢ ·· مع الوفد المصرى الذى كان يترأسه د· عزيز صدقى ورئيس الوزراء حينذاك ذاهبا الى موسكو للاتفاق على سحب الخبراء السوفيت من مصر ·· أى « نأتى بضلفها » على حد تعبير زميلنا الكاتب المعروف محمد الحيوان الذى كان ضمن الوفد الصحفى المسافر مع الوفد ·· الذى كان يضم اللواء حسنى مبارك حينذاك باعتباره قائدا أو رئيسا للأركان فى سلاح الطيران لا أذكر ·

عندما ذهبنا الى الفندق ·· وأنا ممتلىء بالحماس والفضول لمشاهدة وطن الاشتراكية الأول ·· أو جنة الاشتراكية كما كان يحلو لبعض الكتاب اليساريين أن يصفوا الاتحاد السوفيتى ·

فى الطريق بالسيارة ·· بدت لى قتامة نسبية ·· بالنسبة للعواصم الاوربية التى كنت قد تعودت على زيارتها منذ عام ١٩٦٦ ·· ولم تكن هناك بهرجة فنارين ·· ولا حركة سيارات فاخرة ··

هذا طبيعى يا رفيق ·· فمن أجل تعميم المعيشة الجيدة لا مجال للبهجة والبذخ فهما طابع الرأسمالية ومتاعها للأقلية ! ·· وربما أضفنا كلمة الزائل أيضا ·· كأن استمتاع الشعوب شىء وتنكر ·· وليس هدف البشرية الأسمى ·

وما أن نزلنا الفندق حتى خرجت على قدمى ·· فأنت لا تستطيع أن تعرف بلدا الا اذا مشيت فى الشوارع ··

عندما عدت بعد ثلاث ساعات : قلت فى دهشة لزميلى المرحوم ابراهيم عامر ومحمد الحيوان ·· يا أخى لا توجد سوبرماركات هنا ·· الا محلات كبيرة السلع فيها غير متنوعة وشكلها كئيب حتى لتبدو البلد فقيرة والناس على وجوههم كآبة لا يبتسمون !

ضحك محمد الحيوان وهو الكاتب المعادى للشيوعية « منذ نعومة أظفاره » وقال : الحمد لله ·· وشهد شاهد من أهلها ·· ولســـه حتشـــوف ! ··

كنت أريد أن أبقى عدة أيام بعد المحادثات التى استمرت يومين فقط ومن الطريف أن محمد الحيوان الذى كان صديقا لمدير وكالة نوفستى السوفيتية توسط لى عنده ليستضيفونى بضعة أيام ولكن رئيس الوكالة هز رأســـه وقال ضـــاحكا فى ســـخرية ـ انت عارف البيروقراطية يا صـــديقى ! ··

فعلق محمد الحيوان ساخرا : آه لازم تستأذن اللجنة المركزية التى يجب أن تستأذن المكتب السياسى ··

كان المعنى واضحا .. فهذا المسؤل السوفيتي يعترف بالبيروقراطية وتوغلها الى حد لا يستطيع أن يمد اقامة صحفى مصرى اشتراكى أى صديق للاتحاد السوفيتى .. ولأول مرة يزور ذلك البلد .. بينما عندما كنت فى لندن عام ١٩٦٧ وعلاقتنا الدبلوماسية مقطوعة مع ألمانيا الغربية لموقفها العدائى من مصر .. قرر المستشار الصحفى بالسفارة هناك وأنا أقصده لتسهيل استخراج فيزا لى .. دعوتى الى زيارة بلاده لمدة خمسة عشر يوما .. ثم بعد الدعوة تكلم فى التليفون وأنا جالس أمامه أحتسى الشاى الانجليزى الشهى .. وأملى اسمى واسم الصحيفة التى أعمل فيها .. واستغرق الحديث ثلاث دقائق انتهى بأن حرر لى اسم شخص ورقم تليفون وكالة الاستعلامات فى فرانكفورت . قائلا فى ود شديد هم فى انتظارك فى أى وقت هناك ـ واذا كنت ستسافر من لندن الى ألمانيا مباشرة اتصل بى لأستخرج لك تذكرة الطائرة !

بعد شهر عدنا الى موسكو .. ودعونا لقضاء أسبوع فى البلاد بعد سفر الوفد المصرى برئاسة د. عزيز صدقى أيضا الذى أنهى مع السوفيت كل الترتيبات لتصفية وجودهم فى مصر بناء على تعليمات أنور السادات .

أكرمنا السوفيت اكراما شديدا .. وبالتالى لم نر الا الجانب المشرق تماما .. قطارات فاخرة الى لينجراد .. مزارع جماعية رائعة .. مصنع متقدم جدا .. متاحف .. احتفالات بنا فى الفنادق .. بيوت للعمال تعكس مستوى جيدا .. لكنى التقطت شيئا .. أثار دهشتى وجزعى فى نفس الوقت ..

كان معنا دائما الصحفى المصرى اللامع عبد الملك خليل مراســـل جديدة الأهرام فى موسكو .. وهو فى رأيى بعد أن التقيت به عشرات المرات واستمعت منه الى حقيقة وما يجرى فى الاتحاد السوفيتى قبل أى بوادر للانهيار .. ما يجعلنى أقول وأنا مطمئن تماما أنه أستاذ فى فهم « السوفيتولوجى » اذا جاز التعبير أكثر من أى مصرى أو عربى بل ان عبد الملك كان يقول لنا دائما وهو يهز رأسه فى أسف .. أن النظام الاشتراكى فيه عيوب كثيرة جدا لحد أنه يخشى عليه من السقوط ! .

كان ذلك عام ١٩٧٢ .. ثم فى زياراتى التالية للاتحاد السوفيتى من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٥ .. حيث فى تلك السنوات كان يؤكد لنا أن السقوط مسألة زمن فقط .. وكنا نحن الشيوعيين المصريين ننزعج جدا مما يقول ولا نكاد نصدقه .. وبعضنا كان يصفه فى القاهرة بعد عودته أنه معاد للسوفيت .. ويتســـاءل كيف يبقى عليه الســـوفيت فى موســـكو ؟! .

على أننى فى الحقيقة كنت أحاوره فى اختلاف شديد ولكنى ما شككت

في عدائه للسوفييت والاشتراكية فقد كنت أشعر أن وجهات نظره الانتقادية القاسية كانت منطلقة من تقدير للدور السوفيتي وللاشتراكية معا ..

لكنه كان يرى .. ويفكر ويتميز عنى بأنه حطم الستار الحديدى الذى كان يحيط عادة بعقل أغلب الشيوعيين المرضى بالجمود العقائدى ..

وعندما عرفت سامى عمارة مراسل روزاليوسف الأسبق فى موسكو وبعض الصحف العربية بمونت كارلو بعد ذلك فى الثمانينات .. دهشت اذ وجدت لديه نفس الرؤية .. والادراك أيضا .. وقد ثبت أن كل ما كتبه عن حقيقة ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى كان يمثل الحقيقة أو بعضها على الأقل .. والشىء بالشىء يذكر .. حتى تكون الصورة كاملة .. وكى يريح المرء ضميره العلمى ..

ان الكتاب الذين كانوا ينقدون الاشتراكية وتطبيقاتها فى الاتحاد السوفيتى وكذلك بعض أسسها النظرية .. كانوا على حق .. وأعترف أنهم كانوا أكثر ادراكا ووعيا بتلك النظرية وذلك النظام منا .. مهما كانت دوافعهم .

لقد كان محمد الحيوان على حق فى الكثير مما كان يكتبه عن ذلك . وكان طارق حجى .. على حق أيضا .. وكان يتميز عن غيره من الكتاب الذين كتبوا أنه كان يؤصل نقده الى النظرية الماركسية نفسها .. ويكشف عن تناقضاتها مع حقائق العصر .. وكان ينقد التطبيق الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى أيضا لكنه كان يركز على النظرية كنظرية .

ومع ذلك لم يبخس كارل ماركس وفريدريك انجلز حقهما كمفكرين كبيرين أضافا الى البشرية محاولة لفهم الواقع واصلاحه ..

كان طارق حجى من الكتاب القلائل المنظرين فى موضوعية وتهذيب علمى راق .. وكنا نحن اليساريين ندير ظهورنا مع ذلك الى ما يكتبه .. ونهاجمه كما نهاجم أى واحد من جوقة مهاجمة الاشـــتراكية والاتحاد السوفيتى لمصالح وبايحاءات من أصحاب المصالح الأمريكيين وأصحاب النفط الذين كانوا يعادون السوفييت لمساندتهم لحركة التحرير العربية .. كما يعادون الاشتراكية لأنها ستنتزع آبار البترول .. والأموال الطائلة من أيديهم ..

ولم نتوقف قط للتفكير فى أن خصومة هؤلاء مع الاشتراكية ليس ضروريا أن تنبع من ايحاءات أجنبية أو مصالح متناقضة وانما نتيجة لما هدته اليه أفكارهم وعملياتهم العقلية فى تحليل ما شاهدوه أو قرأوه عنها ..

لقد زرت أفغانستان مثلا .. وشاهدت البلاد فى حالة انتظام .. وعجلة الانتاج تدور فعلا .. وجامعة يتعلم فيها الأولاد والبنات فى مساواة

.. وابتهاج فعلا .. كان هناك جهد كبير يبذل فعلا لترقية حال ذلك البلد المتخلف جدا .

وهو وضع لا يقارن قط بالوضع المأساوى الحالى هناك ..

ولكن بجانب هذه الصـــورة الايجابية النظـامية للنظـــام .. أحسست ورأيت أمام عينى كيف أن النظام ديكتاتورى وعنيف .. وحاد جدا مع خصومه .. أو حتى من يختلف معهم . والمسئولون الأفغان قمة فى الغرور والتعالى على الجماهير .. وكأنهم يشعرون أنهم من دم أزرق فعلا كالأسر المالكة فى أوربا مع أنهم شيوعيون مفروض أن يكونوا غاية فى التواضع والبساطة .. وكنت خلال الأيام التى قضيتها هناك أشعر أنى محاصر وأختنق .. وطالما ثرت على كل مرافق أو مسئول لقيته .. فقد كانت قبضة الديكتاتورية تفصيلية وتدخل فى نخاع المواطنين والزوار على السواء ..

ومع ذلك عندما عدت لم أكتب شيئا عن هذا الجانب المروع الذى أثار اشمئزازى وسخطى هناك .. لماذا ؟ لأنى كنت أجد تبريرا لذلك وهو حالة الحرب الدائمة التى كان يعيشها النظام .. اذ كان من يسمون بالمجاهدين وهم عصابات من المجرمين واللصوص والعملاء يمثلون قبائل متخلفة ومصالح استعمارية فعلا كما ظهر بعد ذلك .. يقصفون كابول والمدن الأخرى بالصواريخ ويمارسون التخريب فى الداخل ..

اذن الحكومة مضطرة الى اتخاذ اجراءات حادة وعنيفة وتتشكك فى كل شىء وبهذا التفسير السطحى أرضينا أنفسنا وأرضينا ضميرنا .. ونسينا القاعدة البسيطة التى تعلمناها وهو أن الشـــعب خير حماية لأى نظام ..

وقد كان لدى النظام فى أفغانستان ما يمكنه من أن يكسب قطاعات من الشعب لأنه قدم لها الكثير فعلا بمساعدة كل البلاد الاشتراكية التى كانت تتبارى فى تقديم مساعداتها .

ولكن هذه الحكومة حاربت المتدينين حربا شعواء فى بداية الحكم وأقحمت نظما تقدمية على شعب قبلى يعيش حالة من التخلف .. وقمعت كل العناصر الديمقراطية وتصارعت مع بعضها البعض فى وحشية .. ثم جاء وقت اضطرت فيه الى الاستعانة بالقوات السوفيتية فنشأت مشكلة وطنية أضعفت من النظام اضعافا شديدا ..

وهناك أشياء وظواهر كثيرة .. كنا نراها .. ومع ذلك لا نكتشف حقيقة الخطأ والانحراف .. بل نجد المبررات دائما .. ونظل فى حالة رضاء عن الذات .. لحد حجب بعض ما شاهدناه عن القارىء .. وهذا

خطأ مهني وسياسي معا ٠٠ لأن من حق القارىء أن يعرف ٠٠ وتشرح له تبريراتك أو تفسيراتك ٠٠

ما الذى جعل مثل تلك « الآفة » تتمكن فى معظم الكتاب والمثقفين الماركسيين ؟٠٠ أعتقد أنها تعود الى أنهم تعاملوا مع تلك النظرية كأنها دين من الأديان السماوية ٠٠ لا يأتيها الباطل من خلف أو أمام أو شمال أو يمين ٠٠

وأصبح الارتباط بتلك النظرية نوعا من اعتناق عقيدة دينية ٠٠

وكما حدث فى كل الأديان وجد متعصبون متطرفون ٠٠ كذلك فى الماركسية وجد المتعصبون المتطرفون الذين نسميهم بالنصوصيين ٠٠ وهم فريق أشبه بجماعات التطرف الدينية ٠٠ يصرون على تجاهل حقائق العصر ٠٠ ويصرون على تطبيق النص بالحرف : قال ماركس ٠٠ قال لينين ٠٠ وقال ستالين ٠٠ وقال ماوتس تونج ٠٠ وهكذا ٠٠ ومن يخرج على تلك النصـــوص فهو مرتد ٠٠ عميل للاستعمار والرجعية المحلية والعالمية جميعا !

وقد طارت رقاب آلاف بل قل عشرات الألوف من الماركسيين أنفسهم فى معظم الدول الاشتراكية لأنهم اعترضوا أو رفضوا قولا لماركس أو لينين أو ستالين بالذات ٠٠

واذا كان المؤمن بالدين يعتقد اعتقادا جازما أنه اذا خرج على قواعد هذا الدين فانه فى الحقيقة سيزق به الى جهنم ٠٠ واذا امتثل لهذه القواعد فمصيره الجنة ٠٠ أى أن الهدف الأساسى من ايمانه هو ابتغاء مرضاه الله والتمرغ فى متاع الفردوس ٠٠

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف فانه يمارس سلوكا معينا يصل به الى حد الجهاد من أجل اعلان كلمة الله ٠٠

فان « المؤمن » بالماركسية يعتقد أنه يسعى من أجل سعادة البشرية كلها ٠٠ وهو هدف نبيل كما ترى ويستحق أن يضحى من أجله بحياته ٠٠ ويتملكه التعصب وتمكن منه روح العداء ضد من يقف فى وجهه من أجل تحقيق هذا الهدف الســامى من خلاص البشرية من الاستغلال والقهر والتخلف ٠٠ ومن يحاربه ٠٠ فهو أشـــبه بالكافر ٠٠ عند المتطرف الدينى ٠٠

وهذا التعصب للماركسية لم يكن يشمل قطاعا محدودا من الشيوعية بل كان الطابع العام ٠٠ ولم تكن هناك الا أقلية داخل كل حزب شيوعى هى التى تمردت على هذا التعصب والقالبية ٠٠

وعندما تكون متعصبا وقالبيا فانك لن ترى العيوب ·· بل ستفقأ عيون من يراها ·· وتقطع لسان من يحاول الكلام معك لتراها ·· كما تبتر يد من يكتب أو يرسم أو يصور فيها كي يجعلك ترى !

ولعل ما كان يثير حماس الشيوعى لايمانه هذا ·· هو أنه كان كلما قرأ شيئا عن الفلسفة المادية الجدلية تتفتح أمامه مجالات وآفاق للتفكير بلا حدود ومن أجل تحقيق سعادة الانسان بل سيطرته على الطبيعة ··

ان تلك الفلسفة تتميز حقا بأنها تطلق العنان للفكر البشرى والتصور البشرى الى تجاوز كل الحقائق والتصورات التى فكر وحلم بها الانسان من قبل ·· انها تجعلك تسرح فى قدرات غير محدودة بالنسبة للانسان ·· فقط شرط تفجر هذه القدرات تخليصه من أى قيود مثل الاستعمار والاستقلال وقهر انسان لانسان ·· بعد ذلك سيتفرغ للطبيعة ليركبها ·· ويهز رجليه على ظهرها كأنها حمار ذليل له ··

الماركسية تعطى « المؤمنين » بها لغة لا حد لها فى القدرة اللامحدودة بالنسبة للعقل الانسانى ·· وهى قدرة ستأتى تدريجيا ·· بقدر نجاحه فى التخلص من القيود ··

والغريب أن هذا الفكر « المطلق » بالنسبة لتقدير الانسان ·· وكيف أنه أسمى المخلوقات وقال عنه ماركس « الانسان أغنى رأسمال » هو نفس الفكر الذى دفع بقادة النظم الاشتراكية الى اهانة ذلك الانسان وتحقيره واهانته وتعذيبه ··

وكان الزائر للاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية يرى كيف أن الأجهزة الحكومية تعامل المواطن بامتهان وازدراء الى حد ما ·· وتشعره بالخوف من الدولة والاذلال ·· وكان ألمان الشرق أكثر احساسا بذلك لأنهم كانوا يرون أقاربهم من ألمان الغرب الذين يحكون لهم كيف تعاملهم أجهزة الدولة باحترام « وتعظيم سلام » ··

لذلك لم يكن غريبا أن تنفجر شـــعوب تلك الدول ضد نظمها الاشتراكية « السعيدة » وتتحرك فى مظاهرات ضخمة اعلانا لابتهاجها وتخلصها من ذلك الكابوس ·· وتهرب بعشرات الألوف تاركة بيوتها ووظائفها وكل ما تملك كما حدث عندما منحت تفرقا تشيكوسلوفاكيا والمجر أمام الســـياح من أبناء ألمانيا الديمقراطية ففروا الى النمســـا بملابســـهم !

وهذا التحويل للماركسية الى دين تقريبا سببا رئيسيا من أسباب تفكك النظام الاشتراكى ؟·

وهذه الظاهرة لابد أنها وليدة أوضاع معينة بدورها ··

ولابد أن نضع فى الاعتبار ونحن نناقشها أن النموذج السوفيتى للاشتراكية قد انعكس على كل النظم الاشتراكية بدرجات متفاوتة وقد كان يعزز هذا النموذج هو تحول الاتحاد السوفيتى الى دولة عظمى تلعب أدوارا هامة فى السياسة الدولية ·· وقد برز دورها بالذات فى الحرب العالمية الثانية عندما هزم جحافل النازية ··

وقد عانى الثوار البلاشفة فى عهد القيصرية عذابا واضطهادا مقيما وهذا عزز روح الايمان والاستشهاد والتصلب فى العقيدة الثورية ·· ثم عندما نجحوا فى ثورتهم واجهوا حربا أهلية ضارية استخدم فيها خصومهم كل ألوان التنكيل والتعذيب وهناك عشرات بل مئات الكتب التى كتبها كتاب غير شيوعيين عن تفاصيل ذلك ··

ثم فرض الغرب حروب التدخل من ٢٢ دولة ــ مما خلق شعورا بأن هؤلاء المبعوثين لتخليص الانسان يواجهون ٢٢ شيطانا عالميا بجيوشهم للقضاء عليهم ·· حتى وصل حجم الاتحاد السوفيتى فى وقت من الأوقات الى عشر مساحته قبل أن يتفكك ··

وأرسل الغرب آلاف الجواسيس والمخربين ·· الى كل مكان فى الدولة الجديدة ··

هذا كله ملأ نفوس الثوار بحالة من التشكك والعداء لخصومهم ·· فى نفس الوقت التمسك بعقيدتهم والاحساس بأنهم على حق والا ما تكاتفت كل شياطين الرأسمالية العالمية ضدهم ·· خصوصا أن هؤلاء الشياطين لم يتركوا فكرة أو صورة أو تشبيها الا وضمنوها أدبا غزيرا لتشويه النظام الجديد وتسفيه أفكار قادته ·

ولم يكن أنصار الماركسية فى ذلك الوقت لديهم أى تقاليد ديمقراطية منذ عهد القيصرية فقد كان ذلك العهد عهدا مظلما من تلك الناحية أيضا ·· فلم يكن هناك تعود على تقبل الجدل ولكن كيف يمكن قبول الجدل وخصمك يطلق عليك النار بغزارة من كل الأسلحة ··

لقد ساهم التدخل الأجنبى فى جعل الماركسية تبدو فى صورة رسالة مقدسة تدعو لخلاص بنى الانسان ··

وهناك مرافعات تعتبر قمة فى الايمان بهذه الـــفكرة بحيث يبدو المترافع كأنما هو نبى أو قديس ·· وهو فى ساحة المحكمة يواجه خصومه من أعداء الاشتراكية ·· ثم أمام المشنقة أو فرقة الاعدام بالرصاص ··

هنـــاك ملاحم فى هذا المجال لا تقل روعة عن استشهاد المسيحيين والمسلمين أمام حقوقهم على مر العصور !

ولم يكن هناك تناقض فى الصورة أو فى الواقع عما يقولون ٠٠

فمباذل وسوءات الرأسمالية فظيعة غاية الفظاعة خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى حيث سادت البطالة والفقر والتشرد والانحطاط الخلقى ٠٠ وكان قد اتكشف أن تلك الحرب قد نشبت لا لشىء الا لاعادة تقسيم العالم من أجل تحقيق أهداف ومطامع الرأسماليات الكبيرة ولم يكن يهمها أن يتم تحقيق هذه المطامع على جماجم الملايين فى تلك الحرب الشاملة التى لم يحدث مثلها فى التاريخ من قبل ٠

وكانت آيات الفساد والعسف واضطهاد العمال واضحة ومستمرة ٠٠ وقمع حركة الجماهير مفضوح كالشمس ٠٠ كما حدث فى جمهورية فيمار ٠٠ فى ألمانيا ٠

بينما هؤلاء الشيوعيين فى أقفاص الاتهام كانوا يبشرون بعالم من المساواة بين البشر ٠٠ خال من استغلال الانسان لأخيه الانسان ٠٠ يتحقق فيه مســاواة المرأة ويخلو من الشرور التى أرجعوها الى الملكية الفردية ووسائل الانتاج ٠٠ وبالتالى اذا ما حلت تلك المشكلة فانه لن تكون هناك بطالة ولا فقر بل ولا جريمة ٠٠ ويعيش الناس متحابين ٠٠ ولا استعمار ٠٠ ولا حرب تصطدم فيها مطامع الرأسمالية بعضها ببعض ٠٠

كان هؤلاء الشيوعيون مقتنعين تماما فى أنفسهم أنهم رسل انقاذ للبشرية ٠٠ والمخلصون لها ٠٠ وأكثر من ذلك أنهم منتصرون حتما ٠٠ فقد أقنعتهم الماركسية أن الاشتراكية مرحلة حتمية من مراحل التاريخ ٠٠ وأنها ستعم بلادهم ٠٠ بل والعالم كله ولو طال الأجل ٠٠ حيث تحكم الطبقات المسحوقة لأول مرة ٠٠ ويصبح الانسان فخورا بأنه ينتمى فى الأصل الى الطبقة العاملة العريقة ٠٠ أو الفلاحين ذوى المجد والسؤدد فى التاريخ ٠٠ وليس النبلاء والاقطاعيين ٠٠

ولعلنا مازلنا نذكر كيف كان يتبارى كثير من أعضاء حزب أو تنظيم جمال عبد الناصر ليثبتوا أنهم ينتمون الى الطبقة العاملة أو الفلاحين ومازالت هاتان الطبقتان تحتلان مكانا ممتازا فى الدستور المصرى ولو شكليا حتى الآن ٠٠

لقد كان الشيوعيون يبشرون بانقلاب شامل فى الميزان الاجتماعى ٠٠ ولذلك كانوا غاية فى الحماس والايمان برسالتهم ٠٠ وسجلوا آيات من البطولة والفداء سطرت فى آلاف من الكتب وهى أشبه بالملاحم فعلا ٠

ولكن للأسف ان ما حدث بالفعل لم يكن مطابقا للأحلام والأمانى والمعتقدات ٠٠ ويعز على كثير من الشيوعيين كما أشرنا من قبل أن يعترفوا بأن هناك خطأ فى النظرية الماركسية التى بشرت بكل هذا الفردوس لبنى

الانسان ·· ويرددون أن المشكلة تكمن فى أخطاء التطبيق فقط ·· ويتمادى البعض الى حد وصف الأمر أنه مؤامرة استعمارية جورباتشوفية ··

ولكن هذا غير صحيح اطلاقا ·· لأنه كما ذكرنا من قبل لو أن الأمر قاصر على الخطأ فى التطبيق ·· فلابد أن يكون هناك تطبيق سليم للاشتراكية فى مكان ما على ظهر الأرض حتى يمكن مقارنته بالخطأ فى أماكن أخرى ··

اذا كان الأمر اذن متعلقا بالخطأ فى النظرية ·· فما هى هذه الأخطاء النظرية ؟ ··

الملكية العامة لكل وسائل الانتاج ٠٠ !

قامت النظرية الماركسية على أساس قاعدة مهمة جدا ٠٠ هى أن تحرير الانســان من الاستغلال ومن كل قيــود القهر التى تحول دونه والانطلاق الى الآفاق الأرحب التى تحدثنا عنها فى فصل سابق ٠٠ الى ضرورة تجريد الأفراد من الملكية الفردية لوسائل الانتاج ٠٠

ذلك لأنه فى جميع أشكال تلك الملكية فان صاحب العمل سيستغل العامل أو العمال ٠٠

ثم ان الرأسمال الصغير يمكن أن ينمو ويصبح رأسمالا متوسطا ٠٠ ثم كبيرا ثم احتكاريا وامبرياليا أو استعماريا حسب الظروف ٠٠

وكان الهدف فى النهاية أن تتم تلك الملكية العامة لوسائل الانتاج الى حد البرجوازية الصغيرة ذاتها أى الرأسمالى الذى يملك ماكينة أو اثنتين ويعمل عليهما عاملين أو ثلاثة ٠٠

وكان لينين يردد دائما ٠٠ ان الرأسمال الصغير يفرز الرأسمال الكبير ٠٠ وفى تقدير الخبراء الآن ٠٠ أن هذه الفكرة خاطئة ٠٠

لمـاذا ؟ ٠٠

لأنها تجعل من الضرورى أن تتحول الدولة الى جهاز بيروقراطى روتينى هائل يشرف على كل أشكال ووسائل الانتاج فى المجتمع ٠٠ وهذا الجهاز نفسه سيستهلك جزءا ضخما من دخل البلاد ٠٠ ثم ان وجوده سيعقد عملية الانتاج نفسها ٠٠ ولنتصور الدولة تملك وتشرف على انتاج مصنع صغير فيه ثلاثة أو خمسة أو عشرة عمال ٠٠

وقد كان ذلك ظاهرا فى تملك الدولة فى الاتحاد السوفيتى لسيارات التاكسى حيث كان السائق مجرد عامل ·· كيف كانت تفسد السيارات وكيف كان يتباطأ السائقون فى العمل ·· وكيف كانت التاكسيات قليلة العدد فى كل المدن السوفيتية ··

وقس على ذلك محلات صناعة الأيس كريم ·· ومحلات الحلاقة حيث كانت شيئا مزريا حقيرا ··

وقد قدر جورباتشوف فى أحد تقاريره أمام مؤتمر الحزب الشيوعى ·· أنه عندما سمح بما سماه بالرأسمالية العائلية أى اعادة عمل ونمو الرأسمالية الصغيرة ارتفع الانتاج السوفيتى ٨٪ خلال عام ١٩٨٧ ··

ثم انه من الصعب جدا تطبيق نظـام الملكية العـــامة هذه فى الزراعة وأدى الى حدوث مذابح للفلاحين فى بداية السنوات الأولى للثورة عندما كانوا يرغمون على الالتحاق بأشكال الملكية التى تحددها الدولة للأرض ·· واضطرت الدولة السوفيتية بعد ذلك الى ترك مساحة من الملكية الخاصـــة للأرض للفـلاحين ·· لـــكن كانوا يزرعونها بطريقة عائلية ··

وهذا خلق ازدواجا فى المجتمع السوفيتى اذ كان العمال أو بالأحرى الحرفيين فى ذلك المجتمع يتساءلون لماذا لا تحدث مساواة بينهم وبين الفلاحين فى تملك بعض وسائل الانتاج والعمل بها ··

ولقد كانت الماركسية تتصور أن العامل فى المؤسسة الرأسمالية لا يشعر بأى انتماء للآلات التى يعمل عليها لأنه لا يملكها ·· وبالتالى فانه فى المؤسسة الاشتراكية سيشعر بانتماء لأنه مفروض أنه يمتلكها هو وزملاؤه عن طريق حكومة الشعب التى تمثله ··

ولكن الذى حدث أنه لم يحدث قط أن شـــعر العمال فى النظم الاشتراكية بأنهم ملاك لوسائل الانتاج ·· بدليل أنهم ثاروا على تلك الملكية العامة واختاروا العودة لنظام الملكية الفردية :

لماذا ؟ لأنهم شعروا أن جهاز الدولة البيروقراطية الهائل هو الذى يملك ·· وهو جهاز انعزل عنهم ولم يعودوا يحسون أنه يمثلهم ·· بل أصبح فى نظرهم بديلا عن الرأسمالية ·

أضف الى ذلك أن الغاء كل صور الملكية الفردية لوسائل الانتاج يكبت النوازع الفردية فى الانتاج والابتكار والخلق ·· وهى نوازع عمرها آلاف السنين ·· وهذه النوازع تؤدى الى زيادة الانتـــاج على النطاق القومى كله ··

كما أنها تؤدى خدمة كبيرة للنظام الاجتماعي نفسه .. اذ تسد حاجة المواطنين للخدمات المختلفة ..

فورش السيارات الفردية يمكن بواسطتها اصلاح السيارات وكذلك محلات الحلاقة والأطباء الخصوصيون وصناع الآثاث والأحذية و .. الخ .. كل هؤلاء يمثلون عاملا مهما في الخدمات والبناء الاجتماعي ..

وقد كان افتقادها في البلاد الإشتراكية خصوصا الاتحاد السوفيتي عاملا من عوامل اثارة سخط الجماهير .. اذ كان الواحد منهم لا يستطيع اصلاح سيارته الا بالدور .. وبعد زمان طويل .. ومادام الأمر سيستغرق وقتا طويلا .. فان المجال يفتح للأساليب غير الأخلاقية كالرشوة للفوز بانجاز أسرع ..

وتحريم هذه الصورة من الاستغلال الرأسمالي الصغير أدى الى تعطل القدرات الانتاجية لمئات الألوف بل ملايين من المهنيين والعمال المهرة .. الذين يقضون ٤١ ساعة في الأسبوع في العمل .. ولا يجدون فرصة لممارسة أى نشاط بعد ذلك الا فى حالات قليلة .. وبالتالى حال ذلك دون رفع مستوى المعيشة ..

وخلقت تلك الحالة نوعا من اعتماد كل أبناء الوطن على الدولة وعلى ما تقدمه لهم من انتاج وخدمات ..

ولكن الانسان لا يسكت ولا يستسلم للقيود المفروضة عليه .. فكان أن نشأت سرا .. مصانع صغيرة .. تطورت حتى أصبح بعضها يضم عشرات العمال وكونت دولة داخل الدولة اذ قدمت الرشوة للسلطات للحصول على قطع الغيـــار ووسائل الانتـــاج وغض البصر عما تفعله من نشـــاط ..

وبالتالى خلقت ســوقا ســوداء .. وطبقات اجتماعية أخرى تحت الأرض ..

ان الملكية العامة لكل وسائل الانتاج خلقت حالة من التواكل والخمول الاجتماعى .. بل بدا المجتمع كما لو كان مجتمعا آليا الانسان فيه مجرد ترس فى عجلة هائلة . وهذا هو سر الكآبة التى كانت تبدو على معظم أبناء الشعب السوفيتي فى المدن الكبيرة بالذات .

بينما لم تكن تجد ذلك في الريف . حيث الناس بشبوشون .. باسمون . لأنهم كانوا يعيشون عيشة أقرب الى الطبيعة البشرية اذ كان مسموحا لهم بنوع من الملكية الفردية ..

ولا يجب السخرية مما يردده منظرو الرأسمالية من أن الملكية العامة

تماما لو وسائل الانتاج مخالف للطبيعة البشرية .. اذ تقتل الحافز والنشاط والطموح والرغبة فى الابتكار والتفوق .

لذلك لم يكن غريبا أنه بعد فورة النشاط العام للشعب كله بعد قيام الثورة حيث ازدادت معدلات الانتاج .. حدث بعد ذلك الانتكاس فى الانتاج كما ونوعا ..

فقد كانت أردأ الصناعات فى العالم هى الصناعة القادمة من البلاد الاشتراكية خاصة فى مجال السلع الاستهلاكية ففى ظل انعدام المنافسة وروح الابتكار التى تحدث من جراء الاحساس بأن عائد الانتاج يعود على صاحب الآلة .. لابد أن تكون نوعية السلطة وشكلها رديئان ..

انه من الغريب أن النظام الاشتراكى الذى صعدت سفنه الى القمر وغزا الفضاء .. لم يستطع أن يصنع كوكاكولا .. أو همبرجر .. وكان المواطنون السوفيت يصابون بهيستريا عندما يشربون كوكاكولا ويبهرون بمطاعم ماكدونالد التى تقدم سندوتشات الهمبورجر ..

ثم ان ذلك التصور عن حتمية الملكية العامة لكل وسائل الانتاج .. قد خلق نزعة يسارية كهنوتية لدى الشيوعيين اذ كان كل من يدعو الى تخفيف هذه القاعدة وتأجيل تطبيقها .. أو تطبيقها بالتدريج .. كان صاحب مثل تلك النظرية يتهم بالمراجعة والارتداد .. والدعوة الى أفكار برجوازية .. وربما حوكم بتهمة الخيانة وصفى جسديا ..

ونشأ نوع من الاحتقار والتعالى لأحزاب الاشتراكية التى كانت تعارض هذا التشدد فى تجريد بنى الانسان من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .. وكان الماركسيون يطلقون عليها اسم أحزاب الاشتراكية البرجوازية الصغيرة !

وحال هذا الازدراء والتعالى دون التحالف مع تلك الأحزاب فترات طويلة .. واذا ما تم التحالف ووصل الفريقان الى السلطة عمد الشيوعيين الى تصفية أحزاب البرجوازية الصغيرة هذه .. حتى ولو استخدموا العنف ..

وكان الشيوعيون ينظرون لتلك الأحزاب باعتبارها أخطر من أحزاب البرجوازية الكبيرة السافرة عن وجهها .. ذلك لأنها تستطيع اجتذاب الجماهير بالتضليل والزعم أنها اشتراكية وما هى باشتراكية ..

وسيقرأ المطالع للتاريخ الحديث بعد ظهور الماركسية صفحات دامية عن الصراع بين الأحزاب الشيوعية وأحزاب الاشتراكية البرجوازية الصغيرة هذه .. ويقصد بها الأحزاب التى كانت تدعو الى الملكية العامة لوسائل

الانتاج للرأسمالية الكبيرة والاحتكارية والسماح للرأسمال الصغير والمتوسط بالنشاط والتطور ..

وامتد الوقت أكثر الى الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وهى أحزاب ترفض الملكية العامة لوسائل الانتاج الا فيما يتعلق بالمؤسسات الكبرى .. أو بعضها .. كما أنها تطالب بالديمقراطية الليبرالية كنظام حكم . ومن أمثلة ذلك الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا وفرنسا واليابان ..

ان الشيوعيين كانوا ينظرون الى تلك الأحزاب كأعداء ألداء .. وان كانوا يدعون فى مراحل معينة الى التحالف معها لهزيمة قوى اليمين .. ويعتبرونها جزءا من اليسار بالمعنى العام ..

من ناحية أخرى ان الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية كانت تنظر للأحزاب الشيوعية على أنها أحزاب متطرفة .. معادية للمبادرات الفردية للانسان ومعادية للديمقراطية وتعمل على استيراد النموذج السوفيتى لتطبيقه فى بلاد تختلف فى ظروفها عن الاتحاد السوفيتى ..

وكان كل تطابق فى مواقف الأحزاب الشيوعية وموقف الاتحاد السوفيتى فى السياسة الدولية فرصة لاتهام تلك الأحزاب بالعمالة للسوفيت !

وهكذا نشأ الصراع دائما بين فرق الاشتراكية المختلفة .. والسبب هو ذلك التطرف فى مسألة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ..

وانعكس هذا الصراع على الطبقة العاملة ذاتها اذ وجدناها تنقسم الى فريقين قسم ذوى الياقات البيضاء كما كانوا يسمونهم .. وهم العمال (عادة من الفنيين والأسطوات) الذين لا يؤمنون بضرورة الملكية الشاملة لوسائل الانتاج .. ويرتبطون بالطبع بالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أو أحزاب البرجوازية الصغيرة الاشتراكية .. ويتمسكون بالديمقراطية الليبرالية ..

ثم هناك الفريق الثانى .. من العمال العاديين الذين ساروا وراء ما دعت اليه النظرية الماركسية أصلا .

والغريب أن الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا يقولون دائما أنهم هم التلاميذ الحقيقيون لكارل ماركس ..

وقد كان كرايسكى زعيم الدولية الاشتراكية ومستشار النمسا لسنوات طويلة يكرر هذه العبارة فى كل المناسبات .. وذكرها لى فى حديث صحفى معه عام ١٩٧٥ .. فقلت له مستنكرا بشدة عندما قال لى أنا تلميذ مخلص لكارل ماركس :

عن أى كارل ماركس تتحدث يا سيدى المستشار ؟ ..

ودار بيننا حوار طريف لامكان لتسجيله هنا ..

خلاصة القول أن ذلك الخطأ النظرى .. أدى فى النهاية بعد سنوات من الثورة الاشتراكية الى سوء الانتاج من الناحية النوعية وانخفاضه من الناحية الملكية ..

وعجز النظام الاقتصادى عن تلبية حاجات الجماهير فى مجال الخدمات بدرجة مزعجة ..

كما ساعد على ابقاء حالة انخفاض المستوى المعيشى طويلا بالنسبة للعالم الرأسمالى ..

ثم خلق طبقة من جهاز البيروقراطية عمدت الى قبول الرشوة ودخل الفساد فى النظام من أوسع أبوابه ..

كما عزلت الأحزاب الشيوعية عن حلفاء طبيعيين وضروريين لها لأنهم كانوا أكثر مرونة فى مسألة تشريك كل وسائل الانتاج ..

وخنق هذا الخطأ النظرى مبادرات الجماهير وطاقاتها .

وننتقل بعد ذلك الى خطأ نظرى آخر : وهو ديكتاتوزية البروليتاريا .

ديكتاتورية البروليتاريا ٠٠ !

تقول الماركسية أن كل حكم فى مراحل التاريخ انما يعبر عن مصلحة طبقة أو عدد من الطبقات ٠٠ وأنه كى تستقر هذه الطبقة فى السلطة فانه يتحتم عليها أن تقمع غيرها من الطبقات التى تعارض وجودها فى السلطة أو تعـارض فيما بعد ٠٠ ووسيلتهـا الى ذلك الجيش والبوليس واللذان يفرضان القوانين والنظم التى تمكن تلك الطبقة من الاستمرار فى السلطة وتنفيذ برامجها وتحقيق مصالحها ٠٠

بناء على هذا فان أى حكم مضطر فى الحقيقة أن يفرض ديكتاتوريته على سائر الطبقات ٠٠ أى أن سلطة ما فى جوهرها الحقيقى هى نوع من الديكتاتورية ٠٠

أما ما يوصف بالديمقراطية فى أى نظام فهو مسألة شكلية فقط ٠٠ لا تنفى وجود هذه الديكتاتورية ٠

وما الديمقراطية التى فى الغرب الا تداول للحكم بين فئات مختلفة من الرأسمالية التى فى النهاية فى يدها مقاليد الأمور ٠٠ فكل حزب يصل الى السلطة بالانتخاب هو حزب يمثل قطاعا من الرأسمالية لا أكثر ولا أقل ٠٠

لذلك فان التعددية الحزبية ليست الا شكلا طريفا أو مخففا لجوهر الديكتاتورية التى يمثلها حكم الرأسمالية ٠٠

وحرية الصحافة الموجودة ما هى الا تعبير عن مصالح فئات الرأسمالية تلك ٠٠ اذن كل هذا مجرد ديمقراطية للطبقة المالكة للمقدرات الاقتصادية ٠

ولا تستطيع الطبقة العـاملة فى ظل النظام الرأسمالى أن تمارس ديمقراطية حقيقية لأنها لا تملك الأموال التى تمكنهـــا من الانفاق على الحملات الانتخابية لكسب مقاعد البرلمان ٠٠ ولا تأسيس الصحف ودور النشر ومحطات الاذاعة والتليفزيون التى تكلف الملايين ٠٠ وهكذا ٠٠

على هذا فان الشيوعيين الممثلين للطبقة العاملة عندما يصـلون الى السلطة فان عليهم أن يقيموا ديكتاتورية لهذه الطبقة ٠٠ بحيث تكون ديكتاتورية حازمة لأنها ستواجه بحملة وهجمات ضـــارية من الطبقات المستغلة المخلوعة من السلطة والتى جردها النظام من الملكية الخاصـة لوسائل الانتاج وربما ملكياتها الاستهلاكية مثل القصور والجواهر والحلى والسيارات ٠٠٠ الخ ٠

وهذه الديكتاتورية الشعبية لأنهـا تمثل العمال والفلاحين حلفـاء الطبقة العاملة هى أنبـل أنواع الديكتاتوريات لأنها ديكتاتورية الأغلبية العارقة الكادحة التى تصنع الحياة على المستغلين والناهبين ولصـــوص الشعب ومصاصو دمائه ٠٠

بل هى قمة الديمقراطية لأنها تتيح لتلك الأغلبية لأول مرة حرية العمل السياسى لحد تمكنهـا من السلطة وتنفيذ برنامجهـا ٠٠ وعرض أفكارها وبرامجها بحرية كاملة على الجماهير ٠٠ وأصبح صوتها عاليا مسموعا ٠٠

ولابد هنا قبل أن نخوض فى تشريح هذه النظرية وبيان فسادها وجنايتها على الاشتراكية ٠٠ أن تسجل أن الأحزاب الشيوعية هى الأحزاب السياسية الوحيدة فى العالم التى اعترفت بأنها عندما تصل الى الحكم تقيم نوعا من الديكتاتورية سمته بديكتاتورية البروليتاريا ٠٠ بينما كل الأحزاب حتى الفاشية فهى تزعم أنها تقيم نظاما ديمقراطيا مثاليـا ٠٠ ومعاديا للديكتاتورية ٠٠

من ناحية أخرى لابد أن نبين هنا أن معنى الديمقراطية البرجوازية أو الغربية قد اختلف كثيرا عما كان عليه أيام كارل ماركس وفردرك انجلز وحتى لينين ٠٠ صحيح أن المستمتع الأول بتلك الديمقراطية هى الرأسمالية التى تملك مقدرات البلاد الاقتصادية أساسا ٠٠

ولكن قدرة الطبقة العاملة والشعب عامة على انتزاع قدر كبير من الحريات والحقوق السياسية على طول مرحلة النضال فى أواخر القرن التاسع عشر حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ قد جعل استمتاع الطبقة العاملة والشعوب بالديمقراطية الغربية ليس مسألة شكلية ٠٠ بل جعلها حسب توازن القوى السياسى مسألة حقيقية وجذرية ٠٠ بحيث

يمكن للأحزاب المعارضة للرأسمالية أن تصـــل الى الحكم مشاركة فيه أو منفردة ..

بل ان الأحزاب الشيوعية التى تمثل البروليتاريا اســـتطاعت ان تستفيد من تلك الديمقراطية الرأسمالية وتصل شريكة فى الحكم أو تلعب دورا مؤثرا فى الحياة السياسية .. ووضع ذلك فى فوز ميتران برئاسة الجمهورية فى فرنسا مرتين وما كان ليستطيع أن ينجح الا بفضل تأييد الحزب الشيوعى الفرنسى له .. وجاء وقت كان لذلك الحزب خمســـة وزراء فى وزارة الاشتراكية .. وقبل ذلك شارك الشيوعيون الفرنسيون فى حكومة الجبهة الشعبية ضد الفاشية قبل الحرب العالمية الثانية .

وفى ايطاليا تتعثر الحكومات واحدة وراء الأخرى .. حتى سقطت ٥٢ حـكومة فى خمسين عاما .. وذلك بسبب نفوذ الحزب الشيوعى الايطالى يحصل عادة على ٣٣٪ من أصوات الناخبين .. مما سبب أزمة حكم مستمرة .. وفشل لأى حكومة فى أن تبقى فى الحكم لأكثر من عام .. لأن البرجوازية الايطالية ما زالت من الغفلة وضيق الأفق الى حد الاصرار على ابعاد الشيوعيين من الحـكم حتى الآن .. مع أن الحزب الشيوعى الايطـــالى حزب معتدل جدا ولا يفترق كثيرا عن أحزاب الاشـــتراكية الديمقراطية فى أوربا ..

وهذه المكاسب الديمقراطية التى أحرزتها الطبقة العاملة والشعوب عموما فى العالم المتقدم هو الذى جعل بعض الأحزاب الشيوعية تقول بامكانيـة وصـــولها للحـكم دون ثورة .. بل عن طريق سلمى .. بالانتخابات .. كما جعلها تتعهد بأن تقبل ارادة الناخبين لو تخلوا عنها فى الانتخاب .. وتنسحب من الحكم بعد وصولها اليه ..

وهذا يعنى التنازل عن فكرة ديكتاتورية البروليتاريا .. لأن من أسس تلك الديكتاتورية هو التشبث بالحكم والاصرار عليـه وقمع من يريدون الاطاحة بالحـكومة الاشتراكية ولو بالقوة ولو كانت مظاهرات شعبية ..

وهذا هو تفسير ما حدث فى المجر عام ١٩٥٦ عندما قمعت الحكومة مظاهرات الشعب ضـــد النظام .. ولما عجزت طلبت من الســوفييت مساعداتها .. فداست الدبابات السوفيتية الجماهير فى الشارع وسقط ألوف الضحايا .. ودخل الآلاف السجون والمعتقلات ..

وفى بولندة فى البداية حاولت حكومة بولندة قمع حركة تذمر وتمرد العمال فى جدانسك بالقوة ..

ما هى خطورة نظرية ديكتاتورية البروليتاريا ؟ .. انها فى الحقيقة هى التى قادت الى فساد الأحزاب الشيوعية الحاكمة وتحولها الى تنظيمات

ديمقراطيــة ·· ثم مترهلة ثوريا ·· ثم تنظيمات تنظم عمليات النهب والسلب والمميزات الاجتماعية من الجماهير ··

ان الحزب الشيوعي الذى استولى على السلطة بفضــل ارتبــاطه بالجماهير وقيادته لحركتهــا كما هو مفروض ·· عندما يفرض تلك الديكتاتورية يعني أنه يحرم انشاء أي أحزاب سياسية أخرى وينفرد تماما هو بالحكم ·· وبالتالى تخلو الساحة من أى قوة سياسية معارضة ·

ماذا يحدث ؟ ··· ان الذى حدث أنه تحكم فى الجماهير ·· ولم يفطن الى غيوبه جيدا لأنه لا توجد قوة سياسية أخرى معارضة ·· لا يوجد رأى آخر ··

ثم ان أخطر شيء أنه قمع وصفى حزب القوى الاقتصادية والسياسية التى كان قد ثار ضدها ·· وبالتالى سكت كل صوت معارض ·· المفروض أن يوجد القطب ونقيضه ··

ولو أن حزب أو أحزاب المعارضة للنظام الجديد سمح لها بحرية العمل ·· فان الحزب الشيوعى الذى استولى على السلطة سيكون عليه أن يستمر يقظا وحريصـــا على كسبه للجماهير التى جاءت به فى ثورة للسلطة ·· وسيحرص على ألا يقع فى أخطاء ·· أى أنه سيظل محافظا على شبابه والتحامه بالشعب ·· حتى لا يفقد السلطة ··

وسيخلق هــذا حالة من الحيوية السياسية بين جمـاهير الشعب ويدربها أكثر على حماية مصالحها ··

وسيتجنب الحزب الشيوعى من التطرف واتخاذ مواقف جامدة متطرفة سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية ·

وسيلغى احتمالات قمع النظـام الجديد بالعنف وانتهــاك حقوق الانســان للشعب والحركة السياسية والمثقفين والنقابيين ··· والخ · كما حدث فى البــلاد التى طبقت فيهـا الأحزاب الشيوعية ديكتاتورية البروليتاريا هذه ··

وهى ديكتاتورية تخلق لدي أصحابها شعورا بأنهم فئة ممتازة عن باقى البشر ·· بل هم أشبه بمبعوثى العناية الالهية لانصاف المضطهدين من الاستغلاليين ··

كما أن تلك الديكتاتورية ســاهمت في بث الخمول وفقد روح الابتكار لدى سـائر القوى الشعبية ·· بل خلقت ضغينة بين العمال وسائر تلك القوى ··

ان واحدا من أســباب حركة دوتبشيك فى تشيكوسلوفاكيا عام

١٩٦٨ هو التباين الصارخ بين ما كانت تحصل عليه الطبقة العاملة من مزايا وبين فئة المهندسين مثلا فى المصانع والمؤسسات ٠٠ حتى فيما يتعلق بالأجور اذ كانت أجور العمال مرتفعة بالنسبة لأجور المهندسين الحاصلين على شهادات جامعية بحجة أن العمال منتجون ٠٠

ان ديكتاتورية للبروليتاريا تمثلت فى النهاية فى سلب الجماهير الديمقراطية تماما لأن كل شكوى أو تحرك احتجاجى أو رفض لبعض سياسات الحزب من جانب أى ناس مهما كانوا من أنصار الثورة فسرت على أنها من قبيل الأعمال المناهضة لها وصادرة من قوة الثورة المضادة التى من الطبع أنها ستعشش فى كل مكان بعد طردها من الحكم والاستيلاء على كل ميزاتها الطبقية ٠٠

فالحزب الشيوعى فى نظر قادته هو طليعة ذلك الشعب وهو المعبر الوحيد عن مصالحه وهو المنقذ ٠ والمخلص من ركام استغلال آلاف السنين ٠

وبالتالى فان كل أفكاره ٠٠ وقراراته من قبيل « الآيات المنزلة » وكأنها صادرة من السماء !

ومن يعترض على ذلك فهو مارق ٠٠ كافر ٠٠

شىء كالأصولية كالدينية كما أشرنا من قبل يذكى نارها التوتر الدائم الذى يثيره خصوم الثورة سواء فى الداخل والخارج ٠٠

وهكذا قيدت حركة الجماهير تماما ٠٠ بل لم تكتف السلطة الجديدة بذلك وهى التى تحمل شرف تمثيل الطبقة المقدسة الجديدة ٠٠ بل عمدت الى التصفية الجسدية حتى للجماهير مباشرة عندما ترفض تنفيذ توجيهات وتعليمات الحزب ٠٠

ان أغلب الفلاحين فى روسيا القيصرية أيدوا الثورة مثلا بل هم شاركوا فيها ٠٠ لأنها وعدتهم بالأرض والسلام ٠٠ مما كان يعنى أن الأرض ستوزع عليهم ٠٠ ولكن قادة الثورة حاولوا فرض مزارع جماعية وحكومية تتوه فيها الملكية الفردية للأرض وهى أقصى هدف وأمل لدى معظم الفلاحين ٠٠

وكان التروتسكيون يقودون هذه العملية فاذا بهم يسفكون دم مئات الآلوف من الفلاحين بل تكشف بعد خروشوف أن الضحايا كانوا بالملايين لأن أعضاء الحزب كانوا ينظرون اليهم باعتبارهم شياطين يعارضـــون تحقيق الجنة التى يسعون من أجلها ٠٠ فحقت عليهم الحدود ٠٠ باعتبارهم المفسدين فى الأرض يستحقون أن تقطع أيديهم ويصلبون من خلاف !

والطريف أن الماركسية قد صورت أن الحلم الذى تقدمه للبشرية

للتطبيق انما يحقق أكبر وأوسع قدر من الديمقراطيــة لجماهير العمال والفلاحين والكادحين عموما !

ولكن علينا أن نعترف أن المنافس الوحيد لانتهاك النظم الاشتراكية لحريات الشعوب وحقوقها السياسية البديهية ٠٠ هى الفاشية ٠٠

ان تلك النظم أثرت تجربة كل النظم غير الانسانية والديكتاتورية بما فيها الفاشية بأنماط مبتكرة لتعذيب المتهمين والمسجونين السياسيين ٠٠ وفتحت المعتقلات للملايين بلا تحقيق ٠٠ واستحدثت نظم مستشفيـات المجاذيب لايداع المعارضين فيها بعد أن اشتدت حملة العالم على معتقلاتها وسجونها الرهيبة ٠٠

وطبعا هذا كله شوه شـــكل الاشتراكية فى الخارج ٠٠ وأعطى خصومها سلاحا بل أسلحة عديدة لمهاجمتها فنفر منها الكثيرون وحطمت كثيرا من جهود الأحزاب الشيوعية لاقناع شعوب العالم بالاشتراكية ٠٠

كما استنزف ذلك الاضطهاد قوى من أبناء تلك الشعوب كان يمكن أن تواصل مسيرة البناء والتقدم الوطنى ولو برؤية مختلفة ٠٠ وفى اطار أحزاب أخرى غير الحزب الشيوعى ٠٠

وكان هذه الاعتـــداءات المستمرة على حقوق الانســـــان فى النظم الاشتراكية يؤدى الى تحسين صورة الرأسمالية فى العالم رغم سوءاتهـا ويجعلها أقرب الى الشـــعوب من الاشتراكية للديمقراطية التى توفرها للناس ٠٠

ولم تنجح قط شعارات مثل الديمقراطية الاجتماعية أولا ٠٠ أو أن الجائع لا يستطيع ممارســة النشاط السياسى ٠٠ الخ ٠٠ فللحرية فى التعبير ٠٠ والحركة والانتقال جاذبية لدى الناس رغم حتى غرقهم فى مجاعات وبطالة ٠٠

ولذلك لم يكن صدفة أنه رغم البطالة الدائمة والمستمرة فى النظم الرأسمالية ورغم وجود اضطهاد عنصرى فى الولايات المتحدة اتخذ أشكالا بشعة فى أحيان كثيرة ٠٠ فان الذى حدث أن العمال العاطلين فى الغرب لم يتجهوا الى الاشتراكية فى معظمهم ٠٠ ولا الزنوج اتجهوا لتأييد الحزب الشيوعى الأمريكى بل ظل دائما ضعيفا والذنب ذنب ذلك الانتهاك من جانب الاشتراكية لحقوق الانســـان وهو الانتهاك الذى برعت وســائل الاعلام الأمريكية والغربية عموما ٠٠ وهى وسائل متقدمة وقوية جدا ٠٠ نقول برعت تلك الوسائل فى نقله بصـــور مختلفة للمواطن الأمريكى فأدار ظهره دائما للنظام الاشتراكى بل خاف منه !!

والغريب أن النظم الرأسمالية فى العالم قد مر الكثير منها بأوقات انتهكت فيها حريات الانســـان الأساسية بل وأقيمت نظم وحشية مثل

الفاشية ٠٠ فى المانيا وايطاليا وأسبانيا والبرتغال واليونان ٠٠ وحتى فى الولايات المتحدة ظهرت المكارثية التى أشـاعت الذعر فى الحيـاة السياسية الأمريكية من فرط انتهاكها لتلك الحريات الأساسية ٠٠

ومع ذلك فان النظم الرأسـمالية تجاوزت هذه التجارب المروعة واستمرت على الطريق ثابتة وقوية ورأسمالية ٠٠ وكأن ما حدث شيء عارض !

بينما النظم الاشتراكية لم تصمد حتى لسنوات قليلة عندما حدثت ثغرات فى جدران الديكتاتورية فانهـارت جميعـا ٠٠ بل تلاشت دول وتبعثرت قوميات وتشتتت ٠

وهذا ما جعل المراقبين السياسيين الموضـوعيين يقولون ان النظام الرأسمالى تجاوز تناقضاته وتغلب عليها ٠٠ بينما انهار النظام الاشتراكى اذا لم يستطع تجاوز بل تحمل تناقضاته !

فى تقديرنا هذان هما الخطآن النظريان الأسـاسيان فى النظرية الماركسية ٠٠

- افتراض أن العدل الاجتماعى لا يتحقق الا بالأيدى العاملة الشاملة لكل وسائل الانتاج ٠
- اقامة ديكتاتورية البروليتاريا ٠

وقد أدت نظرية الديكتاتورية هذه الى اقامة ديكتاتورية داخل الحزب الشيوعى نفسه بعد ممارسة الديكتاتورية على الشعب نفسه ٠٠

لقد نبذ الحزب ممارسـة الديمقراطية فى نشـاطه السياسى بين الجماهير ٠٠ وقد انعكس ذلك على الحزب نفسه فى داخله ٠٠

فمن يؤيد معارضـة الجماهير لقرارات حزبية ٠٠ ومن معـارض استخدام العنف ضد الجماهير لمعارضتها تلك القرارات انما هو خائن ومرتد ٠٠ والغريب أنه كانت تحدث عملية غسيل مخ للمتهم مهما كان مستواه الحزبى عاليا ٠٠ الى حد أنه يعترف فى المحكمة أنه خائن ومجرم كما حدث من بوخارين أحد زعماء الحزب الشيوعى اللامعين ٠٠ الذى كانت جريمته هى دعوته فى الحزب وداخله وليس بين الجماهير كى يترك النظام حرية الملكية نسبيا للفلاحين ٠٠ فاعتبر يمينيا عميلا لقوى الثورة المضادة ٠٠ ووقف فى المحكمة يعترف بهذا ويطالب باعدام نفسه ! وله رسالة مشهورة كلها عبادة فرد وندم وجلد للنفس بالسياط بعث بها الى الرفيق ستالين سامحه الله ٠٠

وجاء اليوم الذى استنكر فيه الحزب الشـيوعى السـوفيتى بعد

٥٠ عاما أو أكثر قليلا ما جرى لبوخارين ورد اليه اعتباره وهو « عظام رميمة » .. وأقرت لجنة الحزب المركزية أنه كان شيوعيا مخلصا وبعيد النظر وشيعت جنازته من جديد كما شيعت جنازة امرى ناجى رئيس وزراء المجر عام ١٩٥٦ أيام هبة الشعب ضد النظام الاشتراكى الصارم .. واتهم أنه خائن للاشتراكية وأعدم ..

وأذكر أنه فى تاريخ الحركة الشيوعية كانت هناك منظمة اسمها م.ش.م (المنظمة الشيوعية المصرية) وكانت غاية فى التطرف والجمود .. وتتزعمها امرأة أجنبية يهودية كانت قمة فى ذلك الجمود العقائدى .. وكانت تستطيع أن تغسل مخ أى عضو فيها يتهم بالانحراف عن جادة الماركسية حسب خطها وفهمها اليسارى الجامد .. وتجعله يفعل عن طواعية واختيار ما فعله بوخارين وغيره فيعترف أنه عميل الرجعية المحلية والعالمية معا !!

ومن الطرائف المأساوية أنها جعلت عضوا بارزا فى تلك المنظمة يعترف ذات يوم أن سبب انحرافه يرجع الى أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى وهو غلام مما جعله يشعر بمركب نقص وضعف ذاتى يجعله أسلس قيادا لتعاليم وسيطرة الفكر البرجوازى .. وقد كان ذلك الزميل عبقريا ومخلصا جدا فى نضاله .. ولكنها حطمته تحطيما كما حطمت غيره من خيرة الكوادر السياسية المصرية حينذاك .. حتى تحطمت المنظمة كلها وتلاشت كما حدث للاتحاد السوفيتى بعد أربعين عاما ! ..

وافتقاد الديمقراطية داخل الحزب السياسى يجعل قاعدة الحزب تعتمد فى كل تصرفاتها ونشاطها على القيادة لذلك الحزب .. لأن تلك القيادة فى الحقيقة تعفى بديكتاتوريتها القاعدة من التفكير وتختفى بذلك روح المبادرات الفردية والاستنكار والدافع الذاتى فكل شيء يأتى من الزعيم الملهم !

وغياب الديمقراطية يؤدى بالضرورة الى التصفية البدنية لأى أجنحة تعارض إرادة الزعامة ..

فالتيار الأغلب لا يطيق معارضة له .. فهذه المعارضة ليست فى نظره الا مجموعة من العملاء وقوى الثورة المضادة كما بينا من قبل ..

وهنا يتجهون الى أسهل الوسائل وهى التصفية البدنية وليس الفصل ربما كان له أنصار سيتمحورون حوله والمطلوب قطع دابر أى احتمال أن يشكل تيارا أو كتلة ما .

كما أن اعادة التربية شيء غير مطلوب .. ولقد رأينا فى الصين كيف أن النظام الاشتراكى اهتم باعادة تربية العاهرات ليعشن حياة

مستقيمة ٠٠ ولكنه لم يعتنى باعادة تربية الشيوعيين الضالين من وجهة نظر ماو تسى تونج بل عمد الى تصفية أغلبهم فى أغلب الأحوال وبمئات الألوف !

لا توجد رحمة ولا شفقة ازاء المخالفين فى الفكر فأنت مبعوث العناية الالهيـة لانقاذ الطبقة العاملة وأنت وحدك تحمل مفاتيح ذلك الانقـاذ ووسائله وعلى الجميع أن يتبعوك ٠٠ ومن لا يريد أن يتبعك يكون معاديا للطبقة العاملة ٠٠ ومعاكسا لحركة التاريخ ٠

وتظل قبضة التيار الغالب تشتد ٠٠ وتتبلور له زعامات وقيادات ٠٠ ثم تتقلص الزعامات وتتواحد فى زعيم واحد ٠ تصـنع له وحوله هالة جماهيرية واسعة ٠٠ ليضمن الحزب أن الجماهير تسير وراء الخط السليم الذى يمثله هذا الزعيم ٠٠ ويفرض هذا الزعيم بعد ذلك سيطرته على الذين صنعوه وألهوه وربما صفاهم أيضا ٠٠ ويصبح شبه اله ٠٠ نموذج مخيف لمعنى عبادة الفرد ٠٠

لقد صفى ستالين ثلثا أعضاء اللجنة المركزية ٠٠ ومئات من خيرة ضباط الجيش الأحمر ٠٠ بل وأطباء الاتحاد السوفيتى ٠٠

وكل هذا يحدث فى محاكمات سرية فى معظم الأحيان ولا يذاع عن حقيقة الأمور الا ما يريد الحزب اذاعته بينما فى النظام الرأسمالى كل شىء يتم ومحاكمات علنية فى معظم الأحوال ٠٠ وكل شىء يكشف ويكتب وينشر فى صحف وكتب وأفلام ! ٠٠

وهناك رغم سيطرة رأس المال مبدأ هو حق الجماهير أن تعرف ٠٠ وهو حق تستفيد به البرجوازية تمام الاستفادة وهى التى تملك معظم وسائل الاعلام ٠٠

وانعدام الديمقراطية داخل الحزب يلغى مبدأ النقد والنقد الذاتى ٠٠ ويخلق مبدأ ١٠٠٪ من الأصوات أو على الأقل ٩ر٩٩٪ منها مع سياسة الزعيم ٠٠

كما أن انتخابات القيادات تكون انتخابات شكلية وبالاتفاق المسبق على الترشيح والتصويت بعد موافقة المستويات الأعلى ٠

وتعزل على الفور العناصر المشكوك فى خضوعها لمثل تلك النظم ٠٠ وربما وضعت تحت سيطرة الرقابة من جانب أجهزة الأمن باعتبارها تخون القيادة الثورية وبالتالى من المحتمل أن تكون على علاقة بهيئات أجنبية تدبر المكائد والمؤامرات للنظام ٠

ومن هنا كانت الأحزاب الشيوعية فى العالم كله فى تداخل تام مع

أجهزة الأمن لأنهـــا كانت تعتمد عليهـــا فى مراقبة التفتيش فى ضمائر أعضائهـــا ٠٠

واذا كان شرط الترقية الى مستويات عليا فى الحزب هو رضـــاء القيـــادات على العضـــــو ٠٠ وليست كفاءته الحقيقية أو ثقة زملائه من أعضاء الحزب ولا ثقة الجماهير ٠

وما دامت القيادة راضية على العناصر التى اختارتها وظفرت بثقتها فانهـــا تسعى الى تثبيت هذه العنـــاصر وتغض الطرف عن أخطائهـــا وانحرافاتها ٠٠

وينشغل الأعضاء بصراعات الشلل ٠٠ ولم يعد يهمهم الارتبـــاط بالجماهير اذ أن هذه الجماهير ليست فى ميزان الحساب عن أحوالهم ومدى كفاءتهم فى عضوية الحزب ٠

والانعزال عن الجماهـــير يؤدى الى البيروقراطية ٠٠ والبيروقراطية تشل حركة الحزب فى خدمة الجماهير كما تخلق طبقة متميزة عن الشعب نفسه ٠٠ رغم أن أعضاء الحزب مفروض أن يكونوا قدوة للتضحية ٠

وما دامت الرقابة الشعبية معدومة ٠٠ وكذلك الرقابة والمحاسبة الحزبية باعتبار العضو مرضيا عليه من المستويات العليا ٠٠ فان المجال مفتوح للمحسوبية والرشوة ونهب الجماهير وكل صور الفساد عموما ٠٠

وتشعر الجماهير أن الاستغلال القديم قد استبدل باستغلال جديد ربما أشد وأنكى لأنه مغلف بشعارات وعبارات ثورية ضخمة عن خدمة الجماهير وحكم العمال ٠٠ الخ ٠

ومثل ذلك الحزب لابد أن يفتح أبواب انفراد الزعيم باصدار القرارات المصيرية ولا يحسابه أحد فى حالة خطئه ٠

ولقد أخطأ ستالين أخطاء عديدة فى الحرب العالمية الثانية أدلها أنه لم يكن يصدق أن هتلر سيغزو الاتحاد السوفيتى كما كان صدام حسين فى التايخ الحديث لا يصدق أن أمريكا ستضربه من أجل تحرير الكويت ٠

ومن أمثلة أخطاء ستالين أنه رفض أن يصدق البلاغ الذى أرسله جاسوس سوفيتى فى طوكيو يبلغ القيادة السوفيتية بموعد الغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى ٠ ولم يصدق ستالين ٠٠ حتى داهمه الهجوم ٠

ولم يحاسب أحد ستالين ٠٠ كما لم يحاسبه أحد عندما فشل فى قيادة المعارك الأولى مع الألمان حتي اجتاح الجيشي الألماني ثلث الاتحاد السوفيتي تقريبا ٠

أخطاء فى التطبيق ..؟

اذا أردنا متابعة الأخطاء التى ارتكبت خلال تطبيق الاشتراكية وهى فى التقدير العام انعكاس أو امتداد فى معظمها للأخطاء النظرية .. فاننا سنجد أخطاء عديدة ومتنوعة وتختلف من بلد لبلد ..

مثلا .. هناك فكرة الأممية .. وهى فكرة تبدو عادية وطبيعية ومفيدة لأى نضال ولأى شعب .. فالشعوب تتساند فى النضال ضد العدو الواحد ..

وكما أن الرأسمالية تتحالف وتنسق جهودها لمواجهة أى ثورة ضدها فى أى بلد آخر .. كذلك من الطبيعى أن يتحد العمال والشعوب ضد أى حكومة تتعسف مع عمال أو شعب بلد آخر .

وبالمثل فى حالات النضال الوطنى ضد الاستعمار .. فقد ساندت الشعوب بعضها البعض ..

وكما نرى فى هذه الأيام نرى أن الاسلاميين السياسيين فى أى بلد يتضامنون مع زملائهم فى أى بلد آخر .. ونحن نقرأ فى مصر بالذات أكاذيب يومية لتحسين صورة نظامى ايران والسودان باعتبارهما فردوسا اسلاميا لشعوبهما رغم أن هذا غير صحيح .. ولكن التضامن فى الأممية الاسلامية يجعل من ذلك أمرا طبيعيا .. وطبعا هذا خطأ سياسى ..

وهو ما وقع فيه الشيوعيون لكن بصور أخرى أيضا ..

فأولا انزلق فهم الماركسيين للأممية الى حد اعتبار أن من شروط تلك الأممية اعتبار الحزب الشيوعى السوفيتى هو الحزب القائد لكل الأحزاب الشيوعية فى العالم .. ومعنى ذلك أن أى تفسير أو « فتوى » فى النظرية يصدر عن قائد سوفيتى يكون هو رأس الحكمة ومرشد العمل .. بل ينفذ ولو حرفيا .

وعندما شكلت منظمة الكومنترن ·· وهى المنظمة التى ضمت الأحزاب الشيوعية فى العالم لتنسيق تعاون الأممية فيما بينها ·· احتل الحزب الشيوعى السوفيتى مكان الصدارة بل ومصدر التوجيه أيضا ·

وهذا طبعا جعل بعض تلك الأحزاب تنفذ أو تتخذ سياسات تختلف عن الضروريات التى يفرضها الواقع الذى تعيشه ·· كما فتح الباب كى تتهم من جانب الأحزاب المحلية الأخرى بأنها أحزاب عميلة للخارج ·· وأنها تستورد نظريات وتعليمات ·· علاوة على اتجاه بعض قادة تلك الأحزاب للتنافس فى ابداء ولائهم لموسكو أى للحزب الشيوعى السوفيتى اذا ما وقعوا فى صراع مع أجنحة أخرى فى أحزابهم ··

وامتد هذا التقديس للآراء والتفسيرات الحزبية السوفيتية الى المبالغة فى قيمة وأراء الأحزاب الشيوعية الأخرى ·· ونمت هذه الظاهرة بالذات فى كثير من الأحزاب الشيوعية فى المستعمرات حيث كانت تبهرها تأييد أحزاب من أهل البلد الذى يحتل جنوده بلادهم ويناضل أعضاؤها فى الشارع من أجل حقهم فى الحرية ·

وكنت ترى مثلا الحزب الشيوعى الهندى يقدس كثيرا تفسيرات ومقولات عضو بارز فى الحزب الشيوعى البريطانى « با لم دات » الذى تخصص فعلا فى دراسة الحركة الوطنية فى المستعمرات البريطانية ·· وكانت تفسيراته مقبولة جدا فى أحزاب تلك المستعمرات ·· بل يلتزم بها أعضاء تلك الأحزاب ويؤيد كل فريق وجهة نظره بنصوص أقواله ·· مع أن الحزب الشيوعى البريطانى كان حزبا ضعيفا جدا لا يزيد عدد أعضائه فى أزهى عصوره عن ثلاثين ألف عضو ولم يصل أى عضو فيه الى البرلمان الا مرة واحدة وعضو واحد ·· وقد انحل هذا الحزب منذ عدة سنوات لفشله الذريع فى مواجهة مشاكل بلاده بينما لم يحل حزب شيوعى أوربى غربى آخر نفسه رغم انهيار النظام الاشتراكى ·

ومثل هذا التقديس لأراء ومقولات الأحزاب الشيوعية الأجنبية زاد من طابع تقديس النصوص والجمود لدى الشيوعيين فى العالم ·· بحيث انفصلوا فى كثير من الأحيان عن الواقع المعاصر ·· وأصبح الكثير من أدبياتهم يحوى نوعا من السرطان الذى سماه الكاتب الساخر الكبير محمود السعدنى بأنه « حنجورى منجورى » اشارة الى أنه كلام لا يفهم ولا يعى من قبل الجماهير ·

ثم ان التطبيق للأممية أدى فى بعض البلاد الاشتراكية الى تطبيق الاشتراكية على نفس النهج السوفيتى ·· وقد كان ذلك واضحا فى دول أوربا الشرقية ·· حتى أن شارات الجيش والزى العسكرى كانت صورة طبق الأصل من الزى العسكرى السوفيتى ··

وأثار مثل ذلك التقليد الأعمى المشاعر الوطنية ‏‎٠‎‏٠ وجعل الناس يسبون ويلعنون تلك الأممية ‏‎٠‎‏٠ بالاضافة الى الأضرار الناجمة عن تطبيق أساليب معينة مستوردة من الخارج لا تتفق مع الواقع القومى ‏‎٠‎‏٠

على أن فكرة الأممية قد اتخذت شكلا آخر معاكسا ‏‎٠‎‏٠ اذ جعل بعض الدول الاشتراكية تعتمد كثيرا على الاتحاد السوفيتى فى معاملاتها التجارية ‏‎٠‎‏٠ أليس هو الأب الروحى للاشتراكية وحامى حماها ؟ ‏‎٠‎‏٠ اذن فهو يتحمل عدم سداد الديون فى مواعيدها ولابد أن يبيع لنا المنتجات بأرخص من أسعار السوق العالمى الرأسمالى الكريه ‏‎٠‎‏٠

ولذلك عندما انفض الاتحاد السوفيتى وتحطم كانت هناك ديون له لدى دول أوربا الشرقية تزيد عن ثلاثين مليار دولار ‏‎٠‎‏٠ ومثلها بل ربما أكثر لدى الدول الوطنية المستقلة ‏‎٠‎‏٠ ويكفى أن سوريا مدينة له بعشرة مليار دولار لم يحصل يلتسين الوريث للاتحاد السوفيتى برئاسته جمهورية روسيا الاتحادية على مليم واحد منها ‏‎٠‎‏٠

وكانت حكومة الاتحاد السوفيتى تضحك على شعبها تارة بالدعاية عن واجبات مساعدة الشعوب الأخرى وتارة بالزعم أن تلك البلاد تورد لنا سلعا نحن فى حاجة اليها بدلا من شرائها من الدول الرأسمالية ‏‎٠‎‏٠ كى تبرر هذه التنازلات المالية الهائلة لتلك الدول الاشتراكية ٠

وليس صحيحا أن الاتحاد السوفيتى يستغل تلك البلاد فأرقام الاحصائيات فى بيانات الأمم المتحدة وما تبين بعد سقوط المعسكر الاشتراكى تكشف عن عكس ذلك تماماً ‏‎٠‎‏٠ ولا نريد ازعاج القارىء باحصائيات وبيانات ‏‎٠‎‏٠

حدثت بالفعل أحيانا خلافات جادة وشكاوى من بعض تلك الدول من صفقات أو أفكار سوفيتية بالنسبة للتعاون الاقتصادى سواء قبل الكوميكون أو فى داخله ‏‎٠‎‏٠ ولكنها أشياء عادية وتحدث ٠ ومن الطبيعى أن تحدث مثلها فى عمليات تعاون واسعة بين عالم بأسره ‏‎٠‎‏٠

ان الشكل الأساسى الذى كان يثير شعوب أوربا الشرقية الاشتراكية هو المبالغة فى تقليد النمط السوفيتى فى الاشتراكية بحيث كان ذلك يخلق جراحا قومية وشعورا قوميا مرهفا يجعل الناس تحس أنهم بلد تابع للاتحاد السوفيتى خصوصا أن قادة الأحزاب الشيوعية الحاكمة كان أغلبهم يسبح بحمد القيادة السوفيتية ليل نهار ‏‎٠‎‏٠

باعتبار أن تلك القيادة هى التى حررت أوربا الشرقية من النازية ‏‎٠‎‏٠ وبالتالى هى السبب فى وجودهم فى السلطة كما أنها هى تحميهم من أى هجمة من العالم الرأسمالى لتدمير نظامهم ‏‎٠‎‏٠

ولم تكن هناك شعوب تحب الاتحاد السوفيتي من بين شعوب أوربا الشرقية سوى شعب بلغاريا والى حد ما الشعب التشيكوسلوفاكي قبل عام ١٩٦٨ أي قبل أن تجتاح جيوش حلف وارسو تجربة الديمقراطية هناك ٠

وحب شعب بلغاريا يرجع الى أسباب قومية قديمة عندما دافعت روسيا القيصرية عنه ٠

هذا عن الأممية ٠٠ أما عن الديمقراطية ٠٠ فقد تبين بعد انهيار الاتحاد السـوفيتي أن القدر من المعلومات الذى كانت تنشره المخابرات المركزية الأمريكية عن انتهاك حقوق الانسان كان أقل من الحقيقة ٠٠ وأن معلومات مؤلف كتاب « آثرت الحرية » وأظن أن اسمه كان يافتشنكو الذى نشر عام ١٩٤٨ عن انتهاك الديمقراطية هناك كانت متواضعة جدا لما جرى ٠٠

ولا نريد الافاضة فى شرح فلسفة هذا الاعتداء على الديمقراطية فى كل البلاد الاشتراكية فقد شرحنا ذلك من قبل ٠٠

لكنا نريد أن نقول ان هذا الاعتداء قد أفقد الجماهير مبادرتها ٠٠ وفصلها تماما عن النظام الحاكم ٠٠ وأصبحت تكن له كراهية وحقداً عميقا ٠٠ وبالتالى فانها تحركت عندما استطاعت أن تتحرك ضده وأسقطته غير مأسوف عليه ٠٠

وان ذكريات ذلك الانتهاك للديمقراطية ستظل راسخة فى ضمير هذه الشعوب بحيث أنها ٠٠ لن تسمح على الاطلاق بعودة النظام الاشتراكى كما كان عليه الحال مرة أخرى ٠٠

ان الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى أوربا الشرقية قد أدركت هذه الجريمة ونتائجها المروعة ٠٠ فأعلنت رفضها لذلك الشكل الديكتاتورى من الحكم وأصبحت تؤمن بالتعددية الحزبية وحرية التعبير ٠٠ بل انها غيرت أسماءها ٠٠ ولم تعد تطلق على نفسها اسم الحزب الشيوعى بل الحزب الاشـتراكى أو حزب الشعب أو الحزب الديمقراطى لأن الاسم القديم يجلب ذكريات أليمة ومروعة فى نفوس الناس ٠٠

ولم يكن صدفة أن شعوب تلك البلاد انتزعت تماثيل لينين من أماكنها وقلبتها على الأرض ٠٠ وأنهم فى موسكو يفكرون فى حرق جثمانه وانهاء أسطورته ٠٠

لقد أصبحت تلك الأحزاب تتبنى شعارات الديمقراطية الغربية ٠٠ ولذلك فهى عندما دخلت المعارك الإنتخابيـة بعد أن هدأ الجو ٠٠ فاز بعضها كما حدث فى انتخابات بولندة منذ عامين ٠٠ وانتخابات المجر

منذ عام ٠٠ وأخيرا أيام كتابة هذه السطور فوزهم فى انتخابات بلغاريا ٠٠ ذلك لأن تلك الأحزاب تملك رؤية فى الاصلاح الاجتماعى أفضل من رؤية الأحزاب البرجوازية التى استولت على الحكم بعد سقوط النظم الاشتراكية السابقة ٠٠ ولكنها فشلت فى حل المشكلة ٠٠

فعادت الجماهير لتجربة الأحزاب الشيوعية القديمة بعد أن غيرت برامجها وحتى أسماءها ٠

خذ عندك مثلا آخر من أخطاء التطبيق الاشتراكى ٠٠ موقف السلطات الحاكمة من الأحزاب الحليفة معها فى جبهة واحدة ٠٠ اذ حدث فى بلاد مثل المجر والمانيا الديمقراطية ان كان الحزب الشيوعى يحكم ومعه أحزاب حليفة له ٠٠ وهو يتمتع بموقع القيادة فى تلك الجهة ٠٠

لقد كان الحزب الشيوعى فى تلك الجبهات يعمل فى الحقيقة على اضعاف تلك الأحزاب ويحاصر نشاطها ويحول دون ازدياد قوتها بشتى التدابير كعدم السماح بتوظيف أعضائها الا فى حدود نسب معينة مثلا ٠٠ وعدم منح أى حزب موقعا وزاريا هاما ٠٠ والزامها جميعا بموجب مواثيق الاتفاق بالدفاع والالتزام بالنظام الاشتراكى أى لا معارضة له ٠٠ والا اعتبرت عميلة للغرب ٠٠

ولذلك كانت كل هذه الأحزاب أحزاب مغلوبة على أمرها ٠٠ وتمارس نفاقا سياسيا ٠٠ وعندما سنحت الفرصة كانت أول من انقلب على النظام وأطاح بالحزب الشيوعى بالتعاون مع الغرب والشرق وأى حليف ولو فى المريخ ٠٠

ومن أخطاء التطبيق أيضا ٠٠ الموقف من الدين ٠٠

رغم أن الدستور السوفيتى مثلا ينص على حق الانسان فى ممارسة الحرية الدينية والحرية اللادينية ٠٠ وعدم معاملة الناس فى النظام الاشتراكى على أساس من الدين أو الجنس أو اللون ٠٠

فالمفروض أن حرية الممارسة الدينية كانت تطلق على مصراعيها ٠٠ الا أن الدولة فى الحقيقة كانت تمارس اضطهادا للمتدينين بطريقة خفية ٠٠

صحيح أن الناس يمكن أن تتجه للمساجد والكنائس ٠٠ لكن الدولة لا تتوسع فى بناء أماكن المعابد وتركت ذلك للأفراد لتأسيسها ٠٠

ولكن الأهم هو عدم اعطاء المتدينين مناصب أساسية أو هامة فى الحكم ٠

لم يكن هناك مراكز دينية مرموقة غير المفتى ٠٠ والبطريرك ٠٠ لكن لا وظائف مدنية رئيسية ٠٠

كما أنه لم يكن مسموحا بممارسة الحج على نطاق واسع ٠٠ وكان مضحكا أن يكون عدد الحجاج من بلد فيه ٥٠ مليون مسلم خمسة وعشرون حاجا كل عام أو ثلاثين على الأكثر ٠٠

وطبعا لم يكن مسموحا بأن يوجد أى نشاط دينى سياسى ٠٠

وقد أثبتت تجربة سقوط الاشتراكية خطأ تصور البعض أنه يمكن القضاء على الدين أو انهاء وجود عقائده ٠٠ ان الدين ركن أساسى من معتقدات أغلب بنى الانسان فهو شيء لصيق تماما بتغير وجوده وكيانه ٠٠ ومصيره وآخرته وتفسيره لهذا الكون المجهول الذى نعيش فيه ٠٠

وقد كان عبثا فى عبث كل ما فعلته النظم الاشتراكية لقهر الدين أو تقليص تأثيره ونفوذه ٠

انه كان مفهوما أن تمنع هذه النظم النشاط السياسى الدينى ٠٠ لكن كان عليها أن تطلق حرية ممارسة الاعتقاد تماما ٠٠ ولا يؤثر ذلك فى شغل الوظائف أو المراكز ٠٠

وذلك أيضا ساعد فى انعزال النظام عن جماهيره ٠٠

ومن بين أخطاء التطبيق أيضا أن الاتحاد السوفيتى وقد تملكه الخوف الشديد من اشعال حرب عالمية ثالثة قد بالغ فى تقديم مساعداته لدول العالم الثالث بطريقة ساعدت على افقار الشعب السوفيتى ٠٠ وحذت حذوه الدول الاشتراكية الأخرى ٠٠

وهذه الدول بالفعل شكلت معه فى هيئة الأمم المتحدة جبهة عالمية واسعة ضد مشروعات الاستعمار لاثارة مثل تلك الحرب ٠٠ ولكن القضية الرئيسية هى أنه لم يكن بوسع الاستعمار بعد أن وصل الاتحاد السوفيتى الى مرحلة قوية من ناحية التسلح علاوة على تحول الصين الى دولة اشتراكية لم يكن الاستعمار قادرا على اثارة مثل تلك الحرب لأنها فى جميع الأحيان كانت تعنى فناءه ٠ ومن الأفضل للاستعمار طبعا أن يبقي تحت سيطرته نصف العالم أو ثلثاه بدلا من اندثار كوكب الأرض كله ! ٠٠

والحقيقة أن الولايات المتحدة والغرب عمـوما كانا بارعين براعة منقطعة النظير فى التكتيك الذى اتبعه مع الاتحاد السوفيتى بشأن مسألة الحرب ٠٠ وساعد على ذلك الاعتقاد النظرى الجامد لدى أغلب الشيوعيين أن الرأسمالية لابد أن تشن حربا تفاديا لانتشـار الاشتراكية الحتمى وغمرها كل الأرض ٠

خطأ نظرى ٠٠ ترتب عليه خطأ نظرى آخر ٠٠

الخطأ الأول حتمية انتشار الاشتراكية فى العالم كله أى « جايه جايه » كما كنا نقول ونحن غلمان متحمسون ..

الخطأ الثانى أما وأن الاشتراكية حتمية والاستعمار لا يمكنه الاستسلام لمصيره هذا .. فانه لابد من أن يشعل حربا يائسة كى يتفادى هذه الكارثة ..

ورغم أن بعض الزعماء الشيوعيين كانوا يصرحون أحيانا بامكانية تفادى الحرب وانتصار شعار التعايش السلمى .. الذى استبسل خروشوف بالذات فى تأكيده ونشره .. وطرح فكرة التنافس السلمى بين النظامين ..

الا أن اليقين بقيام الحرب كان موجودا .. ولذلك اندفع الاتحاد السوفيتى وكل الدول الاشتراكية فى سباق محموم للتسلح جرهم اليه الغرب من أجل خرابهم الاقتصادى ..

وقد كان رونالد ريجان أستاذا عظيما فى تطبيق هذه السياسة خصوصا عندما اخترع حكاية « حرب الكواكب » اذ أصيب القادة السوفيت بجزع شديد بعد أن تبين لهم أن سياستهم العسكرية القائمة على الضربة الجوابية ضد دول الغرب وخاصة أمريكا اذا بدأت بالعدوان ستفشل تلك الضربة بالصواريخ المضادة التى سيطلقها الأمريكيون ضدها وبالتالى فان المعسكر الاشتراكى سيخسر الحرب لا محالة بعد تدميره ! .

لقد كان خروتشوف يقول أنه يكفى أن يكون لدى الدولة قنابل ذرية تدمر العالم مرة واحدة ولا ضرورة لسبع مرات كما تخزن أمريكا مثل تلك القنابل ..

ولكن لم يطبق القادة السوفيت هذه السياسة .. بل مضوا فى التسلح حتى الأسنان وما كانت لديهم القدرة الاقتصادية التى لدى الولايات المتحدة وما كانت تحدث لاقتصادهم أى انتعاشات نتيجة انتاج السلاح كما كان يحدث للولايات المتحدة اذ أن احتكارات السلاح كانت تربح الملايين وتساعد على حل تناقضات النظام الرأسمالى من بطالة وضعف فى القوة الشرائية .

ولذلك اندفع جورباتشوف بعد ذلك فى طريق التسليم بمطالب الولايات المتحدة فى عملية نزع السلاح وتحدث كثيرا عن ضرورة توجيه القوى نحو حماية الكرة الأرضية من أخطار البيئة .. الخ ..

وسلم بمطالب أمريكا بالنسبة لكف عن التعاون مع الدول المستقلة حديثا وحركات التحرير الوطنية ..

لقد كان يريد السلام بأى طريقة لتوفير نفقات ينفقها على الاصلاح الاقتصادى والنهوض بالبلاد بعد الخراب الاقتصادى الذى أحس به وشيكا من التقارير التى كانت تصله ومما كان يراه من تقدم فى البلاد الرأسمالية بينما الاقتصاد الاشتراكى يتراجع ..

ورأى النهاية أمام عينيه عندما بدأت دول أوربا الشرقية فى السقوط كأوراق الخريف .. وقد هزته ولا شك أحداث بولندة .. التى كانت أول باكورة فى تفسخ وانهيار النظام الاشتراكى منذ بداية الثمانينات ..

ولكن عملية الاصـلاح جاءت متأخرة .. ولم يستطع أن يجد حلا فانهار كل شىء ..

ومن المؤكد أن جورباتشـوف فشـل تمـاما كسياسى فى مواجهة الخراب والدمار الذى كان ينتظر بلاده .. ولعل أعظم أخطائه أنه بدأ بالاصلاح السياسى كما يسـمونه .. عندما أطلق الحريات لشعب كان مكبوتا لسبعين عاما فانفجر الناس يتكلمون ويتكلمون ويثرثرون ..

وانتعش خصـــوم النظام من الداخل والخارج .. وبدأت معاول الهدم .. والثرثرة أعاقت الناس عن الانتاج .. بعد أن اهتزت قيم كل شىء .. وانهارت المثل .. وانكشفت الخديعة ..

وعندما قل الانتاج ازداد الاتجاه نحو الانهيار .. ونجح خصـوم النظام فى الداخـل والخارج فى التعجيل بهـذا الانهيـــار وأصـــبحت البيروسترويكا هى « الكارثة ستروسكا » .. كما سماها بحق الكاتب الكبير كامل زهيرى ..

ولعل ذلك هو الذى جعل الصـــينيين يتعلمون من رأس الذئب الطائر .. اذ عندما أراد الليبراليون من الطلبة انتزاع حريات سياسية على الطريقة الغربية منعتهم السلطات وحمقتهم بالجيش ..

ذلك لأن القيادة الصينية المحنكة أدركت أن ذلك سيقود البلاد الى كارثة .. اذ سينغمس الناس فى خلافاتهم السـياسية والقومية .. ويتوقفون عن الانتاج .. والصين عدد سكانها مليار ومائة مليون . ماذا سيحدث اذا جاعوا شردوا .. انهم سيأكلون بعضهم بعضا .. وستنقسم البـلاد الى كانتونات واقطاعيات كما كان الأمر أيام أمراء الحرب قبل الثورة .. ويتربص الأمريكيون واليابانيون والانجليز لهذا البلد الكبير فسيعملوا على السيطرة عليه بعد اقتسامه ..

لذلك هم فضلوا أن يجرى التحول نحو الرأسمالية بقيادتهم هم وهم ممسكون بمقاليد الأمور بيد من حديد .. حتى اذا ما نمى الاقتصاد واستقر .. لم يعد هناك خطر مجاعة أو تفتت وانقسام ..

بل انهم بدءوا التوسع فى اتجاه الرأسمالية فى الأجزاء اللصيقة بهونج كونج التى سيتسلموها من انجلترا بعد عامين ..

ولذلك استطاعوا المحافظة على وحدة الصين واستمرارها كدولة كبيرة بينما عجز جورباتشوف وأصدقاؤه عن تحقيق هذا .. مما فتح الباب لتأويلات وتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان .. كاتهام جورباتشوف بأنه عميل للولايات المتحدة كانت مهمته تصفية الاتحاد السوفيتى .

ومثل هذا الكلام هو نوع من العزاء وخداع النفس لدى أنصار الاشتراكية الذين لا يريدون الاعتراف بأخطاء النظرية وتطبيقاتها التى أوضحنا بعضها أو أساسياتها .. والظروف الموضوعية التى كانت تحتم هذا الانهيار .

اذ كيف يمكن لشخص واحد أن يهدم عالما بأسره ..

وأين الحزب الشيوعى الذى كان عدد أعضائه ٢٥ مليون عضو .. أين مقاومته لسياسة جورباتشـــوف .. ان كثيرين من الخونة والعملاء كشفهم ذلك الحزب والنظام فكيف يعجز عن كشف جورباتشوف الذى كان يلعب على المكشوف ان الحزب نفسه فى معظمه كان يؤيد سياسته .. ولم يبدو معارضة تذكر رغم أن جو الحريات كان متوفرا كى تظهر مثل تلك المعارضة ..

ولقد عجز الحزب الشيوعى السوفيتى عن اقامة تلك المعادلة الصعبة .. كيف يمكن العدول عن المسار الاشتراكى مع الاحتفاظ باستمرارية وجود الدولة السوفيتية الموحدة ..

وطبعا يالتسين كان يتربص بجورباتشوف .. وكان هو أكثر ادراكا منه لفشل التجربة الاشتراكية كلها .. وأكثر ايمانا بعبث الاستمرار فيها .. ولذلك عجل على المكشوف بانهيارها وساعده محاولة الانقلاب المهترئة التى قام بها بعض القادة السوفيت اليائسين ..

ثم ما الذى يدفع زعيم الدولة الكبرى « الندية » للولايات المتحدة أن يكون عميلا لدولة أخرى .. وهو الذى يملك سلطات تفوق سلطة رئيس أمريكا نفسه . ويمكن أن يكدس أموالا اذا أراد .. الخ ..

هذا تبسيط مخل لما حدث فى الاتحاد فى الاتحاد السوفيتى ..

ولا شك أن جورباتشوف فى نهاية عصره .. كان ينهار هو الآخر بسرعة وبطريقة استسلامية مقززة .. وأثارت سخط الكثيرين عليه .. وجعلته هدفا للاتهامات .. ولكنه كان واضحا أنه عاجز عن عمل أى شئ

وأفلتت الخيوط كلها من بين يديه ولم يعد زعيما وما كان في الأصل زعيما ·· وفر أغلب الشيوعيين من السفينة واتجهوا اتجاهات شتى وبعضهم أصبح فاشيا عريقا ··

لقد انهارت الأحلام والآمال العظام ·· والتصورات عن تخليص البشرية وبناء جنة فى الأرض ·· وظهر أن كل ذلك سراب ·· وأن العدو الذى ظللنا نحاربه عشرات السنين أصبح أقوى منا بل نحن نمد أيدينا له ليطعمنا ويكسونا بالكساء ·· ويطعمنا بالغذاء ·· ويغمرنا بثقافته وتنتشر كوادره فى جميع نواحى حياتنا بدعوى اصلاحها ·· ونحن عاجزون ··

هذه هى نفسية أى كادر شيوعى فى الحزب الشيوعى السوفيتى ·· خصوصا وهو يرى القوميات التى زعموا له طوال حياته انها أصبحت متآخية تفر وتتصادم وتتحارب وتتقاتل على أشبار من الأرض ··

أين التآخى الذى تأتى به الاشتراكية اذن ؟ ·· كيف يمكن تصور تضحيات البشر بدخولهم من أجل سعادة الآخرين فى المجتمع الشيوعى ؟ ·· أحلام ·· أضغاث أحلام ··

ولابد أن ملاحم ستكتب عن هذه التجربة يوما ·· بل بدأت كتابتها فعلا وتظهر تباعا منذ ست سنوات فى أفلام ومسرحيات ·· ولكننا هنا فى الشرق بعيدون عنها كثيرا ·

أين ذلك الحلم ·· من عصابات المانيا التى ستتحكم فى كل شىء فى روسيا الآن ·· والمخدرات ·· وتجارة الجنس ·· فى بلد كان يمنع دخول مجلة جنسية مع أى زائر ·· ولم تكن فى موسكو كباريهات ولا مواخير ·· كان البغاء شيئا سريا ومعاقبا عليه ·· ثم أصبح ظاهرا وفاجرا بالاتجاه نحو الرأسمالية ··

كان جورباتشوف يقول : كان النمط الستالينى نظاما ارتكب العنف ضد المجتمع وحرف أفكار الاشتراكية وأفسدها ·· واعتقد أن النموذج الستالينى ميت الآن ·· ولابد من أن أضيف القول : « حمدا لله » ··

ولكنه عجز عن أن يقدم نموذجا آخر ·· ولا حتى نموذج الاشتراكيين الديمقراطيين ·· وانما حطم كل شىء ·· حتى القيم والأخلاق ··

لأنه هو نفسه عجز عن ادراك ظروف عصره والاحاطة بها ·· ولم يستطع هو ولا الأحزاب الشيوعية أن تكون شيوعية فى عالم متغير ··

الخاتمـــة ..

ان النظرية ليست فى الحقيقة الا منهجا للتفكير والعمل السياسى .. وما دامت منهجا فانه يجب أن تكون لكل اشتراكى شجاعة تغيير بعض المبادىء التى لا تتفق مع الواقع ..

هل الطبقة العاملة فى العالم اليوم هى نفس الطبقة العاملة أيام القرن التاسع عشر ؟! ..

انها تغيرت فى أغلب البلاد من حيث التكوين والظروف المعيشية .

هل كانت هناك أسلحة ذرية أيام بزوغ الاشتراكية تهدد العالم بالفناء ؟ ..

هل كانت موجة الديموقراطية عميقة وقوية بهذا الشـــكل الذى نراه الآن .

هل كانت هناك ثورةاتصالات كالتى نعيشها الآن ؟

هل كانت معظم دول العالم مستقلة كما هو حاصل اليوم ؟ ..

هل رأسمالية اليوم كرأسمالية القرن التاسع عشر ..

أين الأزمات الاقتصادية الطاحنة بعد أزمة ١٩٣٠ ؟!

ألم تجدد الرأسمالية نفسها ؟ ..

هل كان هناك كومبيوتر وغزو للفضاء فى القرن ١٩ ... وما يحدث نتيجة وجودهما من تطور خطير فى العالم ..

لا شك ان انسان العصر الحالى .. مختلف كثيرا عن انسان القرن ١٩ .. وآماله وأحلامه ونظرته وتـــكوينه واســـتهلاكه .. تغير منها الـــكثير ..

ان المبادىء النظرية عن الحركة المستمرة ٠٠ والتناقض بين الظواهر والترابط بينها ٠٠ والتطور الكمى والكيفى ٠٠ كل عناصر ذلك المنهج الجدلى للتفكير والبحث تؤكد الأيام صحتها ٠٠ ولو أنها اتبعت لأمكن نبذ الأفكار الماركسية الخاطئة ٠٠ واستقبال بعض ما أفرزته الرأسمالية من أفكار استقبالا موضوعيا ٠٠ والأخذ بها ٠٠

ولقد ذكرنا من قبل أن كثيرا من الاشتراكيين الديمقراطيين فى العالم كانوا ينقدون الاشتراكية التى كانت مطبقة فى البلاد الاشتراكية ٠٠ ويقولون أنها كانت تخالف أفكار الاشتراكية العلمية ٠٠

وقد بينا ان الاشتراكيون الديمقراطيون يرفضون تماما الغاء الرأسمالية بكل صورها وديكتاتورية الطبقة ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠٠

بل ان بعض زعماء العالم الثالث كانوا يرفضون هذا الالغاء أيضا ويدعون فقط الى تأميم الشركات الأجنبية والمحلية الكبرى ٠٠ ولكنهم كانوا للأسف ذوى نزعة ديكتاتورية ولم يتحقق لنظمهم البقاء طبعا رغم أنهم كانوا أبعد نظرا من الشيوعيين وأقرب الى تفكير الاشتراكيين الديمقراطيين الذين أثبتت الأيام أن وجهة نظرهم كانت أقرب الى الصحة من وجهة نظر الشيوعيين فى أمرين بالذات : الملكية العامة لوسائل الانتاج والديمقراطية ٠٠

والآن ٠٠ هناك بعض الأسئلة التى يطرحها التطور الجديد فى العالم ٠٠

وأول سؤال هو هل يعنى ما حدث أن النظام الرأسمالى نظام أبدى ؟ ٠٠

الاجابة لا يستطيع أحد أن يحكم بأبدية أى نظام أو مذهب ٠٠ فالرأسمالية والاشتراكية هى مجرد أفكار انسانية أفرزها المخ الانسانى عبر التاريخ فى ظروف معينة ٠٠

ثم ان الرأسمالية التى نتحدث عنها الآن غير الرأسمالية التى كانت موجودة فى القرون القليلة السابقة ٠٠

ان رأسمالية اليوم يمكن وصفها بأنها معدلة ٠٠ وللدكتور المصرى فؤاد مرسى عالم الاقتصاد والدستور كتاب ممتاز بعنوان « الرأسمالية تجدد نفسها » ٠٠

ثم ان الاشتراكية كما كنا نعرفها ثبت فشلها ٠٠ وهناك أفكار ومذاهب اشتراكية أخرى متنوعة ٠٠

وهناك من يبحثون عن طريق ثالث ويقولون أنه يمكن عمل توليفة من أحسن ما تضمنته الاشتراكية من أفكار عن العدل الاجتماعي وعن أحسن ما في الرأسمالية من حرية سياسية واطلاق للحافز الفردى فى الانتـاج ..

وهذا نهر البحث عن المعرفة لن يتوقف .. ومن الصعب أن يتنبأ بشيء محدد ..

لكن الشيء المؤكد هو أن هناك زحفا بشريا عاما فى اتجاه الديمقراطية حتى لتوشك الديمقراطية أن تكون مذهب الانسانية الجديد .. وطالما تنمو الديمقراطيـة وتتوسـع فان الأفكار ستترعرع وتزدهر والخبرة التاريخية ستؤكد سلامة البعض .. وخطأ البعض الآخر ..

فالضمان الوحيد اذن لترسو البشرية على شـاطىء أو بالأحرى شواطىء متعددة لتحقيق السعادة والتقدم هو ممارسة الديمقراطية .. فلم يعد هناك المذهب المطلق الوحيد الذى يحقق السعادة للانسان فى كل زمان ومكان بعد التجربة المريرة للنظام الاشتراكى الذى جمده أصحابه فى قوالب جلبت لأصحابه الدمار ..

والآن انتصار الرأسمالية على الاشتراكية .. هل أصبحنا فى عالم القطب الواحد فعلا حيث تنفرد دولة كبرى واحدة بالكلمة العليا فى تقرير مصيره ..

هذا صحيح .. فقد تلاشى التناقض بين القطبين بضعف أحدهما وفشل وانكسار نظامه .. وهو القطب الاشتراكى ..

على أن انفراد الولايات المتحدة بالسيطرة على مصير العالم ليس أبديا .. فقد فشلت محاولة هتلر من قبل .. وفشلت أحلام الشيوعيين بذلك وفى عصر الديمقراطية الحالى لا سبيل لاستمرار تلك الوحدانية طـويلا ..

أضف الى ذلك أن المجال مفتوح الآن لعصر الكتل الاقتصادية الكبرى .. والشرق الأقصى .. أوربا .. أمريكا وكندا ..

وستخلق منافسة فيما بينها .. وستتناقض المصالح .. الى الحد الذى يحد من انفراد الولايات المتحدة . بالسيطرة على مصير العالم ..

لكن هذه السيطرة ستستمر طويلا .. اذ ستظل القوة العسكرية الأولى .. والقوة الاقتصادية الأولى .. الى أن تنمو الكتل الأخرى ويصبح لها نفوذ وكلمة ..

وسيظل التناقض يحكم العلاقات بين الولايات المتحدة وحلفائها من جانب ٠ والعالم النامى من جانب آخر ٠٠ ويمكن ازالة ذلك التناقض أو تخفيفه بقدر ما يتقدم ذلك التحالف العالمى الهائل فى طريق التطوير الاقتصادى للعالم النامى المتخلف ٠٠

واذا كانت الولايات المتحدة تنفرد وبالسيطرة على مجريات الأمور فى العالم وانتصرت بسهولة جدا على النظام الاشتراكى الذى انهار دون طلقة مدفع واحدة ٠٠ ولم يستطع حتى أقطابه أن يجروا مساومة تاريخية كبرى ليقبضوا الثمن المناسب لانقاذهم العالم من احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة ٠٠ والتكاليف الباهظة التى كانت ستستنفدها ٠٠

فان أمريكا لا تريد اندثار الاتحاد السوفيتى بعد الآن ٠٠ انها تريده أن يكون قوة فى أوربا حتى لا تنفرد أوربا الغربية بالقوة خالصة من أى منافس آخر ٠٠ ولكن تريده قويا متماسكا فى حدود ٠٠ وقبل كل شىء متخلصا من أنيابه الذرية حتى تضمن السلامة المطلقة ٠٠

وبلاد العالم الثالث لا يسهل أمامها فى عالم كهذا الا أن تحاول التجمع سياسيا واقتصاديا ٠٠ حتى تكون لها كلمة فى تحديد مسار تطورات الأحداث العالمية ٠٠ ولا تترك الآخرين يقررون لها مصيرها ٠٠ ونحن أمامنا فى العالم العربى طريق طويل كى يكون لنا مكانة فى النظام العالمى الحالى والمستقبلى ٠

ولا سبيل لتحقيق هذا التجمع الا بالتشبث بذلك المذهب البشرى القديم الجديد ٠٠ وهو الديمقراطية ٠٠ الديمقراطية أبدا ٠٠

عبد الســـتار الطويل
القاهرة ٢٨ ديسمبر ١٩٩٤

كتب للمؤلف

أوربا والعدوان الاسرائيلى
اليســـار الأوربى
حرب الســاعات الســت
رفض الرفض
ماذا يريد العقيد القذافى من مصر
الســـادات فى اسرائيـــل
اسرائيل بعيون مصرية
أزمـــة اليســـار المصرى
أفغانســـتان الحقيقة والمســـتقبل
ثورة بعد سبعين عاما من الثـــورة
شركات توظيف الأمــوال
أزمــة الخليج
النور فــوق مصر
الســـادات الذى عرفته
أمراء الارهـــاب
القــذافى ومصر : الممكن والمســـتحيل
من السادات الى عرفات فى اسطبل داوود
الانسان الأوربى فى الجد واللعب
المعجزة الألمانية الحقيقة
فلاح من سنتريس فى باريس

دليل المسافر الذكى الى أوربا
الرجل الذى يعدو (رواية)
يسوع المسـيح أسمى النجوم (مسرحية مترجمة)
سـقوط الحلم الشـيوعى

للكاتب تحت الطبع :

ارهابيون فى كل مكـان
مقدمة كتاب « رسائل زوجة معتقل » لسميرة سعيد رفاعى

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4257 — 3



أخطر حدث سياسى فى نهايات القرن العشرين كان إنهيارالنظام الاشتراكى وتفكك الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية.. وإتجاه الصين إلى الرأسمالية..

وبذلك سقط حلم ماركس وانجلز ولينين فى إقامة مجتمع شيوعى يسود البشرية جميعاً.. وترتب على ذلك نتائج خطيرة انعكست على كل شعوب العالم بما فيها عالمنا العربى وعلى كل الطبقات الشعبية التى حلمت بالسيادة والرخاء..

لماذا حدث السقوط.. والتفكك والإنهيار.. وما هو مستقبل العالم.. هل الرأسمالية هى نهاية الطريق..

عندما طلبت الهيئة من المؤلف الإجابة على كل تلك الأسئلة كان ذلك لمعرفة القارئ بأسلوب الكاتب الموضوعى المعتاد.. وقدرته على تبسيط أعقد النظريات السياسية والاقتصادية.. وأمانته فى العرض.. وبالتالى كانت تلك المحاولة لتقديم صورة لما حدث.. ولماذا حدث!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠٠٠ قرشاً

تصميم الغلاف احمد عبد الغفار